

العقيدة عام (٣)

IAQD3033



المحتويات

(منهج أهل السنة والجماعة في مسألة القضاء والقدر)

عناصر الدرس

معنى القضاء والقدر والأدلة على وجوب الإيمان به، ومراتبه

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن والاه، أما بعد:

أولًا: معنى كلمتي القضاء والقدر:

أ. تمهيد حول المنهج الصواب في هذا الباب:

اخترتُ أن يكون حديثي في النقطة الأولى أن يكون تمهيدًا حول المنهج الصواب في هذا الباب؛ لأنني -قبل أن أتكلم حول هذا الموضوع- أود أن أشير إلى منهج أهل السنة عمومًا في مسائل الاعتقاد، ومنها هذه المسألة العظيمة، وكيف أن الناس حينما يختلفون لا يختلف سلف هذه الأمة، بل يسلكون الحق والصوابَ.

وتُعجبني هنا كلمات قالها الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في هذا الموضوع في مقدمة كتابه (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) وهو كتاب خاص بهذه المسائل، وعلى طالب العلم أن يهتم بمثل هذه الكتبِ -أعني: كتب السلف الصالح رحمة الله تعالى عليهم- لأنهم يبينون من خلالها المعتقد الصحيحَ الذي عليه أهل السنة والجماعة.

ب. معنى القضاء:

القضاء: هو الفصل والحكم، وقد تكرر في أحاديث الرسول ﷺ ذكر القضاء، وأصله: القطع والفصل، يقال: قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ إذا حكم وفصل، وقضاء الشيء: إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون إذًا بمعنى الخلق.

وقال الزهري -رحمه الله تعالى- : القضاء في اللغة على وجوهٍ مرجعها إلى انقضاء الشيء وتمامه، وكل ما أحكم عمله أو أتم، أو أدي، أو أوجب، أو علم، أو نفذ، أو أمضي، فقد قضي، وقد جاءت هذه الوجوه كلها التي ذكرتها في الأحاديث الواردة في القضاء والقدر، وسيأتي ذكر طرف منها إن شاء الله تعالى.

ج. معنى القدر:

أما الكلمة الثانية فهي القدر، وتعريف القدر لغةً: القدر مصدر، تقول: قدرت الشيء -بتخفيف الدال وفتحها- أقدرها -بالكسر والفتح- قدر وقدر بالتحريك: إذا أحطت بمقداره، والقدر في اللغة: القضاء والحكم، ومبلغ الشيء، والتقدير: هو التروية والتفكر في تسوية الأمر، والقدر في الاصطلاح: ما سبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه ﷻ قدر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعَلِمَ ﷻ أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حساب ما قدَّره.

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في تعريف القدر: "المراد أن الله تعالى علم مقاديرَ الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته".

وقال السفاريني -رحمه الله تعالى- : "القدر: إيجاد الله الأشياء على قدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها وأحوالها، طبقَ ما سبق في العلم وجَرَى به القلم".

وهذه التعريفات كلها متقاربة فيما بينها، وهي تفيد أن القدر يشمل أمرين:

الأول: علم الله الأزلي الذي حكم فيه بوجود ما شاء أن يوجده، وحدد صفات المخلوقات التي يريد إيجادها، وقد كتب كل ذلك في اللوح المحفوظ بكلماته؛ فالأرض والسماء أحجامهما وأبعادهما وطريقة تكوينهما، وما بينهما، وما فيهما، كلُّ ذلك مدون علمه في اللوح المحفوظ تدوينًا دقيقًا وافيًا.

الثاني: إيجاد ما قدر الله إيجاده على النحو الذي سبق علمه، وجرى به قلمه، فيأتي الواقع المشهود مطابقًا للعلم السابق المكتوب.

والقدر يطلق ويراد به التقدير السابق لِمَا في علم الله، ويطلق ويراد ما خلقه وأوجده على النحو الذي علمه.

والقدر عمومًا يدل بوضعه كما يقول الراغب الأصفهاني -رحمه الله تعالى- فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني -رحمهما الله تعالى- قال: القدر يدل بوضعه على القدرة، وعلى المقدور الكائن بالعلم، فلله تعالى القدرة المطلقة، وقدرته لا يعجزها شيء، ومن أسمائه -تبارك وتعالى-: القادر، والقدير، والمقتدر.

هذه من أسماء الرب -تبارك وتعالى.

والقدرة صفة من صفاته ﷻ وهي من صفات الذات، فالقادر إذًا اسم فاعل من: قدر يقدر، والقدير: فعيل منه، وهو للمبالغة، ومعنى القدير: الفاعل لما يشاء على ما قدر، وما قدر حسبما تقتضيه الحكمة، لا زائدًا عليها ولا ناقصًا عنها، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله ﷻ، أعني: القدير- قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]. والمقتدر: مفتعل من اقتدر، وهو أبلغ من قدير، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [القمر: ٥٥] وقد سئل الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- عن القدر فقال: "القدر قدرة الله -تبارك وتعالى-".

د- هل هناك تفرقة بين القضاء والقدر؟

للعلماء في التفرقة بين القضاء والقدر قولان:

الأول: القضاء: هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر: وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق.

يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: قال العلماء: القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر: جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله. وقال في موضع آخر: القضاء: الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر: الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل.

القول الثاني: في التفرقة بين القضاء والقدر عكس القول السابق، فالقدر: هو الحكم السابق، والقضاء: هو الخلق. قال ابن بطال -رحمه الله-: القضاء: هو المقضي، ومراده بالمقضي هنا المخلوق، وهذا هو قول الخطابي -رحمه الله- فقد قال في (معالم السنن): القدر: اسم لما صار مقدرًا عن فعل القادر كالهدم والنشر والقبض، أسماء لِمَا صدر من فعل الهادم والناشر والقابض، والقضاء في هذا معناه: الخلق، كقوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢] أي: خلقهن.

وبناءً على هذا القول يكون القضاء من الله تعالى أخصَّ من القدر؛ لأنه الفصل بين التقديرين، فالقدر هو التقدير، والقضاء: هو الفصل والقطع.

ويدل لصحة هذا القول نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٢١] وقال: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١] وقال: ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٤٧].

فالقضاء والقدر بناءً على هذا القول أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فَمَن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه، ولذلك دائمًا العلماء يقولون: القضاء والقدر؛ لأنهما متلازمان كما ذكرت.

ثانيًا: وجوب الإيمان بالقضاء والقدر والأدلة على ذلك:

أ- أدلة القرآن الكريم:

القرآن الكريم ذكر في مواطنَ متعددة القدر، ووجوب الإيمان به؛ لأن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، والنصوص المخبرة عن قدر الله أو الآمرة بالإيمان بالقدر كثيرة، وقد صرح بها الكتاب العزيز في نحو مائة آية؛ فمن ذلك قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] وقوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤] وقال أيضًا: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وقال سبحانه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١- ٣] وقال ﷻ: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧].

فتجد هذه الآيات وفي غيرها كثير إثبات لقدر الله ﷻ أو أمر بالتسليم للقدر.

ومن الآيات الدالة على القدر أيضًا: ما ورَدَ من آيات المشيئة والإرادة في القرآن الكريم؛ لأن المشيئة مَرتبة من مراتب القدر، وذلك مثل ما ورد في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣] وكقول الله -جل ذكره-: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وكقوله ﷻ في الإرادة: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ب. أدلة السنة:

ومن أدلة السنة النبوية على ذلك -أعني: على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر- أيضًا أحاديث كثيرة: ففي (صحيح مسلم) من حديث عمر بن الخطاب > في سؤال جبريلَ # الرسول ﷺ لما جاء وسأله عن الإيمان، وعن الإسلام، وعن الإحسان، ولما أجاب النبي ﷺ جبريلَ عن الإيمان، قال: ((أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، وتؤمن بالقدر خيره وشره)) فذكر هذا من أصول الإيمان ومن أركانه.

وروى مسلم أيضًا في صحيحه عن طاوس قال: أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: "كل شيء بقدر" قال: وسمعت عبد الله بن عمر } يقول: "كل شيء بقدر حتى العجز والكيس".

وأخرج مسلم والترمذي عن عمرو بن العاص > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((كتب الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء)).

كما أخرج أبو داود والترمذي من حديث عبادة بن الصامت > أنه قال لابنه عند الموت: "إنك لن تجد حقيقةَ الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقومَ الساعة))، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَن مات على غير هذا فليس مني))".

وروى مسلم أيضًا عن أبي هريرة > قال: "جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر، فنزلت هذه الآية: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٨، ٤٩]".

والنصوص في ذلك كثيرة جدًّا، فإن النصوص الدالة على علم الله وقدرته ومشيئته وخلقه تدل على قدره -تبارك وتعالى.

فالقدر إذًا يتضمن الإيمان بعلم الله ومشيئته وخلقه، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى، وذِكر كثير من النصوص الدالة على ذلك.

ثالثًا: مراتب القدر وأدلتها

يجب أن تعلم -أولًا- أن مراتب الإيمان بالقضاء والقدر -التي مَن لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر- أربعة:

المرتبة الأولى: علم الرب ﷻ بالأشياء قبل كونها.

المرتبة الثانية: كتابته لها قبل كونها.

المرتبة الثالثة: مشيئته لها.

المرتبة الرابعة: خلقه لها.

هذه هي المراتب الأربع بادرت بذكرها الآن مشتملةً مجتمعةً، ثم بعد ذلك سأتحدث عن كل مرتبة منها بشيء من التفصيل والبيان، مع ذكر الدليل عليها:

المرتبة الأولى: علم الله بالأشياء قبل كونها

والعلم السابق قد اتفق عليه الرسل -أعني: علم الله ﷻ من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليه جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة ولم يخالف في ذلك إلا مجوسُ هذه الأمة، والله ﷻ قد ذكر في كتابه الكريم ما يدل على علمه الواسع المحيط بكل ما كان، وبكل ما سيكون، وبكل ما لم يكن لو كان كيف يكون، بتفصيلاته وما إلى ذلك.

ومن الأدلة القرآنية على ثبوت علم الله ﷻ السابق لجميع الأشياء قبل كونها: ما قاله ﷻ في رده على الملائكة حينما قال لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] تأمل الآية: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال مجاهد -رحمه الله-: عَلِمَ من إبليس المعصية وخلقه لها، وقال قتادة -رحمه الله-: كان في علمه أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل، وقوم صالحون، وساكنو الجنة، وقال ابن مسعود >: "أعلم ما لا يعلمون من إبليس"، وقال مجاهد: علم من إبليس أنه لا يسجد لآدمَ.

وقال تعالى في إثبات علمه السابق لكل شيء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي (الصحيحين) عن أبي هريرة > قال: ((ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها، قالوا: يا رسول الله، أفرأيتَ مَن يموت منهم وهو صغير؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين)).

وهذا هو الشاهد من هذا الحديث، وهو أن النبي ﷺ أخبر بأن الله ﷻ يعلم أزلًا ما العباد فاعلون؟ قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين)).

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]. تأمل هذه الآيات كلها فيها إثبات العلم لله ﷻ وعِلْم ينص على أنه علم سابق، ويُفهم ذلك من صيغ هذه

الآيات. ونظيره قوله -تبارك وتعالى- : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤] وقريب منه قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١].

حيث وضَعْنا هذا التخصيص في المحل الذي يليق به من الأماكن والأناسي، وهو سبحانه كما هو العليم الحكيم في اختياره من يختاره من خلقه وإضلاله، مَن يضله منهم فهو العليم الحكيم بما في أمره وشرعه من العواقب الحميدة والغايات العظيمة.

وفي حديث الاستخارة ما يؤكد ثبوت هذا العلم لله ﷻ ألا إنه بكل شيء عليم، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، وفي حديث الاستخارة هذا قول النبي ﷺ: ((اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب اللهم، إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شرًّا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به)).

فيبين هذا الحديثُ علمَ الله ﷻ بما لا يعلمه الإنسان، وأنه يعلم في الأزل ما الذي ينفع الإنسان ويصلحه.

المرتبة الثانية: الكتابة

الكتابة وهي أن الله ﷻ كتب في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦] قال:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾ والزبور هنا: جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود، والذكر: أم الكتاب الذي عند الله ﷻ والأرض: الدنيا، وعباده الصالحون: هم أمة محمد ﷺ. هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي عَلَم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ فإنه أخبر بذلك وهو في مكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم، وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم -تبارك وتعالى- أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض مِن الكفار، ثم كتب ذلك بعد ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله، والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: ((كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلَّ شيء)).

فهذا هو الذكر الذي كتب فيه أن الدنيا تصير لأمة محمد ﷺ. والكتب المنزلة قد أطلق عليها الزبر في قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]. وقال تعالى في إثبات كتابته لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢] فجمع بين الكتابين؛ الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم، والكتاب المقارن لأعمالهم، جَمَعَ بينهما في هذه الآية، فأخبر أنه يحيهم بعدما أماتهم للبعث ويجازيهم بأعمالهم، ونبه بكتابتها على ذلك قال: ﴿ وَنَكْتُبُ ﴾: ما قدموا من خير أو شر فعلوه في حياتهم، ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾: ما سنوه من سنة خير أو شر، فاقتدى بهم فيها بعد موتهم، وقال ابن عباس في رواية عطاء: "آثارهم: ما أثروا من خير أو شر". فقوله تعالى: ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣] فإن قلت: قد استُفيد هذا من قوله: ﴿ قَدَّمُواْ ﴾ فما أفاد قوله: ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ على قوله؟

قلت: أفادت فائدة جليلة وهي أنه ﷻ يكتب ما عملوه، وما تولد من أعمالهم، فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر، وهو أثر أعمالهم، فآثارهم هي آثار أعمالهم المتولدة عنها، المقصود أن قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء، وهذا يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها، وقال -جل ذكره-: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ وقد اختلف في الكتاب ها هنا: هل هو القرآن أو اللوح المحفوظ؟ على قولين؛ فقالت طائفة: المراد به القرآن، وهذا من العام المراد به الخاص، أي: ما فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه.

وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقالت طائفة: المراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء، وهذه إحدى الروايتين عن ابن عباس، وكأن هذا القول أظهر في الآية والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ وقد قال تعالى: ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١- ٣] ثم قال بعدها: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] ما المراد بـ"أم الكتاب" المذكورة في هذه الآية؟ قال ابن عباس ﴿ : "في اللوح المحفوظ المقروء" يعني: الذي نقرأه عندنا، قال مقاتل: إن نسخته في أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب أصل الكتاب، وأم كل شيء أصله، والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث: أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن الكريم على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه، فـ: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١] في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب، وقوله: ﴿ لَدَيۡنَا ﴾ يجوز أن تكون من صلة أم الكتاب أي: أنه في الكتاب الذي عندنا، وهذا اختيار ابن عباس، ويجوز أن يكون من صلة الخبر إنه علي حكيم عندنا ليس هو كما عند المكذبين به، وإن كذبتم به وكفرتم فهو عندنا في غاية الإتقان والارتفاع، والشرف والإحكام.

وقال تعالى: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الأعراف: ٣٧] قال سعيد بن جبير ومجاهد وعطية هؤلاء جميعًا قالوا في هذه الكلمة: أي: ما سبق لهم في الكتاب من الشقاوة والسعادة، ثم قرأ عطية: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [الأعراف: ٣٠] وقد قال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٥٢] قال عطاء ومقاتل: كل شيء فعلوه مكتوب عليهم في اللوح المحفوظ.

وروى حماد بن زيد عن داود بن أبي هند عن الشعبي قال: ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ قال: كتب عليهم قبل أن يعملوه، يعني: كل شيء فعلوه كتب عليهم قبل أن يعملوه. وقالت طائفة: المعنى أنه يحصَى عليهم في كتب أعمالهم، ولا مانعَ من الجمع بين الأمرين، بمعنى: أنه قد كتب عليهم بالأزل قبل أن يعملوه، وأنه أيضًا يحصى عليهم، يعني: يكتب في أعمالهم، وقد جمع أبو إسحاق الزجاج بين القولين فقال: مكتوب عليهم قبل أن يفعلوه، ومكتوب عليهم إذا فعلوه للجزاء، وهذا أصح.

وفي (الصحيحين) من حديث ابن عباس { قال: "ما رأيت شبهًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة إلا النبي ﷺ قال: ((إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، وأدرك ذلك لا محالةَ، فزنا العينين النظرُ، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه)) الشاهد من الحديث: ((إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا)).

وفي (صحيح البخاري) وغيره أن عمران بن حصين > قال: ((دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم، فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا -مرتين- ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئناك لنسألك عن هذا الأمر، قال: كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء)) وهذا الحديث في (صحيح البخاري) وغيره كـ(مسند أحمد) و(الترمذي) وغير ذلك.

وفيه نص على أن الله ﷻ كتَبَ في الذكر كل شيء، كما ذكر ذلك النبي ﷺ فالرب ﷻ كتب ما يقوله وما يفعله، وما يكون من قوله وفعله وكتب مقتضى أسمائه وصفاته وآثاره، كما في (الصحيحين) من حديث ابن الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي)). وهذه هي المرتبة الثانية من مراتب القضاء والقدر.

المرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة

وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه، وأدلة العقول والعيان

تدل عليها، وليس في الوجود موجبٌ ومقتضٍ إلا مشيئة الله وحده دون سواه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا حركة ولا سكون في هذا الكون إلا بمشيئته سبحانه دون سواه، ولا يكون ولا يقع في مُلكه إلا ما يريد، وهذا هو عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وخالفهم في ذلك مَن خالف الرسل وسلك طريق أهل الضلال ممن نفوا مشيئة الله ﷻ بالكلية؛ كالفلاسفة وأتباعهم، أو مَن نَفَى مشيئته في أفعال العباد كالمعتزلة القدرية الذين قالوا بأن الله ﷻ لم يشأ أفعال العباد لشُبه قامت في أذهانهم.

والقرآن الكريم والسنة المطهرة أثبتَا مشيئةَ الله الكاملة الشاملة العامة المطلقة؛ فمثلًا قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فهذه آية واحدة ذُكرت فيها المشيئة مرتين: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ وبعدها: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ وقال الله تعالى أيضًا: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وكما أخبر ﷻ عن أنبيائه ورسله أنهم كانوا يقرون لربهم بهذه المشيئة، فنوح # يقول لقومه: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ [هود: ٣٣] وإمام الحنفاء وأبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم # يقول لقومه: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠] وقال الذبيح إسماعيل لأبيه مثبتًا مشيئة الله ﷻ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]

وقال خطيب الأنبياء شعيب لقومه: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩] وقال يوسف الصديق # لأبيه وإخوته: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] وقال قوم موسى له: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠].

وقال رب العزة والجلال لسيد ولد آدم وأكرمهم عليه خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- يقول الله له: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] كما قال تعالى له في آية أخرى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩] وقال عن أهل الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] وقال عن أهل النار كذلك ليبين ﷻ أن الأمر راجع إلى مشيئته سواء كان لأهل الجنة أو لأهل النار، ولو شاء رب العزة لكان غير ذلك وقال عن أهل النار وقال عن أهل النار: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٤] هذا القول قاله لعموم الناس بعد أن ذكر قوله لأهل الجنة، وما يتمتعون فيه من النعيم: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] ثم خاطب الناس جميعًا فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ وقال سبحانه: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وهذه الآيات كلها تثبت مشيئة الله ﷻ وتتضمن أيضًا الرد على طائفتي الضلال نُفاة المشيئة بالكلية، وهم الفلاسفة ومَن تبعهم على ذلك، ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم، وهؤلاء هم القدرية المعتزلة.

وهو ﷻ تارةً يخبر أن ما في الكون بمشيئته، وتارة يخبر أن ما لم يشأ لم يكن، وتارة يخبر أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي

قدره وكتبه، وأنه لو شاء ما عُصِيَ، وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة، وقد تضمن كل ذلك أن كل واقع إنما هو بمشيئته سبحانه. وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا هو حقيقة الربوبية، وهو معنى كونه "رب العالمين" وكونه القيوم القائم بتدبير عباده، فلا خلق ولا رزق، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط، ولا موت، ولا حياة، ولا إضلال ولا هدى، ولا سعادة ولا شقاوة، إلا بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه، إذ لا مالكَ غيره، ولا مدبر سواه، ولا رب غيره سبحانه.

وكما دلت الآيات القرآنية السابقة التي ذكرتها على ذلك، دلت أيضًا الأحاديث الصحيحة على ذلك، فقد أثبتت الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ أن كل شيء وجد في هذا الكون أو يوجد إنما هو بمشيئة الله ﷻ وحده دون سواه.

ففي (صحيح البخاري) من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: ((اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء)) وفي (صحيح البخاري) أيضًا من حديث علي بن أبي طالب > حين طرقه النبي ﷺ وفاطمة ليلًا، وقال لهما ﷺ: ((ألا تصليان؟ فقال علي: إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا)) والشاهد: ((فإذا شاء أن يبعثنا)) ؛ لأن في هذا إثباتًا لمشيئة لله ﷻ.

وفي (البخاري) أيضًا في قصة نومهم في الوادي أن النبي ﷺ قال: ((إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردها حين شاء)) وهذا جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب (التوحيد) من صحيحه، تحت باب في المشيئة والإرادة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] وهذا واضح من ترجمة الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- لهذا الحديث بهذا القول.

وفي (مسند الإمام أحمد) عن الطفيل بن سخبرة -أخي عائشة لأمها-: ((أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مر برهط من اليهود، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن

اليهود، قال: إنكم أنتم القوم، لولا أنكم تزعمون أن عزيرًا ابن الله، فقالت اليهود: وأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد ﷺ ثم مر برهط من النصارى، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى، قال: إنكم أنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبح أخبر بها مَن أخبر، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال له النبي ﷺ: أخبرتَ أحدًا؟ قال: نعم، فلما صلوا خَطَبهم فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: إن طفيلًا رأى رؤيا فأخبر بها مَن أخبر منكم، وإنكم تقولون كلمةً كان يمنعني الحياءُ منكم -زاد البيهقي: ((فلا تقولها))- ولكن قولوا: ما شاء الله وحدَهُ لا شريكَ له)).

قال الشافعي -رحمه الله- في رواية الربيع عنه: المشيئة إرادة الله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأعلم الله خلقه أن المشيئة له دون خلقه، وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء الله، فيقال لرسول الله ﷺ: "ما شاء الله ثم شئتَ" ولا يقال: "ما شاء الله وشئت" قال -يعني: الشافعي-: ويقال: من يطع الله ورسوله، فإن الله تعبد العباد بأن فرض عليهم طاعة رسوله ﷺ فإذا أطيع رسول الله ﷺ فقد أطيع الله بطاعة رسوله ﷺ.

وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرِصْ على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان))، والشاهد من الحديث: ((ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل)) وهذا يقال لكل مَن ندم على أمر فاته مثلًا، وتمنى أن يكون غيره وليعلم كل فرد أن كل واقع إنما هو بمشيئة الله ﷻ ولذلك نجد أن النبي ﷺ كان يرسخ هذا المفهوم وهذا المعنى بين

أصحابه، فقال ﷺ للأعرابي الذي عاده من الحمى: ((لا بأس، طهور إن شاء الله)) وقد روى ذلك أيضًا البخاري في باب: "المشيئة والإرادة".

كما أخبر ﷺ كما في البخاري وغيره، أخبر عن سليمان بن داود: ((أنه قال: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأةً، كل واحدة تأتي بفارس يقاتل في سبيل الله، فقال له الملك: قل: إن شاء الله، فلم يقل، فطاف عليهن جميعًا، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشِق رجل، وايم الذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله؛ لجاهدوا في سبيل الله فِرسانًا أجمعون)).

هذه هي المرتبة الثالثة، وهي مرتبة المشيئة، وهذه هي الأدلة عليها.

د- المرتبة الرابعة: خلق الله للأعمال وتكوينه لها، وإيجاده لها

وهذا أيضًا أمر متفق عليه، اتفقت الكتب الإلهية أيضًا والفطر والعقول، وقد قررت النصوص القرآنية والنبوية هذا الأمر كذلك، وهو أن الله ﷻ خالق كل شيء، فهو الذي خلق الخلق وكونهم وأوجدهم، فهو الخالق، وما سواه مربوب مخلوق، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد: ١٦] وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٨٦] وقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] وقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

والنصوص في هذا كثيرة طيبة، وهي تدل على أن أفعال العبد لا تخرج عن غيرها من المخلوقات، فكل ما هو في الكون إنما هو بخلق الله وإيجاده لها، وقد علم الله ﷻ ما سيخلقه من عباده، وعلم ما هم فاعلون، وكتب كل ذلك في اللوح المحفوظ، وخلقهم الله كما شاء، ومضى وقدر عليهم، وقد عمل العباد على النحو الذي شاءه

الله فيهم، وهدى سبحانه مَن كتب الله له السعادة وأضل من كتب عليه الشقاوة، وعلم أهل الجنة ويسرهم لعمل أهلها، وعلم أهل النار ويسرهم لعمل أهلها.

والنصوص التي سقتها الآن تكفي في الدلالة على هذا الذي ذكرته وقررته، ومع ذلك فهناك نصوص أخرى كثيرة أصرح في الدلالة على هذه المسألة، وهي أن الله خالق أفعال العباد.

ومن ذلك قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] وقال سبحانه: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: ١١].

وقد جاءت أحاديث كثيرة أيضًا تواتَرَ معناها تؤيد هذه الآيات القرآنية، وتدل على أن رب العباد علم ما العباد عاملون، وقدر ذلك وقضاه وفرغ منه، وعلم ما سيصير إليه العباد من السعادة والشقاء، وقد أخبرت النصوص مع ذلك أن القدر لا يمنع من العمل، فأمر بالعمل: ((اعملوا، فكل ميسر لِمَا خلق له))، ومما يؤيد ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله < قال: ((جاء سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله ﷺ بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، ففيم العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما يستقبل؟ قال: لا، بل فيما جَفت به الأقلام، وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ فقال ﷺ: اعملوا، فكل ميسر)) وفي رواية: ((كل عامل ميسر لعمله)).

وروى الترمذي في سننه: ((أن عمر بن الخطاب < قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، أرأيتَ ما نعمل فيه أمر مبتدع أم مبتدى، أو فيما فرغ منه؟ فقال:

فيما فرغ منه يا ابن الخطاب، وكل ميسر؛ أما مَن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء)) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقد علم الله ﷻ أهل الجنة من أهل النار؛ لأنه هو خالق أفعالهم، فقد روى البخاري عن عمران بن حصين > قال: ((قال رجل: يا رسول الله، أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: نعم، فقال: فلِمَ يعملون؟ قال: كل يعمل لما خلق له أو يسر له)).

وروى مسلم في صحيحه عن علي > قال: ((كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعَدَ وقعدنا حولَه ومعه مخصرة، فنكس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: ما مِن نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، وإلا قد كتب شقية أو سعيدةً، قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال ﷺ: مَن كان مِن أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومَن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، فقال: اعملوا، فكل ميسر. أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهلُ الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥- ١٠].

كما أخبرنا ﷻ أنه أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، والنبي ﷺ أخبر بناءً على وحي ربه إليه ومُفسرًا هذه الآية، أن الله ﷻ مسح ظهر آدم بعد أن خلقه واستخرج ذريته من ظهره أمثال الذر، واستخرج منهم أهل الجنة كما استخرج منهم أيضًا أهلَ النار.

ومما يدل على أن الله ﷻ أيضًا خالق أعمال العباد، قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١] فأخبر ﷻ أنه هو الذي جعل سرابيل وهي الدروع والثياب المصنوعة، ومادتها لا تسمى سرابيل إلا أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهم، فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها صورتها ومادتها وهيئتها.

قواعد أهل السنة في مسألة القدر، وأفعال العباد وتقسيم الإرادة

أولًا: قواعد أهل السنة في مسألة القدر

أ. بيان اعتمادهم على الكتاب والسنة دون العقل والقياس:

اعتمد أهل السنة والجماعة في هذا الباب على الكتاب والسنة لا غير، وقد ذكر ابن حجر -رحمه الله تعالى- عن أبي المظفر السمعاني -رحمه الله- أنه قال: "سبيل المعرفة في هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى اختص العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم، لِمَا علمه من الحكمة، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب".

ويقول الإمام الطحاوي -رحمه الله تعالى-: "وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان وسُلّم الحرمان ودرجة الطغيان، فالحذر الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسةً،

فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد رد حكم الكتاب".

هذا كلام الإمام الطحاوي -رحمه الله- وهو واضح بالاقتصار على الكتاب والسنة، وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة، ولذلك قال شارح (الطحاوية) -رحمه الله- معلقًا على كلام الطحاوي هذا: "أصل القدر سر الله في خلقه"، وهو قوله: أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى، قال علي < : "القدر سر الله، فلا تكشفه".

وقال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: "من السنة اللازمة الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها، ومن لم يعرف تفسير الحديث ولم يبلغه عقله فقد كفي ذلك، وأحكم له، فعليه الإيمان به والتسليم له، مثل حديث الصادق المصدوق ﷺ وما كان مثله في القدر" وهو يشير إلى حديث ابن مسعود < : ((إن أحدَكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون أربعين يومًا علقة...)) وهكذا، وما جاء في معناه من أحاديث تثبت تقدير الله ﷻ لكل ما هو كائن، ومشيئته ﷻ وخلقه لأعمال العباد. وقد قال علي بن المديني -رحمه الله- مثلما قال الإمام أحمد في القدر.

ب- قواعد مهمة عند أهل السنة والجماعة في مسألة القدر:

حيث قد خرّج أهل السنة والجماعة -بناء على ما قرروه في هذا الباب- قواعد مهمة:

القاعدة الأولى: وجوب الإيمان بالقدر.

القاعدة الثانية: الاعتماد في معرفة القدر وحدوده، وأبعاده على الكتاب والسنة وترك الاعتماد في ذلك على نظر العقول ومحض القياس، فالعقل الإنساني لا يستطيع بنفسه أن يضع المعالم والركائز التي تنقذه في هذا الباب من الانحراف والضلال، والذين خاضوا في هذه المسألة بعقولهم ضلوا وتاهوا؛ فمنهم من كذب بالقدر، ومنهم من ظن أن الإيمان بالقدر يلزم القول بالجبر، ومنهم من ناقض الشرع بالقدر، وكل انحراف من هذه الانحرافات سبب مشكلات في واقع البشر وحياتهم، ومجتمعاتهم؛ لأن الانحراف العقائدي لا شك أنه يسبب انحرافًا في السلوك وواقع الحياة.

القاعدة الثالثة: ترك التعمق في البحث في القدر:

لأن بعض جوانبه لا يمكن للعقل الإنساني مهما كان نبوغه أن يستوعبها، وبعضها الآخر لا يستوعبها إلا بصعوبة كبيرة. وقد يقال: أليس في هذا النهج حَجْر على العقل الإنساني؟

والجواب: أن هذا ليس بحجر على الفكر الإنساني بل هو صيانة لهذا العقل، من أن تتبدد قواه في غير المجال الذي يحصل التفكر فيه، إنه صيانة للعقل الإنساني من العمل في غير المجال الذي يحسنه ويبدع فيه؛ لأن العقل له درجة استيعاب، وله مجاله في النظر لا يتعداه، والإسلام قد وضع بين يدي الإنسان معالمَ الإيمان بالقدر، فلا نحتاج إلى عقل أو قياس أو بحث، أو خوض أو تعمق أو نظر؛ لأن الإيمان بالقدر يقوم على أن الله علم ما هو كائن وكتبه وشاءه وخلقه، واستيعاب العقل الإنساني لهذه الحقائق سهل ميسور، ليس فيه صعوبة ولا غموض أو تعقيد؛ أما البحث في سر القدر والغوص في أعماقه، فإنه يبدد الطاقة العقلية، ويهدرها، إن البحث في كيفية العلم والكتابة والمشيئة والخلق بَحْث في كيفية

صفات الله، وكيف تعمل هذه الصفات، وهذا أمر محجوب علمه عن البشر، وهو غَيْب يجب الإيمان به، ولا يجوز السؤال عن كنهه.

فالباحث فيه -أعني: في القدر- كالباحث عن كيفية استواء الله ﷻ على عرشه، ونحن نقول له: صفات الله ﷻ كما تليق بجلاله وكماله، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عن كيفيتها بدعة، كذلك الكلام في القدر؛ فالصفات التي يقوم عليها القدر معناها معلوم وكيفيتها مجهول. إن السؤال عن الكيفية هو الذي أتعب الباحثين في القدر وغيره، وجعل البحث فيه من أعقد الأمور وأصعبها، وأظهر الإيمان به صعب المنال، وهو سبب الحيرة التي وقع فيها كثير من الباحثين، ولذلك فقد نص جمع من أهل العلم على المساحة المحظورة التي لا يجوز دخولها في باب بالقدر، وقد ذكرت قريبًا مقالة الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- وهي قوله: من السنة اللازمة الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، ولا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟ أما مَن تعمق وخاض وضرب كتاب الله بعضَه ببعض، تاه وحار، ولم يصل إلى شاطئ السلامة.

والنبي ﷺ قد حذَّرَ أمته من أن تسلك هذا المسار، أعني: البحث والخوض وضرب كتاب الله بعضه ببعض، وتضرب في هذه البيداء.

في (سنن الترمذي) بإسناد حسن عن أبي هريرة > أنه قال: ((خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه ﷺ حتى كأنما فُقِئَ في وجنتيه الرمان، فقال: أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك مَن كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمتم عليكم ألا تنازعوا فيه)) وهذا منهج سليم واضح يقرره أهل السنة والجماعة في كل مسائل الاعتقاد.

جـ- بيان مدى إدراك العقل للعلل والأوامر والأفعال:

وقد ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف إلى أن لأوامر الله مخلوقاته عللًا وحكمًا، فإنه لا يأمر إلا لحكمة، ولا يخلق إلا لحكمة، وبعض هذه الحكم تعود إلى العباد وبعضها يعود إلى الله تعالى، فما يعود إلى العباد هو ما فيه خير لهم وصلاح في العاجل والآجل، وما يعود إلى الله -تبارك وتعالى- هو محبته أن يُعبد ويطاع، ويتاب إليه، ويرجع ويخاف منه، ويُتوكل عليه، ويجاهد في سبيله، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال سبحانه: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦] وقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] والنصوص الدالة على أن لله حكمًا في خلقه وأمره، كثيرة وافرة يصعب حصرها، والعقول البشرية تستطيع أن تدرك شيئًا من هذه الحكم.

وذهب جمهور أهل العلم إلى أن العقل يستطيع أن يدرك ما في الأفعال من حسن وقبح، فالعقول تدرك أن الظلم والكذب والسرقة وقتل النفوس قبيح، وأن العدل والصدق وإصلاح ذات البين وإنقاذ الغرقى حسن وجميل.

والحكم الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن يكون الفعل مشتملًا على مصلحة ومفسدة ولو لم يرد الشرع بذلك، كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم، والظلم يشتمل على فساد العالم، فهذا النوع حسن وقبيح، وقد يعلم بالعقل والشرع حسن ذلك وقبحه، لكن لا يلزم في العقول أن الإنسان معاقب على فعل قبيح من هذا النوع في الآخرة إن لم يرد الشرع بذلك، ومن ادعى أن الله يمكن أن يعاقب العباد على أفعالهم القبيحة من الشرك والكفر ونحو ذلك من غير إرسال رسول، فقد أخطأ.

النوع الثاني: أن الله ﷻ إذا أمر بشيء صار حسنًا وإذا نهى عن شيء صار قبيحًا، واكتسب الفعل صفة الحسن والقبح بخطاب الشارع.

النوع الثالث: أن يأمر الشارع بشيء امتحانًا واختبارًا، كما أمر الله إبراهيم # بأن يذبح ولده إسماعيل؛ فالشارع ليس له قصد في ذبح الابن ولكنه ابتلاء واختبارٌ.

والمعتزلة قرت بالنوع الأول دون الثاني والثالث؛ والنوع الأول الذي فيه: أن العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها؛ أما أنَّ الشارع يحسن ويقبح ويأمر بشيء من باب الابتلاء والاختبار، فهذا أنكرته المعتزلة. والأشعرية ذهبت إلى أن جميع الأوامر والنواهي الشرعية، هي من قسم الامتحان، والأفعال ليست لها صفة لا قبل الشرع ولا بالشرع.

وأما الحكماء وجمهور أهل العلم: فأثبتوا الأقسام الثلاثة التي ذكرتها سابقًا، وهذا الذي عليه جمهور أهل السنة من أن أفعال العباد معللة، وأن العقل بإمكانه أن يدرك ما في الأفعال من حسن وقبح، يفتح الباب أمام العقول الإنسانية لتبحث في الحكم الباهرة التي خلق الله من أجلها المخلوقات، وشرع من أجلها ما شرعه من أحكام، وهو باب كبير يحصل العباد منه على علم عظيم، يثبت الإيمان ويزيد اليقين، ويعرف العباد بإبداع الخالق العظيم الذي أحسن كلَّ شيء خَلْقه، وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد وعد الحق -تبارك وتعالى- أن يري عباده من آياته العظيمة ما يظهر صدقَ ما جاء به الرسول ﷺ وأنزله في الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]

د- نماذج من أقوال السلف في الإيمان بالقدر:

أود أن أذكر نماذج من أقوال السلف في الإيمان بالقدر؛ ليعلم الطالب أن سلف هذه الأمة كانوا يعتقدون الحق الذي جاء في كل باب من أبواب الاعتقاد وغيره.

ولذلك سأذكر لأربعة أئمة من أئمة السلف أقوالًا كنماذج من أقوال العلماء من سلف هذه الأمة الصالحين في هذا الباب من أبواب الإيمان، وهو ركن منه.

١ـ عقيدة الإمام ابن قتيبة -رحمه الله-:

يقول -رحمه الله-: "وعَدْل القول في القدر أن تعلم أن الله عدل لا يجور: كيف خلق، وكيف قدر، وكيف أعطى، وكيف منع؟ وأنه لا يخرج من قدرته شيء، ولا يكون في ملكوته من السموات والأرض إلا ما أراد، وأنه لا دَيْن لأحد عليه ولا حق لأحد قبله، فإن أعطى فبفضل، وإن منع فبعدل، وأن العباد يستطيعون ويعملون ويُجزون بما يكسبون، وأن لله لطيفة يبتدئ بها مَن أراد، ويتفضل بها على من أحب، ويوقعها في القلوب، فيعود بها إلى طاعته، ويمنعها مَن حقت عليه كلمته، فهذه جملة ما ينتهى إليه في مسائل القدر، وما ينتهي إليه علم ابن آدم من قدر الله ﷻ وما سوى ذلك مخزون عنه".

وهذه كلمات دقيقة من هذا الإمام العالم الجليل -رحمه الله تبارك وتعالى.

٢ـ عقيدة الإمام محمد بن الحسن الآجري -رحمه الله:

حيث يقول في كتابه (الشريعة):

"مذهبنا في القدر أن نقول: إن الله ﷻ خلق الجنة وخلق النار، وخلق لكل واحدة منهما أهلًا، وقسم بعزته أنه يملأ جهنمَ من الجنة والناس أجمعين، ثم خلق آدم # واستخرج من ظهره كل ذريةٍ هو خالقها إلى يوم القيامة، ثم جعلهم فريقين؛ فريق في الجنة، وفريق في السعير، وخلق إبليس وأمره بالسجود لآدم # وقد علم الله أنه لا يسجد بالمقدور الذي قد جرى عليه من الشقاوة

التي سَبَقت في علم من الله ﷻ لا معارض لله الكريم في خلقه وحكمه، يفعل في خلقه ما يريد؛ عدلًا من ربنا قضاؤه وقدره، وخلق آدم وحواء -عليهما السلام- للأرض، أسكنهما الجنة وأمرهما أن يأكلا منها رغدًا ما شاءَا، ونهاهما عن شجرة واحدة ألا يقرباها، وقد جرى مقدوره أنهما سيعصيانه بأكلهما من الشجرة، فهو -تبارك تعالى- في الظاهر ينهاهما وفي الباطن من علمه قد قدر عليهما أنهما يأكلان منها. ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾. لم يكن لهما بد من أكلهما سببًا للمعصية، وسببًا لخروجهما من الجنة، إذ كانا للأرض خلقَا، وأنه سيغفر لهما بعد المعصية، كل ذلك سابق في علمه، لا يجوز أن يكون شيء يحدث في جميع خلقه إلا وقد جرى مقدوره به، وأحاط به علمًا قبل كونه أنه سيكون، خلق الخلق كما شاء لِمَا يشاء، وجعلهم شقيًّا وسعيدًا قبل أن يخرجهم إلى الدنيا وهم في بطون أمهاتهم، وكتب آجالهم، وكتب أرزاقهم، وكتب أعمالهم، ثم أخرجهم من الدنيا، وكل إنسان يسعى فيما كتب له وعليه".

وهذه كلمة من هذا الإمام دقيقة للغاية، تبين أن كل ما كان في الكون من خير وشر وبر ومعروف وظلم ومعصية ومنكر، إنما هو بقضاء الله ﷻ وقدره، وإن كان سبحانه لا يحب المعاصي ولا يرضَى لعباده الكفر، ولذلك بعدما قال هذا الإمام: "أحب الطاعة من عباده وأمر بها، فجرت ممن أطاعه بتوفيقه لهم، ونَهَى عن المعاصي وأراد كونها من غير محبته منه لها -قال عقب ذلك- ولا للأمر بها، تعالى ﷻ أن يأمر بالفحشاء أو يحبها، وجل ربنا ﷻ أن يجري في ملكه ما لم يرد أن يجري، أو شيء لم يحط به علمه قبل كونه، قد علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم وبعد أن يخلقهم، قبل أن يعملوا قضاءً وقدرًا، قد جرى القلم بأمره ﷻ في اللوح المحفوظ بما يكون من بر أو فجور، يثني على مَن عمل بطاعته من

عبيده، ويضيف العمل للعباد، ويعدهم عليه الجزاء العظيم، ولولا توفيقه لهم ما عملوا ما استوجبوا به منه الجزاء: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وكذلك ذم قومًا عملوا بمعصيته وتوعدهم على العمل بها، وأضاف إليهم العمل بما عملوا، وذلك بمقدور جرى عليهم: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾".

بعد أن ذكر ذلك قال محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى-: هذا مذهبنا في القدر.

٣. عقيدة الإمام الطحاوي:

وقد جمع الدكتور عمر الأشقر ما قاله الإمام الطحاوي في القدر في كتابه (عن القضاء والقدر) جمعه بمكان واحد وسأذكره كما ذكره.

يقول -رحمه الله-: "خلق الخلق بعلمه وقدر لهم أقدارًا وضرب لهم آجالًا، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وكل شيء يجري بقدره، ومشيئته تنفذ لا مشيئة العباد، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلًا، ويضل مَن يشاء ويخذل ويبتلي عدلًا، وكلهم متقلبون في مشيئته بين فضله وعدله، وهو متعالٍ عن الأضداد والأنداد لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره، آمنا بذلك، وأيقنا أن كلًّا من عنده، وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملةً واحدةً، فلا يُزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكل ميسر لما خلق له. والأعمال بالخواتيم، والسعيد مَن سعد بقضاء الله، والشقي مَن شقا بقضاء الله.

ويواصل الإمام الطحاوي حديثه فيما سطره في العقيدة عن القدر ؛ فيقول :

وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرةً ووسوسةً، فإن الله تعالى طوَى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ فَمَن سأل: لِمَ فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين، فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور القلب وهو من أولياء الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم ؛ لأن العلم علمان ؛ علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك العلم المفقود.

ونؤمن باللوح المحفوظ وبجميع ما فيه قَد رُقمَ، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى في أنه كائن ليجعلوه غيرَ كائن، لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى ليجعلوه كائنًا، لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديرًا محكمًا مبرمًا، ليس فيه ناقض ولا معقب، ولا مزيل ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد، مِن خلقه في سمواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢] وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨]. فويل لِمَن صار في القدر لله خصيمًا، وأحضر للنظر فيه قلبًا سقيمًا، فقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرًّا كتيمًا، وعاد بما قال فيه أفاكًا أثيمًا".

٤- قول الإمام ابن تيمية:

ابن تيمية -رحمه الله- شيخ الإسلام، وعَلم من الأعلام، لخص في كلمات يسيرة ولكنها محكمة دقيقة مذهبَ أهل السنة والجماعة وبينه ووضحه؛ فقال -رحمه الله تعالى-: "مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهو أن الله خالق كل شيء ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءه، بل هو القادر على كل شيء، ولا يشاء شيئًا إلا وهو قادر عليه، وأنه سبحانه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها، وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم؛ قدر آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء -الضمير هنا يعود إلى أهل السنة- وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابتها إياها قبل أن تكون.

وسلف الأمة وأئمتها متفقون على أن العبادَ مأمورون بما أمرهم الله به، منهيون عما نهاهم الله عنه، وهم متفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة، ومتفقون على أنه لا حجة لأحد على الله في واجبٍ تركه ولا محرمٍ فعله، بل لله الحجة البالغة على عباده، ومما اتفق عليه سلفُ الأمة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله يضل مَن يشاء ويهدي من يشاء، أن العباد لهم مشيئة

وقدرة، يفعلون بقدرتهم ومشيئتهم ما أقدرهم الله عليه، مع قولهم: إن العباد لا يشاءون إلا أن يشاء الله".

ثانيًا: بيان مذهب السلف في أفعال العباد:

بينت فيما مضى أن سلف هذه الأمة يعتقدون أن الله خالق أفعال العباد؛ لأنه الخالق وحدَه دون سواه، والنقول التي سقتها قبل هي إشارة وتوضيح لذلك، وأزيد هنا هذا الأمر وضوحًا بما أذكره أيضًا من نصوص قرآنية، وأحاديث نبوية، وأقوال لأهل العلم في ذلك.

ومن هذا ما أخرجه البخاري -رحمه الله- تعالى في كتابه (خلق أفعال العباد). قال عن حذيفة > عن النبي ﷺ قال: ((إن الله يصنع كل صانع وصنعته)) قال البخاري -رحمه الله- وتلا بعضهم عند ذلك: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- معقبًا على كلام الإمام البخاري بعد نقله له في (شفاء العليل) في مسائل القضاء والقدر، والحكمة والتعليل:

وأما استشهاد بعضهم بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بحمل "ما" على المصدر أي: خلقكم وأعمالكم، فالظاهر خلاف هذا وأنها موصولة، أي: خلقكم وخلق الأصنام التي تعملونها، فهو يدل على خلق أعمالهم من جهة اللزوم، فإن الصنم اسم للآلة التي حل فيها العمل المخصوص. فإذا كان مخلوقًا لله كان خلقه متناولًا لمادته وصورته.

وقال البخاري -رحمه الله-: عن عمرو بن مسلم عن طاوس أنه قال: أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: "كل شيء بقدر حتى العجز والكيس". وقد رَوَى ذلك مسلم في صحيحه أيضًا.

وروى مسلم أيضًا عن طاوس: قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: ((كل شيء بقدر حتى العجز والكيس)) قال البخاري: وقال ليث عن طاوس عن ابن عباس: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] قال: "حتى العجز والكيس".

وقال البخاري -رحمه الله-: سمعت عبيد الله بن سعيد يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: أفعال العباد مخلوقة. قال البخاري: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، يريد أن يؤكد وأن يبين أن أفعال العباد مخلوقة، خلقها رب العزة والجلال ﷻ وهذا ما أود التأكيد عليه، وأود تقريره في هذا المقام.

وقد ساق الإمام ابن القيم -رحمه الله- حديث جابر بن عبد الله بالاستخارة، واستنبط منه فوائد عظيمة تثبت خلق الله لأفعال العباد، ونص حديث جابر بن عبد الله > كما أخرجه البخاري والترمذي وغيرهما قال: ((كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارةَ في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: إذا هَمَّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فيسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به، قال: ويسمي حاجته)).

فقوله: ((إذا هم أحدكم بالأمر)) صريح في أنه الفعل الاختياري المتعلق بإرادة العبد، وإذا عُلِمَ ذلك فقوله: ((أستقدرك بقدرتك)) أي: أسألك أن تقدرني

على فعله بقدرتك، ومعلوم أنه لم يسأل القدرة المصححة التي هي سلامة الأعضاء وصحة البنية، وإنما سأل القدرة التي توجب الفعل، فعلم أنها مقدورة لله ومخلوقة له، يعني: أن الفعل والقدرة عليه مخلوق لله، بدليل أن العبد يطلب من الله أن يقدره عليه: ((أستقدرك بقدرتك)) وأكد ذلك بقوله: ((فإنك تقدر ولا أقدر)) يعني: تقدر أن تجعلني قادرًا فاعلًا ولا أقدر أن أجعل نفسي كذلك. وكذلك في قوله ﷺ في الحديث: ((تعلم ولا أعلم)) أي: حقيقة العلم بعواقب الأمور ومآلها، والنافع منها والضار لله سبحانه، وليس عند العبد شيء من ذلك.

وقوله: ((يسره لي)) ((أو اصرفه عني)) فإنه طلب من الله تيسيره إن كان له فيه مصلحة، وصرفه عنه إن كان فيه مفسدة، وهذا التيسير والصرف متضمن إلقاء داعية الفعل في القلب أو إلقاء داعية الترك فيه، ومتى حصلت داعية الفعل حصل الفعل، وداعية الترك امتنع الفعل، وعند القدرية ترجيح فاعلية العبد على الترك منه ليس للرب فيه صنع ولا تأثير، فطلب هذا التيسير منه لا معنى له عندهم، فإن تيسير الأسباب التي لا قدرةَ للعبد عليها موجود ولم يسأله العبد.

وقوله ﷺ في الحديث: ((فاصرفه عني واصرفني عنه)) صريح في أنه سبحانه هو الذي يصرف عبده عن فعله الاختياري إذا شاء صرفه عنه، كما قال تعالى في حق يوسف # : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ [يوسف: ٢٤] وصرف السوء والفحشاء هو صَرْف دواعي القلب وميله إليهما، فينصرفان عنه بصرفِ دواعيهما.

وقوله: ((واقدر لي الخيرَ حيث كان)) يعم الخير المقدور للعبد من طاعته، وغير المقدور له فعلم أن فعل العبد للطاعة والخير أمر مقدور لله إن لم يقدر الله ﷻ ويقدر العبد على ذلك الفعل، لم يقع من العبد أبدًا.

ثم قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- بعد أن ساق هذا الحديث وتكلم عنه بهذه الكلمات، قال:

ففي هذا الحديث الشفاء في مسألة القدر وأمر النبي ﷺ الداعي به أن يقدم بين هذا الدعاء ركعتين؛ عبوديةً منه بين يدي نجواه، وأن يكون من غير الفريضة؛ ليتجرد فعلهما لهذا الغرض المطلوب.

كما عقد الإمام البخاري -رحمه الله- تعالى في صحيحه بابًا قال فيه: باب قول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ وقد ذكر ابن بطال -رحمه الله تعالى- عن المهلب -رحمه الله-: أن غرض البخاري -رحمه الله- بهذه الترجمة إثبات أن أفعال العباد وأقوالهم مخلوقة لله -تبارك وتعالى.

وقال الشيخ الغنيمان -حفظه الله تعالى- في شرحه لكتاب التوحيد من (صحيح البخاري) قال بعد أن ذكر هذا الباب: يريد -رحمه الله- بهذا الباب بيان أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء وحده لا شريك له في ذلك، فيدخل فيه أعمال العباد وأفعالهم، والآية نص فيه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ سواء كانت "ما" موصولة أو مصدريةً، فعلى التقديرية فالآية دالة على أن أفعال العباد مخلوقة؛ لأن آلهتهم التي يعبدونها صارت على شكل معين وهيئة خاصة بعملهم وصنعهم، والله ﷻ أخبرهم في هذه الآية أنه خلقهم وخلق أعمالهم، وقد أطال العلماء الكلامَ في إعراب "ما" في قوله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

وادعى بعضهم إجماع أهل السنة على أنها مصدرية، وشنعوا على المعتزلة في دعواهم أنها موصولة ظانين أنها إذا كانت موصولة صارت دليلًا على أن العباد يخلقون أفعالهم، والصواب أنها موصولة، وأنها لا تدل على أن العباد يخلقون

أفعالهم كما زعم القدرية من المعتزلة ؛ لأن القدرية المعتزلة يقولون -كما سيأتي توضيح ذلك إن شاء الله تعالى- : إن الله لم يخلق أفعال العباد.

وهنا أود أن أقرر أقوال أهل العلم في أن الله خالق أفعال العباد من خلال آيات القرآن الكريم، ووجه الدلالة من هذه الآيات، وكنت أتحدث الآن عن الخلاف الواقع بين العلماء في إعراب "ما" فالبعض قال: بأنها مصدرية، والبعض قال: بأنها موصولة، وهذا هو الصواب.

قال الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله- وفي قوله: ﴿ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون "ما" بمعنى المصدر، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: والله خلقكم وعملكم، والآخر أن يكون بمعنى: الذي، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: والله خلقكم والذي تعملونه، ثم ذكر عن قتادة أنه قال: والله خلقكم وما تعملون بأيديكم، فهذا يدل على أنها موصولة عنده.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: قال الله تعالى: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] قال: فـ"ما" بمعنى الذي، ومَن جعلها مصدريةً فقد غلَط، ولكن إذا خلق الله المنحوتَ كما خلق المصنوع أو الملبوس أو المبني دل على أنه خالق كل صانع وصنعته، ومعنى الآية: أن فيها التصريح بأن أصنامهم من مخلوقات الله وإن كان شكلها ووضعها على صفة معينة من صنعهم، فإن الله ﷻ هو الذي أقدرهم على ذلك ويسر لهم أسبابه، ولهذا أخبر تعالى بأنه هو الذي خلق الفلكَ وهي مصنوعة لبني آدم، قال تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس: ٤٢] وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [النحل: ٨٠].

وهذه كلها مصنوعة لبني آدم، وهذا يبين وجه دلالة الآية المترجم بها، يعني: الآية التي ترجم بها الإمام البخاري في (الصحيح) وهي قوله: باب قول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فدلت هذه الآية على أن الله ﷻ هو خالق أفعال بني آدم، فَهُم وأفعالُهم من خلق الله تعالى، وإن كانت "ما" في الآية موصولةً، فلا داعي للتعسف والتكلف لجعلها مصدرية؛ حتى لا يكون فيها متعلق للقدرية المعتزلة القائلين: بأن العبد يخلق فعل نفسه، وهذا قول ظاهر البطلان، وكل باطل لا يؤيده كتاب الله تعالى، بل يدل على بطلانه، وهذا حق، فقد ضل من أخرج أفعال العباد عن مخلوقات الله تعالى، كما ضل مَن قبلهم وقال: إن العباد مجبورون على أعمالهم، فلا اختيارَ لهم ولا قدرة، والحق وسط بين هاتين الضلالتين، وهو أن الله ﷻ خلق العباد وخلق لهم قدرةً واختيارًا بهما يفعلون ما يريدون فعله، ويتركون ما يريدون تركه، وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد بيان لمذهب كل من القدرية والجبرية.

ثالثًا: بيان سبب ضلال المخالفين:

ذكرت فيما مضى أن الله خالق أفعال العباد، وأن القدرية المعتزلة والجبرية كلاهما خرج عن الحق في هذا الباب، وأود هنا أن أبين سبب ضلال هؤلاء في هذه المسألة.

فأقول: إن سبب ضلال هؤلاء هو عدم التفريق بين خلق الله ومخلوقاته، فخلق الله صفته التي يخلق بها الخلق؛ وأما مخلوقه فهو أثر الصفة وهو مفعوله، وخلق الله تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته، بل خلقه فعله المتصف به، ومخلوقاته مع مفعولاته التي يفعلها ويوجدها إذا شاء، وأفعال العباد مخلوقة له تعالى كسائر المخلوقات ومن جملة مفعولاته، وليست هي نفس فعل الرب، بل هي نفس فعل العبد.

فالكذب مثلًا والظلم ونحوهما من القبائح يتصف بها مَن كانت فعلًا له قائمة به، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له؛ فالعبد هو الذي يتصف بالكذب والظلم، ولا يتصف بذلك رب العباد خالقها ﷻ لماذا؛ لأنه تعالى جعلها صفة لغيره.

كما أنه تعالى لا يتصف بما خلقه في غيره من الطعوم والألوان، والروائح والأشكال... وغير ذلك، والقدرية لم يفهموا هذا، ولم يفرقوا بين الفعل والمفعول، وبين الخلق والمخلوق، وظنوا أن كل ذلك سواء، فلما اعتقدوا هذا المعتقد، وذهبوا إلى هذا الظن، نفَوْا خلق الله ﷻ لأفعال العباد؛ لِمَا فيها من كذب وظلم وزور، وما إلى ذلك.

ونحن نقول لهم: إذا خلق الله الإنسان أبيضَ أو أسودَ مثلًا لم يكن ذلك اللون الذي خلق الله الإنسان عليه وصفًا لله ﷻ وكذلك إذا خلق هذا الشيء مُرًّا أو حلوًا أو على صورة قبيحة أو مذمومة، لم يكن تعالى متصفًا بذلك، بل المتصف بها مَن قامت به وفعلها.

وبهذا يتبين سبب ضلال هؤلاء ويثبت أن الله ﷻ خالق كل شيء، ومن ذلك أفعال العباد حتمًا.

وبهذا نكون قد بينا وأوضحنا بعد ذكري لمراتب القدر التأكيدَ على المسألة أو المرتبة الرابعة، وهي أن الله ﷻ خالق أفعال العباد.

رابعًا: إيضاح الحق في الهداية والإضلال، وبيان مراتب الهدى

أ. ذِكْر مراتب الهدى:

الكلام في الهداية والإضلال -وهو مبحث من مباحث القدر- من أهم المسائل التي يجب أن يعتني بها العبد المؤمن؛ لأن أفضل ما يقدم الله لعبده وأجل ما

يقسمه له هو الهدى، وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه هو الضلال، وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال، وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم، على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيدي العبد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعلُه ﷻ وقدرُه، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبُه.

هذه كلمة موجزة عن الهدى والضلال وأهمية معرفة هذا المبحث، والتأكيد على أن الأمر كله بيد الله ﷻ فهو يضل من يشاء ويهدي مَن يشاء.

أما مراتب الهدى؛ فهي أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الهدى العام، وهو هداية الله ﷻ كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، وهذا أعم مراتبه؛ لأن هذه المرتبة تشمل كلَّ مخلوق، فقد هدى الله ﷻ ما خلقه من كائنات إلى ما تقوم به حياتها، وما يتمكن به من الحصول على معاشه.

المرتبة الثانية: فهي بمعنى الهدى والدلالة والتعليم، والدعوة إلى مصالح العبد في ميعاده، وهذا خاص بالمكلفين.

فالمرتبة الأولى أو القسم الأول الذي ذكرته وهو الهداية بالمعنى العام، وهذه أخص من الأمر الأول؛ لأن الأمر الأول يشمل كل كائن، أما هذا فهو يتعلق بالمكلفين الذين بُيِّن لهم الحق، ونزلت عليهم الكتب، وأرسلت لهم الرسل.

المرتبة الثالثة: فهي الهداية المستلزمة للاهتداء، وهذه هي هداية التوفيق والمشيئة، أعني: مشيئة الله بعبده الهداية، وخلق دواعي الهدى، وإرادة الهدى له، وما إلى ذلك.

المرتبة الرابعة: فهي هداية المؤمنين إلى الجنة والكافرين إلى النار، هذه هي مراتب الهدى.

والمرتبة الأولى -كما ذكرت- هي أعم المراتب، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه، فقال: ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ١-٣] فهنا نجد أن الله ﷻ ذكر بعضَ أمور عامة؛ هي: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية، وهذه -كما ذكرت- هي الهداية العامة لكل الكائنات.

ب. تفصيل القول في مرتبتي الهداية والإرشاد والبيان، وهداية التوفيق والإلهام:

هاتان المرتبتان هما صلب الحديث في هذه المسألة، فمرتبة الهداية والإرشاد والبيان للمكلفين، هذه مرتبة لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق وإن كانت شرطًا فيها أو جزءَ سبب، وذلك لا يستلزم حصول المشروط المسبب، بل قد يتخلف عنه المقتضي؛ إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع، وهذا واضح من بعثة الأنبياء والمرسلين، وإنزال الكتب من عند الله رب العالمين.

فكل هذا لكي تحصل وتقع هذه الهداية -هداية الإرشاد والدلال والبيان- للمكلفين، ولا يشترط عندما يبين النبي أو الرسول ﷺ أن يتبع الناس الحقَّ ويسلكوا طريق الرشاد، بل قد يتخلف ذلك وإن كان البيان شرطًا لا بد منه؛ كي تقوم الحجة على العباد، ولكي يكون الكلام سليمًا حينما نقول: وإن كان البيان شرطًا في حصول وتحقيق هذا التوفيق واتباع الحق، ولذلك قال الحق -تبارك وتعالى- في بيان هذا النوع من الهداية: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] وقال -جل ذكره-: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥] فهداهم هدى البيان والدلالة،

فلم يهتدوا، فأضلهم؛ عقوبةً لهم على ترك الاهتداء أولًا بعد أن عرفوا الهدى فأعرضوا عنه، فأعماهم عنه بعد أن أراهموه.

وهذا فعله سبحانه في كل مَن أنعم عليه بنعمة فكفرها، فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣] فقال -جل ذكره-: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

وهذه الهداية التي ذكرتها وذكرت الأدلة عليها الآن -أعني: هداية الإرشاد والبيان للمكلفين والدلالة إلى طريق الحق والصواب- هي التي أثبتها الله لرسوله ﷺ فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] ونفَى عنه تلك الهداية الموجبة -أعني: هداية التوفيق والإلهام- وذلك كما جاء في قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] وهذه المرتبة أخص من التي قبلها؛ لأن التي قبلها هداية عامة، وهذه هداية تخص المكلفين، وهي حُجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامتها عليه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] وقال -جل ذكره-: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال سبحانه: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦، ٥٧].

فإن قيل: كيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى، وحال بينهم وبينه؟

قيل في الجواب على ذلك: حجته ﷻ قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى، وبيان الرسل لهم وإراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه إعلانًا، وقد

أقام لهم أسباب الهداية ظاهرة وباطنة، ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب، ومَن حال بينهم وبينها بزوال عقل أو صغر لا تمييز معه، أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله فإنه لا يعذبه؛ حتى يقيم عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهُدى ولم يحل بينهم وبينه، نعم، يقال: قطع عنهم توفيقه ولم يرد من نفسه إعانتهم، والإقبال بقلوبهم إليه، ولم يحل مع ذلك بينهم وبين ما هو مقدور لهم، وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه -وهو فعله ومشيئته وتوفيقه- فهذا غير مقدور لهم، وهو الذي منعوه وحِيل بينهم وبينه، فتأمل هذا الموضع واعرف قدره؛ لأنه يحل إشكالات كثيرة متعددة.

إذًا هذه الهداية -هداية البيان والإرشاد والدلالة إلى طريق الحق والخير والصواب- خاصة بالمكلفين، ثابتة للأنبياء والمرسلين، كما أثبتها الله ﷻ في كتابه لأنبيائه ورسله، وآخرهم خاتمهم محمد ﷺ الذي قال الله له في كتابه: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾.

المرتبة الأخرى: مرتبة هداية التوفيق والإلهام، وخلق المشيئة المستلزمة للفعل:

فالهداية بمعنى الضلالة لا تستلزم حصول المراد، فالناس جميعًا قد يسر الله لهم هذه الهداية ببعثة أنبيائه ومرسليه، ولكنهم لم يوفقوا جميعًا لاتباعهم؛ لأنها لا تستلزم حصول الهداية لجميع الناس؛ أما هداية التوفيق والإلهام وخَلْق المشيئة في القلب -أعني: خلق الإيمان في القلب ومشيئته- فهذه تستلزم وجودَ الفعل المراد، وهذه المرتبة أخص من التي قبلها؛ لأن هداية البيان والإرشاد والدلالة عامة للمكلفين جميعًا، أما هداية التوفيق والإلهام وخلق الإيمان في القلب، فهذه خاصة بصفوة من الناس رضي الله عنهم ولذلك هذه المرتبة أخص من المرتبة التي سبق أن ذكرتها الآن. وهذه المرتبة هي التي ضل جُهال القدرية بإنكارها، وصاح

عليهم سلف الأمة وأهل السنة منهم مِن نواحي الأرض عصرًا بعد عصر إلى وقتنا هذا. ولكن الجبرية ظلمتهم ولم تنصفهم، كما ظلموا أنفسهم بإنكار الأسباب والقوى الجبرية، وهم مبتدعة أيضًا، ظلموا القدرية وهم مبتدعة وما أنصفوهم.

وهؤلاء الجبرية أنكروا فعل العبد وقدرته، وأن يكون له تأثير في الفعل ألبتة، بخلاف القدرية المعتزلة، ولما رد الجبرية على القدرية ردوا بمنكرٍ وضلال، وهذا شأن مبطل إذا دعا مبطلًا آخر إلى ترك مذهبه لقوله ومذهبه الباطل، فإنه يقع أيضًا في ضلال، فإن القدرية والجبرية في طرفي نقيض؛ فالقدرية تقول: بأن العبد يخلق فعل نفسه، ولا دخلَ لإرادة الله فيه ولا لمشيئته، والجبريةتقول: العبد مجبور على فعله، فكلاهما في طرفي نقيض، والحق وسط بينهما -كما سيتبين ذلك في مناقشتي للقدرية والجبرية إن شاء الله تعالى- شهدوا أن هذه المرتبة -وهي مرتبة الهداية والتوفيق والإلهام، وخلق الإيمان في القلب- تستلزم أمرين؛ أحدهما: فعل الرب تعالى وهو الهدى، والثاني: فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر فعله ﷻ فالله ﷻ هو الهادي والعبد هو المهتدي، قال تعالى: ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِى ﴾ [الأعراف: ١٧٨] ولا سبيلَ إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصل فعله لم يحصل لا شك فعل العبد، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧] وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له ﷺ ولو حرِصَ عليه، فالهداية بمعنى خلق الإيمان في القلب والتوفيق خاصة برب العزة والجلال، ومنتفية عن غير الله ﷻ فهي منتفية عن النبي ﷺ ولو حرص عليها كما قال الله له، ولا تكون لأحد غير الله -تبارك وتعالى- فالله ﷻ إذا أضل عبدًا لم يكن لأحد سبيل بحال من الأحوال إلى هدايته، كما قال تعالى: ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩]

وقال تعالى ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر: ٨].

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

والقدرية ترد هذا كلَّه وتجعله من متشابه القرآن، وتتأوله على غير تأويله، بل تتأوله بما يقطع ببطلانه، وعدم إرادة المتكلم له، وتأويلهم في الحقيقة لهذا النوع من الهداية تأويل باطل، ولا يتم عن فكر أو عقل أو اتباع.

ماذا قالت القدرية في معنى: أن الله يهدي من يشاء ويضل مَن يشاء؟ وبأي شيء أوَّلوا هذه الآيةَ؟ وبماذا قالوا في الهدى والضلال؟

قال بعضهم: المراد بقوله: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ تسمية الله العبد مهتديًا وضالًّا فجعلوا هداه وإضلاله مجرد تسمية العبد بذلك، وهذا مما يعلم قطعًا أنه لا يصح حمل هذه الآية عليه، وأنتَ إذا تأملتها وجدتها لا تحتمل ما ذكروه ألبتة، وليس في لغة أمة من الأمم فضلًا عن أفصح اللغات وأكملها، أن جاءت كلمة "هداه" بمعنى سماه مهتديًا، أو أضله بمعنى سماه ضالًّا، وهل يصح أن يقال: عِلمه إذا سماه علمًا، وفهمه إذا سماه فَهمًا، وكيف يصح هذا في مثل قول الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]؟ فهل فَهِمَ أحدٌ غير القدرية المحرفة للقرآن من هذا: ليس عليك تسميتهم مهتدين، ولكن الله يسمي من يشاء مهتديًا؟ وهل فهم أحد قط من قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ تسميته مهتديًا ولكن الله يسميه بهذا الاسم؟ وهل فهم أحد من قول الداعي: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] أو اللهم اهدني من عندك، ونحو ذلك أن معناه: اللهم سمني مهتديًا؟

وتأول بعضهم هذه النصوص على أن المراد بها هداية البيان والتعريف لا خلق الهدى في القلب، فهكذا تأول بعضهم معنى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أنه صرَفَ هذا النوع من الهداية -وهو هداية التوفيق وخلق الإيمان في القلب- للمرتبة الأخرى وهي هداية البيان والدلالة، وقالوا: إن الله سبحانه لا يقدر على ذلك، وهذا من أبطل الباطل، فإن الله ﷻ أخبر أنه قسَّم هدايته للعبد قسمين؛ قسمًا لا يقدر عليه غيره، وقسمًا مقدور للعبد، وقال في المقسم المقدور للغير: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقال في غير المقدور للغير: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وقال سبحانه: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾.

خامسًا: تقسيم الإرادة وموقف القدرية والجبرية من هذا التقسيم

أ- تقسيم الإرادة عند أهل السنة والجماعة:

لتعلم أن أهل السنة والجماعة يقولون: الإرادةُ في كتاب الله تعالى نوعان:

إرادة قدرية خلقية أو كونية، وإرادة دينية شرعية.

فالإرادة الشرعية الدينية هي المتضمنة للمحبة والرضا، وأما الإرادة القدرية الكونية فهي المشيئة العامة الشاملة لجميع الموجودات، وهذه لا بد أن يقع مرادها، ولا تتضمن -أو لا يشترط فيها- أن تتضمن المحبة والرضا.

الأدلة على ذلك من كتاب الله -تبارك وتعالى- وتوضيح ذلك:

فالإرادة الشرعية الدليل عليها من القرآن الكريم، قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وهنا لو تأملنا ورجعنا إلى النظر في هذه الآية نجد أن الله أراد اليسر ولم يرد العسر، ومع ذلك وقع العسر عند بعض الناس ولم يكن للجميع يسر، فهذا النوع من الإرادة -

وأعني به: الإرادة الدينية الشرعية- لا يستلزم وقوع المراد إلا إذا تعلق به النوع الثاني من الإرادة -وأعني به: الإرادة الكونية القدرية- وهذه الإرادة -وهي الدينية الشرعية- تدل دلالة واضحة على أنه ﷻ لا يحب الذنوب والمعاصي، والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاها، وإن كان شاءَها خلقًا وإيجادًا، أنه سبحانه يحب ما يتعلق بالأمور الدينية ويرضاها، ويثيب عليها أصحابها ويدخلهم الجنةَ، وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وينصر بها العباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين.

أما الإرادة الكونية القدرية -وهي الإرادة الشاملة لجميع الموجودات- التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فما شاء الله كان يعني: أنه إذا وقع شيء وأراده رب العزة والجلال وشاءه وقع لا محالة، وما لم يرده وما لم يشأه سبحانه لا يكون، فلا يقع في ملك الله ما لا يريده رب العزة والجلال، وهذه الإرادة هي ما جاءت في مثل قول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وأيضًا كما جاء في قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ [هود: ٣٤] وهذه الإرادة إرادة شاملة لَكم، ما يقع في الكون لا يخرج عنها أحد من الكائنات بحال، فكل الحوادث الكونية داخلة في مراد الله ومشيئته هذه، وهذه يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وأهل الجنة وأهل النار، وهذه الإرادة تتناول ما حدث الطاعات والمعاصي دون ما لم يحدث منها.

والمخلوقات مع كل من الإرادتين أربعة أقسام:

الأول: ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله ﷻ أراده إرادة دين وشرع، وأمر به وأحبه ورضيه، وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك ما كان.

ومثال هذا القسم الأول: إيمان أبي بكر > فأبو بكر الصديق > رضي الله منه الإيمان وأحبه وأمره به، كما أراده كونًا وقدرًا، فاجتمعت فيه الإرادتان.

الثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها وقعت أم لم تقع، وقد سبق أنني قلت في هذه الإرادة: بأنها لا تستلزم وقوع المراد.

الثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره الله وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي، فإنه ﷻ لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يحبها؛ إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضَى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لَمَا كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ويمكن أن أوضح ذلك بمثال، وهو كفر أبي جهل، فكفر أبي جهل أراده الله كونًا وقدرًا وإن لم يرده دينًا وشرعًا.

الرابع: ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، يعني: لم تتعلق به لا الإرادة الكونية ولا الإرادة الشرعية، فهذا ما لم يقع ولم يوجد من أنواع المباحات والمعاصي، والسعيد مِن عباد الله من أراد الله منه تقديرًا ما أراد به تشريعًا، والعبد الشقي مَن أراد به تقديرًا ما لم يرد به تشريعًا. وأهل السنة والجماعة الذين فقهوا دين الله حق الفقه ولم يضربوا كتاب الله بعضَه ببعض، وعلموا أن أحكام الله في خلقه تجري وفق هاتين الإرادتين.

ب- موقف القدرية -وأعني بهم: المعتزلة والجبرية- من التقسيم:

لقد ضلت القدرية عن هذا التقسيم، وأسبابُ ضلال هؤلاء -يعني القدرية والجبرية- أن كل واحد من الفريقين رأى جزءًا من الحقيقة وعمي عن جزء منها،

فكان مثله مثل الأعور الذي يرَى أحد جانبي الشيء ولا يرى الجانب الآخر، فالقدرية النفاة الذين نفوا القدر قالوا: إن الله لا يريد الكفر والذنوب والمعاصي، ولا يحبها ولا يرضاها، فكيف نقول: إنه خلق أفعال العباد وفيها الكفر والذنوب والمعاصي؟ قالوا ذلك؛ لأنهم لم يفقهوا الإرادتين ولم يقسموا هذا التقسيم الذي ذهب إليه المحققون من أهل السنة والجماعة، أما الجبرية فقد آمنوا بأن الله خالق كل شيء، وزعموا أن كل شيء خلقه وأوجده فقد أحبه ورضيه، وهذا أيضًا ضلال منهم حيث لم يفقهوا مراد الله في كتابه، ويقسموا الإرادة إلى كونية قدرية؛ ليقع كل ما أراده الله سواء أحبه أو ورضيه، وبين الإرادة الدينية التي يحبها الله ويرضاها، ولكنها قد تتخلف.

ولو نظر هؤلاء إلى التقسيم الذي نظر إليه أهل السنة والجماعة، وفقهوا ما فقهه أهل السنة والجماعة، ما وقعوا في هذا الضلال.

مذهب المُخالفين لأهل السنة والجماعة في مسألة القضاء والقدر والرد عليهم

عناصر الدرس

مذهب القدرية وبدعتهم وبيان خطأ استدلالهم بالنصوص والرد عليهم

أولًا: مذهب القدرية وبدعتهم وبيان خطأ استدلالهم بالنصوص، والرد عليهم:

أ- بيان مذهب القدرية المكذبين بالقدر:

وقد ذَهَب هؤلاء الناس في هذا الباب إلى نفي القدر، وزعموا أن الله -تعالى عما يقولون- لا يعلم بالأشياء قبل حصولها، ولم يتقدم علم الله ﷻ بها، وقالوا: إن الله ﷻ لا يعلم بالموجودات إلا بعد خلقها وإيجادها!! وهؤلاء هم القدرية الأولى التي نفت علمَ الله السابق للأشياء، وزعم هؤلاء كذبًا وزورًا أن الله إذا أمر العباد ونهاهم لا يعلم مَن يطيعه ممن يعصيه، ولا يعلم مَن يدخل الجنة ممن يدخل النار، حتى إذا استجاب العباد لشرعه أو رفضوه علم السعداءَ منهم والأشقياء، ويرفض هؤلاء الضلال الإيمان بعلم الله المتقدم، كما يكذبون بأن الله كتب مقاديرَ الخلائق قبل خلق السموات والأرض كما ثبت في بالكتاب والسنة.

وقد نشأ القول بهذا في آخر عهد الصحابة وتبرءوا منهم، كما ذكر ابن عمر } وأول مَن قال بهذا هو معبد الجهني، ثم تقلد عنه هذا المذهب الفاسد رءوس المعتزلة وأئمتهم؛ كواصل بن عطاء الغزال، وعمرو بن عبيد، ورُويت عنهم في هذا أقوال شنيعة فيها تكذيب لله ولرسوله ﷺ في أن الله سبحانه علم الأشياء وكتبها قبل خلقها، وقد نص الأئمة على كفر هذه الطائفة التي لم تقر بعلم الله السابق للأشياء. وممن نص على كفرهم الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد، وقد ذكر

وأشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في (مجموع الفتاوى) الجزء الثامن، صفحة مائتين ثمانية وثمانين، وقد تلاشت بحمد الله هذه الطائفة التي تكذب بعلم الله السابق للأشياء.

يقول السفاريني -رحمه الله-: قال العلماء: المنكرون لهذا انقرضوا، وهم الذين كفرهم عليه الإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد، وغيرهم من الأئمة.

وقال القرطبي -رحمه الله تعالى-: قد انقرض هذا المذهب فلا نعرف أحدًا ينسب إليه من المتأخرين.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني -رحمه الله-: القدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف في زعمهم: بأن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم على وجه الاستقلال، وهو مع كونه مذهبًا باطلًا أخف من المذهب الأول، قال: والمتأخرون منهم أنكروا تعلقَ الإرادة بأفعال العباد؛ فرارًا من تعلق القديم بالمحدثات.

وقال النووي -رحمه الله-: قال أصحاب المقالة المتكلمين: انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل والذي لم يبقَ أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية من الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، ولكن يقولون: الخير من الله والشر من غيره -تعالى الله عن قولهم- وهؤلاء يطلق عليهم القدرية الثانية وهم المعتزلة الذين أثبتوا العلم السابق ونفوا خلقَ الله لأفعال العباد؛ ذلك لأن بدعة القدرية الأولى تشتمل على أمرين؛ الأمر الأول: نفي علم الله السابق للأشياء، الأمر الثاني: نفي خلق الله لأفعال العباد، وهؤلاء -كما ذكرت- انقرضوا وقد ذهبوا في روايات عهد الصحابة، وقد تبرأ منهم عبد الله بن عمر { ومَن سَمِعَ مِن بدعتهم.

ثم جاءت المعتزلة بعد ذلك وتبنت الشق الثاني، ألا وهو نفي خلق أفعال العباد وهؤلاء في الحقيقة مجوس ثنوية بل أعظم منهم؛ لأن الثنوية أثبتوا خالقَيْن للكون كله، وهؤلاء أثبتوا خالقين لكل فرد من الأفراد ولكل فعل من الأفعال، بل جعلوا المخلوقين كلهم خالقين، ولولا تناقضُهم لكانوا أكثر من المجوس وطرد قولهم ملازم ولازمه، وحاصله هو إخراج أفعال العباد عن خلق الله ﷻ وملكه، وأنها ليست في ربوبيته ﷻ وأنه يقول في ملكه ما لا يريد ويريد ما لا يقول، وأنهم أغنياء عن الله ﷻ فلا يستعينون على طاعته ولا ترك معصيته، ولا يعوذون بالله من شرور أنفسهم ولا من سيئات أعمالهم، ولا يستهدون الصراط المستقيم.

والقدرية بزعمهم أرادوا تنزيه الله وتقديسه عندما زعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر هو الذي شاء الكفر، وحجتهم في ذلك أن هذا يؤدي إلى الظلم، إذ كيف يشاء الله الكفر من الكافر ثم يعذبه عليه، ولكنهم -كما يقول (شارح الطحاوية) رحمه الله- صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فإنهم هربوا بشيء فقعوا فيما هو شر منه، فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه على قولهم والكافر قد شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى، وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليلَ عليه، بل مخالف للدليل، ومشيئة الله الكفر من الكافر ليس ظلمًا له كما يدعي أهل الظلم من القدرية، فلله الحجة البالغة وله في عباده من الحكم ما لا يعلمه إلا هو -تبارك وتعالى- ويكفي أن نسمع هذا الحديث.

ففي (صحيح مسلم) عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لعمران بن حصين > :

((أرأيت ما يعمل الناس ويكدحون فيه، أشيء قُضي عليهم من قدر ما سبق

وفيما يستقبلون به مما آتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكون ظلمًا؟ قال: ففزعت فزعًا شديدًا وقلت: كل شيء خَلْق الله ومِلْك يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا لأحرز عقلك؛ إن رجلين من مُزينةَ أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله ﷺ أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضِيَ عليهم ومضى فيه من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: لا، بل شيء قضي عليهم ومضى، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨])).

وفي (سنن أبي داود) عن ابن الديلمي قال: "أتيت أُبي بن كعب، فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يزيله من قلبي، قال: لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه، عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبًا في سبيل الله ما تقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مِت على غير هذا لدخلت النار. قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود > فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان > فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت > فقال مثل ذلك".

والقدرية بمسلكهم هذا -أعني: أن الله ﷻ لم يشأ الكفر من الكافر- جعلوا لأهل الضلال سبيلًا عليهم، فقد ذكر عمر بن الهيثم قال: "خرجنا في سفينة وصحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري للمجوسي: أسلم، فقال المجوسي له: حتى يريد الله، فقال القدري: إن الله يريد ولكن الشيطانَ لا يريد، قال

المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان، هذا شيطان قوي"، وفي رواية أنه قال: "فأنا مع أقواهما".

ب- بيان خطأ القدرية واستدلالهم بالنصوص، والرد عليهم:

ومن ذلك أنهم قالوا: قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦] من العام المراد به الخاص، ولا سيما يقولون هذا لأهل السنة: إنكم قلتم: إن القرآن لم يدخل في هذا العموم وهو من أعظم الأشياء وأجلها، فخصصنا منه أفعال العباد بالأدلة الدالة على كونها فعلهم ومنعهم.

قال لهم أهل السنة: القرآن كلام الله سبحانه، وكلامه صفة من صفاته، وصفات الخالق وذاته لم تدخل في المخلوق، فإن الخالق غير المخلوق، فليس ها هنا تخصيص ألبتة، بل الله سبحانه بذاته وصفاته الخالقُ، وكل ما عداه مخلوق، وذلك عموم لا تخصيص فيه بوجه؛ إذ ليس إلا الخالق والمخلوق، والله وحده الخالق وما سواه كله مخلوق.

ثم قالت القدرية أيضًا مستدلين بهذا النص وقد أخطئوا فيه قالوا: معنى قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يعني: مما لا يقدر عليه غيره، وأما أفعال العباد التي يقدر عليها العباد فإضافتها إليهم ينفي إضافتها إليه، وإلا لزِمَ وقوع مفعولين من فاعلين، وهو محال.

قال لهم أهل السنة: إضافتها إليهم فعلًا -يعني: إضافة الأعمال إلى العباد فعلًا- لا ينفي إضافتها إلى الله ﷻ خلقًا ومشيئة، فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها، وهم الذين فعلوها حقيقةً، فلو لم تكن مضافةً إلى مشيئته وقدرته وخَلْقه

لاستحال وقوعها منهم ؛ إذ العباد أعجز وأضعفُ مِن أن يفعلوا ما لم يشأه الله ولم يقدر عليه ولا خَلَقه ﷻ ومما يدل على قدرة الله ﷻ على أفعالهم قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ .

واعتراض القدرية على الاستدلال بذلك والجواب عنه نظيرُ الاعتراض على قوله : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ .

وجوابه : ونزيده تقريرًا أن أفعالهم أشياء ممكنة ، والله قادر على كل ممكن ، فهو الذي جعلهم فاعلين بقدرته ومشيئته ، ولو شاء لحال بينهم وبين الفعل مع سلامة آلة الفعل منهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فهو سبحانه يحول بين المرء وقلبه ، وبين الإنسان ونطقه ، وبين اليد وبطشها ، وبين الرجل ومشيها ، فكيف يُظن به ظن السوء ، ويُجعل له سبحانه مثلُ السوء !! وهو أنه لا يقدر على ما يَقدر عليه عباده ، لا تدخل أفعالهم تحت قدرته. تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون لقدرته علوًّا كبيرًا.

ومما قالت القدرية أيضًا : نحن نقول : إن الله خالق أفعال العباد لا على أنه محدثها ومخترعها ، لكن على معنى أنه مقدرها ، فإن الخلق التقدير كما قال تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

قال أهل السنة لهم : قدماؤكم ينكرون تقدير الله سبحانه لأعمال العباد ألبتة ، فلا يمكنهم أن يجيبوا بذلك ، ومن اعترف منكم بالتقدير فهو تقدير لا يرجع إلى

تأثير، وإنما هو مجرد العلم بها والخبر عنها وليس التقدير عندكم جعلها على قدر كذا وكذا، فإن هذا عندكم غير مقدور للرب ولا مصنوع له، وإنما هو صنع العبد وإحداثه، فرجع التقدير إلى مجرد العلم والخبر، وهذا لا يسمى خلقًا في لغة أمة من الأمم.

ومما نرد به عليهم ونبطل باطلهم: قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [المائدة: ١٤] وقوله: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [المائدة: ٦٤] وهذا الإغراء والإلقاء هو محض فعل الله سبحانه، والتعادي والتباغض أثره وهو محض فعلهم، وأصل ضلال القدرية والجبرية من عدم اهتدائهم إلى الفرق بين فعله ﷻ وبين فعل العبد؛ فالجبرية جعلوا التعادي والتباغض فعلَ الرب دون المتعادين والمتباغضين، والقدرية جعلوا ذلك محض فعلهم الذي لا صنعَ لله فيه، ولا قدرة له، ولا مشيئة، وأهل الصراط السوي جعلوا ذلك فعلهم، وهو أثر فعل الله ﷯ وقدرته ومشيئته، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢] فالتسيير فعله سبحانه، والسير هو فعل العبد، وهو أثر التيسير، وكذلك الهدى والإضلال فعله سبحانه، والاهتداء والضلال هو أثر فعله، وهما أفعالنا القائمة بنا، فهو سبحانه الهادي والعبد المهتدي، وهو الذي يضل مَن يشاء والعبد الضال، وهذه الحقيقة، والطائفتان عن الصراط المستقيم ناكبتان.

ومثل ذلك -أعني: مما نرد به عليهم- ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤] ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ ﴾ هذا كلام الله له: ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ فالتثبيت فعل الله ﷻ والثبات فعل رسوله ﷺ فهو ﷻ المثبت، وعبده هو

الثابت، ولذلك خليل الرحمن إبراهيم # أدرك ذلك، فقال لربه: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فها هنا أمران؛ تجنيب عبادتها واجتنابه، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها؛ ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم، والتجنيب فعله، ولا سبيلَ إلى فعلهم -أعني: فعل العبد- إلا بما فعل الله -تبارك وتعالى.

ونظير ذلك قول يوسف الصديق # : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤] وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن، وتلك أفعال اختيارية، وهو ﷻ الصارف لها، فالصرف فعله سبحانه، والانصراف أثر فعله، وهو فعل النسوة، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣] فأخبر هنا ربنا ﷻ أنه هو الذي قسَّى قلوبهم حتى صارت قاسيةً، فالقساوة وصفها وفعلها، وهي أثر فعله، وهو جعلها قاسيةً، وذلك أثر معاصيهم، ونقضهم ميثاقهم، وهذه كلها أدلة نرد بها على القدرية.

و قالوا: كيف يخلق الله الشر ويقدره ثم بعد ذلك يحاسب عليه والله منزه عنه؟

وجواب هذه الشبهة: قد بينه العلماء أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما، ببيان ما في خلق إبليس والحشرات والكواسر من الحكمة والرحمة، فالشيء الواحد يكون خلقه باعتبار خيرًا، وباعتبار آخر شرًّا، فالله خلق إبليس يبتلي به عباده، فمنهم مَن يمقته ويحاربه، ويحارب منهجه، ويعاديه، ويعادي

أولياءه، ويوالي الرحمن ويخضع له، ومنهم من يواليه ويتبع خطواته -أي: الشيطان- فهو سبحانه خالق الخير والشر، والشر يكون في بعض مخلوقاته لا في خلقه ﷻ وفعله، ولهذا فالشر لا يضاف إلى الله وصفًا ولا فعلًا، وإنما يدخل الشر في مفعولات الله تعالى بطريق العموم كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١، ٢] فهنا دخل الشر بإطلاقٍ في مفعولات الله -تبارك وتعالى- وليس في فعله ﷻ فأفعاله كلها خير.

وقد يذكر الله ﷻ الشر في كتابه ويحذف فاعله كقوله تعالى حكايةً عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] ولذلك كان النبي ﷺ يثني على ربه ويكثر من هذا الدعاء، وهذا الثناء: ((والخير كله بيديك، والشر ليس إليك)) يعني: لا يرجع إليك ولا يعود إليك منه حكم، ولم تخلق يا ربنا شرًّا محضًا، وهذا لكمال علمه، وعظمته، وعدله ﷻ.

جـ- محاورة أهل السنة للقدرية:

بعد أن بينت خطأ استدلالهم بالنصوص، أود أن أبين هنا: كيف أن منطق المعتزلة ما استطاع أن يقف في مجال الحِجاج مع عوام أهل السنة، فضلًا عن علمائهم.

فقد ذكر مثلًا أهل العلم أن أعرابيًّا أتى عمرو بن عبيد -وهو من كبار رجالات المعتزلة- فقال له: إن ناقتي سُرقت فادع الله أن يردها عليَّ، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إن ناقة هذا الفقير سرقت ولم ترد سرقتها، اللهم ارددها عليه، فقال الأعرابي: الآن ذهبت ناقتي وأيستُ منها، قال: وكيف؟ قال: لأنه إذا أراد ألا تسرق فسرقت لم آمَن ألا يريد رجوعها فلا ترجع، ونهض من عنده منصرفًا.

ومن المحاورات الجميلة العلمية في هذا المجال كذلك، محاورة عبد الجبار الهمداني التي وقعت بينه وبين أبي إسحاق الإسفراييني، وذلك لما دخل عبد الجبار الهمداني -أحد شيوخ المعتزلة- على الصاحب بن عباس وعنده أبو إسحاق الإسفراييني أحد أئمة السنة، فلما رأى الأستاذ قال: سبحان مَن تنزه عن الفحشاء فقال الأستاذ فورًا: سبحان مَن لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، فقال القاضي: أيشاء ربنا أن يُعصى؟ فقال: الأستاذ أيعصى ربنا قهرًا؟ فقال القاضي: أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى، أحسنَ إلي أم أساء؟ فقال الأستاذ له: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء، فبُهت القاضي المعتزلي.

د- ذكر بعض النصوص الواردة في ذم القدرية:

إن النبي ﷺ حَذَّرَ منهم أشد تحذير -أي: من القدرية- لأنه يخشى على أمته من هذا الضلال الذي وقعوا فيه.

ففي الحديث الذي يرويه ابن أبي محجم > أن رسول الله ﷺ قال: ((أخاف على أمتي من بعدي ثلاثة: حَيف الأئمة، وإيمانًا بالنجوم، وتكذيبًا بالقدر)) وسمى الرسول ﷺ هذا الفريق بمجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس يقولون بوجود خالقين اثنين: النور والظلمة، وهذا الفريق يقولون بوجود خالقين، بل يزعمون أن كل واحد خالق من دون الله تعالى، وقد أمر الرسول ﷺ بهجران هذا الفريق، فلا يُزارون ولا يعادون.

وفي الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده بإسناد حسن، عن ابن عمر } عن النبي ﷺ قال: "لكل أمة مجوس، ومجوسُ أمتي الذين يقولون: لا قدرَ، إن مرضوا فلا تعودهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم".

ثانيًا: مذهب الجبرية والرد على ضلالهم:

١- بيان مذهب الجبرية:

الذين قالوا: إن الله شاء وأراد كل ما يقع في الكون، ويسمون بالجبرية لقولهم: إن الله أجبر العباد على أفعالهم، كما يسمون أيضًا بالقدرية. قال (شارح الطحاوية) -رحمه الله-: وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر "قدريةً" أيضًا، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب، ويعني بذلك: القدرية المعتزلة.

قدرية الجبرية غلاة، وقدرية المعتزلة نفاة. ما معنى هذا؟

معنى القدرية الجبرية: الغلاة الذين غلوا في القدر، فقالوا: إن الله ﷻ ليس هو خالق أفعال العباد فقط، وإنما العبد مجبور على كل فعل، حتى تصرفاته الاختيارية التي مكنه الله ﷻ منها.

القسم الثاني: القدرية النُّفاة الذين ينفون قدرة الله ﷻ لأفعال المخلوقين، وإنما قالوا: إن المخلوقين هم الفاعلون لكل فعل، فنفوا قدر الله ﷻ.

إذًا هؤلاء الجبرية قد ضلوا أيضًا في باب القدر حينما قالوا: إذا كان الله عالمًا بكل شيء نفعله، وعالمًا بمصيرنا إلى الجنة أو إلى النار، وكان هو الخالق لأفعالنا فلماذا نعمل وننصب -أي: ونتعب-؟ ولماذا لا نترك الأقدار في أعنتها وسيأتينا إذًا ما قُدر لنا شئنا أم أبينا؟ ويقول على هذا شاعرهم:

دع الأقدار تسير في أعنتها ❖ ولا تبيتن إلا خالي البال

وهذه الضلالة قد تعمقت عند طوائف العباد والزهاد وأهل التصوف، ولم تقله طائفة معدودة من طوائف أهل المقالات، وكان -ولا يزال- هذا القول على ألسنة كثير من جهال المسلمين وأهل الزيغ والزندقة، وهذا الفريق -أعني:

الجبرية- يؤمن بقدر الله ﷻ وأنه ﷻ عالم بكل شيء، وخالق لكل شيء، ولكنهم زعموا: أن كل ما خلقه الله وشاءه فقد رضيه وأحبه، وزعموا أنه لا حاجة بالعباد إلى العمل والأخذ بالأسباب، فما قُدر لهم سيأتيهم، وزعموا أن العباد مجبورون على أفعالهم، فالإنسان عندهم ليس له قدرة تؤثر في الفعل، بل هو مع القدر كالريشة في مَهب الريح.

وقد عرض شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- لهذا الفريق ومعتقده، وبيّن في مواضع من كتبه ضلال ما هم فيه، فقال: الذين اعترفوا بالقضاء والقدر وزعموا أن ذلك يوافق الأمر والنهي، فهؤلاء يئول أمرهم إلى تعطيل الشرائع والأمر والنهي، مع الاعتراف بالربوبية العامة لكل مخلوق، وأنه ما مِن دابة إلا ربي آخذ بناصيتها، وهذا هو الذي يَبتلي به كثيرًا، إما اعتقادًا وإما حالًا طوائف من الصوفية والفقراء، حتى يخرجَ مَن يخرج منهم إلى الإباحة للمحرمات، وإسقاط الواجبات، ورفع العقوبات.

ولام بعضهم بعضَ هؤلاء على فعله، فقال: إن كنت قد عصيته أمره فقد أطعت إرادته، ومطيع الإرادة غير ملوم، وهو في الحقيقة غير مذموم، وقرر محققوهم من المتكلمين في هذا المذهب: بأن الإرادة والمشيئة في حق الرب تعالى هي واحدة، فمحبته هي نفس مشيئته، وكل ما في الكون فقد أراده وشاءه، وكل ما شاءه فقد أحبه. وهذا خطأ كبير. ولقد ظنت هذه الفرقة بالله أسوأ الظنون، ونسبته لأقبح الظلم، وقالوا: إن أوامر الرب ونواهيه كتكليف العبد أمرًا ثم ينهاه عنه، وينشدون:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له ❖ إياك إياك أن تبتل بالماء

وهذا السبب هو الذي جعل الاتجاه السائد في كل العصور هو الجبر، ولذلك يقول ابن القيم -رحمه الله-: "عقيدة الجبر تحمل عن الإنسان تبعاته وتضع عنه

أوزار ما اقترف من الإثم، وتلق التبعة على القوة التي حُركت إرادة الإنسان، ودفعت رغبته وقادته في تصرفاته" انتهى كلامه.

٢. الرد على ضلالهم:

ونرد عليهم من وجوه متعددة:

الوجه الأول: خطؤهم في إطلاق اسم الجبر على ما يؤديه الإنسان من أفعال:

استَعمل هؤلاء لفظًا لم يرد به الكتاب ولا السنة، والواجب على العباد أن يستخدموا الألفاظ التي جاءت بها النصوص. روى اللالكائي بإسناده إلى بقية قال: سألت الأوزاعي والزبيدي عن الجبر، فقال الزبيدي: أمر الله أعظم، وقدرته أعظم من أن يجبر ويقهر، ولكن يقضي ويقدر، ويخلق ويجبل عبده على ما أحب، وقال الأوزاعي -رحمه الله-: ما أعرف للجبر أصلًا من القرآن والسنة فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل، فهذا يُعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ.

وقد ورد مثلُ هذه الأقوال عن جَمْع من علماء السلف؛ مثل سفيان الثوري وأبي إسحاق الفزاري، وغيرهم.

وقد ذكر شيخ الإسلام عن أبي بكر الخلال في كتابه (السنة): أن المروزي قال للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، رجل يقول: إن الله أجبر العباد، فقال: هكذا لا نقول، وأنكر ذلك وقال: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١].

الوجه الثاني: إنكار الاختيار في أفعال العباد الذي ذكروه:

هو في الحقيقة نقصٌ في العقل، فالذين يزعمون أن الإنسان ليس له إرادة يفعل بها ألغوا عقولهم فضلوا وأضلوا، وإلا فإننا نعلم من أنفسنا أن حركتنا ليست كحركة الجماد الذي لا يملك شيئًا لذاته في تحركه وسكونه، بل إننا نفرق بين

الحركات غير الإرادية التي تجري في أجسادنا وبين الحركات الإرادية، فحركة القلب مثلًا وجريان الدم في دورته في عروق الإنسان ليس لنا فيها خيار، بل هي حركات اضطرارية ليس للإنسان إرادة في إيجادها وتحقيقها، أما أكل الإنسان وشربه، وركوبه، وبيعه وشراؤه، وقعوده وقيامه، وزواجه وطلاقه، ونحو ذلك، فهذا يتم بإرادته وقدرته ومشيئته.

فَمَن يقول بالجبر إذًا يلزم من قوله نقص العقل، وأن الإنسان غير مدرك لِمَا يقوم به ويفعله.

الوجه الثالث: هو ما ذهبوا إليه من أن كل شيء قدره الله وخلقه، فقد رضيه وأحبه:

هكذا زعموا، وهذا زعم باطل؛ لأن الله تبارك وتعالى شاء وجود الكفر والشرك والذنوب، والمعاصي من الزنا والسرقة، وعقوق الوالدين، والكذب، وقول الزور، وأكل أموال الناس بالباطل، ولكنه تبارك وتعالى كرهها وأبغضها ونهى عباده عنها، فهو تبارك وتعالى وإن شاءها وأرادها كونًا وقدرًا إلا أنه يبغضها دينًا وشرعًا.

الوجه الرابع: ما ذهبوا إليه من أن الإيمان بالقدر يقضي بترك الأعمال، وإهمال الأسباب:

هكذا ذهبوا، وهكذا زعموا، ولقد أخطأ هؤلاء في دعواهم: أن الإيمان بالقدر لا يحتاج العبد معه إلى العمل، ونسي هؤلاء وذهلوا عن حقيقة القدر، فالله عز وجل قدر النتائج وأسبابها، ولم يقدر المسببات من غير أسباب، فَمَن زعم أن الله تبارك وتعالى قدر النتائج والمسببات من غير مقدماتها وأسبابها، فقد أعظمَ على الله الفريةَ، فالله عز وجل إذا قَدر أن يرزق فلانًا رزقًا فقد جعل لذلك الرزق أسبابًا ينال بها، فمن ادعى ألا حاجة به إلى السعي في طلب الرزق، وأن ما قدر إليه من رزق سوف يأتيه سعى أم لم يسع، لم يفقه قدر الله تبارك وتعالى في عباده.

ونصوص الكتاب والسنة دالة وحافلة بالأمر باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شئون الحياة، فقد أمر بالسعي والعمل في طلب الرزق، واتخاذ العدة لمواجهة الأعداء، والتزود للأسفار، ومن ذلك: قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠].

إن الأخذ بالأسباب هو من قدر الله -تبارك وتعالى- وليس مناقضًا للقدر ولا منافيًا له حتى يترك الإنسان العمل ويهمل الأسباب؛ فقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن فائدة العمل إذا كانت الأعمال مقدرة مقضية جَفَّ بها القلم وفرغ منها رب العالمين، فقال ﷺ لما سئل عن ذلك: ((اعملوا، فكل ميسر لِمَا خلق له، وقرأ ﷺ عند ذلك: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾)) [الليل: ٥- ١٠].

وقال بعض الصحابة } الذين فقهوا عن الله ورسوله مرادَه لما سمع أحاديث القدر، قال: "ما كنت بأشد اجتهادًا مني الآن".

ولذلك العلماء قالوا: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، يعني: أنه لا بد من اتخاذ الأسباب والعمل بها والسعي في تحصيلها، ولذلك كان محو الأسباب أن تكون أسبابًا نقصًا في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدحًا في الشرع، وإنما التوكل والرجاء معنًى يتألف من موجب التوحيد، والعقل، والشرع.

والعقلاء من البشر يعلمون أنهم لا يستقلون بفعل ما يريدون، فكثير منهم تتهيأ له الأسباب، ثم يحال بينه وبين ما يشتهي، وقد ذكر اللالكائي -رحمه الله تعالى- في كتابه (شرح أصول أهل السنة والجماعة): أن رجلًا طلب من جاريته أن تسقيه، فجاءته بقدح من زجاج فصبت له ماءً فوضعه على راحته، ثم رفعه إلى

فِيه، ثم قال: يزعم ناس أني لا أستطيع أن أشرب هذا، ثم قال: هي حرة إن لم أشربه، يعني: جاريته التي صبت الماء وكأنه ينفي قدرة الله ﷻ وإرادةَ الله ﷾ ففطنت الجارية لما كان منه، فما كان منها إلا أن ضربت القدح بطرف قميصها، فوقع القدح وانكسر وأهريق الماء، ولم يتمكن من الشراب.

وهكذا أثبتت هذه الجارية لهذا المسكين أنه لا يقدر على كل ما لم يرد ما لم يقدره الله ﷻ.

الوجه الخامس: احتجاج القدر:

فهؤلاء يحتجون بالقدر على ترك العمل، فتجد الواحد منهم عندما يدعى إلى الصلاة والصيام وقراءة القرآن، يقول: لو شاء الله لي أن أعمل هذا عملته، كما يحتجون به على ما يوقعونه بالناس من الظلم والفساد، ويقولون في المظالم والمناكر والمفاسد التي تقع: هذه هي إرادة الله ومشيئته وليس لنا حيلة في ذلك، وقد أدى هذا بهم ذلك إلى ترك الباطل يستشري في ديار المسلمين، وترى هذا الصنف من البشر خاضعين للظلمة، بل إن بعضًا منهم يصبحوا أعوانًا للظلمة، وتراهم يخاطبون الناس قائلين: ليس لكم إلا أن تصبروا على مشيئة الله وقدره فيكم، وترى بعض هؤلاء يفعلون الموبقات، ويرتكبون المنكرات من الزنا والفسوق والعصيان، ويحتجون لأفعالهم بالقدر، وهؤلاء إن اعتقدوا أن كل شيء واقع، فهو حجة، أضحكوا العقلاء منهم، وأوقعوا أنفسهم في مأزق لا يجدون منه خلاصًا.

وذكر ابن القيم -رحمه الله- عن واحد من هؤلاء أنه رأى غلامه يفجر بجاريته، فلما أراد معاقبتهما -وكان غلامه يعرف مذهب سيده في القدر- فقال له: إن القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك، فقال له ذلك الجاهل: لعلمك بالقضاء والقدر أحب إليَّ من كل شيء، أنت حر لوجه الله. فتأمل كيف أن

الغلام سفه بعقل هذا الرجل لما كان لا يؤمن بالقدر، واحتج بما يؤمن هو به على المنكر الذي وقع فيه هذا الرجل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: العبد له في المقدور حالان؛ حال قبل القدر، وحال بعده، فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله، وأن يتوكل عليه وأن يدعوه، فإذا قدر المقدور ووقع المقدور بغير فعله، فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به، وإن كان بفعله وهو نعمة، حمد الله على ذلك، وإن كان ذنبًا استغفر إلى الله ﷻ من ذلك. وله في المأمور حالان؛ حال قبل الفعل، وهو العزم على الامتثال، والاستعانة بالله على ذلك، وحال بعد الفعل، وهو الاستغفار من التقصير، وشكر الله على ما أنعم به من الخير، قال الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥] أمره أن يصبر على المصائب المقدرة، وأن يستغفر من الذنب، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقال ﷺ ليوسف # : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠]. فذكر الصبر على المصائب والتقوى بترك المعائب.

وقال النبي ﷺ: ((احرِصْ على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عملَ الشيطان)).

وبهذه الأوجه يظهر ويتبين لنا فساد مذهب الجبرية، وأنهم ضلوا حينما زعموا: أن العبد مجبور على أفعاله، وأن ما يرتكبونه من آثام ومنكرات، فإن الله ﷻ رضيها كما شاءها وأحبها والله ﷻ منزه عن ذلك.

خلاصة قول الجبرية والقدرية، ورد الإمام ابن القيم عليهما:

يقول -رحمه الله تعالى-: قال جهم وأتباعه: إن القادر على الحقيقة هو الله وحده، وهو الفاعل حقًّا، ومَن سواه ليس بفاعل على الحقيقة، ولا كاسب أصلًا، بل هو مضطر إلى جميع ما فيه من حركة وسكون، وقول القائل: قام وقعد وأكل وشرب، مجاز بمنزلة مات وكبر، ووقع وطلعت الشمس وغربت، وهذا قول الجبرية الغلاة.

وقابل لهؤلاء الجبرية -كما ذكر الإمام ابن القيم- طائفة أخرى؛ فقالوا: العباد موجودون لأفعالهم، مخترعون لها بقدرتهم وإرادتهم، والرب ﷻ لا يُوصف بالقدرة على مقدور العبد، ولا تدخل أفعالهم تحت قدرته، وكلهم متفقون على أن الله سبحانه غير فاعل لأفعال العباد.

ثم قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: وأرباب هذه المذاهب مع كل طائفة منهم خطأ وصواب، وبعضهم أقرب إلى الخطأ، وأدلة كل منهم وحججه إنما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى، لا على إبطال ما أصابوا فيه، فكل دليل صحيح تقيمه القدرية فإنما يدل على أن أفعال العباد فِعْلٌ لهم، قائم بهم، وواقع بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم، وأنهم مختارون لها غير مضطرين ولا مجبورين، فأدلة الجبرية إذًا متضافرة صحيحة على مَن نَفَى قدرة الرب سبحانه على كل شيء من الأعيان والأفعال، ونَفْي عموم مشيئته وخلقه لكل موجود، وأثبت في الوجود شيئًا بدون مشيئته وخلقه.

أدلة الجبرية في هذا صحيحة نرد بها على القدرية المعتزلة الذين نفوا قدرةَ الله ﷻ على كل شيء وخَلْقه لأفعال العباد؛ لأن المعتزلة نفوا عمومًا مشيئة الله ﷻ فأدلة الجبرية صحيحة في الرد على هؤلاء القدرية، وكما أن أدلة الجبرية صحيحة على هؤلاء القدرية حينما نفوا قدرة الرب -تبارك وتعالى- فأدلة القدرية أيضًا

متضافرة صحيحة على مَن نفى فعل العبد وقدرته ومشيئته واختياره، وهم بذلك يردون على الجبرية.

ثم بعد ذلك يوضح من خلال آيات القرآن الكريم، ويقرب هذه المسألة ويجمع بين الحق والصواب؛ فيقول ابن القيم -رحمه الله-: وهو الذي يسير عبده في البر والبحر، وهو المسير، والعبد السائر، وهو بهذا يشير إلى قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢] حتى لا تعتل الجبرية بذلك فيقولوا: بأن الله هو المسير والعبد هو السائر.

إذًا الله خلق قدرةَ السير في العبد، وأوجدها فيه، والعبد قام بفعل السير، وهو المحرك والعبد المتحرك، وهو المقيم والعبد القائم، وهو الهادي سبحانه والعبد المهتدي، وأنه المطعم والعبد الطاعم، وهو المحيي المميت والعبد الذي يحيى ويموت، ويثبتون مع ذلك قدرة العبد وإرادته واختياره وفعله حقيقةً لا مجازًا. فالله ﷻ خلق الفعل في العبد، وأقدره عليه، وشاءه منه، وأراده، والعبد يقوم بفعل ما شاءه الله وأرادَه، وكل على حقيقته، ففعل الله على الحقيقة، وفعل العبد واقع منه على الحقيقة، وهذا تفصيل جيد في هذه المسألة الدقيقة.

وبهذا ظهر لنا فساد قول هذه الطوائف كلها -أعني: بذلك: الجبرية والقدرية- وأن المنهج الوسط الحق هو منهج أهل السنة والجماعة.

إشكالات ومسائل تتعلق بالقضاء والقدر، وثمرات الإيمان به

أولًا: بعض الإشكالات المتعلقة بالقضاء والقدر

الإشكال الأول: ما حكاه الله ﷻ عن المشركين من اعتلالهم بالقدر؛ حيث احتج أعداء الرسول ﷺ بالقدر فقالوا -كما ذكر الله عنهم-: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ

﴿أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فهذه الآية وغيرها حكى الله ﷻ فيها الاحتجاج بالقدر عن أعدائه، وشيخهم وإمامهم في ذلك عدوه الأحقر إبليس؛ حيث احتج على الله بقضائه، فقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

فإن قيل: قد علم بالنصوص والمعقول صحة قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣] فكيف أكذبهم ونفى عنهم العلم وأثبت لهم الخرص فيما هم فيه صادقون؟!.

وأهل السنة جميعًا يقولون: لو شاء الله ما أشرك به مشرك، ولا كفر به كافر، ولا عصاه أحد من خلقه، فكيف ينكر عليهم ما هم فيه صادقون؟

قيل: أنكر سبحانه عليهم ما هم فيه من أكذب الكاذبين وأفجر الفاجرين، ولم ينكر عليهم صدقًا ولا حقًّا، بل أنكر عليهم أبطل الباطل، فإنهم لم يذكروا ما ذكروه إثباتًا لقدره ولربوبيته ووحدانيته، ولو قالوا كذلك لكانوا مصيبين، وإنما قالوا معارضين لشرعه ودافعين به لأمره، فعارضوا شرعه وأمره ودافعوه بقضائه وقدره، فإنهم احتجوا بمشيئته العامة وقدره على محبته لما شاءه ورضي به وأذن به -يعني: أنهم احتجوا بمشيئة الله ﷻ العامة على محبته لما شاءه ورضي به وأذن فيه- فجمعوا بين أنواع من الضلال معارضة الأمر بالقدر ودفعه به، والإخبار عن الله أنه يحب ذلك ويرضاه، حيث شاءه وقضاه.

ولهذا عقب رب العزة والجلال ﷻ على ما ذكرته آنفًا من الآية الواردة في سورة "الأنعام"، عقب وختم ذلك بقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ

﴿أَجْمَعِينَ﴾ ، فهذا الختام بهذا القول بيان على أن الحجة لله ﷻ على هؤلاء المشركين برسل الله وكتبه، والله ﷻ بين ما ينفعهم ويضرهم، وبين تمكنهم من الإيمان بمعرفة أوامره ونواهيه، وأعطاهم رب العزة والجلال الأسماع والأبصار والعقول، فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك، واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه، فلا يجوز لعاقل أن يحتج بقدر الله ﷻ على ما يقع منه من معاصٍ وذنوب وسيئات، وما إلى ذلك؛ لأن القدر لا يحتج به عند المعائب، وإن كان يحتج به عند المصائب.

الإشكال الثاني: استدلال القدرية بحديث احتجاج آدم وموسى

المعتزلة والجبرية لم يفقهوا هذا الحديث، وقد استدلت به القدرية والجبرية كلٌّ في غير موضعه ومكانه، وحديث احتجاج آدم وموسى أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: ((احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده، أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنةً، فقال النبي ﷺ: فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى)).

فقد رد هذا الحديث مَن لم يفهمه من المعتزلة كأبي علي الجبائي ومَن وافقه على ذلك. وأبو علي الجبائي أحد أئمة وشيوخ المعتزلة، واسمه محمد بن عبد الوهاب البصري، مات سنة ثلاث وثلاثمائة، وقال الجبائي: لو صح هذا الحديث لبطلت نبوات الأنبياء، فإن القدر إذا كان حجة للعاصي بطل الأمر والنهي، فإن العاصي بترك الأمر أو فعل النهي إن صحت له الحجة بالقدر السابق، ارتفع

اللوم عنه، وهذا من ضلال فرق الاعتزال، وجهلهم بالله ورسوله ﷺ وسنته، فإن هذا حديث صحيح متفق على صحته، لم تزل الأمة تتلقاه بالقبول من عهد نبينا ﷺ قرنًا بعد قرن.

إذًا فريق المعتزلة ضل في هذا الحديث حينما ردوه وكذبوا به، ولم يقبلوه، وزعموا أن النبي ﷺ لم يقله، كذلك أيضًا ضلت الجبرية في فهم هذا الحديث، واستدلوا به على بدعتهم، فقالوا: إن آدم حج موسى؛ لأن آدم شهد الحكم وجريانه على الخليقة، وتفرد الرب ﷻ بربوبيته؛ لأنه لا تتحرك ذرة إلا بمشيئته وعلمه، وأنه لا راد لقضائه وقدره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

قالوا: ومشاهدة العبد الحكم لا يدع له استقباح سيئة؛ لأنه شهد نفسه عدمًا محضًا، والأحكام جارية عليه معروفة له، وهو مقهور مربوب مدبر، لا حيلة له ولا قوة له، قالوا: ومَن شهد هذا المشهد سقط عنه اللوم، فالقدرية قالوا ما قالوا في ردهم لهذا الحديث كي يبطلوا قول الجبرية، وهم بلا شك أصابوا في ردهم على الجبرية وإبطال قولهم، ولكنهم وقعوا في خطأ عظيم حينما ردوا حديث رسول الله ﷺ فإن هذا المسلك، أعني: مسلك الجبرية وقولهم: بأنه شاهد الحقيقة ومَن شاهد الحقيقة لا شيء عليه، وهو معلوم.

لو صح هذا المسلك لبطلت الديانات جملةً، وكان القدر حجة لكل مشرك وكافر وظالم، ولم يبقَ للحدود معنًى، ولهذا قال ابن سينا في إشاراته: العارف لا ينكر منكرًا؛ لاستبصاره بسر الله تعالى في القدر، وهذا كلام منسلخ من الملل، ومن تابع الرسل وأعرف خلق الله بالله ﷻ وهم رسل الله وأنبياؤه -صلوات الله وسلامه عليهم- وهم مع ذلك أعظم الناس إنكارًا للمنكر، وإنما أرسلوا لإنكار المنكر، فالعارف أعظم الناس إنكارًا للمنكر، فإن الأمر يوجب عليه الإنكار،

والقدر يعينه عليه وينفذه له، فنعبده بأمره وقدره ﷻ ونتوكل عليه في تنفيذ أمره بقدره، فهذا حقيقة المعرفة. وقال بعضهم: أنا وإن عصيت أمره فقد أطعت إرادته ومشيئته.

وبعد أن بينت فساد قول الطائفتين في هذا الحديث، فقد يسأل سائل: إذًا ما هو الصواب في هذا الحديث؟ وما هو موقف أهل السنة والجماعة منه؟ وكيف نفقهه على ما قاله أئمة أهل السنة والجماعة في ذلك؟

أقول: الصواب في هذا الحديث: أن آدم # لم يحتج بالقدر السابق على المعصية التي وقع فيها، فليس للجبرية دليل على فعلهم للمعاصي والذنوب والسيئات على ما يفعلون، وإنما احتج آدم # بالقدر على المصيبة التي وقعت، فعندنا هنا أمران:

الأمر الأول: معصية وقعت من آدم # وآدم # عصى ربه ثم تاب عليه، فتاب الله عليه.

الأمر الثاني: المصيبة التي لحقت بآدم ونالت الذرية أيضًا، وهي إخراج آدم # من الجنة وآدم # هنا لم يحتج بالقدر على المعصية، وإنما احتج بالقدر على المصيبة.

وهذه كلمة أرى أن يهتم بها وأن يعتني بها طالب العلم، وهي أن القدر يحتج به في المصائب، ولا يحتج به عند المعائب.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: إن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه، وترك معاودته كما فعل آدم # فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد

ومعرفة أسماء الرب وصفاته، يوضح ذلك أن آدم # قال لموسى: ((أتلومني على أن عملت عملًا كان مكتوبًا عليَّ قبل أن أخلق)) فإذا أذنب الرجل ذنبًا ثم تاب منه توبةً وزال أمره حتى كان كأن لم يكن، فأنبه مؤنِّب عليه ولامه حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك، ويقول: هذا أمر كان قد قدِّر عليَّ قبل أن أخلق، فإنه لم يدفع بالقدر حقه، ولا ذكره حجةً على باطل ولا محظور في الاحتجاج به.

أما الموضع الذي يضر الاحتجاج به -يعني: بالقدر- ففي الحال والمستقبل، لا يجوز لإنسان بحال من الأحوال أن يحتج بالقدر على ما سيحدث منه بالمستقبل، أو على ما سيحدث منه باليوم الذي هو فيه، فلا يرتكب فعل المحرم أو يتركه وهو واجب، ثم بعد ذلك يحتج بالقدر.

قال ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى-: نكتة المسألة أن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر، أما إذا كان اللوم واقعًا منه وأنه ما زال عليه، وقائمًا به، وساقطًا في الذنب الذي هو عليه، فالاحتجاج بالقدر في هذه الحالة باطل، ولا يجوز منه أن يحتج بأفعاله وبظلمه وبوقوعه في المعاصي والذنوب والسيئات على ما يفعله من هذه المعاصي، لا يجوز له أن يحتج بقدر الحق -تبارك وتعالى.

إذًا نخلص من ذلك أن حديث احتجاج آدم وموسى -عليهما السلام- أخطأت فيه المعتزلة القدرية كما أخطأت فيه الجبرية. المعتزلة ردوها والجبرية جعلوه حجةً للعاصي، والأمر ليس كذلك، وليس في الحديث حجة، وآدم # لم يحتج بالقدر السابق على الذنب الذي وقع فيه، وإنما احتج بالقدر على المصيبة التي لحقته ولحقت الذرية، وهو قد تاب من ذنبه، والاحتجاج بالقدر بعد وقوع الذنب والإقلاع منه والتوبة بعده ليس فيه محظور.

وهذا سؤال نطرحه: آدم احتج بالقدر على المصيبة التي لحقت به والمصيبة كانت مقدرة، فهل يرضى بما قدره الله سبحنه وتعالى عليه؟

الجواب: أنه لا يوجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ حديث يأمر العباد بأن يرضوا بكل مقدر من أفعال العباد حسنها وسيئها، ولكن الجواب: على الناس أن يرضوا بما أمر الله به، فليس لأحد أن يسخط ما أمر الله به، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. فنحن يجب علينا أن نرضى وأن نسلم بما أمر الله به، أو أمر به رسوله ﷺ. أما الرضا بالمعاصي والذنوب والآثام التي تقع من العباد، فلم يأمرنا ربنا ﷻ بشيء من ذلك، وهذا مما يجب أن يفهمه الإنسان في مسائل القدر. والصبر على المصائب واجب، أما الرضا فهو مشروع، ولكن هل هو واجب أم مستحب؟ على قولين لأصحاب أحمد وغيرهم؛ أصحهما: أنه مستحب وليس بواجب.

ثانيًا: مسائل تتعلق بالقضاء والقدر

المسألة الأولى: هي الجمع بين قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩] وبين قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١].

هذه هي المسألة الأولى، وقد جاءت في مفردات المنهج المقرر؛ حتى لا يظن أحد أن القرآن الكريم فيه شيء من التعارض، أو أنه ينقض بعضُه بعضًا، والأمر ليس كذلك؛ ولهذا فأنا أبين هنا المراد بالحسنة والسيئة التي جاءت في هذه الآية؛ حتى نوفق بينها وبين قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾.

فأقول -وبالله التوفيق-: الذي عليه عامة المفسرين أن الحسنة والسيئة يُراد بهما النعم والمصائب، ليس المراد مجرد ما يفعله الإنسان باختياره باعتباره من الحسنات

أو السيئات، وإن كان هذا أيضًا مرادًا، ولذلك لفظ الحسنات والسيئات في كتاب الله -تبارك وتعالى- يتناول هذا وهذا -يعني: يتناول النعم والمصائب- وما يفعله الإنسان أيضًا باختياره من حسنات أو سيئات وذنوب، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] فالآية لا شك أنها تناولت هذا وهذا.

قال أبو العالية: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨] قال: هذه في السراء، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء: ٧٨]، قال: وهذه في الضراء.

وقال السدي -رحمه الله-: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾، والحسنة الخصب تنتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم، ويحسن حالهم، وتلد نساؤهم الغلمان، قالوا: ﴿ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾؛ والسيئة: هي الضرر في أموالهم، قالوا تشاؤمًا من محمد ﷺ: ﴿ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾، يعني: بتركنا ديننا واتباعنا محمدًا ﷺ أصابنا هذا البلاء، فأنزل الله -جل ذكره-: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨] الحسنة والسيئة: ﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٧٨] يعني: أن النعم والمصائب كلها من عند الله الحق -تبارك وتعالى.

ولذلك أيضًا قال الوالبي عن ابن عباس } : ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ قال: "ما فتح الله عليك يومَ بدر".

وكذاك قال الضحاك، وكذلك أيضًا روى ابن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن ابن صالح: ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ قال: فبذنبك، وإن قدرتها عليك.

وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- في قوله: ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الحسنة ما فتح الله عليهم يوم بدر، والسيئة ما أصابهم يوم أحد، قال: رواه ابن أبي طلحة -وهو الوالبي- عن ابن عباس، قال: والثاني: الحسنة الطاعة، والسيئة المعصية، قاله أبو العالية، والثالث: الحسن النعمة، والسيئة البلية، قال ابن منبه قال: وعنى بالعالية نحوه.

فإن قيل: إذا كانت الطاعات والمعاصي مقدرة، والنعم والمصائب مقدرة، فما الفرق بين الحسنات التي هي النعم، والسيئات التي هي المصائب، فجعل هذه من الله، وهذه من نفس الإنسان؟

قيل فرق بينهما بفروق:

منها: أن نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع ابتداءً بلا سبب منهم أصلًا، فهو ﷻ ينعم بالعافية والرزق والنصر، وغير ذلك على مَن لم يعمل خيرًا قط، كما أخبرنا بأنه ينشئ للجنة خلقًا يسكنهم فضول الجنة، وقد خلقهم -تبارك وتعالى- في الآخرة لم يعملوا خيرًا، ويدخل أيضًا أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنةَ برحمته بلا عمل، وأما العقاب فلا يعاقب ﷻ أحدًا إلا بعمله.

الفرق الثاني: أن الذي يعمل الحسنات إذا عملها فنفس عمله الحسنات هو من إحسان الله -تبارك وتعالى- وبفضله عليه بالهداية والإيمان، ولولا الله ﷻ ما اهتدى مهتدٍ، فتوفيق العبد إلى فعل الحسنات وعمله إياها هو في الحقيقة من فضل الله -تبارك وتعالى- كما قال الله -جل ذكره- عن أهل الجنة أنهم يقولون: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].
وفي الحديث الصحيح وهو حديث قدسي يرويه النبي ﷺ عن رب العزة والجلال، وفيه يقول: ((يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فَمَن وجد خيرًا فليحمد الله، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه))

وأما السيئة فلا تكون إلا بذنب العبد، وذنبُه من نفسه، وهو ﷻ لم يقل إني لم أقدر ذلك ولم أخلقه، بل ذكر للناس ما ينفعهم. وأما وقوع السيئات والذنوب فهي من نفس الإنسان وإن كان قدر الله ﷻ عليه ذلك، فإذا تدبر العبد ذلك علِمَ أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله -تبارك وتعالى- فشكَر الله.

وقد كان النبي ﷺ يقول في خطبته: ((الحمد لله)) فيشكر الله تعالى، ثم يقول: ((نستعينه ونستغفره)) نستعينه على الطاعة ونستغفره من المعصية، ثم يقول بعد ذلك ﷺ: ((ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا)) فيستعيذ به من الشر الذي في النفس ومن عقوبة عمله، فليس الشر إلا من نفسه، ومن عمل نفسه، ولذلك فرق ﷻ بينهما هنا بعد أن جمع بينهما في قوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾.

فبيَّن رب العزة والجلال أن الحسنات والسيئات -يعني: النعم والمعاصي، والمصائب والطاعات- كلها من عند الله -تبارك وتعالى- ثم بيَّن الفرقَ الذي ينتفعون به، وهو أن هذا الخير من نعمة الله فاشكروه يزدكم، وهذا الشر من ذنوبكم فاستغفروه يدفعه عنكم، والمقصود هنا: أن الحسنة مضافة إليه ﷻ من كل وجه، والسيئة مضافة إليه؛ لأنه خلقها كما خلق الحسنات، فلهذا قال: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ثم إنه إنما خلقها لحكمة ولا تُضاف إليه من جهة أنها سيئة، بل تضاف إلى النفس التي تفعل الشر، فتستحق أن يُضاف الشر والسيئة إليها.

المسألة الثانية: هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟

لم يكن هذا السؤال من سؤالات السلف الصالح } ، ولكن هذا السؤال قد شاع في هذه الأزمان المتأخرة -مع الأسف- ومع هذا فجوابه سهل ميسور بحمد الله -تبارك وتعالى- وذلك بأن الإنسان يكون مسيرًا تارةً ويكون مخيرًا تارةً

أخرى، والإنسان يعرف من نفسه ذلك، ولو لم يكن الإنسان مختارًا لفعله لكانت عقوبة العاصي ظلمًا؛ إذ كيف يُعاقب الإنسان على شيء ليس له فيه اختيار، ولولا اختيارُ العبد لفعله لكان ثواب المطيع أيضًا عبثًا؛ لأنه كيف يُثاب الإنسان على شيء لا اختيارَ له فيه، ويكون الإنسان إذًا مسيرًا أحيانًا لا اختيارَ له فيه، فهو إذًا يكون مختارًا لفعله لبعض الأحيان، ويكون مسيرًا لا اختيار له، وذلك إذا وقع الفعل بغير إرادة منه، ولذا فلا ينسب إليه، كما قال ﷺ: ((من نسي فأكل أو شرب فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه)).

وهذه التفرقة ضرورية للغاية، فالإنسان لا نقول عنه: بأنه مسير بإطلاق ولا مخير بإطلاق، ولكن الإنسان له إرادة وحرية واختيار فيما يقوم بأدائه وفعله، وهذا أمر معلوم لدى الجميع، ولو لم يكن له إرادة أحادية واختيار لوقع الجبر الذي قال به الجبرية، ولجاز لأعداء الله أن يحتجوا بقضاء الله وقدره على ذنوبهم ومعاصيهم، ونحن نعلم بالضرورة من الدين والعقل والعادة: أن الإنسان يفرق بين الفعل الاختياري والفعل الإجباري، كالذي ينزل مثلًا من السطح بإرادته، ومَن يسقط بغير إرادته، فالإنسان قد ينزل من على سلم البيت مثلًا بإرادته، وقد يسقط من إحدى شرفات حجرة أو ما إلى ذلك بغير إرادته. وحركة المرتعش، أنت تمد يدك لأخذ الكتاب مثلًا بإرادتك، وإذا كانت يدك ترتعش فتضرب الكتاب ليست لك إرادة أحدية، أو اختيار في شيء من ذلك.

فالإنسان يولد ذكرًا أو أنثى، ليس له حرية أو اختيار في ذلك، يولد أبيض مثلًا أو أسودَ، ليست له إرادة وحرية في ذلك، لكننا نعتقد أن كل شيء سواء كان للإنسان فيه إرادة وحرية واختيار، أو لم يكن، كله من عند الحق -تبارك وتعالى- وبخلقه وإرادته.

ولعل من أفضل ما يوضح ويزيل اللبس في مثل هذه المسألة، ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ

﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. فلو تأملت هذه الآية تجدها أنها أثبتت للإنسان الإرادةَ والحريةَ والاختيارَ، وذلك بقوله: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ ثم بعد ذلك عقَّب عليها رب العزة والجلال ﷻ بقوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فبين أن مشيئة الإنسان تدور في فلك المشيئة العامة، وهي مشيئة رب العالمين.

ثمرات الإيمان بالقدر:

مَن تأمل في عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام، وجد لها ثمارًا كثيرة طيبة كانت ولا زالت سببًا في صلاح الفرد والأمة:

أولها: الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك:

لقد زعم كثير من الفلاسفة: أن الخير من الله وأن الشر من صنع آلهة من دونه، وإنما قالوا هذا القول فرارًا من نسبة الشر إلى الله -تبارك وتعالى- والمجوس زعموا: أن النور خالق الخير، والظلمة خالقة الشر، والذين زعموا من هذه الأمة: أن الله لم يخلق أفعال العباد، أو لم يخلق الضال منها، أثبتوا خالقَيْن من دون الله -تبارك وتعالى- ولا يتم توحيد الله إلا لِمَن أقر أن الله وحدَه هو الخالق لكل شيء في هذا الكون، وأن إرادته ﷻ ماضية في خلقه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكل المكذبين بالقدر لم يوحدوا ربهم، ولم يعرفوه حق معرفته، والإيمان بالقدر مفرق طرق بين التوحيد والشرك.

الثمرة الثانية: الاستقامة على منهج الله، سواء كان ذلك في السراء والضراء:

لا شك أن العباد بما فيهم من قصور وضعف لا يستقيمون على منهج سواء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢] والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على

منهج سواء، لا تبطره النعمة، ولا تيئسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدبيره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] ولا يكون حاله حالة قارون الذي بَغَى على قومه بسبب كثرة النعم، ففي السراء والضراء إنما هو بتقدير الحق -تبارك وتعالى- فيستقيم على منهج الله ﷻ.

الثمرة الثالثة: أن الإيمان بالقدر يجعل المؤمن دائمًا على حذر:

المؤمنون بالقدر دائمًا على حذر كما قال تعالى: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩] فقلوب العباد دائمةَ التقلب والتغير، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والفتن التي توجه سهامها إلى القلوب كثيرة، والمؤمن يحذر دائمًا أن يأتيه ما يضله، كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الذاتية للاستقامة، والإكثار من الصالحات، ومجانبة المعاصي والموبقات.

الثمرة الرابعة: مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت:

إذا آمن العبد بأن كل ما يصيبه مكتوب، وآمَن أن الأرزاق والآجال بيد الله، فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب ثابت وهامة مرفوعة، وقد كان هذا الإيمان من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في مَيْدان النزال، غيرَ هيابين ولا وجلين، وكان هذا الإيمان من أعظم ما ثبت الله به قلوبَ الصالحين في مواجهة مَن ظلمهم، فكانوا لا يخافون في الله لومةَ لائم؛ لأنهم يعلمون أن الأمرَ بيد الله.

وبهذا ننتهي من مسائل القضاء والقدر.

الإيمان بالملائكة الكرام -عليهم السلام-

عناصر الدرس

المراد بالملائكة، ومعنى الإيمان بهم، والاعتماد في ذلك على الكتاب والسنة

١- الإيمان بالملائكة، وكونهم واسطة في التبليغ، وصلته بأركان الإيمان الستة

أولًا: الإيمان بالملائكة ركنٌ من أركان الإيمان الستة:

الإيمان بالملائكة ركنٌ من أركان الإيمان، وجزءٌ منها لا يتم إيمان امرئ إلا به، قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ودليل الإيمان بالملائكة من السنة، ما رواه عمر بن الخطاب > قال: ((بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه أثر السفر، ولا يعرفه مِنَّا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، ثم قال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام. فقال: تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا. قال صدقت: قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: أخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر كله خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ما المسئول عنها بأعلمَ من السائل. فقال: فأخبرني عن أماراتها –يعني: أعلامها- قال: أن تلد الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وأن ترى الحفاة العراة رعاءَ الشاءِ يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق فلبثت ثلاثًا، ثم قال: يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: إنه جبريل # جاءكم يعلمكم دينكم)) رواه الإمام البخاري ومسلم، رَحِمَهُمَا اللهُ تعالى.

فنفهم من هذا الحديث المشهور الذي يعرف بحديث جبريل # أن الإيمان بالملائكة، ومعرفة أوصافهم، والأعمال المنوطة بهم، وكونهم عبادًا مكرمين، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون أمرٌ لازمٌ، والإيمان به واجب، ومرتبط بالإيمان، وهو من الإيمان بالغيب؛ لأن الملائكة وما يتعلق بهم أمرٌ غيبي، لا مدخل للعقل فيه.

لقد تقدّم معنا في الحديث السابق أن تعريف الإيمان كما عرفه جبريل # يشمل الإيمان بستة أمور، وهي:

الإيمان بالله تعالى، والإيمان بملائكته، والإيمان بكتبه المنزلة على أنبيائه -عليهم السلام- ثم الإيمان بالأنبياء والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فأما الدليل من الكتاب العزيز عن الإيمان بالملائكة فهو قول الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقد بيّن القرآن الكريم أن إنكار وجود الملائكة كفرٌ بإجماع المسلمين؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

يقول محمد ياسين في كتابه (الإيمان):

"ومن أركان الإيمان: الإيمان بالملائكة، والمقصود به: الاعتقاد الجازم بأن لله ملائكةً موجودين، مخلوقين من نور، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها، فهم نوع من مخلوقات الله ﷿ لا يصلح إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم، وبما ورد في حقهم من صفات وأعمال في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف.

والذي يستقصي الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تكلَّمت عن الملائكة، وأوصافهم، وأعمالهم، وأحوالهم؛ يلاحظ أنها تناولت في الغالب ما بَيْنَ علاقتهم بالخالق سبحانه وبالكون والإنسان؛ فعرَّفَنَا سبحانه من ذلك على ما ينفعنا في تطهير عقيدتنا، وتزكية قلوبنا، وتصحيح أعمالنا.

وأما حقيقة الملائكة، وكيف خلقهم الله، وتفصيلات أحوالهم: فقد استأثر سبحانه بها، وهذه خصيصة عامَّةٌ من خصائص العقائد الإسلامية، تناولت الحقائق الكونية، والتعريف بها في حدود ما يحتاج إليه البشر، ويصلح أحوالهم في المعاش والمعاد، وما تطيقه العقول، فلم يطلعنا الله -جَلَّ وَعَلَا- على جميع المغيبات سواء منها ما تعلق بجلاله وصفاته وأسمائه، وما تعلق بمخلوقاته الغيبية، والمؤمن الصادق يُقِرُّ بِكُلِّ ما أخبر به الخالق مجملًا أو مفصلًا، ولا يزيد على ذلك ولا ينقص منه، ولا يتكلف البحث عما لم يطلعنا عليه منه، ولا يخوض فيه".

انتهى كلامه.

وقال الشيخ حافظ الحكمي -رَحِمَهُ اللهُ- وهو يتكلم عن الركن الثاني من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالملائكة:

"والثاني: الإيمانُ بالملائكةِ، الذين هم عباد الله المكرمون، والسفرة بينه تعالى وبين رسله -عليهم الصلاة والسلام- الكرام خلقًا وخُلقًا، والكرام على الله تعالى، البررة الطاهرين ذاتًا وصفةً وأفعالًا، المطيعين لله ﷻ وهم عبادٌ من عبادِ الله ﷻ خلقهم الله تعالى من النور لعبادته، ليسوا بناتٍ لله ﷻ ولا أولادًا ولا شركاءَ معه ولا أندادًا - تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون الملحدون علوًّا كبيرًا".

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٥- ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الصافات: ١٥١- ١٥٥]، إلى قوله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات: ١٦٤- ١٦٦] وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٥، ١٦] إلى قوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩]، الآيات. وقال تعالى: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢]. وقال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١] وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤١- ٤٢]،

وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٨] والآيات في ذكر الملائكة في القرآن كثيرة". انتهى كلام الحكمي -رَحِمَهُ الله.

إذًا، لقد اشترط في الإيمان حتى يكون تامًّا كاملًا الإيمان بهذه المخلوقات النورانية الغيبية، التي جبلت على الطاعة والمسخرة لعبادة الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠] فالملائكة جندٌ من جنودِ الله تعالى خلقهم لعبادته وسخرهم لطاعته، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون، وقد وكَّلَهُم الله بأعمال، وأناط بهم مهمات يقومون بها في هذا الكون الفسيح؛ فهم واسطة بين الخالق -جَلَّ وَعَلَا- وبين مخلوقاته في تدبير شئون هذا الكون، والإنسان الذي يعيش فيه؛ من أجل ذلك كله كان الإيمان بالملائكة ركنًا من أركان الإيمان.

ثانيًا: الملائكة واسطة بين الله تعالى والأنبياء:

لقد شرَّفَ اللهُ تعالى الملائكة بوظيفة مهمة، وهي الاستغراق في عبادته سبحانه وتسبيحه وتنزيهه، وفضَّلَهُم على غيرهم من مخلوقاته، وأسكنهم سمواته، وجعل أفضلهم وأشرفهم وأقواهم جبريل # أمينًا على وحيه، كما جعله الله ﷻ واسطة بينه وبين سائر الملائكة -عليهم السلام- يوضح ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عند أبي هريرة > أن النبي ﷺ قال: ((إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها؛ خضعانًا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض -ووصف سفيان رَحِمَهُ اللهُ راوي الحديث بكفه فحرفها، وبَدَّدَ بين

أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، أي مسترق السمع، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر والكاهن. فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء)) انتهى.

فعندما يأمر الله ﷻ بالأمر ينزل به جبريل # فيسأله أهل كل سماء: يا جبريل، ماذا قال ربنا؟ فيجيبهم جبريل بقوله: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون مثل قول جبريل.

وروى الإمام ابن جرير الطبري والبغوي -رَحِمَهُمَا اللهُ- في تفسيريهما لقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، أن الملائكة يفزعون؛ حذرًا من قيام الساعة، وذلك أن الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد -عليهما الصلاة والسلام- خمسمائة وخمسين سنة. وقيل: ستمائة سنة. لم تسمع الملائكة فيها وحيًا، فلمَّا بعث الله محمدًا ﷺ كلَّمَ جبريل # بالرسالة إلى محمد ﷺ فلما سمعت الملائكة؛ ظنوا أنها الساعة؛ لأن محمدًا ﷺ عند أهل السموات بعثته من أشراط الساعة؛ فصعقوا مما سمعوا خوفًا من قيام الساعة، فلما انحدر جبريل جعل يمر بأهل كل سماء فيكشف عنهم، فيرفعون رءوسهم، ويقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق -يعني: الوحي- وهو العلي الكبير. انتهى.

إذا تبين أن جبريل # كان واسطةً بين الله تعالى وسائر الملائكة، نقول: إن أهم الوظائف المنوطة بالملائكة، هو قيامهم بتبليغ الوحي إلى أنبياء الله تعالى ورسله؛ فالملائكة واسطةٌ بين الله تعالى وبين الرسل في تبليغ الوحي، وإيصال الشرائع،

وأن جبريل # هو الملك الموكل بهذه المهمة، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

ودليل ذلك من السنة حديث عمر > المشهور بحديث جبريل -الذي مر معنا- وأخرجه البخاري ومسلم، ومضمونه أن جبريل # أتى النبي ﷺ على صورة أعرابيٍّ وسأله عن الإسلام والإيمان، والإحسان والساعة؛ فلما انصرف قال النبي ﷺ: ((يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم))، وقد تقتضي حكمه الله أن يرسل مع جبريل غيره من الملائكة؛ لتبليغ الوحي، وبيان أوامر الله في حوادث مخصوصة.

قال ابن كثير -رَحِمَهُ اللهُ-: يرسل الله جبريل # إلى الأنبياء لتبليغ الوحي، وقد يرسل غيره من الملائكة إلى الأنبياء -عليهم السلام- وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥]، ففي هذه الآية تعدد الواسطة من الملائكة والواسطة من البشر.

وذكر البيهقي -رَحِمَهُ اللهُ-: أن من متطلبات الإيمان بالملائكة أن نؤمن بأن منهم رسلًا، يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض. انتهى كلامه.

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ-: أن الملائكة كلهم رسل باعتبار، وأن المصطفون منهم فباعتبار إرسالهم بالوحي فقط. انتهى كلامه.

وبذلك يتضح أن الملائكة واسطةٌ بين الله تعالى والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وأن الملك الموكل بالوحي هو جبريل #، إلا أنه وردت نصوص تبين إرسال غيره في حوادث مخصوصة، وذلك يدل على أن الملك الموكل بالوحي هو جبريل، وأن الملائكة المرسلة معه إنما هي بطريقة التبعية والمشاركة، لا بطريق الاستقلال والتأسيس.

ولخشية الإطالة، لتتبعنا الآيات التي فيها حوار بين الملائكة والأنبياء في شأن الأمم ودعوتهم، كالملائكة الذين حَلُّوا ضيفًا على إبراهيم -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- والذين ذهبوا إلى لوط والقرية، والملائكة الذين وردت الحوارات بينهم وبين الأنبياء في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

ثالثًا: بعض الملائكة واسطة بين الله تعالى وغير الأنبياء:

يخبرنا القرآن الكريم أن الله ﷻ أرسل بعض الملائكة المقربين واسطةً منه تعالى إلى أشخاصٍ من البشر، ليسوا بأنبياء تشريفًا لهم وتكريمًا، وأن أولئك الملائكة -عليهم السلام- جاءت وساطتهم بالبشارة والنذارة والابتلاء لهؤلاء الأشخاص، ونريد أن نبين تلك الوساطات في النقاط التالية:

أ- وحي الله إلى سارة بنت هاران عم إبراهيم # :

لَّما ذكَرَ الله تعالى قصة ملائكته، الذين أرسلهم إلى إبراهيم # ذكر في أثنائها أنهم خاطبوا زوجه سارة، وبشّروها بولدها إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ [هود: ٧١- ٧٣].

ب- وحي الله إلى مريم ابنة عمران:

اقتضت حكمة الله تعالى أن يولد عيسى ابن مريم # من أم دون أب؛ ليكون ذلك دليلًا مشاهدًا على عظم قدرة الله ﷻ، ولما كانت مريم -عليها السلام- هي

الأم التي قدر الله ولادتها لهذا النبي الوجيه أرسل الله إليها الملائكة مرارًا، فمن ذلك قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢- ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

ج- المَلَكُ الذي أرسله الله إلى الرجل الذي أحب أخاه في الله:

فعن أبي هريرة > أن النبي ﷺ قال: ((أن رجلًا زار أخًا له في قريةٍ أخرى؛ فأرصد الله له على مدرجته -أي: طريقه- ملكًا فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّهَا؟ أي: تقوم بإصلاحها، قال: لا، غير أني أحببته في الله ﷻ قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)) رواه مسلم.

د- المَلَكُ الذي بعثه الله إلى الأبرص والأقرع والأعمى في بني إسرائيل لابتلائهم:

وهذا الحديث مشهور في باب الزكاة والصدقة؛ لأن الله امتحن هؤلاء الثلاثة، فرسب في الامتحان اثنان وهما الأقرع والأبرص، ونجح في الامتحان واحد وهو الأعمى.

هـ- ملائكة الليل وملائكة النهار الذين يتعاقبون في بني آدم:

وهم الحفظة، أربعة ملائكة يتعقبون الإنسان؛ ملكان بالليل، وملكان بالنهار، وتجتمع هذه الأملاك الأربعة عند صلاة الفجر، وهو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وهؤلاء الملائكة يجتمعون عند صلاة الفجر

وعند صلاة العصر، فيسألهم الله، وهو أعلم بما يفعله العباد، فيقول: ((كيف تركتم عبادي؟ فيقولون للذين حضروا صلاة الفجر وصلاة العصر: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون)). فهذه واسطة بهذه الملائكة الأربعة بين الله سبحانه وتعالى وغير الأنبياء.

رابعًا: من آثار الإيمان بالملائكة:

لا ريب أن الإيمان بالملائكة ومعرفته بالتفصيل الوارد عنهم في الكتاب والسنة، يحدث آثارًا عميقة في النفس البشرية، ومن تلك الآثار:

الأثر الأول: الشعور بقوة الخالق -جَلَّ وَعَلَا- وعظمته:

فكونه سبحانه وتعالى خلق هذه المخلوقات العجيبة الصنعة، والخارقة القوة حيث خلق ملائكته من نور، وجعلهم يسكنون سمواته، لا يُرَوْنَ عادةً بالأعين المجردة.

وقد رأى النبي ﷺ جبريل على صورته مرةً عند بداية البعثة في أول لقاءٍ بينَ النبي ﷺ وواسطته من الملائكة جبريل # ، رآه كما قال ﷺ: ((رأيته بأجياد سادًّا جناحيه بالأفق))، وأما المرة الثانية: فرآه عند سدرة المنتهى، كما ورد بذلك الخبر الصحيح.

وقد أتاه على أشكال أخرى غير هيئته التي خُلق عليها، كما جاءه على صورة الأعرابي الذي مر معنا في حديث جبريل، وثبت أنه أتاه أيضًا على صورة دحية الكلبي الصحابي > .

إذًا، فالملائكة أقوياء قادرون على التشَكُّلِ، وقد قاتلوا مع المسلمين كفار قريش في غزوةِ بدر الكبرى، فبمعرفة قدرة الملائكة الخارقة؛ نعلم علم يقين قدرة الخالق -جَلَّ وَعَلَا- العجيبة:

وفي كل شيء له آية ❖ تدل على أنه واحد

الأثر الثاني: رحمة الله بهذا الإنسان:

حيث لم يخلقه عبثًا، ولم يتركه سدًى، بل خلقه لغاية سامية وهدفٍ واضحٍ، وهو عبادته ﷻ كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأرسل إليه رسله –أي: الإنسان- مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وذلك للإعذار إلى الخلق، ولا أحد أعذر من الله.

فكانت الملائكة تنزل بالأوامر، وتُكَلَّفُ بشئون الإنسان والكون، فمنهم المكلف بالحياة ونفخ الروح في الجنين، ومنهم المكلف بالموت، ومنهم المكلف بالقطر والنبات، ومنهم المكلف بالأرزاق ومنهم المكلف بحفظ الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]، أي: يحفظونه بأمر الله ﷻ، وفي هذا غاية الرحمة والرأفة، فسبحانه من حكيم خبير رءوف لطيف.

الأثر الثالث: حفظ الله لهذا الدين:

من يقرأُ سيرةَ النبيِّ ﷺ ويتتبع الحوادث التي نزل فيها جبريل # بالوحي، ونزول ملك الجبال ليخيره بين أن يعفو عن كفار مكة أو يطبق عليهم الأخشبين، ونزول الملائكة في وقعةِ بدرٍ الكبرى، مَنْ يتدبر ذلك كله؛ يدرك أن الله تعالى قد تكفل بحفظ هذا الدين وإكماله، وكلاءة النبي الأمين الذي يبلغه، وقد فعل ﷻ فله الحمد والمنة، وكان ذلك أثرًا من آثار الإيمان بهذه الملائكة التي كانت تكلأه ﷺ وتحفظه.

وتذكرون في سيرة النبي ﷺ في بداية الدعوة لَمَّا كَانَ أبو جهل يحاول المساس بالنبي ﷺ وقال لسادات قريش: سوف آذيه اليوم، وهم ينظرون، فلما جاء رجع إليه هلعًا خائفًا، قالوا: لقد رجعت بوجهٍ غير الوجه الذي خرجت من عندنا به، قال: والله لما قربت منه وجدت جملًا هائجًا كاد يأكلني، فلما أخبر النبي ﷺ بذلك قال: ((والله لو اقترب شبرًا، لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا)).

أقول: قد فعل ﷻ وذلك حفظًا لهذا الدين حتى يكمله، فله الحمد والمنة، وجزى عنا نبينا محمدًا ﷺ أفضل ما جزى نبيًّا عن أمته.

٢- تعريف الملائكة، واشتقاق التسمية، والحكمة من خلقهم:

أولًا: المراد بالملائكة لغة، واشتقاق التسمية:

الملائكة في اللغة: جمع ملك، وأصله مَأْلَكْ، وقيل مَلْأَك، على وزن "مفعل"، فنقلت حركة الهمزة إلى اللام، وأسقطتْ فوزن مَلَك مَثَل، وقيل: إنه مأخوذ من "لَأَك": إذا أرسل، فملأك وزنها "مفعل" ثم نقلت الحركة وسقطت الهمزة فوزن ملك مَثَل، وقيل غير ذلك. والهاء في الملائكة مزيدة لتأنيث الجمع، أو للمبالغة، واشتقاق الملائكة من الأُلُوكَة، وهي الرسالة قال الشاعر:

فلست بإنسي ولكن لملأكٍ ❖ تنزل من جو السماء يصوب

وسُمي الملائكة بهذا الاسم؛ لأنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقه في إبلاغ رسالات الله تعالى إلى الناس، وإرسال أوامر الله تعالى ونواهيه، وتسيير شئون الكون والإنسان، قال بعض المحققين: المُلْك من المَلْك والمتولّي من الملائكة شيئًا من السياسات يُقال له: ملك، والمتولي من البشر شيئًا من السياسات يقال له: مَلِك.

إذًا، فالملائكة مخلوقات غيبية خلقهم الله تعالى لعبادته، وسخّرهم لطاعته، ليسوا بشرًا، ولا جنًّا، ولكنهم مخلوقات عجيبة نورانية، قادرون على التشكّل، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من خصائص الألوهية أو الربوبية شيء، وقدرتهم العجيبة بحول الله ومشيئته، وليست قدرة ذاتية بدون مشيئة الله.

وقد ورد أنهم يستغفرون للذين آمنوا في الأرض وأنهم يشفعون لمن رضي الله عنهم، وقبل شفاعتهم فيهم؛ قال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦]، فالمراد بالملائكة هم أولئك الرسل السفرة الكرام البررة، الموكلون بمهامّ تتعلق بالإنسان والكون. وأن منهم الحافّين بالعرش، والذين يحملونه -أي العرش- وخزنة جهنم، وملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ومنهم ملائكة سيّاحون يطلبون حِلَق الذكر، إلى غير ذلك من أصنافهم وأعمالهم.

من أجل ذلك سُميت الملائكةُ ملائكةً لوظيفة الإرسال، والسفارة بين الله تعالى وخلقه التي تميّزوا بها، كما قلنا: إن الملائكة مشتقّة من الألوكة، وهي الرسالة.

تعريف الملائكة اصطلاحًا: هم أجسام علويّة، قائمة بأنفسها، قادرة على التشكل بالقدرة الإلهية، ذَوُو قدرات خارقة لا حصر لهم، لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، مقربون طائعون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من خصائص الربوبية أو الألوهية شيء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمة الله-: اسم الملائكة والملك يتضمّن أنهم رسل الله، كما قال تعالى: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ [فاطر: ١]، وكما قال: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ [المرسلات: ١] فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبّر

به السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١]، وكما قال ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥]. ومن المعلوم أن الملائكة لهم من العلوم والأحوال والإرادات والأعمال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال، ووصفهم في القرآن بالتسبيح والعبادة لله أكثر من أن يُذكر هنا. كما ذكر تعالى في خطابه للملائكة وأمره لهم بالسجود لآدم فقوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ [فصلت: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

انتهى كلامه رحمه الله.

وقال ابن أبي العز الحنفي - رحمه الله - في شرحه للعقيدة الطحاوية:

"وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض؛ فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥]، ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات: ٤]، وهم الملائكة عند أهل الإيمان، وأتباع الرسل. وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم، ولفظ الملك يُشعر بأنه رسول منفذٌ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء؛ بل الأمر كله لله الواحد القهار وهم ينفذون أمره ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٧، ٢٨]،

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠]، فهم عباد مكرمون منهم الصافون ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، ولا يتخطّاه، وهو على عمل قد أُمر به لا يقصر عنه ولا يتعداه.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر من عنده في أسفار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أطّت السموات بهم، وحق لها أن تئطّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم، أو راكع، أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون آخر ما علمنا. والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم؛ فتارة يَقْرن الله تعالى أسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارةً يذكر حقهم بالعرش وحملهم له –أي: العرش- ومراتبهم من الدّنوّ، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم والتقريب، والعلو، والطهارة، والقوة، والإخلاص". انتهى كلامه -رحمه الله.

وقال الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله-:

"الملائكة هم عباد الله المكرمون، والسفرة بينه تعالى وبين رسله عليهم الصلاة والسلام، الكرام خَلْقًا وخُلُقًا، والكرام على الله تعالى البررة الطاهرين، أي: ذاتًا وصفة، وأفعالًا، المطيعين لله ﷻ وهم عباد من عباد الله ﷻ خلقهم الله تعالى من النور لعبادته، ليسوا بنات لله ﷻ ولا أولادًا ولا شركاء معه، ولا أندادًا -تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون والملحدون علوًّا كبيرًا- قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٩]". انتهى كلامه، رحمه الله.

وقال الشيخ عبد العزيز السلمان -رحمه الله- في جوابه عن السؤال التالي: ما هو الإيمان بالملائكة الذي هو الركن الثاني من أركان الإيمان؟

ثم أجاب بقوله: "هو التصديق الجازم بأن لله ملائكة موجودين، مخلوقين من نور، وأنهم كما وصفهم الله عباد مكرمون يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله للقيام بها". انتهى.

مم خلق الله الملائكة؟

لقد قدّمنا أن الكلام عن الملائكة من الأمور الغيبية، التي لا يستقيم الكلام فيها إلا على ضوء نصوص الوحي؛ لأنهم مخلوقات غيبيّة استأثر الله تعالى بمعرفة تفاصيل خلقهم، وأوصافهم، وشئونهم؛ وبالتالي نحن لا نعرف عنهم إلا ما عرفنا الله ورسوله ﷺ.

وبحسب ذكرهم في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية نستطيع أن نجمع فكرة عنهم، وعن المادة التي خُلقوا منها، وعن أوصافهم، والأعمال المنوطة بهم.

أما عن المادة التي خُلقت منها الملائكة: فهي النور، ولهذا تُوصف الملائكة بأنها نورانيّة، فعن عائشة < قالت: قال رسول الله ﷺ: ((خلقت الملائكة من نور العرش، وخلق الجان من مارد من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)) رواه الإمام مسلم"، وقال عكرمة -رحمة الله-: "خلقت الملائكة من نور العزة"، أخرجه أبو الشيخ في كتاب (العظمة) والسيوطي في (الدر المنثور)، وقال يزيد بن رونان التابعي -رحمة الله-: "بلغني أن الملائكة خلقت من روح الله". أخرجه أبو الشيخ والسيوطي أيضًا -رحمهما الله.

أما عن تحديد زمن خلق الملائكة: فيقول صاحب (عالم الملائكة): تكلم كثير من الرّواة عن تحديد زمن خلق الملائكة، وذكروا أقوالًا كثيرة، وكلها لا دليل عليها من القرآن والسنة، وكلّ ما نستطيع قوله في هذا الصّدد: هو أن الله خلق الملائكة قبل خلقه للإنس؛ حيث جاء في القرآن أنه أخبر الملائكة أنه سيجعل في الأرض خليفة هو الإنسان ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، كما أمرهم أن يسجدوا له عندما يتمّ خلقه فقال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩].

إذًا، فقد حدّد الله في تلك الآيات أن الملائكة مخلوقون قبل خلق الإنسان". انتهى كلامه.

فالمادة التي خلق الله تعالى منها الملائكة مخالفة للمادة التي خلق منها الجن والإنس؛ حيث خلق الملائكة من النور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق الإنسان من طين، وقد اعتبر إبليس -عليه لعنة الله- أن مادته التي خلق منها هي خير المواد؛ حيث عاند وكابر فقال مخاطبًا ربّ العزة والجلال: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦].

ولهذا لما عرف الشريف الجرجاني -رحمه الله- الملائكة لم يخرج عن التعريف السابق، الذي مرّ معنا، وهو أن المادة التي خلق منها الملائكة هي النور، وأن هذه الملائكة قادرةٌ على التشكل، يقول الجرجاني: "الملك جسم لطيف نوراني يتشكّل بأشكال مختلفة". انتهى من (التعريفات).

الحكمة من خلق الملائكة:

لا شك أن الله تعالى غنيٌّ عن جميع المخلوقات، وقد تظهر بعض الحكم والأسرار الإلهية من خلق بعض المخلوقات، كما صرّحت الآية الكريمة بالحكمة

من خلق الجن والإنس في قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ فصرحت بأن الغاية من خلق الجن والإنس هي عبادته ﷻ، لكني لم أقف حسب علمي على آية أو حديثٍ يصرّح بأن الله تعالى خلق ملائكته لعلّة معينة، أو مهمة محدّدة، لكنه ورد في بعض الآيات وصفهم بأنهم مستغرقون في عبادة الله تعالى ليل نهار، لا يسأمون ولا يستحسرون، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وبناء على المهمات المنوطة بالملائكة، والأعمال الموكلة بهم نستطيع أن نلخّص الحكمة من خلقهم حسب علمي في الآتي:

أولًا: عبادة الله تعالى وتسبيحه ليلًا ونهارًا: دون سأمٍ أو فتورٍ أو كلام، وبهذا تميّزت الملائكة عن الإنسان؛ فالملك ليست فيه هذه النزعة إلى المعصية والخلود إلى الأرض، وإنما هي مخلوقات خلقها الله تعالى، تعيش في سمواته تتميز بالقرب والدنو؛ فالملك مقرب دائمًا، بينما الإنسان لطبيعته الأرضي يتنازعه أمران: أمر سماوي وهو روحه، وأمر أرضي وهي الأرض التي خلق منها، فلذلك توجد المعصية عند الإنسان، ولا توجد عند الملك؛ فلذلك يُوصف دائمًا بالعبادة، مسخر لهذه الهمة لا تصدر منه معصية ولا مخالفة.

هذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة في الملائكة، أما عند بعض الطوائف الضالة كالرافضة فيسبون الملائكة، وخصوصًا الملك جبريل # ويقولون: إنه صاحب الريش، وأن الإمامين الحسن والحسين } كانا يحملان تعويذتين حشوهما من زغب جبريل # ، كما يدعون أن الله عاقب أحد الملائكة ببغضه لبعض الأئمة فكسر الله جناحه.

هذه الأمور كلها غير صحيحة، وكلها خُرَافَات ليس عليها مستند من الدليل النقلي، ولا التصور العقلي.

ثانيًا: إبلاغ الوحي: وإبلاغ الوحي من أهمّ الوظائف المنوطة بالملائكة، فالملائكة واسطة بين الله تعالى ورسله في تبليغ الوحي والشرائع. يقول الإمام الماوردي -رحمه الله-: "ويكون الملك واسطة بين الرسول وبين ربه، والرسول واسطة بين الملك وبين قومه، وما يؤديه الملك إلى الرسول يؤديه الرسول إلى قومه قرآن ووحي". انتهى كلامه.

والملك المُوَكّل بهذه المهمة هو جبريل # كما قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤] وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فجبريل # هو أمين الوحي الذي يبلغه إلى الأنبياء، قال حسان بن ثابت > :

وجبريل أمين الله فينا ❖ وروح القدس ليس له كفاء

ولهذا قال العلامة ابن القيم -رحمة الله- في شرحه لدعاء النبي ﷺ، وتوسله ربوبية الله لجبريل، وميكائيل، وإسرافيل # يقول: "جبريل هو الواسطة المُوَكّل بالوحي الذي فيه حياة القلوب والأرواح". انتهى.

وقد تقتضي حكمة الله ﷻ أن يرسل مع جبريل غيره من الملائكة؛ لتبليغ الوحي، وبيان أوامر الله في حوادث مخصوصة، كما قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢] وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣١- ٣٣].

ثالثًا: تسيير شئون هذا الكون: وتتضح هذه الحكمة من بيان الأعمال المنوطة بهم، كما سيأتي -إن شاء الله.

رابعًا: رحمة الله بالمؤمنين: حيث إن الملائكة تكون مع الإنسان من مبدأ خلقه وهو نطفة إلى مماته، يقول العلامة ابن القيم -رحمه الله-: "وهم الذين يزهّدونه في الدنيا ويرغبونه في الآخرة، وهم الذين يذكّرونه إذا نسي وينشطونه إذا كسل، ويثبتونه إذا جزع، وهم الذين ينفعونه في مصالح دنياه وآخرته". انتهى.

خامسًا: تعذيب الكفار: كانت سنة الله في تعذيب الكفار المعاندين ومعاقبتهم تتمّ على أيدي الملائكة، ذلك في قصتهم مع لوط وقومه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ٣٧]، وكما حصل مع نزولهم في معركة بدر، ومقاتلتهم مع المسلمين، وقد عاينهم بعض الصحابة } في وقعة بدر الكبرى.

إلى غير ذلك من الحكم والأسرار، علمناها أو لم نعلمها؛ فالله خبير بخلقه، وهو الحكيم الخبير.

المراد بالإيمان بالملائكة جملة:

لّما كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة، وكانت الملائكة من الأمور الغيبية التي استأثر الله تعالى بمعرفة حقائقها، وأوصافها، وتفصيلات حياتها؛ كان الإيمان بها جملةً أمرًا واجبًا على المسلم، وكذلك الشأن فيما يتعلّق بأيّ أمرٍ وجب الإيمان به، ولم يردْ تفصيله؛ فمثلًا الأنبياء والمرسلون يجب الإيمان بهم جملةً، وأن الله تعالى أرسل رسلًا وبعث أنبياء، منهم من علمنا الله اسمه ورسالته، وشيئًا من حياته، وقصته مع قومه، ومنهم من لم يقصصْ علينا خبره؛ فنؤمن بهم في الجملة، ولا نفرق بين أحد منهم، ونفصّل إيماننا فيمن جاء التفصيل عنه.

وكذلك الحال بالنسبة للملائكة فنؤمن بهم في الجملة، ونعتقد جازمين أن الله ﷻ خلق خلقًا من نور يسمون الملائكة، مسخرون للطاعة، ومستغرقون في العبادة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأن هذه الملائكة أصناف عديدة لا يعلم كنه حقيقتها، ولا عدد طوائفها إلا خالقها -جلّ وعلا- وأن هذه الملائكة موكّلة بأعمال كثيرة؛ فمنها من وُكّل بالمطر، ومنها وُكّل بالأرزاق، ومنها من وُكّل بالنبات، ومنها من وُكّل بحركة الشمس، ومنها من وُكّل بحركة القمر والأفلاك.

ومنها الموكلون ببني آدم، ومنها ملائكة الجنة، وخزنة جهنم -أعاذنا الله وإياكم منها- ومنها حملة العرش، ومنها الملك الموكل بالوحي إلى الأنبياء والرسل، ومنها ملك الموت؛ فنؤمن بهذه الملائكة في الجملة، وأن الملائكة لهم حقيقة، ولهم أجسام نورانية، قادرون على التشكل بالقدرة الإلهية، إن كل حركة في هذا العالم وراءها ملائكة موكلة بذلك.

يقول صاحب كتاب (الإيمان: أركانه - حقيقته - نواقضه) بعد أن ذكر جملة من الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم:

"فهؤلاء وغيرهم ممن ورد ذكر أسمائهم في أحاديث ثبتت صحتها، يجب الإيمان بهم، وبما نيط بهم من الوظائف والأعمال، وأما الملائكة الذين لم يرد ذكرهم فيجب أن نؤمن بهم بصورة إجمالية، ونؤمن بما ذكر من أصنافهم وأفعالهم في القرآن والسنة؛ فنؤمن بالكرام الكاتبين الذين جعلهم الله علينا حافظين، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ٩، ١٠]، وكما قال أيضًا: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]، وكما قال: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقد ورد في بعض كتب التفسير أنهم اثنان عن اليمين

وعن الشمال يكتبان الأعمال؛ صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه؛ واحد من أمامه، وواحد من ورائه. فهو بين أربعة من الملائكة.

وروى الإمام مسلم والإمام أحمد -رحمهما الله تعالى- عن عبد الله بن مسعود > قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينه من الجنّ، وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، لكن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير)). وقوله ﷺ: ((فأسلم)) وجّهها أهل العلم بالحديث أنها إما أن تكون من أسلم -أي: الجني- فصار من المسلمين، أو فأسلم، أي أسلم أنا من أذاه.

ونؤمن كذلك بملك الموت المُوكّل بقبض أرواح العالمين قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١] ولم يصرح القرآن باسمه، ولا الأحاديث الصحيحة، وجاء في بعض الآثار تسميته بعزرائيل، ونؤمن بحملة العرش الذين أخبر عنهم القرآن فقال سبحانه: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧]، ومنهم إسرافيل الذي ينفخ في الصور، ونؤمن كذلك بالملائكة الموكلين بالنار -أعاذنا الله منها- وهم الزبانية، ومقدموهم تسعة عشر قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، وقال أيضًا: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ [المدثر: من ٣٠، ٣١]، ونؤمن أيضًا بالملائكة الموكلين بالجنان الذين يهيّئون الضيافة لساكنيها من ملابس، ومآكل، ومشارب، ومصانع، وغير ذلك ممّا لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر- جعلنا الله وإياكم من أهلها المتنعمين بهذه النعم فيها". انتهى كلامه، رحمه الله.

ويقول ابن أبي العز الحنفي - رحمه الله - :

"فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليها بالأمر، قد أطت السموات بهم، وحُقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك قائم، أو راكع، أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم، ومراتبهم؛ فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارةً يذكر حفّهم بالعرش والتقريب والعلو، والطهارة والقوة والأخلاق، قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١] ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢١] ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦] ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات: ٨]، وكذلك الأحاديث طافحة بذكرهم، فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان". انتهى كلام ابن أبي العز، رحمه الله.

إذًا يجب على المسلم أن يُؤمن بما ورد في حق الملائكة إجمالًا إيمانًا مجملًا، وما ورد في حقّهم تفصيلًا يجب الإيمان به إيمانًا مفصلًا، كما يتضح مما يأتي:

الإيمان بالملائكة على التفصيل:

أما الإيمان بالملائكة على جهة التفصيل فنقصد به أنه يجب على المسلم الإيمان بوجود الملائكة، الذين ورد ذكرهم في الكتاب العزيز، أو في سنة المصطفى ﷺ بالتفصيل الذي ورد عنهم؛ فيؤمن بأن المادة التي خُلقوا منها هي النور، وأنهم عباد مكرمون، طائعون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم مقربون؛ فمنهم حملة العرش، ومنهم الحافون به، ومنهم الملك الموكل بالوحي، وهو جبريل # وهو أفضلهم وأشرفهم، ومنهم ملك الجبال والذي يسوق السحاب وصاحب النبات وصاحب الأرزاق، والحفظة لبني آدم، وملائكة الجنة، وخزنة النار - أعاذنا الله منها. والملكان الموكلان بسؤال الميت في قبره، إلى غير ذلك من أخلاق الملائكة، يجب الإيمان بهم جميعًا على التفصيل الوارد عنهم، ومعرفة أسماء من ذكر اسمه منهم، فالذي ورد لنا من أسماء الملائكة جبريل، وميكائيل، وإسرافيل. وأما ملك الموت فلم يثبت في القرآن ولا في السنة الصحيحة تسميته - فقد جاءت في بعض الآثار تسميته بعزرائيل - وهاروت، وماروت، ومنكر ونكير، ورضوان، ومالك - عليهم السلام جميعًا.

ويجب معرفة أصنافهم ووظائفهم؛ فقد جاء في النصوص الشرعية أن الملائكة أصناف، كما ثبت أن لكل منهم وظائف وأعمال؛ فوظيفة الملائكة الأولى التي تقوم بها في الجملة: تسبيح الله تعالى، والتعبد له ليلًا ونهارًا من غير ملل ولا فتور.

وهناك أعمال ووظائف، وُكّل الله بالقيام بها أنواعًا مخصوصة من الملائكة؛ فمنهم جبريل # الأمين على وحي الله، يرسله به إلى الأنبياء والرسل، كما وكله بالهلكات إذا أراد الله أن يهلك قومًا، كما حصل في قصة قوم لوط؛ ورد

في التفسير أنه رفع القرية على جناحيه حتى سمعت الملائكة صياح ديكة القرية، ثـم جعل عاليها سافلها حتى لاقوا العذاب الأليم، والعياذ بالله، كما وكله بالنصر عند القتال، كما صرّح بذلك الإمام السيوطي -رحمه الله- في (الحبائك في أخبار الملائك) في الصفحة السابعة عشرة، ومنهم ميكائيل "ميكال # " الموكل بالمطر، ونبات الأرض، وأرزاق العباد، ومنهم إسرافيل # الموكل بالنفخ في الصور. ومنهم ملك الموت الموكل بقبض الأرواح، وله أعوان من الملائكة، ومنهم الملائكة الموكلون بنفخ الأرواح في الأجنة، وكتابة أعمالهم مستقبلًا، وآجالها، وأرزاقها، وسعادتها، أو شقاوتها. ومنهم الملائكة الموكلون بحفظ بني آدم بأمر الله، وآخرون يحصون أعمالهم ويكتبونها. ومنهم الملكان الموكلان بسؤال الميت إذا وضع في قبره، ومنهم خزنة الجنة الذين يسلمون على أهلها، ومنهم خزنة جهنم المكلفون بها وغير ذلك.

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-: "وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥]، ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات: ٤]، وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وقد دلّ الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وُكّل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تُدَبّر أمر النطفة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة، حتى يتمّ خلقها، ثم وُكّل بالعبد ملائكة؛ لحفظ ما يعمله وإحصائه، وكتابته، ووكّل بالموت ملائكة، ووكّل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكّل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها، وعمل آلاتها ملائكة؛ فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم المرسلات

عرفًا، والناشرات نشرًا، والفارقات فرقًا، والملقيات ذكرًا، ومنهم والنازعات غرقًا، والناشطات نشطًا، والسابحات سبحًا، فالسابقات سبقًا، ومنهم الصافات صفًّا، فالزاجرات زجرًا، فالتاليات ذكرًا، ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله: الفرق والطوائف والجماعات التي مفردها فرقة، وطائفة، وجماعة.

ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وُكّلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة، والتسبيح، والتقديس... إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله.

ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذٌ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء بل الأمر كله لله الواحد القهار.

ومنهم الأملاك الثلاثة جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل الموكلون بالحياة؛ فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات، والحيوان. وإسرافيل موكّل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم، فهم رسل الله في خلقه، وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده". انتهى كلامه.

منزلة الإيمان بالملائكة وحكمه:

لقد تقدّم معنا أن الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان الستة، وهي الإيمان بالله تعالى وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. ومنزلته من الدين عظيمة؛ إذ لا يتمّ إيمان امرئ إلا بإقراره بالملائكة والإيمان بهم، وبحقيقتهم، وتصديق الخبر الوارد في شأنهم؛ لأن أركان الإيمان الستة كلّ لا يتجزأ، فمن آمن ببعضها وردّ البعض الآخر لم يكن مؤمنًا، ولم يقبل منه

حتى يؤمن بها جميعًا، ويصدّق بها جميعًا، ولذلك لم يكن الفلاسفة منتظمين في سلك المؤمنين بسبب إنكارهم لوجود الملائكة، واعتبارهم -أي: الملائكة- نفوسًا مفارقة، أو عقولًا عشرة، أو أن الملائكة هي هذه الأفلاك السيّارة في الكون.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في الردّ على عقيدة الفلاسفة هذه:

"قيل لهم: أما إثباتكم أن في السماء أرواحًا، فهذا يُشبه ما في القرآن وغيره من كتب الله، ولكن ليست الملائكة كما يقول الذين يزعمون منكم أنهم آمنوا بما أُنزل على الرسول، وما أُنزل من قبله، ويقولون: ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق بين الشريعة والفلسفة، فأنهم قالوا: العقول والنفوس عند الفلاسفة هي الملائكة عند الأنبياء، وليس كذلك لكن تشبهها من بعض الوجوه، فإن اسم الملائكة والملك يتضمّن أنهم رسل الله، كما قال تعالى: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ [فاطر: ١]، وكما قال: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ [المرسلات: الآية: ١]، فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبّر به السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢]". انتهى كلامه.

ونقل السيوطي عن البيهقي -رحمهما الله تعالى- قول البيهقي:

"والإيمان بالملائكة ينتظم في معانٍ؛ أحدها: التصديق بوجوده، والثاني: إنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه، كالإنس والجن مأمورون مكلفون. والثالث: الاعتراف بأن منهم رسلًا يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض، ويتبع ذلك الاعتراف بأن منهم حملة العرش،

ومنهم الصافون، ومنهم خزنة الجنة، ومنهم خزنة النار، وقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره.

التقيد بالكتاب والسنة وفهم السلف في الكلام عن الملائكة:

إذا كانت أركان الإيمان الستة من أمور الغيب التي يتوقّف في الكلام حولها على الدليل من الكتاب والسنة، وفهم السلف الصالح رحمة الله عليهم، وفهم السلف الصالح رحمة الله عليهم، فإن الكلام عن الملائكة وحقيقتهم وعددهم وأسمائهم، والوظائف المنوطة بهم، والأعمال الموكلة إليهم، كل ذلك يجب التقيّد فيه بالكتاب والسنة، وفهم سلف الأمة رحمهم الله.

وهذا هو الإيمان بالغيب الذي ميّز الله به المؤمنين عن الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ١-٣]، ولهذا نهى الله ﷻ عن القول بغير علم، ولا هدى من كتاب أو سنة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وهذا التقيّد هو منهج أهل السنة والجماعة في جميع مسائل الاعتقاد؛ ولهذا لمّا تكلّم الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- عن الملائكة لم يخرج عن الأدلة من الكتاب والسنة، وفهم السلف في الحديث عنه.

يقول الدكتور صالح العبود:

"والشيخ يؤمن بالملائكة، ويصدق بوجودهم، عباد لله مكرمون لا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون، والله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشية الله مشفقون. وقال الشيخ في كتاب (أصول

الإيمان) باب ذكر الملائكة والإيمان بهم، ثم يستدل على الإيمان بهم في قول الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ويستدل الشيخ بقول الله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦] ويؤمن الشيخ بكل ما ورد من وصفهم وذكرهم وأصنافهم وأعيانهم في القرآن الكريم والسنة الشريفة". انتهى كلامه.

وجملة القول: إنه يجب الإيمان بكل ما ورد في شأن الملائكة عليهم السلام، مع التقيد في ذلك بما ورد في القرآن والسنة في شأنهم حسب فهم السلف -رحمهم الله تعالى- بأن هذه المخلوقات مخلوقات غيبية، لا يستطيع العقل إدراك كنهها، ولا تصورها، والذي عرفه عنها إنما عرفه عن طريق الوحي الذي جاء به المصطفى ﷺ فينبغي التقيد بذلك، وعدم إطلاق العنان بالتصورات الخاطئة، والخرافات والأوهام لتصورهم، وادّعاء رؤيتهم، ومخاطبتهم كما وجدنا بعض الطوائف تدّعي أنه يجوز رؤية الملك بعد انقطاع الوحي، ولكنهم قالوا: إنه يوحي للشيخ الولي، وقد يراه إلا أنه لا يجتمع له رؤيته ووحيه في آنٍ واحد، كما كان يحصل للنبي المصطفى ﷺ.

ذكر صفات الملائكة، ووظائفهم، ومن سمي منهم، وحكم من أنكر وجودهم

١- بيان صفات الملائكة:

لقد ورد في القرآن الكريم تشبيه يوسف --على نبينا وعليه الصلاة والسلام- بالملائكة في الحسن، كما قال تعالى على لسان النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أيديهنّ: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١]، كما ورد وصف جبريل # بالقوة والأمانة في أداء الوحي إلى النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٠-٢٤]. وقد ورد في صفة الملائكة أنهم أُولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، كما قال تعالى: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ١].

كما ثبت أن النبي ﷺ أخبر عن جبريل # أن له ستمائة جناح؛ فقد أخرج السيوطي في (الحبائك) عن أبي الشيخ -رحمهما الله تعالى- عن ابن عباس { أن النبي ﷺ قال: ((جبريل له ستمائة جناح من لؤلؤ، قد نشرها مثل ريش الطواويس)) رواه السيوطي في (الحبائك).

وقد روى الإمام السيوطي -رحمه الله- أحاديث تُبيّن صفة جبريل # :

منها: عن عائشة > أن رسول الله ﷺ قال: "رأيت جبريل منهبطًا، قد ملأ ما بين الخافقين، عليه ثياب سندس معلّق بها اللؤلؤ والياقوت".

ومنها: عن عائشة > قالت: قال رسول الله ﷺ لجبريل: "وَدِدْتُ لو رأيتك في صورتك، قال: وتحب ذلك؟ قال: نعم، قال: موعد موعدك كذا من الليل ببقيع الغرقد، فلقيه موعده فنشر جناحًا من أجنحته، فسدّ أُفق السماء حتى ما يُرى من السماء شيء".

ومنها: عن ابن عباس عن ورقة الأنصاري قال: قلت: يا محمد، كيف يأتيك الذي يأتيك؟ يعني جبريل قال: "يأتيني من السماء جناحاه لؤلؤ، وباطن قدميه أخضر".

ومنها: عن شريح بن عبد الله: "أن النبي ﷺ لما صعد إلى السماء رأى جبريل في خلقته منظومٌ أجنحته بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت. قال: فخُيّل لي أن ما بين عينيه قد سدّ الأفق، وكنت أراه قبل ذلك على صورة مختلفة، وأكثر ما كنت أراه على

صورة دحية الكلبي، وكنت أحيانًا أراه كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال".

ومنها: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "إن لله ملائكةً ما بين شحمة أذن أحدهم إلى تُرْقوته مسيرة سبعمائة عامٍ بالطير السريع الطيران".

ومنها: عن يحيى بن أبي كثير قال: "خلق الله الملائكة صمدًا ليس لهم أجواف".

ومنها: عن وهب بن منبه أنه سُئل عن خلق جبريل "فذكر أن ما بين منكبيه من ذي إلى ذي خفقُ الطير سبعمائة عام.

ومنها: عن عمار بن أبي عمار "أن حمزة بن عبد المطلب قال: يا رسول الله، أرني جبريل في صورته قال: إنك لا تستطيع أن تراه. قال: بلى. فأرنيه. قال: فاقعد. فقعد جبريل على خشبة كانت في الكعبة، فقال النبي ﷺ ارفع طرفك فانظر، فرفع طرفه فرأى قدميه مثل الزبرجد الأخضر؛ فخرَّ مغشيًا عليه".

ومنها: عن ابن شهاب: "أن رسول الله ﷺ سأل جبريل أن يتراءى له في صورته، فقال جبريل: إنك لن تطيق ذلك، قال: إني أحب أن تفعل، فخرج رسول الله ﷺ إلى المُصلّى في ليلة مقمرة، فأتاه جبريل في صورته، فغُشي على رسول الله ﷺ حين رآه، ثم أفاق، وجبريل يسنده، وواضع إحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه، فقال رسول الله ﷺ: ما كنت أرى أن شيئًا من الخلق هكذا، فقال جبريل: فكيف لو رأيت إسرافيل، إن له لاثني عشر جناحًا، منها جناحٌ في المشرق، وجناحٌ في المغرب، وإن العرش على كاهله، وإنه ليتضاءل الأحيان لعظمة الله حتى يصير مثل الوصأ، حتى ما يحمل عرشه إلا عظمته" والوصأ -بسكون الصاد وفتحها-: هو طائر أصغر من العصفور. انتهى.

وقال صاحب كتاب (الإيمان: أركانه - حقيقته - نواقضه) وهو يبيّن صفة الملائكة يقول:

"وبناءً على ذلك، فإن الخالق ﷻ لم يُخبرنا من صفاتهم الخِلْقِيّة إلا النذر القليل، فأخبرنا سبحانه أنهم خلقوا قبل آدم؛ إذ ورد في القرآن أن الله أخبرهم بأنه سيخلق الإنسان، ويجعله في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وأما المادة التي خُلقوا منها، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الله خلقهم من نور.

فقد أخرج مسلم عن عائشة > أن رسول الله ﷺ قال: ((خُلقتْ الملائكة من نور، وخُلق الجانّ من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم))، وتدل النصوص في مجموعها على أن الملائكة مخلوقات نورانيّة ليس لها جسم مادي يُدرك بالحواس الإنسانية، وإنهم ليسوا كالبشر؛ فلا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، ولا يتزاوجون، مطهّرون من الشهوات الحيوانية، ومنزّهون عن الآثام والخطايا، ولا يتّصفون بشيء من الصفات المادية التي يتّصف بها ابن آدم غير أن لهم القدرة على أن يتمثّلوا بصور البشر بإذن الله تعالى.

كما أخبر الله ﷻ عن جبريل # أنه جاء مريم في صورة بشريّة فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٦، ١٧]، وفي حديث جبريل المشهور فيما جاء يعلم الصحابة معنى الإسلام، والإيمان، والإحسان، وأشراط الساعة، ذكر عمر بن الخطاب > أنه جاء على هيئة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، وأنه جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه، ثم شرع في السؤال.

ومن صفاتهم الخِلْقِيّة التي أخبرنا الله بها: أنه جعل لهم أجنحة يتفاوتون في أعدادها، فقال سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [فاطر: ١]، وقد أخرج مسلم والبخاري عن عبد الله بن مسعود > أن رسول الله ﷺ رأى جبريل # له ستمائة جناح.

هذا ما أخبرنا به ربنا -تبارك وتعالى- عن هذه المخلوقات الكريمة من حيث خلقتها، ونؤمن بها كما جاءت، ولا نسأل عن غيره، ولو كان في التفصيل نفع لعباد الله لما حجب عنهم معرفته، فهو اللطيف الرحيم بهم يُعلمهم الحق والخير". انتهى كلامه.

٢. ذكر أصناف الملائكة وأعدادهم:

لقد وَرَدَ في القرآن الكريم ذكر الملائكة وأصنافهم وأعدادهم، والمتتّبع لتلك الآيات يجد أنهم موصُوفون بالكثرة؛ فمنهم الصّافات صفّا، ومنهم الزّاجرات زجرًا، ومنهم المرسلات عرفًا، وكل ذلك دليلٌ على أن الملائكة طوائف وجماعات، وأنهم سكّان السموات يتصفون بالقرب، مقرّبون طائعون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وأن البيت المعمور الذي في السماء يَطُوف به كل يوم سبعون ألف ملك لا يُعودون إليه آخر ما عليه، وأنهم طوائف يجوبون الأرض كلٌّ مُوَكّل بوظيفة خاصة به. فكل حركة في هذا العالم وراءها ملائكة موكّلون بها، وهم كثيرون جدًّا.

يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-:

"وقد اشتملت أحاديث الباب على ذكر بعض من اشتهر من الملائكة كـ"جبريل" ووقع ذكره في أكثر أحاديثه، و"ميكائيل" وهو في حديث سمرة وحده، والملك

الموكل بتصوير ابن آدم، و"مالك" خازن النار، وملك الجبال، والملائكة الذين في كل سماء، والملائكة الذين ينزلون في السحاب، والملائكة الذين يدخلون البيت المعمور، والملائكة الذين يكتبون الناس يوم الجمعة، وَخَزَنَة الجنة، والملائكة الذين يَتَعَاقَبون، ووقع ذكر الملائكة على العموم في كونهم لا يدخلون بيتًا فيه تصاوير". انتهى كلامه.

ويقول ابن أبي العز الحنفي - رحمه الله - :

"فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم المرسلات عرفًا، والناشرات نشرًا، والفارقات فرقًا، والمُلقيات ذكرًا، ومنهم النازعات غرقًا، والناشطات نشطًا والسّابحات سبحًا، فالسابقات سبقًا، ومنهم الصافات صفًّا، فالزّاجرات زجرًا، فالتاليات ذكرًا. ومعنى جمع التأليف في ذلك كلّه الفِرَقُ، والطوائف، والجماعات التي مفردها فرقة، وطائفة، وجماعة. ومنهم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، وملائكة قد وُكّلوا بحمل العرش، وملائكة قد وُكّلوا بعمارة السموات بالصلاة، والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يُحصيها إلا الله". انتهى كلامه.

وعن عدد الملائكة وكثرتهم، يقول صاحب (عالم الملائكة أسراره وخفاياه):

لقد بلغ عدد الملائكة مقدارًا كبيرًا جدًّا، ولم تأتِ النصوص إلا بالدّلالة على هذه الكثرة، ولم تُحدّد عددهم بالضبط، وذكرت أن الذي يعلم عددهم هو الله وحده، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وجاءت الأحاديث النبويّة والآثار مبيّنةً لكثرتهم التي تفوق الخيال، فقال النبي ﷺ: ((ما في السماء موضعُ قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم))، فذلك قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤].

وقال النبي ﷺ يومًا لجلسائه: ((هل تسمعون ما أسمع؟ قالوا: وما تسمع يا رسول الله؟ قال: أطّت السماء وحُقّ لها أن تَئِط، ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم، أو راكع، أو ساجد، ثم قرأ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات: ١٦٦]))، وقال النبي ﷺ: ((يُؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زِمَام، مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجرّونها))، وقال ﷺ: ((ليس من خلق الله أكثر من الملائكة، ما من شيء يَنْبُت إلا وملك مُوكّل به))، وقال: ((ليس من خلق الله أكثر من الملائكة، يخلقهم مثل الذباب)) انتهى كلامه.

٣. أعمال الملائكة ووظائفهم المنوطة بهم:

لقد قَدّمنا أن الملائكة الكِرَام مكلّفون بأعمال عديدة، ومنوطة بهم وظائف متنوعة؛ فمنهم من هو مُوكّل بالوحي، والمُوكل بالقطر والنبات، ومنهم المُوكّل بالنفخ في الصور، ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، والملكان الموكلان ببني آدم يكتبان الحسنات والسيئات، ومنهم الملكان الموكّلان بسؤال الميت إذا وُضع في قبره، ومنهم خزنة جهنم، وخزنة الجنة، والملائكة الذين يَتَعَاقَبُون في بني آدم، وملائكة الليل وملائكة النهار، وملك الموت وأعوانه، وملك مُوَكّل بالشمس، وملك مُوَكّل بالقمر، إلى غير ذلك من الأعمال التي يُرسل الله تعالى بها ملائكة معينين حتى قيل: إن كل حركة في العالم وراءها ملك مُوكّل بها.

يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله -:

"فأما جبريل، فقد وصفه الله تعالى بأنه روح القدس، وبأنه الروح الأمين، وبأنه رسول كريم ذو قوة، مكين، مطاع، أمين.

وسيأتي في التفسير أن معناه عبد الله، وجبريل مُوكّل بالوحي الذي يحصل به الإصلاح العام، وجبريل من الكروبيّين، وهم سادة الملائكة. وروى الطبراني من

حديث ابن عباس } قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: ((على أيّ شيء أنت؟ قال: على الريح والجنود، قال: وعلى أيّ شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر. قال: وعلى أيّ شيء ملك الموت؟ قال: على قَبْضِ الأرواح)).

وفي كتاب (العظمة) لأبي الشيخ عن علي أنه ذكر الملائكة فقال:

"منهم الأمناء على وحيه، والحَفَظَة لعباده، والسدنة لجنانه، والثابتة في الأرض السفلى أقدامهم، المارقة من السماء العليا أعناقهم، الخارجة عن الأقطار أكنافهم، الماسة لقوائم العرش أكتافهم". انتهى كلامه -رحمه الله.

ويقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-:

"وأما الملائكة فهم المُوكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥] ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات: ٤]، وهم الملائكة عند أهل الإيمان، وأتباع الرسل. وأما المكذبون بالرسل المُنكرون للصانع، فيقولون: هي النجوم، وقد دلّ الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها مُوكّلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وَكّل بالجبال ملائكة، وَوَكَّل بالسحاب والمطر ملائكة، وَوَكّل بالرحم ملائكة تدبّر أمر النطفة حتى يتمّ خلقها، ثم وكّل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله، وإحصائه وكتابته، وَوَكَّل بالموت ملائكة، وَوَكَّل بالسؤال في القبر ملائكة، وَوَكّل بالأفلاك ملائكة يحركونها، وَوَكَّل بالشمس والقمر ملائكة، وَوَكّل بالنار وإيقادها، وتعذيب أهلها، وعمارتها ملائكة، وَوَكَّل بالجنة وعمارتها وغرسها، وعمل آلاتها ملائكة. فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: المرسلات عرفًا، والناشرات نشرًا، والفارقات فرقًا، والملقيات ذكرًا، ومنهم: النازعات غرقًا، والناشطات نشطا،

والسابحات سبحًا، فالسابقات سبقًا، ومنهم: الصافات صفًا، فالزّاجرات زجرًا، فالتاليات ذكرًا". انتهى كلامه.

إذًا، يتّضح من هذا أن تعدّد الملائكة بتعدّد الأعمال المنوطة بهم؛ لتيسير شئون هذا الكون، والله غنيّ عن الملائكة، وعن غيرهم من المخلوقات؛ لكنه سبحانه بحكمته البالغة، وقدرته ومشيئته النافذة جعل هذه المخلوقات النورانية هي التي تُسيّر شئون كثير من هذا الكون، وقد ورد أن الله ﷻ وكّل بالإنسان ملائكة يحرسونه، ويحفظونه لا يتركونه حتى في حالة النوم، وفي حالة اليقظة يراقبونه ويحفظونه حتى إذا جاء قدر الله خلّوا بينهم وبينه، وورد أن الملائكة الذين يحفظون الإنسان يُتابعونه حتى يُحشر، ثم يُتابعونه حتى يصل إلى منازله، منازل الجنان، أو منازل النيران.

ونقل الإمام السيوطي عن أبي الحسن الهروي -رحمهما الله تعالى- قول الهروي من أرجوزته المسماة "الجواهر المضيئة"، وهو يتكلم عن الملائكة يقول:

القول بالملائك الكرام ❖ فريضة لصحة الإسلام
وهم عباد الخالق القهار ❖ قد خُلقوا من خالص الأنوار
فمنهمُ كاتبو أعمال الورى ❖ ومنهمُ حافظو سكان الثرى
ومنهم مُوَكّل بالرزق ❖ يوصل أو يسوى بأمر الحق

٤- من ورد ذكره من الملائكة ولم يرد اسمه:

من ذلك ما ورد من ذكر للملائكة الذين أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم عند خلقه، ومحاورتهم للخالق -جل وعلا- في جعله خليفةً في الأرض من البشر يفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال تعالى في ذكر الملائكة الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ والذين حوله، وتسبيحهم لله تعالى، واستغفارهم للمؤمنين، ودعائهم لهم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٧- ٩].

كذلك ما ورد من قصة الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إبراهيم ولوط - عليهما السلام- لإنقاذ المؤمنين، وإهلاك قرية قوم لوط الذين كانوا يعملون الخبائث، اختلف أهل العلم: هل هؤلاء الجماعة معروفون أم غير معروفين؟ فمن أهل العلم من ذكر أن من ضمنهم جبريل # وهو الذي رفع القرية على جناحه حتى بلغ بهم عنان السماء، وسمعت ملائكة أهل السماء صياح ديكة القرية، ثم قلبهم على الأرض فجعل عاليها سافلها كما هو مشهور في الآيات، وعند أهل التفسير، وقيل: إنهم جمع لا يعرفون، يعني هل جبريل # من ضمنهم أم ليس من ضمنهم هذا قول آخر لأهل العلم رحمة الله عليهم، الذي يهمنا أن هؤلاء أيضًا ملائكة ذكروا في القرآن الكريم ولم ترد أسماؤهم.

وقد ذكر النبي ﷺ أن هناك ملكين ينزلان كل صباح يدعو أحدهما للمنفق، ويدعو الآخر على الممسك، قال ﷺ: ((ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان؛ فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خَلَفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا)) متفق عليه.

كما ورد ذكر الملائكة الذين يتعاقبون في بني آدم، ويجتمعون في صلاتي الفجر والعصر، فعن أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((الملائكة يتعاقبون، ملائكة

بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر، وفي صلاة العصر، ثم يعرج إليه الذين كانوا فيكم، فيسألهم -وهو أعلم- فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فقالوا: تركناهم يصلون وأتيناهم يصلون)) رواه الإمام البخاري - رحمه الله.

وقد ذكر الله تعالى الملائكة السياحين الذين يحبون بني آدم، ويطلبون مجالس الذكر، فعن أبي هريرة < قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذ وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم ﷻ وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك. فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدًا، وأكثر لك تسبيحًا. قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا، والله يا رب ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا، والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: أشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم)) متفق عليه.

إذًا، ثبت من هذا الحديث أن هناك ملائكة يطوفون في السكك يطلبون مجالس الذكر، فإذ وجدوا مجلسًا حفوا بأهله، ونقلوا صفتهم وأخبارهم للخالق -جل وعلا- وهو أعلم منهم بأحوال خلقه؛ إذًا ثبت هنا ذكر هذه الجماعة من الملائكة، وإن لم ترد صفاتهم وهيئاتهم وأسماؤهم.

وذكر الحافظ ابن حجر -رحمه الله- :

"أن هؤلاء الملائكة زائدون عن الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق لا وظيفة لهم إلا حلق الذِّكر". انتهى كلامه -رحمه الله-.

إذًا يريد الحافظ ابن حجر -رحمه الله- أن يبين لنا أن هؤلاء الملائكة السياحين الذين يحضرون حلق الذكر، وينقلون أخبارهم للخالق -جل وعلا في علاه- هؤلاء ليسوا داخلين في الحفظة الذين يحفظون بني آدم، الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]؛ لأن هؤلاء ملازمون للإنسان وليسوا كذلك من الكاتبين الذين أيضًا يلازمون الإنسان ويحصون عليه أقواله وأفعاله؛ إذًا هذه جماعة من الملائكة ورد ذكرهم وصفتهم ولم ترد أسماؤهم، وأن وظيفتهم خاصة بحلق الذكر.

ويقول صاحب كتاب (الإيمان: أركانه - حقيقته - نواقضه):

"وأما الملائكة الذين لم يرد ذكرهم -يقصد أسماءهم- فيجب أن نؤمن بهم بصورة إجمالية، ونؤمن بما ذكر من أصنافهم وأفعالهم في القرآن والسنة، فنؤمن بالكرام الكاتبين الذين جعلهم الله علينا حافظين، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وكما قال تعالى أيضًا: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾، وكما قال: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقد ورد في بعض كتب التفسير أنهم اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحدٌ من أمامه، وواحدٌ من ورائه، فهو بين أربعة ملائكة.

ونؤمن بحملة العرش الذين أخبر عنهم الله في القرآن، فقال سبحانه: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧]، ومنهم إسرافيل الذي ينفخ في الصور.

ونؤمن كذلك بالملائكة الموكلين بالنار -أعاذنا الله منها- وهم الزبانية، ومقدموهم تسعة عشر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾، وقال أيضًا: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [المدثر: ٣٠، ٣١].

ونؤمن أيضًا بالملائكة الموكلين بالجنان الذين يهيئون الضيافة لساكنيها من ملابس، ومآكل، ومشارب، ومصانع، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر". انتهى كلامه.

وقال الشيخ محمد بن أحمد السفاريني -رحمه الله- في الملكين الموكلين بحفظ الإنسان:

وكّل الله من الكرام ❖	اثنين حافظين للأنام
فيكتبان كل أفعال الورى ❖	كما أتى في النص من غير الكرى

ثم قال في الشرح: "قال علماؤنا منهم ابن حمدان في (نهاية المبتدئين): الرقيب والعتيد ملكان موكلان بالعبد يجب أن نؤمن بهما، ونصدق بأنهما يكتبان أفعاله، كما قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٧، ١٨]، ولا يفارقان العبد بحال، وقيل: بل عند الخلاء، وقال الحسن: إن الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين؛ عند غائطه، وعند جماعه. قال العلامة الشيخ مرعي في (بهجته): وأما الملائكة الكاتبون فقيل: أربعة؛ اثنان بالليل،

واثنان بالنهار، وقيل: خمسة واحدٌ لا يفارق في ليل ولا نهار". انتهى كما قال السفاريني -رحمه الله- والمشهور أنهما اثنان لكل واحد.

وبالجملة فالملائكة الذين ورد ذكرهم ولم ترد أسماؤهم كثيرون جدًّا، ولعل فيما ذكرناه كفاية.

٥- مَن سُمِّي لنا من الملائكة في القرآن الكريم:

لقد ورد ذكر أسماء بعض الملائكة الكرام في القرآن الكريم كجبريل وميكائيل -عليهما السلام- يقول صاحب كتاب (الإيمان: أركانه - حقيقته - نواقضه): ويجب الإيمان بالملائكة التي وردت أسماؤهم في الكتاب، أو السنة بالتخفيف، ومن هؤلاء رؤساؤهم الثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وجبريل هو الملك الموكل بالوحي الذي بيه حياة القلوب والأرواح، وقد ورد ذكره هو وميكائيل في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨].

وقد أثنى الله ﷻ على جبريل في القرآن الكريم أحسن الثناء ووصفه بأجمل الصفات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٥- ٢١]، وقال تعالى في وصفه أيضًا: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ [النجم: ٥، ٦].

وأما ميكائيل فهو الملك الموكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وأما إسرافيل فهو الملك الموكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

ومن الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن خازن النار، قال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] فهؤلاء وغيرهم ممن ورد ذكر أسمائهم في أحاديثَ ثبتت صحتها يجب الإيمان بهم وبما نيط بهم من الوظائف والأعمال". انتهى كلامه.

يقول ابن أبي العز الحنفي - رحمه الله - :

"ومنهم -أي: الملائكة- الأَمْلَاكُ الثلاثة -جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل- الموكلون بالحياة؛ فجبرائيل موكلٌ بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكلٌ بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكلٌ بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم، فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر". انتهى كلامه -رحمه الله.

ولكن الذي ورد ذكره كثيرًا في القرآن الكريم هو الملك جبريل # فمن ذلك قول الله تعالى مخاطبًا عيسى -على نبينا وعليه السلام- : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٨٧]، وروح القدس في الآيتين المراد به جبريل # .

كما ورد ذكر جبريل # كذلك في القرآن الكريم في شأن نزوله على خاتم النبيين محمد ﷺ فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ومن تلك الآيات قول الله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢].

وقوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

والمقصود أن ذكر جبريل # في القرآن الكريم كثير؛ لأنه هو الواسطة بين الله تعالى وخاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ؛ ولهذا كان حسان بن ثابت > يقول:

وجبريل أمين الله فينا ❖ وروح القدس ليس له كفاء

ومن الملائكة الذين ذكروا في القرآن الكريم: مَالِكٌ # خازن النار قال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾.

ومنهم: ملك الموت الذي لم يرد اسمه صريحًا لا في القرآن، ولا في السنة الصحيحة، لكن ورد في بعض الآثار تسميته بعزرائيل، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١].

ومن الملائكة المذكورين في القرآن الكريم: هاروت وماروت في قصة تعلم أهل بابل للسحر، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وذكر ابن كثير -رحمه الله- أن هذين الملكين أرسلهم الله فتنة لأهل بابل، وما قيل في قصتهما مع المرأة التي علماها اسم الله الأعظم هو من قبيل الإسرائيليات. انتهى بمعناه من (البداية والنهاية).

٦- من سُمِّي لنا من الملائكة في السنة المطهرة:

تزخر السنة النبوية بروايات عديدة عن الملائكة، وقصصهم مع أمم الأنبياء، وخصوصًا سيرة نبينا محمد ﷺ وقصته مع قومه، إلا أن الذي ورد اسمه صريحًا

قليل جدًّا بالنسبة لكثرة الملائكة وتعدد طوائفهم، فممن ورد اسمه في السنة من الملائكة الكرام -عليهم السلام-: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومنكر ونكير صاحبا القبر، أما ملك الموت فلم يرد اسمه في السنة الصحيحة -كما أشرنا- آنفًا، لكنه ورد في بعض الآثار تسميته بعزرائيل.

أخرج السيوطي في (الحبائك في أخبار الملائك) عن ابن سباط أنه قال: "يدبر أمر الدنيا أربعة جبريل، وميكائيل، وملك الموت، وإسرافيل، فأما جبريل فموكلٌ بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكلٌ بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكلٌ بقبض الأرواح، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم". انتهى كلامه.

وأخرج السيوطي -رحمه الله- أيضًا عن ابن عباس } أن النبي ﷺ ذكر جبريل، فقال: ((ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبريل)).

وعن ذكر النبي ﷺ لجبريل # ما ثبت عن ابن عباس } قال: ((أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، قال: فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه، أن قال: الله على ما نقول وكيل، قالوا: فأخبرنا عن صاحبك الذي يأتيك من الملائكة، فإنه ليس من نبي إلا يأتيه مَلَكٌ بالخبر، فنحن نبايعك إن أخبرتنا، قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال، ذاك عدو لنا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالنبات والقطر والرحمة؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ... ﴾ إلى آخر الآية))، رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهم.

وعن ذكر ميكائيل قول النبي ﷺ لجبريل: ((ما لي لم أرَ ميكائيل ضاحكًا قط؟! قال: ما ضحك ميكائيل منذ خُلقت النار))، رواه السيوطي في (الحبائك).

وعن ذكر جبريل وميكائيل ومالك -خازن النار- ما رواه البخاري -رحمه الله- عن سمرة قال: قال النبي ﷺ: ((رأيت الليلة رجلين أتياني؛ فقالا: الذي يوقد النار مالك خازن النار، وأنا جبريل وهذا ميكائيل)). انتهى.

ومما ورد في ذكر ملك الموت حديث أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((أرسل ملك الموت إلى موسى # فلما جاءه صكه؛ فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت! فرد الله عليه عينه، وقال: ارجع فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سَنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة برمية حجر، قال: قال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر)) متفق عليه.

٧- حكم إنكار وجود الملائكة، أو تأوّل وجودهم بأخيلة القوى العقلية والنفسية:

أ- إثبات وجود الملائكة وأنهم أجسام قادرون على التشكل:

لقد مَرَّ مَعَنَا إثبات أن المادة التي خَلَقَ اللهُ منها الملائكة هي النور، وذلك لما ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: ((خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم)) أي: من الطين. رواه الإمام مسلم -رَحِمَهُ اللهُ.

ولما خلق الله تعالى الملائكة من هذه المادة النورانية، جعلهم قادرين على التشكل على أشكال مختلفة، وهيئات متعددة، وصور عجيبة لكي يسهل انتقالهم من مكانٍ إلى مكانٍ، ومن هيئةٍ إلى هيئة؛ فمن ذلك أن جبريل # ثبت أنه تَبَدَّى للنبي ﷺ وله ستمائة جناح سادًّا الأفق.

وكذلك ورد في القرآن الكريم أن الملائكة رسل الله تعالى، خلقهم بأجنحة مثنى وثلاث ورباع، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [فاطر: ١] ومن الصفات العجيبة التي تبين التشكل الذي تظهر به الملائكة قول الله تعالى مبينًا غلظة وشدة ملائكة النار: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

ومن الهيئات التي تبين التشكل الذي يجوز للملائكة، كما أنه دليل على إثبات وجودهم، ما ثبت من أن المَلَكَ يظهر على هيئة رجل، حيث ثبت ظهور جبريل # لمريم ابنة عمران -عليها السلام- في سورة رجل، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٦، ١٧].

وكذلك ثبت في قصة الملائكة الذين أرسلهم الله إلى إبراهيم ولوط -على نبينا وعليهما السلام- وهم المعروفون بضيف إبراهيم، فقدم إليهم إبراهيم القِرَى؛ ظانًّا أنهم بشر ليأكلوا منه قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣١، ٣٣] فبين الله تعالى في هذه الآيات أنه أرسل ملائكةً تشكّلوا على هيئةِ رجالٍ، وبعثهم إلى إبراهيم ولوط -عَلَى نَبِينَا وعَلَيْهِم السَّلاَمُ- وأخبروهما بأنهم مكلفون من قبل الله بإهلاك قوميهما، بعد أن ينجيانهما وأهلهما إلا امرأة لوط المتمالئة مع قومها.

يقول صاحب كتاب (الإيمان أركانه، حقيقته، نواقضه):

"وتدل النصوص في مجموعها على أن الملائكة مخلوقات نورانية، وأنهم ليسوا كالبشر؛ فلا يأكلون ولا يشربون، ولا ينامون ولا يتزاوجون، مُطَهَّرونَ من

الشهوات الحيوانية، ومنزهون عن الآثام والخطايا، ولا يتصفون بشيءٍ من الصفات المادية التي يتصف بها ابن آدم". انتهى كلامه.

ويقول سيد سابق -رحمه الله- :

"وهم -أي الملائكة- يتفاوتون في الخلق كما يتفاوتون في الأقدار تفاوتًا لا يعلمه إلا الله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١] أي: أن الله جعل الملائكة أصحابَ أجنحةٍ؛ فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاث، ومنهم من له أربعة، ومنهم من يزيد على ذلك، وهذا مظهر التفاوت في الأقدار عند الله، والقدرة على الانتقال.

روى مسلم عن ابن مسعود > أن رسول الله ﷺ رأى جبريل # له ستمائة جناح. وكثرة الأجنحة دليلُ القدرةِ على السرعة في تنفيذ أوامر الله وتبليغ رسالته: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات: ١٦٤- ١٦٦] قال ابن كثير: ما من ملك إلا له موضع مخصوص في السموات ومقامات العباد لا يتجاوزه ولا يتعداه". انتهى كلامه رحمه الله.

وأما مجيء جبريل # إلى النبي ﷺ في صورةِ رجلٍ، والتشكلِ بهيئةٍ أخرى فكثير جدًّا، وعليه فقد كان نزول جبريل # على النبي ﷺ على أشكالٍ:

أولًا: فمن تلك الأشكال أنه كان يأتيه على صورة غير مرئية، ويقع كلامه على قلب النبي ﷺ فيعي المصطفى ﷺ ما يقول جبريل ولا يرى الصحابة { جبريل والحالة هذه.

ثانيًا: وقد يراه على صورته التي خلق عليها؛ فقد ثبت أنه ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها مرتين؛ فقد روى مسلم بسنده عن عائشة > أنها

قالت: "إن النبي ﷺ لم يَرَ جبريل في صورته التي خلق عليها إلا مرتين: مرةً عند سدرة المنتهى، ومرة في أزاد له ستمائة جناح، قد سد الأفق". وأزاد أو زياد وادٍ في مكة.

ثالثًا: وقد يتمثل جبريل للنبي ﷺ في صورة رجل فيكلمه بالوحي، ومن ذلك:

- تمثل جبريل # بصورة الصحابي دحية بن خليفة الكلبي < وكان معروفًا بجماله، فقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر } قال: كان جبريل # يأتي النبي ﷺ في صورة دحية.

- وقد يأتيه على صورةٍ غيرِ معروفةٍ، كرجلٍ من الأعرابِ، كما ثبت في (صحيح مسلم) من حديث عمر بن الخطاب < قال: ((بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه...)) الحديث.

وساق عمر < الحديث إلى أن قال في آخره: ثم انطلق فلبثت مليًّا، ثم قال لي -أي النبي ﷺ: ((يا عمر، أتدري من السائل؟)) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)). انتهى.

وبهذه الأشكال الثلاثة، ثبت نزولُ جبريل # عَلَى خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ.

وفي ذلك دليل واضح على وجود الملائكة وأنهم أجسام قائمة وأنهم يتشكلون على هيئات مختلفة ويجيئون على صور متعددة - سلام الله عليهم أجمعين.

ب- من الطائفة التي أنكرت وجود الملائكة؟

إذا بحثنا عن الطائفة التي أنكرت وجود الملائكة -عَلَيْهِم السَّلَامُ- وكفرت بهم، ولم تؤمن بوجودهم، ولا بالأعمال المنوطة بهم؛ وجدنا أهل العلم يذكرون:

أنهم طائفة الفلاسفة التي لا تؤمن بهذه المخلوقات النورانية العجيبة التي ورد ذكرها في القرآن، وتعتبر ركيزةً مهمةً من ركائزِ الإيمانِ في الدين الإسلامي، بل إنَّ من لم يؤمن بوجودهم؛ فلا إيمان له؛ لذلك كان الفلاسفة، ومن شاكلهم في تكذيب الآيات والأحاديث التي تطفح بذكر الملائكة -عَلَيْهِم السَّلاَمُ- كانوا كافرين سواء منهم من كذب بوجودهم وأنكرهم أو من ادعى أنهم عبارة عن العقول والنفوس، أو أنهم هذه الكواكب السيارات.

يقول الشيخ ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-:

"فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل -صلوات الله عليهم وسلامه- لم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل، وأما أعداؤهم، ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة، وأهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها؛ وأعظم الناس لها إنكارًا الفلاسفة، المسمون عند من يعظمهم بالحكماء.

فإنَّ من علم حقيقة قولهم؛ علم أنهم لم يؤمنوا بالله، ولا رسله، ولا كتبه ولا ملائكته، ولا باليوم الآخر؛ فإن مذهبهم أن الله سبحانه موجود لا ماهية له ولا حقيقة، فلا يعلموا الجزئيات بأعيانها، وكل موجود في الخارج فهو جزئي...

إلى أن يقول: وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥]، ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات: ٤] وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون للرسل المنكرون للصانع، فيقولون: هي النجوم". انتهى كلامه.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-:

"قال جمهور أهل الكلام من المسلمين: الملائكة أجسام لطيفة، أُعْطِيَتْ قدرةً على التشكلِ، بأشكالٍ مختلفةٍ ومسكنها السموات، وأبطل من قال: إنها

الكواكب، أو أنها الأنفس الخيرة التي فارقت أجسادها، وغير ذلك من الأقوال التي لا يوجد في الأدلة السمعية شيء منها". انتهى كلامه.

وذكر أبو الفتح السجستاني -رحمه الله- :

أن من عقائد الصابئة أن الروحانيين -وهم الملائكة عندهم- يحلون بالهياكل العلوية، قال: قالت الصابئة: الروحانيون متخصصون بالهياكل العلوية، مثل زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر، وهذه السيارات كالأبدان والأشخاص بالنسبة إليها، وكل ما يحدث من الموجودات ويعرض من الحوادث فكلها مسبباتُ هذه الأسباب وآثار هذه العلويات، فيفيض على هذه العلويات من الروحانيات تصريفات وتحريكات إلى جهات الخير والنظام.

ثم قال -رحمه الله- مبينًا عبدة الشمس والقمر: زعموا أن الشمس مَلَكٌ من الملائكةِ، ولها نفسٌ وعقلٌ، ومنها نور الكواكب، وضياء العالم، وتُكَوِّنُ الموجودات السفلية، وهي ملك الفلك يستحق التعظيم والسجود والتبخير والدعاء، وهؤلاء أي: الذين يعبدون الشمس يسمون "الدينكيتية" أي: عُبَّادُ الشمس.

ثم قال عن عبدة القمر: زعموا أن القمر مَلَكٌ من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي، والأمور الجزئية فيه، ومنه نضج الأشياء المتكونة، واتصالها إلى كمالها وبزيادته ونقصانه، وهؤلاء يسمون "الجندريكالية" أي: عباد القمر.

ومن سنتهم: أن اتخذوا صنمًا على صورة جوهر وبيد الصنم جوهر، ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه، وأن يصوموا النصف من كل شهر، ولا يفطروا حتى

يطلع القمر، ثم يرغبون إليه وينظرون إلى القمر، ويسألونه عن حوائجهم".

انتهى كلامه.

وبهذا يتضح أن الطائفة التي أنكرت وجود الملائكة أو أَوَّلْت وجودهم بالعقول والنفوس، أو الكواكب هم الفلاسفة، والدهريون كما يوجد في كلام بعض الماجنين المستهزئين ببعض شعائر الدين.

كما نقل ذلك الإمام النووي -رحمه الله- في (بستان العارفين):

أن بعض طلبة العلم كانوا يختلفون إلى بعض المحدثين في أزقة البصرة، فيسرعون في المشي فكان معهم رجل ماجن في دينه؛ فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ المنكر؟! فما زال ذلك الماجن في موضعه حتى جفت رجلاه وسقط على الأرض.

ونقل عن عن خليع آخر: أنه جعل في عقبيه مسامير من حديد؛ وقال: أريد أن أطأ أجنحة الملائكة، فأصابه أكلة في رجليه، وقيل: شلت رجلاه ويداه وسائر أعضائه. انتهى بمعناه.

ج- الرد على من قال: إن الملائكة عبارة عن العقول والنفوس أو الكواكب:

لا شك أن من ادعى أن الملائكة -عَلَيْهِمِ السَّلاَمُ- عبارة عن العقول والنفوس أو الكواكب، لا دليلَ لهم على ما ادعوه، بل إن الأدلة القرآنية والنبوية مستفيضة في التأكيد على وجود الملائكة، وأنهم حقيقة، ولهم أسماء، وأعمال، ووظائف، وأنهم كثيرون جدًّا، وأما من ادعى أنهم عبارة عن هذه الكواكب العلوية السيارة، فنقول لهم: إن هذه الكواكب العلوية ما هي إلا أجرام فضائية،

تسير بأمر الله ﷻ وتدبيره وتقديره، وأنها آيات كونية من آيات الله ﷻ لا تضر ولا تنفع. وليس لها من خصائص الألوهية شيء، وإنما هي كواكب سيارة مثل كوكب الأرض الذي نعيش عليه.

وقد أثبتت الدراسات الكونية المعاصرة: أن هذه الكواكب تحمل خصائص كوكب الأرض، فمن زعم أنها تتوسط له عند الله ﷻ حال الدعاء والتضرع والرجاء؛ فقد كذب على الله ﷻ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في الرد على الفلاسفة المنكرين للملائكة:

"قيل لهم: أما إثباتكم أن في السماء أرواحًا فهذا يشبه ما في القرآن وغيره من كتب الله، ولكن ليست هي الملائكة كما يقول الذين يزعمون منكم: أنهم آمنوا بما أنزل على الرسول، وما أنزل من قبله، ويقولون: ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق بين الشريعة والفلسفة.

فإن قالوا: العقول والنفوس عند الفلاسفة هي الملائكة عند الأنبياء، وليس كذلك، لكن تشبهها من بعض الوجوه، فإن اسم الملائكة والمَلِك يتضمن أنهم رسل الله، كما قال تعالى ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] وكما قال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] وكما قال تعالى ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وأمثال هذه النصوص التي

يذكر فيها من أصناف الملائكة وأوصافهم وأفعالهم ما يمنع أن تكون على ما يذكرونه من العقول والنفوس، أو أن يكون جبريل هو العقل الفعال والقوى الصالحة، والشياطين هي القوة الفاسدة، كما يزعم هؤلاء.

وأيضًا، فزعمهم أن العقول والنفوس التي جعلوها الملائكة، وزعموا أنها معلولة عن الله، صادرة عن ذاته صدورَ المعلول عن علته هو قول بتولدها عن الله، وأن الله ولد الملائكة، وهذا مما رده الله ونزه نفسه وكذب قائله، وبين كَذِبَهُ بقوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤] وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٧] وبقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وقوله ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨] وقال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢]".

انتهى كلامه.

فتبين بهذا أن الملائكة -عَلَيْهِم السَّلَامُ- مخلوقات قائمة حقيقية، وأنهم أجسام نورانية تتشكل حسب المشيئة الإلهية، وليسوا عبارةً عن العقول والنفوس أو الكواكب كما يزعمه هؤلاء الفلاسفة والصابئون ومن سلك مسلكهم.

الإيمان بالكتب السماوية

عناصر الدرس

بيان أن الله أنزل الكتب السماوية تأييدًا لرسله وسعادة للناس، والأدلة على وجوب الإيمان بها مع التعريف بالوارد منها في القرآن الكريم

١. بيان أن الله تعالى أنزل الكتب تأييدًا لرسله وهدى للعالمين:

أولًا: حاجة الناس إلى الرسالة السماوية:

هذا الوحي هو النور الذي يُضيء سماء الدنيا حينما تشرق الرسالة السماوية، إذًا تنبع حاجة الإنسان إلى بعثة الرسل من طبيعته البشرية التي فُطر عليها؛ لأن هذا الإنسان من أعظم المخلوقات شأنًا فقد رزقه الله قوةً عقلية، ميَّزته عن سائر المخلوقات الأرضية، ومكّنته من تسخير الحيوان، وتشكيل الجماد في معظم الأحيان حيث يشاء، إلا أن قدرات هذا الإنسان محدودة النطاق، وتوجيهها نحو الاتجاه السليم -الذي يرضاه رب السموات والأرض والآفاق- لا يتأتَّى إلا بتوجيهٍ من الرسل الذين يبعثهم الله واسطةً بينه وبين هذا الإنسان؛ ليوقظوه بالرسالة السماوية من وَحَل الوثنيَّات التي سقَطَ فيها كثير من الأمم قبل بزوغ شمس الرسالة الإلهية، وليأخذوا بيدِه إلى الصراط المستقيم، ويعرِّفوه كيف يعبد خالقه العبادة الحقَّة الصحيحة، فتُصبح لقُدراته التي وهبه الله تعالى مع توجيه الرسل نتائجها السليمة لما أراده اللهُ من كرامة العاقل، وتشريف أفعاله، واستقامة أحواله، وانتظام مصالِحِه حين هيأه للحكمة، وطبعه على المعرفة؛ ليَجعَله حكيمًا وبالعواقب عليمًا؛ لأن الناس بنظرهم لا يُدركون مصالحهم بأنفسهم، ولا يشعرون لعواقب أمورهم بغرائزهم، ولا ينزجرون مع اختلاف أهوائهم دون أن تَرِد عليهم آداب المرسلين، وأخبار القرون الماضين، فتكون آداب الله فيهم

مستعملة، وحدوده فيهم متَّبعة، وأوامره فيهم ممتثلة، ووعده ووعيده فيهم زاجرًا، وقصص من غبر من الأمم واعظًا، فإن الأخبار العجيبة إذا طَرقت الأسماع، والمعاني الغريبة إذا أيقظت الأذهان- استمدتها العقول، فزاد علمها وصحّ فهمها، وأكثرُ الناس سماعًا أكثرهم خواطر، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكرًا، وأكثرهم تفكُّرًا أكثرهم علمًا، وأكثرهم علمًا أكثرهم عملًا، فلم يوجد عن بعثة الرسل معدِل، ولا منهم في انتظام الحق بدل.

ومن هنا يظهر بجلاء حاجة الناس إلى الرسالة السماوية، وتتلخص تلك الحاجة في النقاط التالية:

أ- تحقيق عبادة الله تعالى وحده، وإخلاص العمل له:

لما كان الغرض من خلق الإنسان والجان، وتسخير جنس الحيوان، وإبداع السموات والأرض والأكوان هو عبادة الله تعالى وحده، ومعرفته بأسمائه وصفاته، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والحذر من الوقوع في الشرك، وتلبُّث البدع، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: ٣٦].

ولما كان العقل البشري قاصرًا في ماهيته وحقيقته -إذ لا يتمكّن بدون الرسالة السماوية من عبادة الله تعالى على الوجه الذي يُحبه ويرضاه- لما كان الأمر كذلك فإن هذا الغرض النبيل، وهذه الغاية السامية لا تتم ولا تحصل إلا بالرسالة الإلهية، وذلك بإرسال وسائط من الله تعالى إلى خلقه، فكان من حكمة الله ورحمته أن أنزل كتبًا، وأرسل رسلًا مبشرين ومنذرين، واتفقت كلمتهم أجمعين على أمر أممهم بعبادة الله تعالى وحده، والكفر بعبادة ما سواه.

من مظاهر الكون التي وقع فيها الإنسان حينما غابت عنه شمس الرسالة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقد حققتْ الرسالة المحمدية -وهي خاتمة الرسالات- هذه الغاية السامية، حينما دعت إلى تحرير الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى سعة الإسلام ورحمته.

إذًا، كانت هذه الكتب السماوية توضِّح حاجة الناس إلى كيفية عبادة الله تعالى وحده على الوجه المطلوب؛ لأنه بدون هذا النور والوحي الذي يأتي به الرسل والأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- من لدن أولهم آدم إلى آخرهم خاتم النبيين محمد -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين- هذا النور وهذا الوحي الذي يتمثل في الرسالات السماوية لولاه لما عبدَ الإنسان خالقه العبادة الصحيحة وفق الشرع الذي يقبله الله ﷻ، ولذلك نُدرك أن الأمم والعصور التي غرَبت عنها شمس الرسالة الإلهية ظهرت فيها طقوسٌ وصور من العبادات المرفوضة، والتي ظنّ أصحابها أنهم يعبدون الله تعالى حق عبادته، ولذلك لما بزغت شمسُ الرسالة الإسلامية في مجتمع مكة ظهرت في مجتمعٍ يعبد الأوثان، فكانت تلك الأوثان تُعبَدُ عبادةً يظن عابدوها أنهم يتقربون إلى الله ﷻ بحيث يقولون: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾.

ومن ثَمّ عبدوا الأحجار، والأخشابَ، والأشجارَ، وحتى التمر، كما يُروى عن أبي حفصٍ عمر بن الخطاب > وهو في حاضر الإسلام تذكر يومًا من أيام الجاهلية فضحك، فقال >: "إنه كان في ليلةٍ من الليالي يعبد صنمًا صنعه من التمر، فكان إذا جاع أكله"، فهذا يدل على أنه بدون شمس الرسالة السماوية،

وبدون نور الوحي الذي يأتي به الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- لا يعبد الناس ربهم عبادةً صحيحة، فكان مما يبين حاجة الناس إلى الرسالة السماوية هو كونهم يعبدون الله ﷻ حق عبادته، ويخلصون له العبادات جميعها عكس الأمم التي لم يأتِها نذير، ولم تستضئ بنور الوحي؛ فإنها تعيش في جهالات وتصوُّرات بعيدة عن الحق المطلوب، فيتفشَّى الشرك، وتظهر البدع، ويبعد الناس عن دين الله ﷻ.

ب- إقامة الحجة على الخلائق:

فالله ﷻ حكيمٌ يضع الأمور في مواضعها، عليمٌ بأحوال عباده، فلو لم يبعث الرسل واسطةً، ويُنزِل الشرائع في الكتب، توضِّح المحجة والصراط المستقيم، وتقيم الحجة، وتقطع الشبهة- لَحَسِبَت الأمم أن لها بين يدي حساب الله حجةً سائغة ومعذرةً مقبولة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤].

لقد قطعَ الله هذه الشبهة من أساسها، بإرسال الرسل وبعثة الأنبياء، من أولهم آدم إلى خاتمهم محمد -عليهم الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

كذلك قضى الله -وهو أحكم الحاكمين- أن لا يعذب أمةً لم تشرق عليها شمس الرسالة، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

فمن حكمة الله تعالى وعدالته ورحمته أن لا يعذِّب أحدًا من خلقه إلا بعد الإعذار إليه، وإرسال الرسل إليه، وقيام الحجة عليه.

إذًا كانت من هذه الحكم والتي تبيِّن حاجة الناس إلى الرسالات السماوية إقامة الحجة؛ لأنه لا أحد أعذر من الله، ولا يعذب إلا بعد قيام الحجة؛ لذلك قضى

الله ﷻ بأن لا تعذيب على من لم تبلغه الرسالة ؛ يعني : أن الله ﷻ أولًا يبعث رسله مبشرين ومنذرين يبينون للناس طريق الخير وطريق الشر ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ ، فبهذه التعاليم السماوية ، وبنور الوحي الذي يوضِّحه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- لأممهم ، بهذا الوحي تزول الشبهات ، وتقوم عليهم الحجة التي لا يُعذَرون بعدها ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ ؛ لذلك ورد في الحديث : ((أن أربعةً يُبعثون يوم القيامة ، فيرسل الله إليهم رسولًا)). واختُلف في هذا الرسول ، ومَن هؤلاء الأربعة؟ مع أن يوم القيامة يوم حساب وجزاء وليس يوم عمل.

هؤلاء الأربعة هم : الصغير الذي مات صغيرًا قبل الحلم ، والمجنون الذي مات مجنونًا لا يعقل ، والشيخ الهرم الذي لا يدرك ، ومن مات في الفترة ؛ أي فترة بين رسولين لم يلحق برسالة الأول ، ولم تبلغه رسالة الثاني ، هؤلاء الأربع يعذر الله إليهم ، فيرسل إليهم رسولًا ، فورد أن الله ﷻ يبعث إليهم نارًا ، فيقول لهم : ((رِدُوها)) يعني : ادخلوها ، فإن دَخلوها وامتثلوا الأوامر كانت عليهم بردًا وسلامًا ، فيكونوا ناجحين في الامتحان ، ومن رفضها منهم فإنه يدخل النار ، فهذا لابتلاء وامتحان هؤلاء الأربعة ، لماذا؟ لأنهم لم تبلغهم الرسالة.

أما الصبي ، فيقول : يا رب ، أنا متّ ولم أبلغ الحلم ، وأما المجنون فيقول : يا رب بعثتَ إلي نبيًّا والناس يرمونني بالبعر ، وأما الشيخ الهرِم فيقول : يا ربي ، بعثت رسولًا ، ولكني لا أعقل ، والذي مات في الفترة فيقول : يا رب متُّ ولم تبعث إليَّ بشيرًا ولا نذيرًا.

أما إذا بعث الله ﷻ رسولًا وأنزل عليه كتابه ، ووضح الرسول هذا الكتاب وهذا الوحي للأمة عندها تقوم الحجة وتزول الشبهة ، ولم تبقَ هناك معذرةً يعتذر بها الناس بين يدي حساب رب العالمين.

جـ- تعريف الناس بالعالم الغيبي وما أعده الله للمؤمنين به من جنانه، وللكافرين به من نيرانه:

تظل العقول والأفهام في درك القصور عن استطلاع ما وراء هذا الكون المادي المحسوس من عالم الغيب- حتى تأتيها رسالة الله، تدعوها للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وترسيخ عقيدة القضاء والقدر، والإيمان بحقيقة الجنة والنار، والوقوف بين يدي العزيز الجبار؛ لتُناقَش على ما اكتسبت من خير أو شرٍّ.

وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن من حكمة الله في إرسال الرسل أن رسولنا وواسطتنا محمدًا ﷺ عرّفنا أسماء الله تعالى وصفاته، وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى تارة لما يُوضِّحه من ضرب الأمثال التي هي مقاييس عقلية، وتارة بما يخبرنا به من الأنباء الصادقة النبوية، وتارة بما يقُصّه علينا من قصص الأنبياء الذين هم خير البرية، وبه عرفنا الملائكة، والنبيين، والجنة، والنار، وأخبار الماضين، وأحداث الدنيا وملاحمها وفتنها، وأشراط الساعة وعلاماتها، وأخبار القيامة وتفاصيلها، إلى غير ذلك من الأمور الغيبية. انتهى بمعناه.

ويقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-:

"فمن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعثَ الرسل به معرِّفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشِّرين، ولمن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود -سبحانه- بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها". انتهى كلامه.

د- توجيه الناس وإرشادهم لما فيه الخير والصلاح لهم في دينهم ودنياهم:

لأن البشر مهما أوتوا من الفهم والعقل والذكاء لا يتأتى لعقولهم أن تستقلَ بالتنظيم العام المصلح للأمة بأكملها، كأمةٍ متماسكة متكافئة، وإنما الشريعة الإلهية بما اشتملت عليه من معاملاتٍ وأخلاق وعقوبات تستطيع أن تبيِّن للناس الحق من الباطل والخير من الشر؛ لأن هذا هو المنهج الرباني الذي وضعه خالق البشر العليم بمصالحهم، وتطبيق رسالة الله يهيّئ النفس الإنسانية أن تصفو من الكدر وفساد الأعمال وأن تتوفر لها أسباب بناء المجتمع الأخوي القوي السليم، وتطمئن إلى صلاح أمورها الدينية والدنيوية.

ثانيًا: الحكمة من إنزال الكتب السماوية:

الرسالة السماوية أو النبوة هي خبرٌ خاص يكرم الله ﷻ به أحدًا من عباده، فيميزه بإلقائه إليه، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمرٍ ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعيد. انتهى.

قال الإمام الماوردي -رحمه الله- في تعريفه للرسالة أو النبوة مبينًا منزلتها العالية، ومقامها الرفيع:

"لا منزلة في العالم أعلى من النبوة، التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده، تبعث على مصالح الخلق، وطاعة الخالق، فكان أفضل الخلق بها أخص، وأكملهم بشروطها أحق بها وأمس". انتهى.

وعرّف الفيروزآبادي -رحمه الله- الرسالة بقوله:

"النبوة سفارة بين الله وبين ذوي العقول؛ لإزاحة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم". انتهى.

إذا تبين معنى الرسالة السماوية -أو النبوة كما تُوصف أيضًا- فنقول: إن الحكمة من إنزالها على الرسول الواسطة الذي ينشرها في قومه تكمُن في كونها تأييدًا للرسول الذي أُنزلت عليه، وهي محضُ فضلٍ من الله تعالى للرسول المصطفى الذي يؤيده الله بهذه الرسالة.

إذًا، فالنبوة فضل من الله، ورحمته، وموهبته، ونعمته، يمنّ الله تعالى بها ويعطيها من يشاء من خلقه ممن أكرمه بالنبوة، فلا يبلُغها مجتهد بعمله، ولا يستحقها عاقلٌ بكسبه، ولا ينالها باستعداد ولايته، بل يخص المولى ﷻ بها من يشاء من عباده المصطفين.

يقول السفاريني -رحمه الله-: "إن إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع مِنَّة من الله تعالى وفضل، لا واجب عليه ذلك، وإنما هو على سبيل اللُّطف بالخلق والفضل عليهم، فبعثُ الله تعالى جميع الرسل من آدم إلى محمد -صلى الله عليهم وسلم أجمعين- إلى المكلفين لطفٌ من الله بهم؛ ليبلغوهم عنه -سبحانه- أمره ونهيه ووعده ووعيده، وبينوا لهم عنه سبحانه ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد مما جاءوا به من شرائعهم وأحكامهم التي أنزلها الله تعالى في كتبه عليهم؛ اختصاصًا كالقرآن العظيم، واشتراكًا كالتوراة لموسى وهارون ويوشع، ومَن بعدهم إلى عيسى -عليه وعليهم السلام- حتى تقوم الحجة عليهم بالبينات، وينقطع عنهم سائر التعللات كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾.

فلولا إعذاره تعالى إليهم على ألسنة الرسل، وإقامة الحجة عليهم ببعثه أهل خيرته من ذوي النبوة والفضل- لتوهموا أن لهم حجة سائغة ومعذرة بالغة". انتهى كلامه.

ومما يبيّن أن النبوة أو الرسالة الإلهية فضلُ محضٍ من الله تعالى واصطفاء قول السفاريني رحمه الله - في لوامعه:

ولا تنال رتبة النبوة ❖ بالكسب والتهذيب والفتوة

لكنها فضل من المولى الأجل ❖ لمن يشاء من خلقه إلى الأجل

فالرسالة الإلهية تأييدٌ من الله تعالى لرسوله، الذي يبعثه إلى الناس واسطة بينهم وبين الله تعالى؛ حيث يرد بها على الشبهات التي يوجِّهها الأمم إلى أنبيائهم، قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣]، وقد أيّد الله تعالى أنبياءه ورسله بالكتب المنزّلة عليهم، فأيّد داود # بالزبور، قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وأيد إبراهيم وموسى - عليهما السلام - بالصحف، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، وأيّد عيسى # بالإنجيل، فقال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ [الحديد: ٢٧] كما وصف الله تعالى الإنجيل بالبيِّنات فقال: ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى واصفًا التوراة التي أيد بها كليمه موسى # بأن فيها حكم الله: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٣]، وأما عن تأييد الله تعالى لخاتم النبيين ﷺ بالقرآن فذلك أمر لا يحتاج إلى دليل؛ إذ القرآن كله تأييدٌ وتثبيتٌ للمصطفى ﷺ، ومن أدلته قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

والمقصود، أن هذه الكتب السماوية أيّد الله تعالى بها رسله، وبيّن لهم فيها كل شيء يحتاجون إليه في مسيرة الدعوة إلى الله تعالى؛ حيث اشتملت هذه الكتب على أمور العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق، وكانت هذه الكتب متفقة

في الأصل الذي أجمعت عليه، وهو التوحيد؛ أي: الدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾.

أما فيما يتعلق بالفروع وهي العبادات والمعاملات والأخلاق والمنهج فكانت تلك الرسالات تختلف من رسالة إلى أخرى، حتى جاءت خاتمة الرسالات، وهي الرسالة المحمدية، فهيمنت على جميع الرسالات السماوية السابقة.

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله -:

"جمع الله فيها محاسن ما قبلها من الرسالات، وزادها من الكمالات ما ليس في غيرها، فلهذا جعلها الله شاهدةً، وأمينة، وحاكمةً على الرسالات كلها". انتهى كلامه.

إذًا جاءت الرسالات الإلهية مؤيدة للمرسلين، وهداية للأمم المخاطبين، ونورًا وهدى للعالمين.

رابعًا: الكتب السماوية مصابيح تضيء للناس حياتهم:

ما من شك في أن الكتب السماوية هي التي تضيء للناس حياتهم؛ لأنهم بدونها يعيشون حياةً بهيمية؛ لأن العالم يظل في ظلام دامس حتى تشرق عليه شمس الرسالة السماوية، فتضيء للناس حياتهم؛ لأن تعاليم الرسالة السماوية مُنزّلة من خالق البشر الخبير بأحوالهم، العليم بشئونهم، فما فيه صلاحهم يبينه لهم ويدلهم عليه، ويأمرهم به، وما فيه شرهم وفساد أمرهم يوضِّحه لهم، وينهاهم عنه، فبيّنت لهم رسالةُ الله النجدين - طريقي الخير والشر - وذلك عن طريق

الوحي الإلهي الوارد في تلك الرسالات، سواء المتعلق منه بالجانب العقدي، أو الجانب الفقهي العملي، أو السلوكي، أو الأخلاقي.

فعمومًا، قد جاءت الرسالات السماوية بكل خير يضيء للناس حياتهم، ونهت عن كل شرٍّ يؤلب على الناس دنياهم، فالرسالة السماوية ضرورية للعباد في معاشهم ومعادهم، ولا غنى لهم عنها مهما أوتوا من العقول السليمة، والقوانين المدنية والوضعية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

"الرسالة ضرورية للعباد ولا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تُشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميّتًا في ظلمة الجهل، فأحياه الله بنور الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في ظلمات الكفر". انتهى.

كما بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أيضًا: أن الإنسان في حاجة إلى الرسالة السماوية، ليس فقط لإصلاح آخرته والتزوُّد لها فحسب، وإنما هو محتاجٌ لها أيضًا لإصلاح معاشه وجميع شئونه في دنياه، وأن تمييز الإنسان بين النافع والضار بعقله لا يكفي لتسيير شئونه في حياته كلها، فإن هذا القدر من التمييز تشترك فيه معه العجماوات.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

"الرسالة ضرورية للعباد، الرسالة ضرورية في صلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فالإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركةٍ يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، فهو نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي مَن دخله كان آمنًا، وليس المراد بالشرع التمييز بين النافع والضار بالحس، فإن ذلك يحصل للحيوانات العُجم، فإن الحمار والجمل يفرق ويميز بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده، والأفعال التي تنفعه في معاشه ومعاده، كنفع الإيمان، والتوحيد، والعدل، والبر، والصدق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته". انتهى كلامه.

وأكد العلامة ابن القيم هذا المعنى - رحمه الله - أيضًا فقال:

"ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول، وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر به، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم، وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح، الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة

إلـيهم أعظـم مـن ضـرورة البـدن إلى روحـه، والعـين إلى نورهـا، والـروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجةٍ فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسـل فوقهـا بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عـين- فسدَ قلبـك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووُضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي، ما لجرحٍ بميتٍ إيلام". انتهى كلامه، رحمه الله.

٢- الكتب السماوية سعادة للبشرية، وهي حق وصدق وغير مخلوقة:

أولًا: اشتمال الكتب السماوية على سعادة الناس في الدنيا والآخرة:

فيجب الإيمان الجازم بأن الله تعالى أرسل رسلًا إلى النـاس؛ يبشرونهم وينـذرونهم، وأنه أنزل على هؤلاء الأنبياء والرسل كتبًا عن طريق الـوحي؛ تُبين للنـاس مـا نـزل إليهم، وتشتمل على العقائد والشرائع والأخلاق والمعاملات، بل تشتمل على كـل مـا يـصلح معاشـهم ومعـادهم، وقـد ذكـرت تلـك الكتـب والرسـالات كـلَّ خـيرٍ، ورغبت الناس فيه، كما ذكرت كلَّ شرٍ وحذرت الناس منه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ-:

وهذا مما اتفقت عليه الكتب المنزلة من السماء، وبعثت به جميع الرسل المرسلة، فالرسـالة ضـرورية في صـلاحِ العبـدِ، في معاشـه ومعـاده، فكمـا أنـه لا صـلاح في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة.

فالإنـسان مـضطرٌ إلى الـشَّرَكِ، فإنـه بـين حـركتين؛ حركـةٍ يجلـب بهـا مـا ينفعـه، وحركةٍ يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يـضره، فهـو

نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمنًا، وليس المراد بالشرع التمييز بين النافع والضار بالحسن، فإن ذلك يحصل للحيوانات العجم؛ فإن الحمار والجمل يفرق ويميز بين الشعير والتراب؛ بل التمييز بين الأفعال التي تضرُّ فاعلها في معاشه ومعاده، والأفعال التي تنفعه في معاشه ومعاده، كنفعِ الإيمانِ والتوحيدِ. انتهى كلامه -رحمه الله.

ويقول الشيخ حافظ الحكمي -رَحِمَهُ اللهُ-: والثالث: الإيمانُ بكتُبِهِ المنزلة على رسله المطهرة من الكذب والزور، ومن كلِّ باطلٍ، ومن كل ما لا يليق بها، قال الله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ ﴾ [آل عمران: ٨٤] إلى آخر الآية، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ ﴾ [التغابن: ٨]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [غافر: ٧٠] الآيات، وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

ومعنى الإيمان بالكتب: التصديق الجازم بأن كلها منزلة من عند الله ﷻ على رسله، إلى عباده بالحق المبين والهدى المستبين، وأنها كلام الله ﷻ لا كلام غيره، وأن الله تعالى تكلم حقيقةً كما شاء، وعلى الوجه الذي أراد، والإيمان بكل ما

فيها من الشرائع، وأنه كان واجبًا على الأمم الذين نُزِّلت إليهم الصحف الأولى الانقياد لها والحكم بما فيها.

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٤-٤٩]

وأن جميعها يصدق بعضها بعضًا لا يكذبه. انتهى كلام الشيخ حافظ الحكمي.

فالكتب السماوية أُنْزِلَت؛ لتأخذ بأيدي الأمم إلى الطريق المستقيم، وتوقظهم من مهالك الشرك وسيطرة الخرافة، ولتخرجهم من الظلمات إلى النور، وتبين لهم كلَّ طرقِ السعادة التي يطلبها الناس قديمًا وحديثًا في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

يقول صاحب (مباحث في علوم القرآن):

من فضْلِ اللهِ على الإنسان أنه لم يتركه في الحياة يستهدي بما أودعه الله فيه من فطرةٍ سليمةٍ، تَقُوْدُهُ إلى الخير، وترشده إلى البرِّ فحسب؛ بل بعث إليه بين فترةٍ وأخرى رسولًا يحمل من الله كتابًا، يدعوه إلى عبادة الله وحده، ويبشر وينذر؛ لتقوم عليه الحجة، قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وظلت الإنسانية في تطورها ورقيها الفكري، والوحي يعاودها بما يناسبها ويحل مشاكلها الوقتية في نطاق قومِ كلِّ رسولٍ، حتى اكتمل نضجها، وأرادَ اللهُ لرسالةِ محمدٍ ﷺ أن تشرقَ على الوجود، فبعثه على فترة من الرسل؛ ليكمل صرحَ إخوانِهِ الرسلِ السابقين، بشريعته العامة الخالدة، وكتابه الْمُنَزَّلِ عليهِ، وهو القرآن الكريم، فلا غرو أن يأتي القرآن الكريم وافيًا بجميع مطالب الحياة الإنسانية عن الأسس الأولى للأديان السماوية: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

والقرآن بتلك الخصائص يعالج المشكلاتِ الإنسانيةَ في شتى مرافق الحياة الروحية، والعقلية، والبدنية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية علاجًا حكيمًا؛ لأنه تنزيل الحكيم الحميد، ويضع لكلِّ مشكلةٍ بلسمها الشافي على أسس عامة ترسم الإنسانية خُطَاهَا، وتبني عليها في كل عصر ما يلائمها، فاكتسب بذلك صلاحيته لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، فهو دِيْنُ الخلود، والإنسانية المعذبة اليوم في ضميرها، المضطربة في أنظمتها، المتداعية في أخلاقها، لا عاصم لها -من الهاوية التي تردى فيها- إلا القرآن: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

والمسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل، وسط ميادين النظم والمبادئ الأخرى، فحريٌّ بهم أن ينفضوا أيديهم من كل بهرج زائف وأن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم، حتى يأخذوا بيدها إلى شاطئ السلام، وكما كانت لهم الدولة بالقرآن في الماضي، فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به في الحاضر. انتهى كلامه.

ثانيًا: بيان اشتمال الكتب السماوية على كل صدق وحق:

لما كانت الكتب السماوية هي وحيٌ من اللهِ ﷻ إلى أنبيائه ورسله، وفيها تعاليم للأمم المخاطبين بتلك الرسالات، وفيها بيان للعقيدة والشريعة، وقد أرشد اللهُ فِيْهَا الأممَ إلى ما يسعدهم في معاشهم ومعادهم- لما كان الأمر كذلك فإن الله ﷻ ضَمّنَ هذه الكتب السماوية كلَّ صدقٍ وحقٍّ، فكانت التعاليم الواردة في هذه الرسالات السماوية كلها صدقٍ وحقٍّ، فلم يَرِدْ في كتابٍ سماويٍّ صحيحٍ أمرٌ كذب، أو خطأٌ علمي، أو أمرٌ يخالف حقيقةً تاريخيةً؛ بل كانت الشرائع الواردة في كُتب الله المنزَّلة شرائع صدق وحق، وكذلك العقائد والمعاملات والأخلاق والقصص، ولا غرو في كذلك؛ فإنها وحي أوحاه الله ﷻ إلى رسله المصطفين، فلم يتطرق إليه الكذب والجور والظلم، فهذه صفات تمتنع في حق الخالق ﷻ.

وإذا أخذنا القرآن الكريم نموذجًا للكتب السماوية؛ فإنه سيظهر لنا واضحًا الحق والصدق كما صرحت بذلك كثيرٌ من آيَاتِهِ، وذلك دليلٌ عَلَى أن كل ما ورد فيه فهو صدقٌ وحقٌّ ومعقولٌ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، وقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨] وقوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

وقال تعالى مبينًا أن المؤمنين الصادقين المهتدين؛ هم الذين يعلمون أن كل ما في القرآن حقٌّ وصدقٌ لا باطلَ فيهِ، بعكس المكذبين به؛ فإنهم يشككون في تعاليمه، ويطعنون فيها، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ [البقرة: ٢٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [النساء: ١٧٠] وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] وقال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [آل عمران: ٣].

وقد أقسم الله ﷻ في القرآن الكريم بأنه حقٌّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٩].

يقول ابن أبي العز الحنفي -رَحِمَهُ اللهُ-:

فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حقٌّ وهدىً ونورٌ وبيانٌ وشفاءٌ، قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ١٣٦] ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ [آل عمران: ١-٤]، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تَكَلَّمَ بِهَا، وأنها نزلت من عندِهِ، وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣] ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ

خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢] ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ: ٦] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧] ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤] ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨]، وأمثال ذلك في القرآن كثيرة. انتهى كلامه -رحمه الله.

وقد بيّن الشيخ عطية محمد سالم -رَحِمَهُ اللهُ- في كتابه (آيات الهداية والاستقامة في كتاب الله تعالى) في كثير من تلك الآيات التي تناولها في هذا الكتاب، في معرض بيانه لهدي القرآن الكريم، ومستخلصًا من تلك الآيات التي تتحدث عن الهدى والاستقامة، بيَّنَ مِن خِلالِ ذلك، أن هذا القرآن الذي اشتمل على هذه الهداية والاستقامة، أنه اشتمل عليها بحكم كونه وحيًا من الله ﷻ إلى محمد ﷺ عن طريق الواسطة الملكي: جبريل # وأن هذا الكتاب الذي اشتمل على الهداية بأنواعها، والاستقامة التي طلبها من أتباع هذا الدين، أنه حصل له ذلك؛ بسبب أن كلَّ ما ورد في هذا القرآن الكريم فهو حقٌّ وصدقٌ وهدىً واستقامةٌ ونورٌ.

يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- عطية محمد سالم:

فهذه نصوص كلها تصف الكتب المنزلة بأنها نور، بل جاء وصفها بما وُصِفَ به النبيُّ ﷺ بأنها منيرة، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [آل عمران: ١٨٣، ١٨٤] فذكر سبحانه الكتاب بأنه منير، كما ذكر سبحانه الرسول ﷺ بأنه سراج منير.

وقد وصف اللهُ تَعَالَى نورَ الإيمانِ في قلبِ المؤمنِ بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ١٣٥].

وهذا المثل، أجمع المسلمونَ عَلَى أنه مضروبٌ لنور الإيمان في قلب المؤمن الذي أنار به بصيرته وهداه بهذا النور، وهدى إليه من شاء من عباده، وهذا يفسر مجموع ما وُصِفَ به الرسولُ ﷺ والوحي المنزل والكتب السماوية، كلها، أنها بمجموعها نورٌ جاءَ إلى العبادِ من ربهم، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [المائدة: ١٦] أي: على ضوء هذا النور الذي ارتضاه في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] يهديهم سبل السلام والنجاة في الدنيا والآخرة، ويخرجهم من ظلمات الجهالة والغيِّ والضلالِ إلى نورِ الإيمانِ والمعرفةِ والهدايةِ.

وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى أثر هذا النور في قلب المؤمن على سلوكه ومنهجه في الحياة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢] فالمحروم من هذا النور في حيرةٍ وضلالٍ، بل هم أمواتٌ، وإن كانوا يأكلون ويشربون، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وهذا النور هو نور الوحي، يستنير به في عباداته لله، وفي معاملاته مع الناس، ويأتسي به في وحدته، ويستهدي به في حيرته، إلى أن يلقى الله على هدىً ورشادٍ. انتهى كلامه -رحمه الله.

ثالثًا: معنى كون الكتب السماوية مُنزَّلة غير مخلوقة:

لقد أنزل الله تعالى كتبه إلى الواسطة من الرسل، عن طريق الوحي الذي كان يأتي به جبريل # إلى أولئك الرسل، فهو الواسطة بين الله تعالى ورسله في إبلاغ الوحي، وإرسال الرسالات، فكل كتابٍ أُنْزِلَ بوحي الله فهو كلامه الذي هو صفةٌ من صفاتِهِ ﷻ، فكلام الله تعالى صفةُ ذات وصفةُ فعل معًا، أما باعتبار تعلقه بذات الله ﷻ واتصافه تعالى بتلك الصفة؛ فهي صفة ذات، كعلمه تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، وهو أعلم بما ينزل، وأما باعتبار تكلمه بمشيئته وإرادته فصفة فعل، كما قال النبي ﷺ: ((إذا أراد الله أن يوحيَ بالأمرِ؛ تَكَلَّمَ بالوحي)) الحديث، ولهذا قال السلف الصالح -رحمهم الله- في صفة الكلام: إنها صفة ذات وصفة فعل معًا. فكلام الله تعالى غير مخلوق كصفاته.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ-:

ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم- ما دلَّ عليه الكتابُ والسنةُ، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة، أن القرآن كلام الله مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، منه بدأ وإليه يعود، فهو المتكلم بالقرآن في التوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه، ليس ذلك مخلوقًا منفصلًا عنه، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته، فكلامه قائم بذاته، ليس مخلوقًا بعيدًا عنه، ويتكلم بمشيئته وقدرته.

لم يقل أحدٌ من سلف الأمة: إن كلام الله مخلوقٌ بائنٌ عنه، ولا قال أحد منهم: إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلًا وأبدًا، وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا قالوا: إن نفس ندائه لموسى، أو نفس الكلمة المعنية قديمة

أزلية، بل قالوا: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء فكلامه قديمٌ، بمعنى: أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء، وكلمات اللهِ لا نهايةَ لَهَا، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي، وبالتوراة العبرية. انتهى كلامه.

وقال الشيخ حافظ الحكمي -رَحِمَهُ اللهُ- في (معارج القبول):

ومعنى الإيمان بالكتب: التصديق الجازم بأنَّ كَلَّهَا مُنَزَّلٌ من عند الله ﷻ على رسله إلى عباده بالحقِّ المبينِ والهدى المستبين، وأنها كلامُ الله ﷻ لا كلام غيره، وأن الله تكلم بها حقيقةً كما شاء على الوجه الذي أراد، فمنها المسموع منه من وراء حجاب بدون واسطة، ومنها ما يسمع الرسول الملكي، ويأمره بتبليغه منه إلى الرسول البشري، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [آل عمران: ١٦١] ومن هذا خطه بيده ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]. انتهى كلامه -رحمه الله.

رابعًا: على من أنزلت الكتب السماوية؟

معرفة كتب الله المنزلة على الرسل أمر غيبي، لا قِبَلَ لنا بمعرفته إلا عن طريق الوحي، والذي سمي لنا من كتب الله ورسالاته في القرآن الكريم هو:

أ. القرآن الكريم، وهو آخر الكتب السماوية نزولًا، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٢-٤].

ب. التوراة التي نزلت على موسى –على نبينا وعليه الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

ج. الإنجيل الذي نزل على عيسى –على نبينا وعليه الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

د. الزبور الذي على داود -على نبينا و ﷺ قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [آل عمران: ١٦٣].

ه. ومنها صحف إبراهيم وموسى -على نبينا وعليهما الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

يقول الشيخ حافظ الحكمي -رَحِمَهُ اللهُ-:

ثم الإيمانُ بكتب الله ﷻ يجب إجمالًا فيما أجمل، وتفصيلًا فيما فُصِّلَ، فَقَدْ سَمَّى اللهُ تعالى من كتبه التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود، والقرآن على محمد ﷺ وعليهم أجمعين- وذكر صحف إبراهيم وموسى.

وقد أخبر تعالى عن التنزيل على رسله مجملًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] وقال تعالى أيضًا: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]. فنقول كما أمر ربنا ﷻ: آمنا بما أنزل الله من كتاب، وما أرسل من رسول. انتهى كلامه.

وبالجملة، فنؤمن بما صرح باسمه القرآن والسنة من كتب الله المنزلة، نؤمن به على التفصيل، وما لم يرد باسمه ولم يعين الرسول الذي أنزل عليه نؤمن به إجمالًا؛

لأنه ثبت أن الله تعالى أرسل رسلًا مبشرين ومنذرين وهم كُثر، ولكلٍّ واحدٍ منهم رسالةٌ يوجه بها قومه وينير بها دروبهم، ثم ختمت تلك الرسالات السماوية بالرسالة الخاتمة وهي القرآن الكريم، وبخاتم المرسلين وهو نبينا محمد ﷺ.

٣- الأدلة على وجوب الإيمان بالكتب مع التعريف بالوارد منها في القرآن الكريم:

أولًا: حُكم الإيمان بالكتب المنزلة:

معنى كون الإيمان بكتب الله المنزلة من أركان الإيمان أن الركن هو الأساس الذي يقوم عليه الشيء كركن البنيان، فإنه لا يستقيم إلا على أركانه، فإذا سقَطَ ركن البنيان تهدَّمَ البناء بأكمله، وكذلك أركان الإيمان. فإنها بمجموعها يحصل الإيمان، وبتخلف ركن من تلك الأركان يبطل الإيمان المزعوم.

فالإيمان بالكتب المنزلة ركن واجب، وأمر لازم؛ لأن مَن آمَن بالله تعالى ربًّا، وآمن برسله المصطفَين -وسائط في التبليغ بين ربهم وبين خلقهم- وأثبت أن أولئك الرسل حملوا رسالاتٍ إلى أممهم، وجب عليه أن يؤمن بأن الله تعالى أوحى إلى رسله وحيًا، وأنزل كتبًا عن طريق واسطة الوحي، وهو الملك جبريل # وأن كل رسول كان يبين لقومه ما نزِّل إليهم بتعاليم ذلك الكتاب المنزل عليه، يأمرهم بعبادة الله تعالى، وينهاهم عن الشرك وعن وسائله، كما يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وأن كل رسول كان يُبعث إلى قومه برسالة خاصة بهم، وبكتاب لا يتعداهم، حتى ختَمَ الله تلك الرسالات السماوية بخاتمة الكتب، وهو القرآن الكريم الذي نسخ ما سبقه من الكتب، وهيمن عليه، كما ختم الله الرسل بخاتمهم، وهو نبينا ورسولنا محمد ﷺ.

يقول صاحب كتاب (الإيمان: أركانه - حقيقته - نواقضه):

ومن أركان الإيمان: أن نؤمن بالكُتُب التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله، فكما أن الله ﷻ قد أنزل القرآن على محمد ﷺ فقد أنزل كتبه من قبل على سائر الرسل، ومن هذه الكتب ما سماه الله لنا في القرآن الكريم، ومنها ما لم يسمِّ، والذي أخبرنا به ﷻ منها: التوراة التي نزلت على موسى # ، والإنجيل الذي نزل على عيسى # ، والزَّبور الذي نزل على داود # ، والصحف التي أنزلها الله على إبراهيم وموسى.

وأما الكتب الأخرى التي نزلت على سائر الرسل، فلم يخبرنا الله تعالى عن أسمائها، وإنما أخبرنا سبحانه أن لكل نبي أرسله الله رسالةً بلغها قومَه، فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التي لم تسمَّ إجمالًا، ولا يجوز لنا أن ننسب كتابًا إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه مما أخبرنا عنه في القرآن الكريم.

كما يجب أن نؤمن بأن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهُدَى، وتوحيد الله سبحانه في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، وأن ما نُسِبَ إليها مما يخالف ذلك إنما هو من تحريف البشر وصُنعِهم. انتهى.

فوجوب الإيمان بكتب الله تعالى المنزلة أمر متفق عليه في شريعة الإسلام، وقد جعله الله تعالى ركنًا أساسيًّا من أركان الإيمان التي يشترط في المرء الإيمان بها جميعًا؛ حتى يظفرَ بلقب المؤمن، وينتظمَ في سَلك المؤمنين.

وقد كان الإيمان بالكتب السماوية أمرًا واجبًا على الأمم السابقة، ركزت عليه تلك الرسالات السماوية.

يقول الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- وهو يتحدث عن الكتب المنزلة ووجوب الإيمان بها:

والإيمان بكل ما فيها من الشرائع، وأنه كان واجبًا على الأمم الذين نزلت إليهم الصحف الأولى- الانقياد لها، والحكم بما فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة: ٤٤: ٤٩]. انتهى.

ثانيًا: الأدلة من القرآن الكريم على وجوب الإيمان بالكتب المنزلة:

إذا نظرنا في المصحف الشريف وجدنا جملةً وافرةً من الآيات القرآنية الكريمة التي تحثُّ على الإيمان بالكتب السماوية المنزلة، وتسمي بعضَ تلك الكتب، فبعضها يوصف بالكتاب، وبعضها يوصف بالصحف، وسنجد أيضًا أن هناك بعض

الكتب مثل التوراة وصُفت مرةً بالكتاب، وسميت باسمها تارة، ووصفت بالصحف تارةً، ووصفت بالألواح تارةً أخرى، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

إذًا، فمن هذه الآيات:

الآية الأولى: قول الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ففي هذه الآية ذكر الله ﷻ أن هؤلاء المؤمنين المتبعين للرسول ﷺ يؤمنون بالله، والملائكة، والكتب المنزلة، والرسل، ولا يفرِّقون بين هؤلاء الرسل.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

"يخبر تعالى عن إيمان الرسول، والمؤمنين معه، وانقيادهم، وطاعتهم، وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله، على وجه الإجمال والتفصيل. ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملةً وتفصيلًا، وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل، وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي". انتهى كلامه.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ [النساء: ١٣٦]. أيضًا في هذه الآية التصريح بدعوة المؤمنين إلى الإيمان بالكتب السماوية المنزلة.

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

"يأمر تعالى عبادَه المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان، وشُعَبه، وأركانه، ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل حاصل، بل من باب تكميل الكامل، وتقريره وتثبيته، والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، [الفاتحة: ٦]. أي: بصِّرنا فيه، وزدنا هُدًى، وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨] وقوله: ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ يعني: القرآن، ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء: ١٣٦]. وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة. وقال في القرآن: "نزَّل" لأنه نزل متفرقًا منجمًا على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم.

وأما الكتب المتقدمة، فكانت تنزل جملةً واحدةً. لهذا قال تعالى: ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]. أي: فقد خرجَ عن طريق الهدى، وبَعُدَ عن القصد كلَّ البعدِ". انتهى كلامه.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

أرشد الله تعالى عبادَه المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلًا، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملًا، ونَصَّ على أعيانٍ من الرسل، وأجمل ذكرَ بقية الأنبياء، وألا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمن بهم كلهم.

قال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به، ويصدقوا بكتبه كلها، وبرسله. وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيهما، ثم ساق سندَ حديثٍ، قال رسول الله ﷺ: ((آمنوا بالتوراة، والزبور، والإنجيل، وليسعكم القرآن)). انتهى كلامه.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشورى: ١٥] وهذه الآية توضح أنه يجب الإيمان بجميع كتب الله تعالى المنزلة، تفصيلًا فيما ورد تفصيله، وإجمالًا فيما ورد الحديث عنه مجملًا، وقد تقدم معنا: أن المصرح به من تلك الكتب، هو القرآن الكريم، والتوراة التي نزلت على موسى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- وهي المعبر عنها بالصحف في قوله تعالى: ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٩] -وسيأتي معنا أن هناك من العلماء من يرى، أن الصحف غير التوراة- والإنجيل الذي نزل على عيسى –على نبينا وعليه الصلاة والسلام- والزبور الذي نزل على داود ﷺ ثم ذكر الصحف -كما قلنا- المنزلة على إبراهيم وعلى موسى، عليهما الصلاة والسلام.

ثم أجمل الأمرَ بالإيمان ببقية الرسالات، والكتب المنزلة التي لا معرفةَ لنا بتفاصيلها، بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشورى: ١٥].

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-:

فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حق، وهدى، ونور، وبيان، وشفاء. قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾ وكذلك: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ١، ٢] إلى قوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾ [آل عمران: ٤] وكذلك:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلَّم بها، وأنها نزلت من عنده. انتهى كلامه رحمه الله.

إذًا، فالآيات التي تحث على الإيمان بالكتب المنزلة على الرسل -عليهم الصلاة والسلام- كثيرة جدًّا، وتبين أنه يجب الإيمان بها -أي: بالكتب جميعًا- من غير تفريق، فكما أنه يجب أن نؤمن بجميع الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- تفصيلًا فيما ورد عنه التفصيل، وإجمالًا فيما ورد الحديث عنه مجملًا، وأنه لا يصح إيمان من يدعي الإيمان ببعض الرسل ويكفر برسول، فإنه يعد كافرًا، فكذلك الإيمان بالكتب المنزلة، يجب أن يكون شاملًا لجميع كتب الله تعالى السماوية، فَمَنْ آمن بكتاب وكفَرَ بآخر، عُدَّ كافرًا بجميع الكتب المنزلة.

ثالثًا: الأدلة من السنة المطهرة على وجوب الإيمان بالكتب المنزلة:

لقد اهتمت السنة المطهرة ببيان الركن الثالث من أركان الإيمان، ألا وهو الإيمان بكتب الله المنزلة على الرسل المصطفين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، فكما بينت الآيات السابقة وجوب الإيمان بالكتب السماوية، وأن هذا الإيمان شرط في تحقق الإيمان الكامل، فكذلك وجدنا الأحاديث النبوية تركز على بيان وجوب الإيمان بالكتب المنزلة، وأن هذا الإيمان ركن أساسي من أركان الإيمان الستة.

فَمَنْ زعمَ أنه يؤمن بالله تعالى، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، ويؤمن بالقدر، ثم يكفر بالكتب المنزلة، فإيمانه باطِلٌ، وزعمه كاذب؛ لأن أركان الإيمان كلٌّ لا يتجزأ.

فأول حديث يوضح وجوب الإيمان بالكتب المنزلة، وأنه ركن ثالث من أركان الإيمان الستة- هو حديث جبريل المشهور.

لقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب < قال: ((بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فَخِذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟ فقال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا. قال: صدقت، فعجبنا له، يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. فأخبرني عن الإحسان؟ قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها -أي: علاماتها-؟ قال: أن تلِدَ الأَمَة ربتها، وأن ترى الحُفاة العراة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق، فلبث مليًّا، ثم قال لي: يا عمرُ، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)) رواه الإمام مسلم.

ففي هذا الحديث العظيم الذي يسأل فيه جبريل # خاتم النبيين ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، وعن الساعة، وأماراتها، ورد فيه جواب النبي ﷺ في تعريف الإيمان، وذِكْر أركانه؛ لأن الإيمان يقوم على ستة أركان، لا يكون المرء مؤمنًا حتى يأتي بها جميعًا، ألا وهي: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بملائكته، والإيمان بكتبه المنزلة، والإيمان برسله -عليهم الصلاة والسلام- والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

فاتضح بذلك: أن الإيمان بالكتب السماوية واجب على كل مؤمن، بل هو ركن أساسي لتصحيح إيمانه.

إذًا، فالإيمان بالكتب المنزلة أمر واجب وصريح كما جاء في هذا الحديث الصحيح.

وفي الحديث الثاني الذي أخرجه الإمام ابن كثير -رحمه الله- عن مَعقِل بن يسار > قال: قال رسول الله ﷺ: ((آمنوا بالتوراة، والزبور، والإنجيل، وليسعكم القرآن)). رواه في (التفسير).

وفيه أمر النبي ﷺ بالإيمان بالكتب المنزلة الأربعة التي صرح القرآن الكريم بأسمائها، وهي: القرآن الكريم، والتوراة المنزلة على موسى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- والزبور وهو الكتاب المنزل على داود -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- والإنجيل وهو الكتاب المنزل على عيسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

ثم بعد أن أمر النبي ﷺ بالإيمان بهذه الكتب السماوية الأربعة- وضح أنه يجب الاستغناء بخاتمة هذه الكتب السماوية، وهو القرآن الكريم؛ لأنه نسخ كلَّ الشرائع السابقة بحكم كونه جاء خاتمًا للكتب المنزلة السابقة، فإنها كانت تنزل على كل رسول رسالة خاصة موجهة إلى قوم معينين، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن على نبينا محمد ﷺ كان عامًّا موجهًا لجميع الناس، فلذلك استوعب كل التعاليم التي جاءت بها الكتب السماوية السابقة، ناسخًا لها، ومهيمنًا عليها، فلذلك أمر النبي ﷺ بلزوم القرآن؛ لأنه كافٍ عن كل كتابٍ، ومغنٍ عن كل التعاليم التي يمكن أن تُطلب في غيره من الكتب والرسالات.

وسنبين -بحول الله تعالى- مزيدًا من المعاني حول هيمنة القرآن الكريم على الكتب المنزلة السابقة.

وعن عدد الكتب السماوية ورد في حديث أبي ذر > الذي رواه ابن حبان في صحيحه عنه، قال: ((دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس وَحْدَهُ، فذكر حديثًا طويلًا، وفيه: قال: قلت: يا رسول الله، كم كتابًا أنزله الله؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب، فيه أنزل على شيث خمسون صحيفةً، وأنزل على أخنوخ ثلاثون صحيفةً، وأنزل على إبراهيم عَشْر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان)) الحديث.

ثم ذكر الإسفراييني -رحمه الله-: أن بعض الحفاظ رَدَّ على ابن حبان في تصحيحه لهذا الحديث، ثم قال: وهذا يبين أن أئمة السلف لم يعلموا عدد الكتب والرسل، وأن حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم. انتهى كلامه.

وبهذا يتضح: أنه ثبت بالأدلة من السنة المطهرة الإيمان بالكتب المنزلة، كما ثبت ذلك بالكتاب العزيز، وأنه لا يجوز التفريق بين الكتب في الإيمان، إلا أن القرآن الكريم نسخ مَا سبقه، فلذلك وجب الاستغناء به.

رابعًا: التعريف بالكتب السماوية المنزلة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم:

إن أركان الإيمان الستة الواردة في حديث جبريل # وهي الإيمان بالله تعالى، وملائكته عليهم السلام، وكتبه السماوية المنزلة، ورسله المصطفين عليهم الصلاة والسلام، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، حُلوه ومره- إن الإيمان بهذه الأركان من الأمور الغيبية التي لا مجالَ في معرفتها والإحاطة بها بالرأي والاجتهاد، بل تتوقف معرفتها والإحاطة بها على الوحي الوارد في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ.

فما فُصِّلَ لنا الحديث عنه في القرآن الكريم من هذه الأمور الستة وجب علينا معرفته بتفاصيله، وما أُجمل لنا الحديث عنه وجب علينا الإيمان به مجملًا، وكذلك فيما يرد في السنة المطهرة.

ومن هنا كان الحديث عن كتب الله تعالى المنزلة متوقفًا على الوحي، أي: ما ورد في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ، فهناك آيات كثيرة وردت في شأن كتب الله تعالى المنزلة على الرسل؛ ففي بعض تلك الآيات تصريح بكتب سماوية منزلة على رسلٍ معينين: فهناك آيات صرحت بنزول الصحف على إبراهيم # وآيات صرحت بنزول صحف على موسى # مع التصريح بنزول التوراة عليه أيضًا، وكذلك التصريح بنزول الزبور على داود # ونزول الإنجيل على عيسى # ثم نزول خاتمة كتب الله تعالى المنزلة، وآخر رسالات الله إلى الأرض الكتاب الباقي للبشرية إلى قيام الساعة القرآن الكريم المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا، محمد ﷺ.

وهناك بعض الآيات تُشير إلى كتب سماوية أنزلت على بعض الرسل، لم يخبرنا القرآن الكريم بأسمائها، إنما اكتفَى بالإشارة إليها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]. فكما أن هناك رسلًا لم يقصصهم الله تعالى علينا نؤمن برسالتهم في الجملة، فكذلك هناك كتب أنزلت على رسل لم يخبرنا القرآن الكريم بأسمائها -أي بأسماء هذه الكتب- ولم يعطنا تفاصيل عنها، فنؤمن بنزولها في الجملة؛ لأن الحديث -كما قلنا- في هذا الموضوع من الأمور الغيبية التوقيفية التي يتوقف الحديث عنها، ومعرفة تفاصيلها على ما يورده الوحي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

إذًا كلامنا عن الكتب السماوية والتعريف بها، وذكر ما يتعلق بها من الأمور الغيبية التي نحن نتوقف في معرفتها، وذكرها على ما ورد في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ.

ليس هناك مصدر يمكن أن نستقي منه هذا الكلام عن هذه الكتب، فمثلًا: الكتب السماوية السابقة قد لحقها التحريف، وحَرَّفتها أيدي البشر من أتباع هذه الديانات، فإذًا هي ليست مصدرًا ولا مرجعًا لمعرفة كتب الله تعالى المنزلة، بينما كتاب الله المنزل على خاتم رسل الله ﷺ وهو القرآن الكريم، كتاب لم تلمس فيه يد البشر بالتحريف، بل تكفل الله ﷻ بحفظه، وذلك في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فقد حفظه الله ﷻ من التحريف، وسيستمر ذلك الحفظ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهذا الكتاب هو الكتاب الموثوق به، الوحيد الذي يمكن أن يكون مصدرًا ومرجعًا للتعريف بكتب الله تعالى، ومعرفة المصرح به من المجمل، وعلى مَن أُنزل؟ وما هي الأمور التي اشتمل عليها؟

أ- صحف إبراهيم وموسى:

هذه الصحف من الكتب المنزلة على هذين النبيين الكريمين، وقد ورد ذكرهما في القرآن الكريم في سورة النجم، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٦-٤١].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه:

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ ﴾ هذا المدعي: ﴿ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع، وأصول الدين، وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة، من أهمها: ما ذكره الله بقوله: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أي: كل عامل له عمله الحسن

والسيئ، وليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحدٌ عن أحدٍ ذنبه، وأن سعيه سوف يُرى في الآخرة، فيميز حسنه من سيئه، ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسِّيئ الخالص بالسوء، والمشوب بحسبه جزاءً تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلها. انتهى كلامه.

ففي آيات سورة النجم تعريف لنا ببعض الأحكام الواردة في صحف إبراهيم وموسى -عليهم السلام.

كما ورد ذكر صحف إبراهيم وموسى -عليهم السلام- في سورة الأعلى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

ذكر الإمام ابن كثير -رحمه الله- الخلاف في المشار إليه بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ هل هو الإشارة إلى ما ورد في سورة الأعلى كاملة؟ أم هو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٤-١٧].

وذكر ابن كثير -رحمه الله- أن هذا الرأي الأخير وهو أن تكون الإشارة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى الآيات بعدها وهي: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ يعني: يرجح ابن جرير -رحمه الله، كما ينقل الإمام ابن كثير- أن الإشارة إلى هذه الآيات، وليس إلى السورة كاملة.

ثم نقل ابن كثير عن ابن عباس { أنه قال: "لَمَّا نزلت: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى، ولما نزلت: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ قال: وَفَّى إبراهيم: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ يعني: أن هذه الآية كقوله

تعالى في سورة النجم: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾. الآيات. انتهى كلامه.

وروى ابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، عن أبي ذر > قال: ((قلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالًا كلها، قلت يا رسول الله، فما كانت صحف موسى # ؟ قال: كانت عبرًا كلها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها، عجبت لمن أيقن بالحساب غدًا، ثم لا يعمل)). انتهى كلامه بنصه.

ب- زبور داود # :

الكتاب الذي أنزل على نبي الله داود # اسمه الزبور، من الزبر، وهو الكتابة، ولهذا قال تعالى واصفًا اللوح المحفوظ عنده بالكتاب بقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. فالزبور هنا المراد به اللوح المحفوظ، وأما زبور داود # فقد ورد ذكره في سورتين، الأولى في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣] والثانية سورة الإسراء عند قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية والتي قبلها:

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

وفي هذا عِدة فوائد:

منها: أن محمدًا ﷺ ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجم الغفير، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد.

ومنها: أنه أوحي إليه كما أوحي إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضًا، ويوافق بعضهم بعضًا.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم، وأخلاقهم متفقة، مصدرهم واحد، غايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين، ولا بالكذابين، ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيمانًا بهم، ومحبة لهم، واقتداءً بهديهم، ولَمَّا ذكر اشتراكهم بوحيه ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه آتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف المزبور الذي خص الله به داود # بفضله وشرفه، وهذا من كمال عِزته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضًا من فضله وإحسانه. انتهى كلامه.

ولم أقف على تفاصيل عن كتاب الله تعالى الزبور المنزل على داود # غير ما ذكره بإجمال الشيخ السعدي في كلامه المنقول سابقًا.

ج- توراة موسى # :

لقد تقدم معنا ذكر الصحف المنزلة على إبراهيم وموسى -عليهما السلام- فمن العلماء من يرى: أن صحف موسى هي ما آتاه الله من الوحي قبل أن تنزل عليه التوراة مشافهةً من غير واسطة. ومنهم من يرى: أن الصحف المنزلة على موسى # المراد بها

التوراة لا شيء آخر، فالقرآن يعبر عن الكتاب المنزل على موسى # تارةً بالتوراة، وتارةً بالصحف، وتارةً أخرى بالألواح.

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - :

ثم أخبر تعالى أنه كتَبَ له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلًا لكل شيء. قيل: كانت الألواح من جوهر، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظَ وأحكامًا مفصلةً مبينةً للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملةً على التوراة التي قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ [القصص: ٤٣] وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة. فالله أعلم. انتهى كلامه.

وقد أخبر الله تعالى عن التوراة المنزلة على موسى # أن فيها هدًى ونورًا، وأثنى عليها بقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] وهذا صريح في أن التوراة كتاب أنزل من عند الله، وأنها اشتملت على كل حق وصدق، وأن فيها الهدى التام، والنور المبين، مثلها مثل غيرها من كتب الله المنزلة.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

إنا أنزلنا التوراة على موسى بن عمران ﷺ فيها هدًى يهدي إلى الإيمان والحق، ويعصِم من الضلالة، ونور يُستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك، والشبهات والشهوات، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨]. يحكم بها بين الذين هادوا - أي: اليهود -

في القضايا والفتاوَى النبيون الذين أسلموا لله، وانقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة الله من العباد. انتهى كلام السعدي، رحمه الله.

د- إنجيل عيسى # :

وعيسى # هو آخر أنبياء بني إسرائيل، أوحى الله إليه الإنجيل، وهو كتاب سَماوي يتبع في تعاليمه التوراة التي سبقته المنزلة على موسى بن عمران # ولم يخالفها إلا في القليل النادر، يقول الله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦، ٤٧].

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره:

يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا على آثارهم -يعني: أنبياء بني إسرائيل- ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: هدى إلى الحق، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات، ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: متبعًا لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل النادر مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] ولهذا كان المشهور من قول العلماء: أن الإنجيل نسخ بعضَ أحكام التوراة، وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]؛ أي: وجعلنا الإنجيل هدى يُهتدى به،

﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أي: زاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم، ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي: لمن اتقى الله، وخاف وعيده وعقابه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ قرئ: "وليحكمَ أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه" بالنصب على أن اللام لام "كي" أي: للتعليل. أي: وآتيناه الإنجيل؛ ليحكم أهل ملته في زمانه، وقرئ: "وليحكمْ" بالجزم على أن اللام لام الأمر؛ أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ والأمر باتباعه إذا ثبت تصديقه إذا وجد. انتهى كلامه.

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

وأتبعنا هؤلاء الأنبياء والمرسلين الذين يحكمون بالتوراة بعبدنا ورسولنا عيسى ابن مريم، روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم، بعثه الله مصدقًا لِمَا بين يديه من التوراة، فهو شاهد لموسى، ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق، ومؤمن ومؤيد لدعوته، وحاكم بشريعته، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية، وقد يكون عيسى # أخف في بعض الأحكام، كما قال تعالى عنه، إنه قال لبني إسرائيل: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة، ﴿ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل، ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ بتثبيتها، والشهادة لها، والموافقة. انتهى كلامه.

إذًا فنبي الله عيسى # من جملة أنبياء بني إسرائيل، وهو آخرهم، وكتابه الإنجيل قريب في المماثلة للتوراة التي سبقته، والتي أُنزلت على موسى بن عمران # ولهذا كثيرًا ما يقرن القرآن الكريم بين هذين الكتابين السماويين في الحديث،

كقولـه تعـالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمـران: ٢، ٣] وكقولـــه تعـــالى: ﴿ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾ [المائدة: ١١٠] وكقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] إلى غير ذلك من الآيات.

هـ- قرآن نبينا محمد ﷺ:

أما القرآن الكريم المنزل على سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ فهو خاتمة الكتب السماوية المنزلة، وآخر الكتب نزولًا بعد كتاب الإنجيل المنزل على عيسى ابن مريم -عليهما السلام- فهو المعجزة الخالدة إلى يوم القيامة الذي نسخ الله به كلَّ الشرائع، وجعله الله حجةً على الخلائق أجمعين، ولا يقبل من أحد عملًا حتى يتبعه.

يقول الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله-:

أنه ليس لأحد الخروج عن شيء من أحكامه وأن من كذب بشيء منه من الأمم الأولى، فقد كذب بكتابه، وأن من اتبع غير سبيله ولم يقتفِ أثره ضَلَّ، كما قال تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١-٣] فلا بد في الإيمان به من امتثال أوامره، واجتناب مناهيه، وتحليل حلاله، وتحريم حرامه، والاعتبار بأمثاله، والاتعاظ بقصصه، والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه، والوقوف عند حدوده، وتلاوته آناءَ الليل والنهار، والذبِّ عنه؛ لتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، والنصيحة له ظاهرًا وباطنًا بجميع معانيها. انتهى كلامه.

والآيات التي تُصرح بإنزال الله تعالى القرآن الكريم على خاتم النبيين محمد ﷺ كثيرة؛ منها: قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨].

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

لَمَّا ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه، ومدحها، وأثنى عليها، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته، واتباع ما فيه -كما تقدم بيانه- شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم ﷺ فقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بالصدق الذي لا ريبَ فيه أنه من عند الله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقًا عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله. انتهى كلامه.

ومن تلك الآيات أيضًا قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ١- ٤].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

ومن قيامه تعالى بعباده ورحمته بهم، أن نزَّل على رسوله محمد ﷺ الكتاب الذي هو أَجَلُّ الكتب وأعظمها، المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيه، فما أخبر به صدقٌ، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق؛ ليقوم الخلق بعبادة

ربهم، ويتعلموا كتابهم، ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب السابقة، فهو المزكي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة له بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ أي: على موسى، ﴿ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ أي: على عيسى، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي: قبل إنزال القرآن، ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فَمَن قبِلَ هدى الله فهو المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله. انتهى كلامه.

فالقرآن الكريم هو معجزة محمد ﷺ الخالدة، فيه شفاء لأمراض القلوب والأبدان، وفيه نبأ من قبلنا، ودستور حياتنا، هو القول الفصل ليس بالهزل، من تمسك به نجا، ومن أعرض عنه هلَك.

الإيمان بالأصول الأولى - للتوراة والإنجيل - فقط؛ لوقوع التحريف في الموجود منهما الآن، وبيان بعض المزايا للقرآن الكريم وهيمنته على الكتب السابقة

١- وجوب الإيمان بأصول التوراة والإنجيل:

لقد بعث الله تعالى رسوله موسى بن عمران نبي الله، وكليمه إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه كتابه التوراة فيها هدى ونور، كما ثبت في القرآن الكريم أن موسى # طلب من ربه ﷻ أن يرسل معه أخاه هارون لفصاحته - وأن موسى # كلمه الله تعالى مباشرة من غير واسطة من الملائكة، وأوحى إليه التوراة، حتى صار

يعرف موسى # من بين سائر الرسل بالكليم، وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

بينما كانت الرسل يأتي إليها الوحي من الله ﷻ بواسطة الملائكة، والملك المُوَكّل بالوحي إلى الرسل هو جبريل # وقد ينزل معه بعض الملائكة، ولكن يكون ذلك بالتبعية، لا الاستقلال. أما الملك الموكل بالوحي للرسل فهو جبريل # إلا أنه ثبت كلام الله ﷻ مباشرة من غير واسطة لثلاثة هم: كليم الله موسى # وقد اشتهر بذلك؛ لأن الرسالة الموحى بها إلى موسى # ثبت أنها أوحيت إليه كفاحًا من غير واسطة، لكن ثبت التكليم كذلك بدون واسطة لنبي الله آدم أبي البشر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ [البقرة: ٣٠]، كذلك ثبت في قوله تعالى: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥]، ثبت النداء هنا لآدم # مباشرة من غير واسطة، والمكلم الثالث أيضًا من غير واسطة هو خاتم الرسل والأنبياء نبينا وحبيبنا محمد ﷺ وذلك في ليلة المعراج عندما عرج به جبريل إلى السَّمَوَات السبع، وكلم الله ﷻ وأوحى الله إليه الصلوات الخمس، فثبت التكليم هنا أيضًا، لآدم # ولخاتم المرسلين والنبيين محمد ﷺ.

وقد بلغ موسى # رسالته إلى قومه بني إسرائيل على أكمل وجه، وأتمه، حتى أتاه اليقين من ربه ﷺ، فيجب في شريعة الإسلام الإيمان بالأصول الأولى لكتاب الله تعالى التوراة، وأنها اشتملت على صدق وحقّ وعدل، ولهذا وصف الله تعالى التوراة بأنها اشتملتْ على الهدى والنور، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وفي آية أخرى من كتاب الله تعالى وُصفت التوراة بأن فيها حكمَ الله قال تعالى: ﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٣]، وكثيرًا ما يردُ في القرآن الكريم في معرض جدال أهل الكتاب

أن الله تعالى يأمر نبيه محمدًا ﷺ بأن يحتجّ عليهم بما في التوراة من الحقّ، الذي يخالف ما عليه أهل الكتاب.

وهذا أكبر دليل على أن أصول التوراة كانت باقية، وفيها الحق والتوحيد، قال الله تعالى مخاطبًا نبيه محمد ﷺ في إحدى المجادلات بينه وبين أهل الكتاب: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣].

يقول الشيخ عبد القادر شيبة الحمد في كتابه (الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة):

"التوراة في اللغة كلمة عبرانية معناها السريعة، أو الناموس، وهي في اصطلاح اليهود: عبارة عن خمسة أسفار، يعتقدون أن موسى # كتبها بيده، وهي:

الأول: سفر التكوين.

الثاني: سفر الخروج.

الثالث: سفر اللّاويين أو الأخبار.

الرابع: سفر العدد.

الخامس: سفر التثنية.

أما التوراة في اصطلاح النصارى: فهي تُطلق على جميع الكتب التي يسمّونها كتب العهد القديم، وهي كتب أنبياء بني إسرائيل، وتاريخ قضائهم وأخبار ملوكهم قبل المسيح # ؛ سواء عرفوا كاتبه أو لم يعرفوه، وقد يطلقون هذه التوراة على مجموع هذه الكتب وعلى الأناجيل أيضًا.

والتوراة في اصطلاح المسلمين: هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى نورًا وهدًى للناس، وألقاه إليه مكتوبًا في الألواح، وقد يُطلق بعض المسلمين التوراة على مجموع كتب العهد القديم

وسيمرّ معنا أن الكتاب المقدس الذي بأيدي اليهود والنصارى الآن يشتمل على قسمين: قسم يسمّونه العهد القديم، وهذا يقصدون به التوراة. وقسم يسمّونه العهد الجديد: وفيه الأناجيل الكثيرة جدًّا، والتي اقتصروا منها على أربع: إنجيل متى، وإنجيل مرقص، وإنجيل لوقا، وإنجيل برنابا، هذه الأناجيل الأربعة يسمونها العهد الجديد، ويقصدون بذلك الإنجيل، أي: يطلقون مجموعة الأناجيل على الإنجيل، وهو اسم كتاب الله المنزّل على نبيه عيسى # .

فإذًا يجب الإيمان بالأصول الأولى للتوراة قبل التحريف، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسوله موسى # إلى بني إسرائيل الذين كان فرعون يضطهدهم، ويأمرهم بعبادته، ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ والعياذ بالله، كما يجب الإيمان بأن الله تعالى أيّد نبيه موسى # بكتابٍ أنزله عليه، وهو التوراة التي فيها حكم الله، والتي فيها الهدى والصدق، والحق، والنور.

وأن خاتم النبيين محمدًا ﷺ كان يدعو اليهود إلى التحاكم إليها، إذ لما هاجر إلى المدينة -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم- وجد اليهود في المدينة، وتذكر كتب السيرة أن هناك فصيلين مشهورين في المدينة المنورة على عهد المصطفى ﷺ؛ قسم كان يسمى يهود بنو قريظة، والقسم الآخر يسمى يهود بني قينقاع، فقد حاكم النبي ﷺ أحد اليهود وحكم عليه بالرجم، فلما أنكروا وجود هذا الحكم ندب النبي ﷺ أحد القراء الذي كان يقرأ بالعبرية إلى قراءة التوراة، فقرأها، فلما وصل القارئ إلى موضع الرجم وضعوا أيديهم عليه حتى لا يراه، لكن النبي ﷺ مؤيّدٌ

بالوحي، فأعلمه الله بهذه الحيلة، فأمر القارئ أن يقرأه فقرأ الحكم الثابت الموافق للقرآن الكريم، وهو إثبات الرجم، وسيأتينا أنهم غيّروا هذا الحكم إلى تسويد وجه الفاعل، والتشهير به بدل الحكم عليه بالرجم. وهذا تغيير وتحريف للتوراة، كما سيمرّ معنا في العصور الثانية.

وفي هذه القصة دليل على الإيمان بالأصول الأولى للتوراة، وأنها كانت موجودة، وفيها الحق، والعدل، والأحكام الثابتة؛ لأن النبي ﷺ حاكم اليهود إلى كتابهم في أيامه ﷺ.

إذًا فأهل التوراة كتابيّون موحّدون في الأصل؛ لأن أصل التوراة فيها التوحيد والإيمان قبل أن تحرفها أيدي المحرفين من البشر، كما صرّحت بذلك (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة).

وكما وجب الإيمان بأصول التوراة -كما مر معنا- يجب أيضًا الإيمان أيضًا بأصول الإنجيل، فلقد بعث الله نبيه عيسى # رسولًا إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه كتابًا أيّده به، كما ثبت ذلك في القرآن الكريم، وأن كتاب عيسى # اسمه الإنجيل، وهو أحد كتب الله منزلة التي صرّح القرآن الكريم بأسمائها، قال الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾، يعني أنبياء بني إسرائيل: ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، أي: مؤمنًا بها

حاكمًا بما فيها، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي هدى إلى الحق، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات، وحلّ المشكلات، ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، أي: متبعًا لها غير مخالفٍ لما فيها، إلا في القليل ممّا بَيَّنَ لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، ولهذا كان المشهور من قول العلماء: إن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة، ولكنه جاء مؤيّدًا، ومعاضدًا، ومتبعًا لكثير من أحكامها، وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، أي: وجعلنا الإنجيل هدًى يُهتدى به، وموعظة أي: زاجرًا عن ارتكاب المحارم، والمآثم، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقى الله وخاف وعيده، وعقابه". انتهى كلام ابن كثير، رحمه الله.

ويقول الشيخ عبد القادر شيبة الحمد في كتابه (الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة) في تعريف الإنجيل:

الإنجيل كلمة يونانيّة معناها: البشارة، أما في الاصطلاح فيطلق على كتاب الله تعالى المنزّل على عيسى # . وقد وصف الله -تبارك وتعالى- هذا الإنجيل بقوله ﷻ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]، بيد أن هذا الإنجيل لا وجود له عند النصارى، ولم يذكر أحد من علماء التاريخ أنه رأى نسخةً منه، ويبدو أن عيسى # لم يكتبْه، وإنما كان يبشّر به في بني إسرائيل، وقد وَرَدَ ذكرُهُ في الأناجيل التي أُلّفت بعد رفع المسيح # ؛ فقد ذكره متّى في إنجيله في الإصحاح الرابع منه". انتهى كلامه، حفظه الله.

فممّا سبق يتّضح لنا أنه يجب الإيمان بأصول التوراة والإنجيل، المنزّلين على النبيّين الكريمين موسى وعيسى - عليهما الصلاة والسلام.

أما الآن فقد لحق التحريف بهذين الكتابين، ومُدَّتْ إليهما أيدي الذين يبدّلون كتاب الله، ويشترون به ثمنًا قليلًا، ولم يبقَ لليهود ولا للنصارى شيء صحيح من الوحي يتمسّكون به في هذين الكتابين، ولهذا تذكرون قوله ﷺ: ((آمنوا بالتوراة والإنجيل، وليسعكم القرآن)) أو كما قال ﷺ.

- لأن هذه الكتب السماوية السابقة لم يتكفّل الله ﷻ بحفظها من التغيير والتحريف والتبديل؛ لأنها كانت رسائل لأمم مخصوصين، ولفترات زمنية محدّدة، فتنتهي بانتهاء تلك الأمة، ولعلّ هذا هو السر في تحريف وضياع أصول تلك الكتب.

- أما الأمر الثاني: فهو أن هذه الرسالات، وهذه الكتب السماوية كانت الحكمة منها أن تنقذ أمة معينة من الضلال إلى الهدى والنور، وأن هذه الرسالات لم تكن رسالة عامة لجميع الناس صالحة لكل زمان ومكان، كما هو الحال والشأن في رسالة الإسلام، رسالة خاتم النبيين والمرسلين محمدًا ﷺ.

فهذه قد تكفّل الله تعالى بحفظها أولًا، وثانيًا أتتْ رسالة عامة لجميع البشر، لجميع الناس، لكل زمان ومكان؛ فلذلك كانت قادرة على البقاء، وتكفُّل الله سبحانه وتعالى بحفظها يدلّ دلالة قوية على أنها لن تصلْ إليها أيدي المحرفين والعابثين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فإذًا لم يتكفل الخالق سبحانه وتعالى بحفظ كتابٍ غير القرآن الكريم، فهو الكتاب السماوي الوحيد المحفوظ من التحريف والتبديل، إلى يوم الدين قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

٢. تحريف التوراة الموجودة الآن:

الكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن أنزلت لأقوام معينين، ولفترة زمنية محدودة، ولم تنزلْ شريعة خالدة عامة، فلذلك لم يتكفّل الله ﷻ بحفظها، كما تكفل بحفظ القرآن الكريم، فضاعت أصول تلك الكتب، وتغيّرت أحكامها؛ فالتوراة فُقدت منذ زمن قديم، وضاعت بسبب التنكيل، والنكبات التي مرّت ببني إسرائيل من قتلٍ وتشريدٍ، وتسليط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب؛ جزاء بغيهم وإفسادهم في الأرض.

فالتوراة الموجودة الآن محرفة، وليست هي التوراة التي أنزلت على نبي الله موسى بن عمران # ، وإنما هي مجموعة من الأسفار كتبها اليهود بأيديهم، ثم قالوا: هي من عند الله؛ ليشتروا بها ثمنًا قليلًا، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

ومن الأدلة على تحريف التوراة ما تضمّنته من عقائد فاسدة، وحكايات كاذبة، وتناقضات واضحة، وإفسادٍ للأخلاق، وتزويرٍ للأحكام، فالله ﷻ نسبت إليه التوراة من صفات النقص ما يتنزّه عنه ﷻ؛ فجعلته إلهًا خاصًّا ببني إسرائيل، وهو ﷻ ربّ العالمين، وصوّرته كالإنسان يتعب ويستريح فتقول: إنه خلق السّموَات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع يوم السبت. -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا-. وقد ردّ الله على كذبهم وضلالهم بقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (محاضرات في النصرانية):

"الكتاب المقدس لدى النصارى يشمل التوراة والأناجيل ورسائل الرسل، وتسمى التوراة أسفار الموسوية وغيرها كتب العهد القديم، وتُسمّى الأناجيل

ورسائل الرسل كتب العهد الجديد؛ فمن العهد القديم يعرفون أخبار العالم في عصوره الأولى، وأجياله القديمة، وشرائع اليهود الاجتماعية والدينية".

ثم ذكر التحريف الذي حصل للتوراة، وهي العهد القديم.

يقول الشيخ عبد القادر شيبة الحمد:

"اتفق المسلمون على أن التوراة قد دخلها تحريف، وتغيير، وتبديل، غير أن بعض العلماء يذهب إلى أن هذه التحريف لم يكن تحريفًا في حروف التوراة، وإنما كان في صرف المعاني التي جاءت بها التوراة إلى غير وجهها، وحملها على غير ما وضعت له.

وسائر علماء المسلمين على أن التوراة قد دخلها تحريف في ألفاظها ومعانيها، وقد جاء التصريح بذلك في كتاب الله تعالى حيث يقول: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، فدلّ هذا على أن التوراة كانت قد فُقِدَتْ، وأن الذي جاء بها هو حِلْقِيَا الذي سلّمها لِشَافَانَ الكاتب، وسلمها هذا بدوره إلى الملك على أن فقد التوراة أمر متفق عليه عند جميع بني إسرائيل.

فقد أقرّ الجميع أنها فُقدت مع التابوت لما خرّب بُخْتَنَصّر الهيكل، وفي بعض الأخبار أنه حرّق جميع نسخ التوراة، ونحن -المسلمين- نعتقد أن التوراة لم تحرّف تحريفًا كليًّا، وإنما وقع التحريف في بعض ألفاظها، وأن بعض الأحكام التي شرّعها الله لبني إسرائيل في التوراة لم تُبَدّل كرجم الزناة، والقصاص، وإن كان اليهود قد انْحَرَفُوا عن العمل بهذه الأحكام، فبدلّوا الرجم بتسويد وجه الزاني وتشهيره.

وكذلك بعض صفات رسول الله ﷺ قد بَقِيَتْ في التوراة، وإن حاول اليهود كتمان كل صفة تدلّ عليه ﷺ، ولهذا المعنى يطلب الله من بني إسرائيل العمل بالتوراة، وتحكيمها؛ إذ إن هذا موافق لما جاء به محمدٌ ﷺ، ونعتقد أن من التحريف ادّعاءهم أن العزير ابن الله، وقولهم ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وكذلك ما وَصَفوا به بعض الأنبياء -عليهم السلام- كوصفهم ليعقوب بأنه صارع الرب جلّ وعلا، وكذكرهم أن لوطًا شرب الخمر، وزنى بابنتيه بعد نجاته إلى جبل صوغر، وكوصفهم لداود بأنه قَبُحَ في عين الرب، إلى غير ذلك، والله أعلم".

انتهى كلامه حفظه الله.

ومن هذا نعتقد أن تحريف التوراة أمرٌ ثابت لا مرية فيه، والعقلاء من جميع الطوائف يؤكّدون ذلك، ويصرّحون به؛ لأن هذه الأحكام الموجودة الآن بأيدي المتّبعين للتوراة كلها تُخالف شرع الله، فهي ضدّ التوحيد، وهي ضدّ الأحكام الثابتة التي أقرتها رسالة الإسلام. أضف إلى ذلك تاريخ ضياع هذا الكتاب، والتشريد والاضطهاد الذي لحق بأتباعه، والقصص التاريخية التي ثبت من خلالها أن بختنصر لما حكم على اليهود بالاضطهاد، حرّق الكتب التي كانت بأيديهم -التوراة-.

٣. تحريف الإنجيل الموجود الآن:

وأما الإنجيل وهو الكتاب المنزّل على نبي الله عيسى # والمعروف عند النصارى في الكتاب المقدس بالعهد الجديد، وسنذكر أنه عدّة أناجيل فهو محرّف أيضًا مثل التوراة، كتب العهد القديم؛ حيث إن الإنجيل قد فُقِدَ واندثر لأمور منها، كما ذكرها صاحب كتاب (البيان في أركان الإيمان):

أولًا: الاضطهادات التي تعرّضت لها النصارى بعد المسيح # وكانت سببًا في اختفاء النسخة الحقيقية.

ثانيًا: أن عيسى # كان رسولًا إلى بني إسرائيل فرسالته محدّدة لقوم مخصوصين، والإنجيل الذي أنزله الله ﷻ على عيسى ابن مريم كتاب واحد، والإنجيل الموجود اليوم ليس إنجيلًا واحدًا؛ بل هو أناجيل كثيرة، وقد اتّفق النصارى على أربعة منها، وهي إنجيل لوقا، أنجيل متّى، أنجيل مرقص، أنجيل يوحنّا.

إذًا نحن أمام كُتُب أربعة، وليس أمامنا كتاب واحد. وهذا أكبر دليل على التحريف؛ لأن الله ﷻ لم يثبت أنه أنزل أناجيل على عيسى # وإنما الثابت أنه أنزل إنجيلًا واحدًا.

ثانيًا: أننا لم نجد إنجيلًا واحدًا يُنسب لعيسى # وإنما هي منسوبة إلى مؤلفيها من البشر. وهذا -لعمر الله- أكبر دليل وأقواه على أن هذه الأناجيل مكتوبة بأيدي البشر، وأن الإنجيل -الرسالة السماوية التي أنزلت على عيسى # حُرّف، وبُدّل، وضيّع، وفقد، وقد اختيرت هذه الأناجيل الأربعة من سبعين أنجيلًا، ومع ذلك بينها اختلافات كثيرة، وتُسَمّى هذه الأسفار الأربعة العهد الجديد.

ومما يدلّ على تحريف الإنجيل أن هذه الأناجيل الموجودة عبارة عن قصص، وروايات في سيرة المسيح # ، تُنسب إلى مؤلفيها، وقد اشتملتْ على عقائد باطلة لا يقرّها دين، ولا يقبلها عقل، ومن ذلك:

أ- نسبة الولد إلى الله تعالى: فقد اتّفقتْ الأناجيل الأربعة على أن عيسى # هو ابن الله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-، والله تعالى يقول في سورة الإخلاص: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤].

ب- نسبة الصلب إلى عيسى # : تكفيرًا عن خطيئة آدم وفداءً للبشر، القصة المشهورة في دين النصارى، وأن عيسى # صُلِبَ وقتل في هذه الدنيا؛ ليكفّر الخطيئة التي ارتكبها آدم من أكله للشجرة لما نهاه الله ﷻ، فعندما أكل آدم من تلك الشجرة لصقت هذه الخطيئة بالبشر، فأرسل الله عيسى # ثم قدّم عيسى # نفسه فداءً لجميع البشر من أجل أن تُمحى عنهم هذه الخطيئة.

وهذه القصة الخرافية ردّ عليها القرآن الكريم، وكذّبها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧]، وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨]، أي: أن عيسى # لم يُقتل ولم يُصلب، وإنما ألقى الله شبهه على رجل فقتله اليهود، وظنوا أنه عيسى # .

بل المسيح # رفعه الله إليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧].

جـ- تحميل خطيئة آدم في أكله الشجرة لبنيه: ليكون صلبه فداءً لهم، والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الزمر: ٧] لا يمكن أن تعذّب نفس بما كسبت نفسٌ أخرى. هذا لا يقرّه دين، ولا يقبله عقل. كما أن الله ﷻ صرّح بقبول توبة آدم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢٢]، وهذا أكبر دليل في الردّ على هذه القصة الخرافيّة قصة الصلب والفداء.

د- اعتماد الإنجيل المحرّف في أحكامه وشرائعه على التوراة العهد القديم: والتوراة محرفة، فيكون الإنجيل محرّفًا كذلك؛ لأن القاعدة المشهورة تقول: ما بني على باطل فهو باطل، وهنا نقول: من بني على محرّفٍ فهو محرّف مثله.

أضف إلى ذلك التضارب بين كتب العهد الجديد -أي: الأناجيل نفسها- وأول ما يقابل المرء من ذلك، وهو اختلاف في أمر واحد لا يقبل إلا حقيقة واحدة،

وهو اختلاف إنجيل متَّى عن إنجيل لُوقا في نسب المسيح # وهذا مثال واحد والأمثلة كثيرة إلى غير ذلك من التضادّ والاختلاف، مما يدل على أن النصارى واليهود ليسوا على شيءٍ، بل هي كتابات كتبها قساوستهم وعلماؤهم بأيديهم؛ ليشتروا بها ثمنًا قليلًا- ممّا جعل التحريف أمرًا مجمعًا عليه بين العقلاء عند هاتين الطائفتين، ولم يبقَ وحيٌ من عند الله يُتْلَى لم تمسّه أيدي المحرفين سوى كتاب خاتم النبيين حبيبنا محمدًا ﷺ ألا وهو القرآن الكريم.

والدليل على ذلك كما مرّ معنا هو حفظ الله ﷻ لهذا الكتاب من التبديل والتحريف، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وفتّش في جميع أرجاء الأمة الإسلامية، لو ظهر لنا رجل؛ سواء كان ينتمي إلى ملّة الإسلام أو هو معادٍ لها، وقرأ علينا كتاب الله ﷻ، ثم دسّ لنا حرفًا واحدًا محرفة زيادة أو نقصًا- فإنك ستجد الأمة بعلمائها ونسائها وأطفالها يردّون عليه؛ لأن هذا الكتاب حُفظ في الصدور قبل أن يحفظ في السّطور، وهذا أكبر دليل على أن حفظه باقٍ إلى يوم القيامة، كما تكفّل الله ﷻ بذلك؛ لأنه رسالة الوجود الخالدة، كما أن نبينا محمدًا ﷺ خاتم النبيين، لا نبيّ بعده، فكذلك كتابه خاتم الكتب، ورسالته خاتمة الرسائل. فلا رسالة بعده، ولا كتاب بعد القرآن، فلذلك حفظ الله هذا الكتاب؛ لأن الأمة ستحتاج إلى وحي يُنير لها السبيل، ويبين لها الحلال والحرام ويصلح من شأنها، ويهديها الصراط القويم المستقيم.

فلن تجد ذلك إلا في هذا الكتاب المحفوظ من التحريف والتبديل. أما الكتب السماوية السابقة، فللعلّة التي مرّت معنا لم يتكفّل الله ﷻ بحفظها؛ لأنها رسالة خاصة بأمة معينة، وتزول بزوال تلك الأمة، وأن بقيّة أصولها موجودة إلا أن التحريف والتبديل اختلط بها.

٤- مزايا اختصَّ بها القرآن عن سائر الكتب المنزَّلة، ومنها هيمنته على تلك الكتب:

أ- هداية القرآن الكريم لأقوم العقائد:

لقد أرسل الله تعالى نبينه محمدًا ﷺ في مجتمعٍ جاهليٍّ بكلِّ ما تحمله كلمة جاهلي من معنى، حين غابت شمس الرسالة الإلهية، ونسي الناس الوحي الذي جاء في رسالات الرسل السابقة، ولحق التحريف تلك الكتب السماوية، وبدأ الناس يعيشون في الظلام الدامس، فلا كتاب يُنقذهم مما هم فيه، ولا شريعة تُنير لهم الطريق، وتُهذب لهم الأخلاق، فلما بعث الله نبينا محمدًا ﷺ وأوحى إليه القرآن الكريم أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وحرر العباد من عبادة غير الله تعالى إلى عبادة الله تعالى وحده، وربط العقول ببارئها، وعلق النفوس بمنشئها بعدما كانت متعلقة بمظاهر الكون؛ حيث كانت عبادة الأصنام شائعة في مجتمع الجاهلية، فهدى الله بالقرآن أولئك الأقوام الذين وصفنا حالهم إلى التوحيد الخالص، ونبذ الشرك ووسائله حتى هربت الخرافة تجر أذيال الهزيمة خوفًا من أنوار التوحيد الساطعة.

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في تفسير قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾:

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين -جل وعلا- يهدي للتي هي أقوم، أي الطريقة التي هي أشد وأعدل وأصوب، وهذه الآية الكريمة أجمل الله فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم

لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، ولكننا -إن شاء الله تعالى- سنذكر جُملًا وافرةً من جهات مختلفة كثيرة من هدي القرآن للتي هي أقوم بيانًا لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة؛ تنبيهًا لبعضه على كلِّه من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام لقصور إدراكهم على معرفة حِكمها البالغة.

فمن ذلك: توحيد الله -جل وعلا- فقد هدى القرآن فيه للتي هي أقوم الطرق وأعدلها، وهي توحيده -جل وعلا- في ربوبيته، وفي عبادته، وفي أسمائه وصفاته، وقد دلَّ استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته:

وهذا النوع من التوحيد جُبلت عليه فِطر العقلاء، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ الآية [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] تجاهل من عارف أنه عبدٌ مربوب بدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢] لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًّا.

الثاني: توحيده -جل وعلا- في عبادته:

وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى لا إله إلا الله، وهي متركبة من نفي وإثبات، فمعنى النفي فيها خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما

كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت، ومعنى الإثبات منها إفراد الله -جل وعلا- وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله -عليهم الصلاة والسلام- وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]. فقد أُمِرَ في هذه الآية الكريمة أن يقول: إنما أوحي إلي محصور في هذا النوع من التوحيد؛ لشمول كلمة لا إله إلا الله لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده، فيشمل ذلك جميع العقائد، والأوامر، والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث: توحيده -جل وعلا- في أسمائه وصفاته:

وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

الأصل الأول: تنزيه الله -جل وعلا- عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١].

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته -جل وعلا- على وجوب توحيده في عبادته ؛ ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه المستحق لأن يُعبد وحده، ووبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده ؛ لأن مَن اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١]، فلما أقروا بربوبيته وبّخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله تعالى: ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾. انتهى كلامه رحمه الله.

ب- هدايته لأقوم الشرائع:

نزل القرآن الكريم خاتمة للكتب السماوية، فلا كتاب بعد القرآن، كما أنه لا نبي بعد الرسول محمد ﷺ، من أجل ذلك جاءت شريعة الإسلام، وافيةً بحاجات البشر؛ لأن نبي الإسلام الخاتم محمدًا ﷺ بعث إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وشريعة الإسلام رسالة خالدة إلى قيام الساعة؛ فلذلك كانت تحتوي على أقوم الشرائع التي تصلح بها حياة المجتمعات في كل عصر وفي كل مصر.

يقول صاحب (مباحث في علوم القرآن): أودع الله في الإنسان كثيرًا من الغرائز التي تعتمل وتؤثر عليه في اتجاهات الحياة، ولئن كان العقل الرشيد يعصم صاحبه من الزلل، فإن النزعات النفسية المنحرفة تطغى على سلطان العقل، ولا يستطيع العقل أن يكبح جماحها في كل حال؛ لهذا كان لا بد لاستقامة الإنسان من تربية خاصة لغرائزه تهذبها وتقودها إلى الخير والفلاح، والإنسان مدني بالطبع، فهو

في حاجة إلى غيره، وغيره في حاجة إليه، وتعاون الإنسان مع أخيه الإنسان ضرورة اجتماعية يفرضها العمران البشري، وكثيرًا ما يَظلم الإنسان أخاه بدافع الأثرة وحب السيطرة، فلو ترك أمر الناس بلا ضابط يحدد علاقاتهم، وينظم أحوال معاشهم، ويصون حقوقهم، ويحفظ حرماتهم- لصار أمرهم فوضى؛ ولذا كان لا بد لأي مجتمع بشري من نظام يحكم زمامه ويحقق العدل بين أفراده، وقد عرفت البشرية في عصور التاريخ ألوانًا مختلفةً من المذاهب والنظريات، والنظم والتشريعات التي تستهدف سعادة الفرد في مجتمعٍ فاضلٍ، ولكن واحدًا منها لم يبلغ من الروعة والإجلال مبلغ القرآن في إعجازه التشريعي.

إن القرآن يبدأ بتربية الفرد؛ لأنه لبنةُ المجتمع، ويقيم تربيته على تحرير وجدانه وتحمله التبعية، يحرر القرآن وجدان المسلم بعقيدة التوحيد الذي يخلصه من سلطان الخرافة والوهم، وإذا صحت عقيدة المسلم كان عليه أن يأخذ بشرائع القرآن في الفرائض والعبادات، وكل عبادة مفروضة يُراد بها صلاح الفرد، ولكنها مع ذلك ذات علاقة بصلاح الجماعة، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والجماعة واجبةٌ -على الرأي الراجح- إلا لعذر، وهي شرط في الجُمعة والعيدين، والذي يصلي منفردًا لا يغيب عن شعوره آصرة القربى بينه وبين الجماعة الإسلامية في أقطار الأرض من شمالٍ إلى جنوبٍ، ومن مشرقٍ إلى مغربٍ؛ لأنه يعلم أنه في تلك اللحظة يتجه وِجْهَةً واحدةً مع كلِّ مسلم على ظهر الأرض، والزكاة تقتلع من النفس جذور الشُّح وعبادة المال والحرص على الدنيا، وهي مصلحة للجماعة، فتقيم دعائم التعاون بين الأغنياء والمحرومين، وتُشعر النفس بتكافل الجماعة شعورًا يخرجها من ضيق الأثرة والانفراد، والحج سياحة تروّض النفس على المشقة، وتفتح بصيرتها على أسرار الله في خلقه، وهو مؤتمر عالمي يجتمع فيه المسلمون على صعيدٍ واحدٍ فيتعارفون ويتشاورون،

والصيام ضبط النفس وشحذٌ لعزيمتها، وتقوية للإرادة، وحبس للشهوات، وهو مظهر اجتماعي يعيش فيه المسلمون شهرًا كاملًا على نظام واحد في طعامهم كما تعيش الأسرة في البيت الواحد، وقرر القرآن العلاقات الدولية في الحرب والسِّلم بين المسلمين وجيرانهم أو معاهديهم، وهي أرفع معاملة عُرِفَتْ في عصور الحضارة الإنسانية.

وخلاصة القول: أن القرآن دستورٌ تشريعيٌّ كاملٌ يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة، وأرقى مثال، وسيظل إعجازه التشريعي قرينًا لإعجازه العلمي وإعجازه اللغوي إلى الأبد، ولا يستطيع أحدٌ أن يُنكر أنه أحدث في العالم أثرًا غيّر وجه التاريخ. انتهى كلامه.

إذًا لم تعرف البشرية -على مر التاريخ- تشريعًا يفي بجميع حاجات البشر مثلما عرفته في شريعة الإسلام ونظامه الاجتماعي، وهذا قد شهد به المنصفون من عقلاء الغرب وأتباع الديانات الأخرى، ولو أخذنا مثالًا واحدًا على كمال شريعة الإسلام وهدايته لأقوم الشرائع لاتضح لنا جليًّا قيمة هذه الشريعة وسمو هدفها؛ لأن الله تعالى هو المُشرّع لها على لسان نبيه ﷺ من خلال الوحي الذي نزل به جبريل # على رسول الهدى محمد ﷺ، وليكن هذا المثال هو تشريع القصاص من القاتل عمدًا للنفس البريئة من غير وجه حق؛ حيث إن الإسلام شرع قتل القاتل عمدًا قصاصًا منه إذا لم يرغب الورثة في أخذ الدية، فقد شرع الإسلام للورثة الأخذ بحق الميت في القصاص من قاتله، وهذا قمةٌ في العدالة وإحقاق الحق، بينما نجد أن القوانين الوضعية رفضت القتل، وقالت: إن في القصاص إفناء للمجتمع، فبدلًا من موت واحد يموت اثنان، هذا في اعتقادهم، ولم يدروا أن السر في القصاص يمنع القتل نهائيًّا؛ لأن مَن يعلم أن مصيره القتل

إذا قتل غيره لا بد أن يمسك عن القتل، وهذا يعتبر حياة للاثنين، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فهو حياة للقاتل بحيث سيمتنع مثله عن القتل العمد، وحياة للمقتول بحيث سيَرْتعِد القتلة عن قتل غيرهم؛ فتشيع الحياة في المجتمع ويقل القتل بين أفراده، وهذا حفظٌ لجميع أفراد الجنس البشري من القتل، وحياةٌ لهم عكس ما ظنه مسنو القوانين الوضعية.

نعم، وقس على ذلك بقية تشريعات الإسلام، فقطع يد السارق تقلل من السرقة، وتحفظ لأفراده حقوقهم وممتلكاتهم من عبث السُّراق العابثين، وكذلك بقية الجنايات، ففي شريعة الإسلام العين بالعين، والسن بالسن، والأذن بالأذن، والجروح القصاص.

ثم إن هذه العقوبات تطبق على الكبير والصغير، والشريف والوضيع، كما قال ﷺ: ((لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))، إلى غير ذلك من التشريعات الربانية والهدايات الإلهية التي لو طبقتها الإنسانية الحائرة اليوم لنجحت في علاج مشكلاتها الاجتماعية المعقدة المعاصرة.

ج- هيمنة القرآن على الكتب السابقة:

بعث الله تعالى نبيه موسى # وأنزل عليه التوراة فحرفها قومه، وبدّلوا وغيّروا حتى أصبحت التوراة غير التوراة، وبعث الله تعالى نبيه عيسى # وأنزل عليه كتابه الإنجيل فحُرِّفَ كما حُرِّفَتْ التوراة، وبُدِّلَ كما بُدِّلَتْ حتى أصبح الإنجيل غير الإنجيل، وبعث الله تعالى أنبياء آخرين وأنزل معهم الكتب ولم تسلم مما أصاب أمثالها إلا القرآن الكريم؛ فقد تكفل الله ﷻ بحفظه، ولم يَكِل حفظه إلى غيره سبحانه من المخلوقات، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

بل جعل الله ﷻ القرآن الكريم مهيمنًا على الكتب السابقة: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، فجاء القرآن بالعقيدة الإسلامية التي اتفق عليها الأنبياء كلُّهم صافيةً نقيةً؛ ليكون ما جاء به القرآن حُجة على الناس، وشاهدًا على تحريف الأمم السابقة لما نزل عليهم من الكتب، ومصححًا لأغلاطهم، وفاضحًا لأباطيلهم: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ [النساء: ١٧١].

ورد على اليهود فريتهم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]، وذلك بقولهم: إن الله ﷻ لما خلق السموات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع، ورد على الفريقين - اليهود والنصارى- عقيدتهم الباطلة: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ [التوبة: ٣٠].

يقول الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- في كتابه (أعلام السنة المنشورة):

قال أهل التفسير: مهيمنًا: مؤتمنًا، وشاهدًا على ما قبله من الكتب، ومصدقًا لها، يعني يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير؛ ولهذا يخضع له كلُّ متمسك بالكتب

المتقدمة ممن لم ينقلب على عقبيه، كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٢، ٥٣] وغير ذلك. انتهى كلامه -رحمه الله.

فهداية القرآن التي هي أقوم، معناها: أنه يهدي للتي هي أقوم من هدي كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [السجدة: ٢٣]، ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان، لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكًا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضًا أو تحذيرًا، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى، وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة.

وهذا وصف إجمالي بمعنى هدايته إلى التي هي أقوم لو أريد تفصيله لاقتضى أسفارًا، وحسبك مثالًا لذلك أساليب القرآن في سد مسالك الشرك، بحيث سلمت هذه الآية في جميع أطوارها من التخليط بين التقديس البشري وبين التمجيد الإلهي، فلم تنزل إلى حضيض الشرك بحال، فمحل التفصيل هو وسائل الوصول إلى الغاية من الحق والصدق، وليس محل التفصيل تلك الغاية حتى يقال: إن الحق لا يتفاوت. فكلُّ حقٍّ وصدقٍ وُصِفَتْ به الكتب السابقة قبل تحريفها وتبديلها قد حواه القرآن الكريم؛ لأنه خاتمة الكتب السماوية، ولأنه نسخ تلك الكتب السابقة، فكان طبيعيًّا أن يهيمن على ما في الكتب السابقة من صدقٍ وهدى، ولأنه شريعة الناس السماوية إلى قيام الساعة، فلا كتاب بعد القرآن، من أجل ذلك كله كان ناسخًا لما تقدمه، ومغنيًا عنه، ومهيمنًا عليه.

الإيمان بالرسل (١)

عناصر الدرس

إرسال الرسل وبعث الأنبياء رحمة من الله بالناس، ودعوة الرسل أممهم للتوحيد مع بيان كيفية الوحي وأنواعه

١- حاجة الناس إلى بعث الأنبياء وإرسال الرسل:

تنبع حاجة الإنسان إلى بعثة الرسل من طبيعته البشرية التي فُطِرَ عليها؛ لأن هذا الإنسان من أعظم المخلوقات شأنًا، فقد رزقه الله قوةً عقليةً ميّزته عن سائر المخلوقات الأرضية، ومكنته من تسخير الجماد -في معظم الأحيان- حيث يشاء، إلا أن قدرات هذا الإنسان محدودة النطاق، وتوجيهها نحو الاتجاه السليم الذي يرضاه رب الأرض والسموات والآفاق لا يتأتى إلا بتوجيهٍ من الرسل الذين يبعثهم الله واسطةً بينه وبين هذا الإنسان؛ ليوقظوه من وحل الوثنيات التي سقط فيها كثيرٌ من الأمم قبل بزوغ شمس الرسالة الإلهية؛ وليأخذوا بيده إلى الصراط المستقيم، ويعرفوه كيف يعبد ربه العبادة الصحيحة؛ فتصبح لقدراته التي وهبه الله تعالى مع توجيه الرسل نتائجها السليمة.

يقول الإمام الماوردي -رحمه الله-:

"لما أراده الله من كرامة العاقل، وتشريف أفعاله، واستقامة أحواله، وانتظام مصالحه، حين هيأه للحكمة، وطبعه على المعرفة؛ ليجعله حكيمًا وبالعواقب عليمًا؛ لأن الناس بنظرهم لا يدركون مصالحهم بأنفسهم، ولا يشعرون بعواقب أمورهم بغرائزهم، ولا ينزجرون مع اختلاف أهوائهم دون أن يَرِدَ عليهم آداب المرسلين، وأخبار القرون الماضين، فتكون آداب الله فيهم مستعملة، وحدوده فيهم متبعة، وأوامره فيهم ممتثلة، ووعده ووعيده فيهم زاجرًا، وقصص مَن

غدر من الأمم واعظًا، فإن الأخبار العجيبة إذا طرقت الأسماع، والمعاني الغريبة إذا أيقظت الأذهان؛ استمدتها العقول، فزاد علمها وصح فهمها، وأكثر الناس سماعًا أكثرهم خواطرَ، وأكثرهم خواطرَ أكثرهم تَفَكْرًا، وأكثرهم تَفَكْرًا أكثرهم علمًا، وأكثرهم علمًا أكثرهم عملًا، فلم يوجد عن بعثة الرسل معدل ولا منهم في انتظام الحق بدل". انتهى كلامه -رحمه الله.

ومن هنا يظهر بجلاء حاجة الناس إلى بعثة الرسل وإقامة الوسائط، وتتلخص تلك الحاجة في الأوجه التالية:

أولًا: تحقيق عبادة الله تعالى وحده وإخلاص العمل له:

لما كان الغرض من خلق الإنس والجان، وتسخير جنس الحيوان، وإبداع السموات والأرض والأكوان، هو عبادة الله تعالى وحده، ومعرفته بأسمائه وصفاته، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والحذر من الوقوع في الشرك، وتلبث البدع، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: ٣٦].

ولما كان العقل البشري قاصرًا عن إدراك ما ينفعه، والإحاطة بمعرفة ماهية ما يضره بكل وجه وعلى الحقيقة- كان لا بد من الحاجة إلى تعاليم الرسل، وتوجيهات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فهي التي عن طريقها يعرف المرء كيف يعبد الله تعالى على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، لما كان الأمر كذلك، فإن هذا الغرض النبيل، وهذه الغاية السامية لا تتم ولا تحصل إلا بإرسال الرسل وسائط من الله تعالى إلى خلقه، فكان من حكمة الله تعالى ورحمته أن أنزل كتبًا وأرسل رسلًا مبشرين ومنذرين، واتفقت كلمتهم أجمعين على أمر أممهم بعبادة

الله تعالى وحده، والكفر بعبادة ما سواه من مظاهر الكون التي وقع فيها الإنسان حينما غابت عنه شمس الرسالة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقد حققت الرسالة المحمدية -وهي خاتمة الرسالات- هذه الغاية السامية حينما دعت إلى تحرير الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى سعة الإسلام ورحمته.

ثانيًا: إقامة الحجة على الخلائق:

فالله ﷻ حكيمٌ يضع الأمور في مواضعها، عليمٌ بأحوال عباده، فلو لم يبعث الواسطة من الرسل، ويُنزِل الشرائع في الكتب توضح المحجة، والصراط المستقيم، وتقيم الحجة، وتقطع الشبهة؛ لحسبت الأمم أن لها بين يدي حساب الله تعالى حجةً سائغةً، ومعذرةً مقبولةً، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤].

لقد قطع الله هذه الشبهة من أساسها بإرسال الرسل، وبعثة الأنبياء من أولهم آدم إلى خاتمهم محمد -عليهم الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]؛ لذلك قضى الله وهو أحكم الحاكمين أن لا يعذب أمةً لم تشرق عليها شمس الرسالة، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

فمن حكمة الله تعالى ورحمته وعدالته أن لا يعذب أحدًا من خلقه إلا بعد الإعذار إليه، وإرسال الرسل إليه، وقيام الحجة عليه.

ثالثًا: تعريف الناس بالعالم الغيبي، وما أعده الله للمؤمنين به من جنانه وللكافرين به من نيرانه:

تظل العقول والأفهام في درك القصور عن استطلاع ما وراء هذا الكون المادي المحسوس من عالم الغيب حتى تأتيها رسالة الله تدعوها للإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وترسيخ عقيدة القضاء والقدر، والإيمان بحقيقة الجنة والنار، والوقوف بين يدي العزيز الجبار؛ لتتنافس على ما اكتسبت من خير أو شر في دار العمل؛ لتجزى على عمل الخير بالخير والشر بالشر في دار الجزاء والمحاسبة.

وقد مدح الله ﷻ أتباع الرسل الذين يصدقون رسلهم فيما يخبرونهم به من أنباء الغيب، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٢-٥].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

"فبالرسول عُرِفَتْ أسماءُ الله تعالى وصفاتُه، وما يستحقُه من الأسماء الحسنى والصفات العلا، تارة بما بيّنه من الأمثال التي هي مقاييس عقلية، وتارة بما يُخبر به من الأنباء الصادقة النبوية، وتارة بما يقصه عن الأنبياء الذين هم خير البرية، وبه عُرِفَتْ الملائكة والنبيون والجنة والنار، وقصص الأنبياء، وأخبار الدنيا وملاحمها وفتنها، وأشراط الساعة وعلاماتها وأخبار القيامة وتفاصيلها، وغير ذلك". انتهى كلامه.

وعمومًا، فإن أمور الغيب المتعلقة بالله وملائكته وكتبه وأمور الآخرة وتفاصيلها والجنة والنار؛ كل ذلك طريق معرفته متوقفٌ على تعاليم الرسل وبعثتهم.

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-:

"فمن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك، وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرِّفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها". انتهى كلامه.

رابعًا: القدوة الصالحة والأسوة الحسنة:

لقد اصطفى الله سبحانه رسله -عليهم السلام- من بين أممهم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥]، وأدبهم تأديبًا رائعًا؛ فسمو إلى ذرا الأخلاق، وترفعوا عن الأطماع الدنيئة، والشهوات المحرمة الرديئة، وتحلوا بأفضل الكمالات الخلقية بأعلى مستوياتها رغم بشريتهم، فكانوا بذلك قدوةً حسنةً للناس؛ يقتدون بهم ويحذون حذوهم، قال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ولا شك أن نبينا محمدًا ﷺ قد ضرب الله به أروع المثل للقدوة الحسنة بما أتاه الله من الأخلاق الحميدة والصفات الكريمة، حتى وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]؛ ولهذا لما سئلت أم المؤمنين عائشة > عن خلق النبي ﷺ قالت: ((كان خلقه القرآن)) لأنه ﷺ أدبه ربه فأحسن تأديبه، حتى كان مثالًا فريدًا للأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، وكان متمثلًا لما يأتي به من تعاليم في القرآن الكريم، ولقد أحسن القائل:

نبي عظيم خلقه الخلق الذي له ❖ عظم الرحمن في سيد الكتب

خامسًا: جمع الأمة على دين واحد ورجل واحد:

لأن انقياد الناس لما يشاهدونه من الآيات المؤيدة للأنبياء أسرع وأقوى وأشد تماسكًا، فإنهم يجتمعون عليه بقناعةٍ من أنفسهم، وعقيدة راسخة، وإيمانٍ ثابت؛ فيحصل بذلك الصلاح والإصلاح، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فلو لم يكن الرسول يجمع شمل الأمة التي أرسل إليهم بعد التفرق ويوحدهم على الدين الجديد بعد الاختلاف لما قامت للدعوة قائمة، ولما وصلت الرسالة إلى الناس كما ينبغي.

٢- الرسل هم الواسطة بين الله تعالى وخلقه:

من سنة الله تعالى أن يختار للرسالة من يصطفيه من الملائكة، ومن البشر قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥]، لذلك نجد أن هؤلاء الرسل الذين بعثهم الله تعالى واسطة بينه وبين خلقه لهداية الناس، وتبليغ الحق إلى المرسل إليهم هم صفوة الخلق، وأن هؤلاء الرسل بلغوا ذروة الكمال البشري في خلقهم وأخلاقهم، وفي أحسابهم وأنسابهم، وقد اصطفاهم الله تعالى وخصهم بهذه الصفات، وهيأهم بها؛ لتحمل أعباء الرسالات السماوية، وكانوا جميعًا على هذا المنوال من لدن أولهم آدم ﷺ إلى خاتمهم محمدٍ ﷺ.

واقتضت حكمة الله تعالى في الأمم الماضية أن يبعث كل رسول إلى أمته خاصة، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، ولم يبعث الله تعالى رسولًا للبشرية كافة إلا خاتم النبيين محمدًا ﷺ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨].

فهؤلاء الرسل الذين مرت مواكبهم مع الأمم على مر العصور كانت كواكب تضيء للأمم دياجير الظلام، فكان الواسطة البشري يتلقى الوحي من الواسطة الملكي؛ لينشر النور والوحي بين الناس، وليخرجهم من الظلمات إلى النور، وكان الملك الموكل بالوحي إلى الرسل الواسطة هو جبريل # قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [البقرة: ٩٧].

كما ثبتت وساطة جبريل # بين الله تعالى ورسله في السنة، فقد روى الإمام أبو داود -رحمه الله- وغيره من حديث النواس بن سمعان > أن النبي ﷺ قال: ((إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة -أو قال: رعدة شديدة- خوفًا من الله ﷻ فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل؛ فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء يسأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق، وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ﷻ)).

فإذًا، يتلقى الواسطة الملكي الوحي من الرب -جل وعلا- فيوحي به إلى الواسطة من البشر -وهم الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- بعد اختيار الله تعالى للواسطة البشري من أرفع الناس، وأفضل الناس، وأكرم الناس، ثم يكون هذا الرسول الواسطة يتلقى الأمر من السماء؛ ليحل مشكلات أمته، ويوجه قومه إلى عبادة الله تعالى وحده على الوجه الذي يرضي الرب ﷻ وقد تمت النعمة ببعثة آخر هؤلاء الرسل، وكان واسطة بين الله تعالى وجميع الخلق، ألا هو خاتم النبيين محمد ﷺ فهو الطريق الوحيدة الموصلة إلى رضوان الله تعالى

ورحمته، ومن التمس طريقًا بأي واسطةٍ مزعومة غير سنته ﷺ فقد ضل الطريق، ولم يصل لمبتغاه.

٣- ضرورة الخلق إلى الرسالة:

لا شك أن النبوة اصطفاء من الله تعالى، فالله تعالى يختار من عباده من يرسله إلى خلقه؛ ليكون بشيرًا ونذيرًا من الله تعالى إلى الخلق، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، والناس لولا عناية الله تعالى بهم، وبعثته إليهم الأنبياء والرسل، لظلوا في الجاهلية الجهلاء والضلال البعيد، وكانوا كالبهائم والأنعام من دون شمس الرسالة، فالخلق مضطرون للرسالة السماوية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -:

"الرسالة ضرورية للعباد، ولا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمةٍ وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في ظلمات الكفر". انتهى كلامه.

وفي موضعٍ آخر يبين شيخ الإسلام أن الإنسان في حاجة إلى الرسالة السماوية ليس فقط لإصلاح آخرته والتزود لها فحسب، وإنما هو محتاج لها أيضًا لإصلاح

معاشه وجميع شئونه في دنياه، وأن تمييز الإنسان بين النافع والضار بعقله لا يكفي لتسيير شئونه في حياته كلها، فإن هذا القدر من التمييز تشترك فيه معه العجماوات.

ويقول أيضًا:

"الرسالة ضرورية في صلاح العبد في معاشه ومعاده، فلما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فالإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركةٍ يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، فهو نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمنًا، وليس المراد بالشرع التمييز بين النافع والضار بالحس، فإن ذلك يحصل للحيوانات العُجْمِ، فإن الحمار والجمل يفرق ويميز بين الشعير والتراب، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منته عليهم أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام، وأشر حالًا منها، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو خير البرية، ومن ردها وخرج عنها فهو شر البرية، وأسوأ حالًا من الكلب والخنزير، وأحقر من كل حقير". انتهى كلامه.

ويقول العلامة ابن القيم - رحمه الله -:

"ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله ألبتة إلا على أيديهم، فالطيب

من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجةٍ فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبه، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل، كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي:

ما لِجَرحٍ بمَيتٍ إيلامُ

انتهى كلامه -رحمه الله.

وجملة القول: إن ضرورة العبد إلى إرسال الرسل وبعث الأنبياء تفوق كل ضرورات العبد التي بها تستقيم حياته؛ فتفوق الطعام والشراب وكل ملذات الدنيا؛ لأن العبد ينشد السعادة، ولا سعادة إلا باتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام.

٤- الغايةُ والهدفُ الأسمى من إرسال الرسل: دعوةُ الناس إلى عبادة الله:

لقد خلق الله تعالى الخلق لعبادته وللانقياد لطاعته، فلم يخلقهم سدى، ولم يتركهم هملًا، وإنما خلقهم ربهم -تبارك وتعالى- لهذه الغاية الواضحة، والهدف النّبيل قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

يقول الإمام أبي جرير الطبري -رحمه الله-:

اختلف أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] فقال بعضهم: معنى ذلك وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي، والأشقياء منهم لمعصيتي".

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما خلقتُ الجن والأنس إلا ليذعنوا لي بالعبودية، ثم قال: وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وهو ما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا، فإن قال قائل: فكيف كفروا، وقد خلقهم للتذلل لأمره.. إنهم قد تذلّلوا لقضائه الذي قضاه عليهم؟ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون من الامتناع منه إذا نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه". انتهى كلام الطبري، رحمه الله.

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

قيل: إن هذا خاصّ فيمن سبق في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص، والمعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون". قال القشيري: والآية دخلها التخصيص عن القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أُمروا بالعبادة، حتى يقال: أراد منهم العبادة. وقال عكرمة: "إلا ليعبدون، ويطيعون؛ فأُثيب العابد وأعاقب الجاحد وقيل: المعنى إلا لأستعبدهم، والمعنى متقارب تقول: عبد بيّن العبودة والعبودة، وأصل العبودية الخضوع والذّلّ، والتعبيد، والتذليل". انتهى كلام القرطبي -رحمه الله.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

الوجه الثاني: أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له؛ فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تَقَرّ عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحبّ إليهم من النظر إليه. ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان

به، وحاجتهم إليه في عبادتهم إيّاه وتألههم- كحاجتهم وأعظم في خلقه هي لهم وربوبيته إياهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عابدين متحركين، ولا صلاح لهم، ولا فلاح، ولا نعيم، ولا لذة بدون ذلك بحالٍ، بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات، وكان التوحيد بقول: لا "إله إلا الله" رأس الأمر. انتهى كلامه.

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- :

"هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمّنة لمعرفته، ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عمّا سواه، وذلك يتضمّن معرفته تعالى، فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربة كانت عبادته أكمل. فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم". انتهى كلامه.

ويقول الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- في منظومته:

أعلم بأن الله جل وعلا ❖ لم يترك الخلق سدى وهملًا
بل خلق الخلق ليعبدوه ❖ وبالإلـــــــهيّة يُفـــــردوه

ثم شرح الحكمي -رحمه الله- هاذين البيتين بقوله:

"لم يترك الخلق سدى ولا هملًا" أي: لا يأمرهم ولا ينهاهم في الدنيا، ولا يبعثهم فيجازيهم في الآخرة؛ لأنه تعالى ما خلقهم إلا بالحق، لا عبثًا ولا باطلًا؛ بل

الحكمة بالغة يستحق عليها الحمد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]. ربنا ما خلقت هذا أي: الخلق باطلًا، لا، بل بالحق، فيجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ثم نزّهوه عن العمل، وخلق الباطل فقالوا: سبحانك أي: على أن تخلق شيئًا باطلًا تباركت وتعاليت، وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ٣، ٤] يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي، وهو السموات بما حوت، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث.

ثم نزّه تعالى نفسه عن الشرك من عبد معه غيره، وهو المستقلّ بالخلق وحده لا شريك له؛ فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ثم نبّه تعالى على خلق جنس الإنسان من نطفة، أي: مهينة ضعيفة، فلما استقلّ ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويُحارب رسله، وهو إنما خُلق ليكون عبدًا لا ضدًّا قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أي: لا تعودون في الدار الآخرة، لا، ليس الأمر كذلك إنما خلقناكم للعبادة، وإقامة أوامر الله ﷻ، ثم نبعثكم ليوم لا ريب فيه، فنجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وهذا بقوله تعالى لأهل النار توبيخًا وتقريعًا وتبكيتًا بعدما رأوا الحقائق عين اليقين، ثم قال تعالى منزهًا نفسه عما حسبوه: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون: ١١٦] أي: تقدس أن يخلق شيئًا عبثًا، فإنه الملك الحق المنزّه عن ذلك، لا إله إلا هو رب العرش الكريم". انتهى كلامه، رحمه الله.

فثبت بجملة هذه الآيات وما نقلته من كلام هؤلاء المفسرين والعلماء المحقّقين أن الله تعالى لم يخلق الخلق في هذه الدار عبثًا، ولم يتركهم سدًى، وإنما خلقهم لهدف واضح، وغاية وضحتها الرسالات السماوية، هذه الغاية هي عبادة الله تعالى وحده، وإخلاص العمل لوجهه، ﷻ.

٥- الدعوة إلى التوحيد من أهم دعوات الرسل:

أرسل الله تعالى طوائف من الأنبياء والرسل بعد أن اصطفاهم من بين أممهم؛ ليحملوا مشعل الهداية والنور إلى البشرية جمعاء، وكانت تلك التوجيهات في مجال العقيدة، والشريعة، والأخلاق، والمبادئ النبيلة؛ فعالجوا قضايا مجتمعاتهم من جميع النواحي، وركّز كلّ رسول في رسالته على القضية المشهورة المنتشرة في مجتمعه، فنبيّ الله تعالى موسى عالج قضية ادّعاء فرعون للربوبية، وطغيانه واستعباده لبني إسرائيل، كما عالج أيضًا انتشار السحر في مجتمعه، ونبيّ الله شعيب عالج تفشي تطفيف المكيال والميزان، ونبيُّ الله لوط عالج تفشي مرض اللواط في مجتمعه، ونبي الله ورسوله الخاتم محمدٌ ﷺ عالج قضية القضايا، وأمّ المشاكل إلا وهي قضية انتشار عبادة الأصنام، والتماثيل، وفشوّ الشرك.

لكن الملاحظ أن جميع هؤلاء الأنبياء والرسل لم يُغفلوا قضية التوحيد، فكانوا يناقشون تلك المشاكل الاجتماعية مع الاهتمام بالقضية الكبرى، وهي الدعوة إلى التوحيد، وعبادة الله تعالى وحده؛ لأن التوحيد وعبادة الله تعالى وحده هي أول واجب على المكلّف.

يقول الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- في (أعلام السنة المنشورة):

أول ما يجب على العباد معرفة الأمر الذي خلقهم الله له، وأخذ عليهم الميثاق بهم وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدنيا

والآخرة والجنة والنار، وبه حقّت الحاقة، ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين، وتتطاير الصحف، وفيه تكون الشقاوة والسعادة، وعلى حسبه تقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]" انتهى.

ويقول الشيخ الحكمي أيضًا في (معارج القبول):

أول واجب على العبيد	❖	معرفة الرحمن بالتوحيد
إذ هو من كل الأوامر أعظم	❖	وهو نوعان أيا من يفهم
إثبات ذات الرب جل وعلا	❖	أسماءه الحسنى صفاته العلى
وأنه الرب الجليل الأكبر	❖	الخالق البارئ والمصور
باري البرايا منشئ الخلائق	❖	مبدعهم بلا مثال سابق

انتهى كلامه.

ويقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-:

"اعلمْ أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقال هودٌ # لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال صالحٌ # لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال ﷺ: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله))

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا

النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يُؤمن به العبد الشهادتان". انتهى كلامه.

فأول قضية تعالجها الرسالات السماوية، وهي زبدة دعوات الرسول -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- بأن التوحيد هو أول الدين وآخره، باطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها، ولأجله خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكافرين؛ فأول أمر في القرآن كان بالتوحيد، ودعوة أول رسول كانت إلى التوحيد بعد حدوث الشرك.

٦- النهي عن الشرك من أهم أهداف دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-:

لا شك أن هذا الكلام قريب الصّلة بالذي قبله؛ لأن الأمر بالتوحيد يُقابله النهي عن الشرك، فكلاهما نتيجةٌ للآخر، فمتى انتهى المرء عن الوقوع في الشرك فقد أراد التوحيد، إلا أن المقصود هنا التركيز على اهتمام أنبياء الله تعالى ورسله ببيان الشرك ووسائله لأممهم، والتحذير من ذلك لأن الشرك محبطٌ للأعمال، وموقع في الأوحال، وهو أنواع، فمنه أنواع خفية قد يقع فيها المرء من حيث لا يشعر؛ فلذلك اهتمّ أنبياء الله تعالى ورسله -عليهم الصلاة والسلام- في دعوات أممهم إلى الخوف من الشرك، وتحذيرهم من جميع أنواع الشرك والبدع، وكل ما يخدش التوحيد الخالص قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. وجمع الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك في قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - :

"يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك لـه، وهـو الـدخول تحت رقّ عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلًّا، وإخلاصًـا لـه في جميع العبادات الظاهرة والباطنة، وينهى عن الشرك به لا شرك أصغر ولا أكبر، لا ملكًا ولا نبيًّا ولا وليًّا ولا غيره من المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن لـه الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يُشركه، ولا يُعينه عليه أحد. انتهى كلامه.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]

ولخطورة الشرك، فإن الأنبياء اهتمّوا بتحذير أممهم منه، وبيان نتائجه الوخيمة. فهذا خليل الله تعالى إبراهيم يدعو كما أخبر الله عنه بقوله: ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - :

ووجه كونه عظيمًا أنه لا أفظع وأبشع مما سوَّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئًا بمن له الأمر كله، وسوَّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بربه. وهل أعظم ظلمًا ممّن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أخسِّ الأحوال. جعلها عابدة لمن لا يساوي شيئًا فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا"، انتهى كلامه.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

"اعلم -رحمك الله- أن الشرك بالله أعظم ذنبٍ عُصي الله به قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ١١٦]، وفي الصحيحين أنه ﷺ سُئل: أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك)) والندّ: المثل، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] فمن جعل لله ندًّا من خلقه فيما يستحقّه ﷻ من الإلهية فالربوبية؛ فقد كفر بإجماع الأمة، فإذا تقرّر هذا فالشرك إن كان شركًا يكفر به صاحبه، وهو نوعان شرك في الإلهية، وشرك في الربوبية.

فإما الشرك في الإلهية فهو أن يجعل لله ندًّا أي: مثلًا في عبادته، أو محبته، أو خوفه، أو رجائه، أو إنابته فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ مشركي العرب؛ لأنهم أشركوا في الإلهية". انتهى كلامه.

فالنهي عن الشرك بأنواعه ووسائله المؤدية إليه من أهمّ ما وضّحته الرسل - عليهم الصلاة والسلام- لأممهم، ولما جاءت رسالة الإسلام خاتمة الرسالات تمّت في بيان هذا الأمر أتمّ بيان، وركزت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على توضيح الشرك وأنواعه، وخطورته، أنه لا يغفره إلا لمن تاب، وأنه لا يغفره لمن مات عليه، حتى يصبح الدين خالصًا لله تعالى.

ومما يوضح ذلك أيضًا أن عهد الدعوة النبوية في فترة مكة، قضى رسول الله ﷺ هناك في مكة عشر سنين وهو يدعو إلى التوحيد، وينهى عن الشرك، وذلك في مكة قبل أن يهاجر ﷺ إلى المدينة، فهذا يدل على اهتمام الرسول -صلوات الله وسلامه عليهم- ببيان التوحيد والدعوة إليه، وبيان ضدّه وهو الشرك والنهي عنه.

ولهذا حذر النبي ﷺ الأمة من الشرك الأصغر لخفائه ففي الحديث: ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)) فسئل عنه فقال: ((الرياء)) رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي.

يقول سليمان بن عبد الله آل الشيخ - رحمه الله - :

لما كان الشرك أعظم ذنبٍ عُصي الله به، ولهذا رتّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه بإباحة دماء أهله، وأموالهم، وسبي نسائهم، وأولادهم، وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة- نبّه المصنف - رحمه الله- بهذه الترجمة على أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه ويحذره، ويعرف أسبابه ومبادئه وأنواعه؛ لئلا يقع فيه". انتهى كلامه -رحمه الله.

٧- الوحي: أنواعه، وكيفيته

تعريف الوحي:

الوحي لغة: الإعلام في خفاء، تقول: أوحى إليه، وأوحى عليه، بمعنى، ومن معانيه الكتابة، والإلهام، والأمر، والإيماء، والإشارة، والتصويت شيئًا بعد شيء، وقيل: الوحي: التّفهيم، وكل ما أفهمته غيرك؛ سواء كان بكلام، أو كتابة، أو قولٍ، أو إثارةٍ، أو رسالة فهو وحي.

قال الرازي - رحمه الله - في كتابه (مختار الصحاح):

الوحي الكتاب، وجمعه وُحُيّ بهم مثل حَلْيٍ وحُلُيّ، وهو أيضًا الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفيّ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك يقال:

وُحِيَ إليه الكلام يَحِيهِ وَحْيًا، وأوحى أيضًا وهو أن يكلمه بكلام يُخفيه، ووحى وأوحى أيضًا -أي: كتب، وأوحى الله إلى أنبيائه، وأوحى: أشار، قال الله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ ﴾ [مريم: ١١]، انتهى كلام الإمام الرازي. رحمه الله.

وقال الراغب الأصفهاني في (مفرداته) -رحمه الله- :

أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتدبر السرعة قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجردٍ عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة". انتهى كلامه.

ومن وحي الإيماء بالجوارح قول الشاعر:

نظرت إليها نظرة فتحيّرت ❖ دقائق فكري في بديع صفاتها
فأوحى إليها الطرف أني أحبها ❖ فأثر ذاك الوحي في وجناتها

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ❖ إشارة مذعور ولم تتكلّم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبًا ❖ وأهلًا وسهلًا بالحبيب المتيّم

فمادة كلمة الوحي تدل على معنيين أصليين هما: الخفاء والسرعة، ولهذا اختار صاحب(الوحي المحمدي) تعريفه بقوله: أي: تعريف الوحي: إنه الإعلام الخفي السّريع الخاصّ بمن يُوَجّه إليه؛ بحيث يخفى على غيره"، انتهى كلامه.

والوحي بمعناه اللغوي يتداول المعاني التالية:

أولًا: الإلهام للإنسان كالوحي إلى أمّ موسى -على نبيّنا وعليه السلام- قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧].

الثاني: الإلهام الغريزيّ والتسخير للحيوان: كالوحي إلى النحل قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨].

ثالثًا: الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كإيحاء زكريا -على نبينا وعليه السلام- إلى قومه، قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ١١].

رابعًا: ما يُلقيه الله إلى ملائكته من أمرٍ ليفعلوه قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الأنفال: ١٢].

خامسًا: وسوسة الشيطان وتزيينه الشرّ للإنسان قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وحاصل المعاني للوحي اللغوي: أنه الإعلام في خفاء وسرعة، وهذا أعمّ من أن يكون بإشارة، أو كتابة، أو رسالة، أو إلهام.

والوحي بهذه المعاني لا يختصّ بالأنبياء، ولا بكونه من عند الله ﷻ.

يقول صاحب كتاب (مباحث في علوم القرآن):

"ووحي الله إلى أنبيائه قد عرّفوه بأنه كلام الله تعالى المنزّل على نبيٍّ من أنبيائه، وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول، أي: الموحى". انتهى كلامه.

وأما الوحي في الشرع: فيطلق على الإعلام بالشرع، فيطلق ويراد به المعنى المصدري، كما يُطلق ويراد به الموحي به.

فتعريفه من الجهة الأولى: هو إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم بشرع أو كتاب، بواسطة أو بغير واسطة. فهو أخصّ من المعنى اللغوي، وذلك لخصوص مصدره ومورده فقد خُصّ المصدر بالله ﷻ وخُص المورد بالأنبياء -عليهم

الصلاة والسلام- ويعرف من الجهة الثانية: بأنه ما أنزل الله على أنبيائه، وعرّفهم به من أنباء الغيب، والشرائع، والأحكام؛ فمنهم من أنزل عليه كتابه، ومنهم من لم يُنزلْ عليه كتابه.

وعرفه صاحب كتاب (الرسول والوحي):

بأنه صلة بين الرب ﷻ وبين من يصطفيه من خلقه؛ ليتحمل أمانة التبليغ عند الخالق إلى الخلق". انتهى كلامه.

ويقول صاحب كتاب (مباحث في علوم القرآن):

"ووحي الله إلى أنبيائه قد عرّفوه شرعًا بأنه كلام الله تعالى المنزّل على نبيٍّ من أنبيائه"، وهو تعريفٌ له بمعنى اسم المفعول، أي: الموحى.

وعرفه الأستاذ محمد عبده في (رسالة التوحيد):

بأنه عرفانٌ يجده الشخص من نفسه، مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة، أو بغير واسطة. والأول: بصوت يتمثّل لسمعه، أو بغير صوت، ويُفَرّق بينه وبين الإلهام: بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس، فتنساق إلى ما يُطلب على غير شعور منها، من أين أتى؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش، والحزن والسرور. وهو تعريف للوحي بالمعنى المصدري، وبدايته، وإن كانت توهم شبهه بحديث النفس، أو الكشف، إلا أن الفرق بينه وبين الإلهام الذي جاء في عَجُز التعريف ينفي هذا". انتهى كلامه.

فالوحي هو التعاليم التي تنزل بها الملائكة -عليهم السلام- على الأنبياء والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-، ويدخل في ذلك جميع أنواع الوحي التي مرّتْ معنا.

أنواع الوحي:

لقد بيّن الله تعالى أنواع الوحي في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ [الشورى: ٥١]، فالوحي يأتي على الأحوال التالية:

أ- تكليم الله نبيه بما يريد من وراء حجاب:

كما حصل لموسى –على نبينا وعليه الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، وكما حصل لخاتم النبيين محمدٍ ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.

ب- الإلهام والقذف في القلب:

بأن يُلقي الله أو الملك الموكل بالوحي في قلب النبي ما يُريد، مع تيقّن النبي أن ما أُلقي إليه من قبل الله تعالى. وذلك مثلما ورَد في الحديث أن النبي ﷺ قال: ((إن روح القدس نفث في روعي، أنه لن تموت نفسًا حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)). أخرجه الإمام الشافعي في مسنده، والحاكم في المستدرك، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني. والروع طبعًا المراد به القلب.

ج- الرؤية في المنام:

ورؤيا الأنبياء وحيٌ، وذلك مثل رؤيا إبراهيم الخليل -على نبينا وعليه السلام- أنه يذبح ابنه # ، ورؤيا نبيّنا ﷺ أنه سيدخل المسجد الحرام مع المسلمين.

د- تعليم الله أنبياءه بواسطة أمين الوحي جبريل # :

وهذا التقسيم يُعرف بالوحي الجليل، وقد بيّن الله ﷻ كيفية التلقّي عنه بهذه الأقسام في الآية الآنفة الذكر؛ إذ المراد بالوحي في الآية الإلهام أو المنام، بمقابلته للقسمين الأخيرين التكلّم من وراء حجاب، أو بواسطة ملك.

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر في كتابه (الرسل والرسالات):

"فالمقامات ثلاثة:

الأولى: الإلقاء في رُوع النبي الموحى إليه؛ بحيث لا يمتري النبي في أن هذا الذي ألقي في قلبه من الله تعالى، كما جاء في (صحيح ابن حبان) عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((أن روح القدس نفث في روعي، أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها. فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب))، وذهب ابن الجوزي إلى أن المراد بالوحي في قوله "إلا وحيًا"، الوحي: الوحيُ في المنام.

المقام الثاني: تكليم الله لرسله من وراء حجاب، وذلك كما كلم الله تعالى موسى # وذكر الله ذلك في أكثر من موضعٍ في كتابه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١١- ١٤]، وممّن كلمه الله آدم # : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾ [البقرة: ٣٣]، وكلم الله عبده ورسوله محمدًا ﷺ عندما عُرج به إلى السماء.

المقام الثالث: الوحي إلى الرسول بواسطة الملك: وهذا هو الوحي الذي عناه الله تعالى بقوله: ﴿ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٥١]، وهذا الرسول هو جبريل، وقد يكون غيره، وذلك في أحوال كثيرة". انتهى كلامه.

وقد اختصر صاحب (مباحث في علوم القرآن) أنواع الوحي بقوله:

يوحي الله إلى رسله بواسطة وبغير واسطة؛ فالأول: بواسطة جبريل ملك الوحي، وسيأتي بيانه، والثاني: وهو الذي لا واسطة فيه.

أ- منه الرؤيا الصالحة في المنام:

فعن عائشة < قالت: ((أول ما بدئ به ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)) متفق عليه.

ب- ومنه الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة يقظة:

وهو ثابت لموسى # : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، كما ثبت التكليم عن الأصحّ لرسولنا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج". انتهى كلامه.

كيفية الوحي:

إذا أراد الله تعالى أن يُوحي أمرًا إلى رسوله أمر الملك الموكّل بالوحي، وهو جبريل # بالنزول على الرسول بهذا الأمر؛ فيكون تلقّي الرسول ﷺ لهذا الأمر على أشكال:

منها: أنه قد يأتيه مثل صلصلة الجرس، والصوت القوي، وقد ينفث في روعه، وقد يحسّ الرسول في هذه الحالة بعلامات، مثل: نزول العرق من جسمه الشريف في اليوم البارد، وقد يتغيّر وجهه الشريف ﷺ فيعلم أصحابه } أنه ينزل عليه. وفي هذا النوع من الوحي لا يرى الرسول ﷺ جبريل، # .

ومنها: أن النبي ﷺ قد يرى جبريل # على صورته التي خُلق عليها.

ومنها: أنها قد يراه ويتمثّل له في صورة رجل فيكلّمُه. وبهذه الأشكال ثبت نزول جبريل # على نبينا محمدٍ ﷺ واسطة بينه وبين ربه ﷻ في إبلاغ الوحي.

يقول صاحب (مباحث في علوم القرآن):

"وحيُ الله إلى أنبيائه إما أن يكون بغير واسطة، وهو ما ذكرناه آنفًا، وكان منه الرؤية الصالحة في المنام، والكلام الإلهي من وراء حجاب يقظةً. وإما أن يكون بواسطة ملك الوحي، وهو الذي يعنينا في هذا الموضوع؛ لأن القرآن الكريم نزل به، ولا تخلو كيفية وحي الملك إلى الرسول من إحدى حالتين:

الحالة الأولى: وهي أشدّ على الرسول، أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، والصوت القوي يُثير عوامل الانتباه، فتتهيأ النفس بكل قواها لقبول أثره فإذا نزل الوحي بهذه الصورة على الرسول ﷺ نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكية؛ لتلقيه، وحفظه، وفهمه وقد يكون هذا الصوت حفيف أجنحة الملائكة، وقد يكون صوت الملك نفسه في أول سماع عن رسول الله.

والحالة الثانية: أن يتمثّل له الملك رجلًا، ويأتيه في صورة بشر، وهذه الحالة أخفّ من سابقتها؛ حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع، ويأنس رسول النبوّة عند سماعه من رسول الوحي، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

وكلتا الحالتين مذكور فيما رُوي عن عائشة أم المؤمنين < أن الحارث بن هشام > سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: ((أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ، فيفصم عنّي، وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثّل لي الملك رجلًا، فيكلمني فأعي ما يقول))، وروتْ عائشة > ما كان يُصيب رسول الله ﷺ من شدّة فقالت: ((ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا)) رواه

الإمام البخاري، معنى فيفصم: الفصم الكسر، والمراد الترك أي: يتركه، ومعنى يتفصد الفصد: قطع العرق، وخروج الدم، والمراد هنا خروج العرق.

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكلم الإلهي المشار إليه في الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]. أما النفث في الروع أي: القلب، فقد ذُكر في قول الرسول ﷺ: ((إن روح القدس نفث في روعي -أي قلبي- أنه لن تموت نفسًا حتى تستكمل رزقها وأجلها. فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)).

والحديث لا يدل على أنه حالة مستقلة، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين في حديث عائشة، فيأتيه الملك في مثل الصلصلة، وينفث في روعه، أو يتمثّل له رجل وينفث في روعه وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم". انتهى كلامه.

ويقول الدكتور عمر سليمان الأشقر في كتابه (الرسل والرسالات):

بالتأمّل في النصوص في هذا الموضوع نجد أن للملك ثلاثة أحوال:

الأول: أن يَراه الرسول ﷺ على صورته التي خَلَقه الله عليها، ولم يحدث هذا لرسولنا ﷺ إلا مرتين.

الثاني: أن يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس فيذهب عنه، وقد وعى عنه الرسول ﷺ ما قال.

الثالث: أن يتمثّل له الملك رجلًا فيكلمه، ويخاطبه، ويعي عنه قوله. وهذه أخفّ الأحوال على الرسول ﷺ وقد حدث هذا لجبريل في اللقاء الأول، عندما فاجَأَهُ في غار حراء". انتهى كلامه.

بقي أن نقول ونحن نبيّن كيفية نزول الوحي، وكيفية تلقّي الواسطة البشري للوحي عن طريق الواسطة الملكي؛ أن نقول: إن جبريل # نزل على رسول الله ﷺ وهو -أي جبريل- على صورته التي خُلق عليها مرّتين، إحدى المرّتين عند سِدْرَةِ المنتهى ليلة أُسْرِيَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عُرج به إلى السموات العلى، والأخرى في أجياد بمكة له ستمائة جناح، وقد سَدّ الأفق، وكان ذلك في بدايات الوحي.

أما مجيئه على هيئة رجل يُشاهده الصحابة } فقد ثبت ذلك في حادثتين، أو على صورتين:

الأولى: أن يأتي جبريل على صورة رجل غير معروف، كما في حديث جبريل المشهور في تعريف الإسلام، والإيمان، والإحسان.

والثاني: أن يأتيه على صورة الصحابي الجليل دِحْيَةَ بن خليفة الكلبي < ولعلّ في هاتين الصورتين إيناسًا للمصطفى ﷺ وتمكين الصحابة } في أخذ العلم، والإجابة على تساؤلاتهم فيما يتعلّق بالدين.

الفرق بين النبي والرسول، وبيان بشرية الرسل مع الرد على من اعتقد أن الكون خلق من أجل محمد ﷺ

١- الفرق بين النبي والرسول، وبيان بشريتهما:

أ- تعريف النبي والرسول لغةً وشرعًا:

النبي لغة: مشتق من النبأ، وهو الخبر، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢]، وسمي النبي نبيًّا؛ لأنه مُخْبَرٌ بفتح الباء، ومُخْبِرٌ بكسرها؛ فأما الأول: فلأن الله تعالى أخبره، وأوحى إليه العلوم والمعارف من خلال

الوحي: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]، وأما الثاني: فلأنه مُخْبِرٌ عن الله تعالى أمْرَه ووحْيَهُ، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩] ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١].

وقيل: النبوة مشتقة من النَّبْوَةِ والنَّبَاوَةِ، وهي ما ارتفع من الأرض، والمناسبة بين النُّبوة بضم النون والباء، والنَّبْوَةِ بفتح النون وسكون الباء؛ أن النبي منحه الله تعالى رفعةً وقدرًا عظيمًا في الدنيا والآخرة؛ لأن الأنبياء هم أشرف خلق الله تعالى، وهم منارات الهدى، وصلوا الإيمان للناس كي يهتدوا به لإصلاح أحوالهم في الدنيا والآخرة.

يقول الرازي -رَحِمَهُ اللهُ- في (مختار الصحاح):

"والنَّبْوَةُ والنَّبَاوَةُ ما ارتفع من الأرض، فإن جعلت النبي مأخوذًا منه، أي: أنه شرُفَ على سائر الخلق، فأصله غير مهموز، وهو فعيل بمعنى مفعول. انتهى كلامه.

ومعنى قوله: النبي فعيل بمعنى مفعول، أي أن وزنه فعيل، ومعناه مفعول، أي: مَنْبُوءٌ، نبي فعيل: مَنبوء مفعول؛ يعني مخبر مفعول".

ويرى صاحب (المصباح المنير في غريب الشرح الكبير):

أن النبي في اللغة مهموز، وأصله النَّبِيءُ، إلا أنه حصل فيه إبدال وإدغام، فقيل: النبي من غير همزة حيث يقول: والنبأ مهموز: الخبر والجمع أنباء مثل: سبب وأسباب، وأنبأته الخبر وبالخبر، ونبأته به أعلمته، والنبيء على فعيل مهموز؛ لأنه أنبأ عن الله أي: أخبر، والإبدال والإدغام لغة فاسية، وقرئ بهما في السبعة. انتهى كلامه.

وجمع السفاريني -رَحِمَهُ اللهُ- القولين السابقين للنبي في اللغة، وهما: أنه مهموز من النبأ، وغير مهموز من النبوة أو النباوة، ثم ذكر قولًا آخر فقال -رَحِمَهُ اللهُ- في (المطلع):

النبي يهمز ولا يهمز، فما جعله من النبأ همزه؛ لأنه يُنْبِئُ الناسَ عن الله؛ ولأنه يُنَبَّأُ هو بالوحي ومن لم يهمز، فإما سهله، وإما أخذه من النبوة، وهي الرفعة؛ لارتفاع منازل الأنبياء على الخلق، وقيل: مأخوذ من النَّبِيْ الذي هو الطريق؛ لأنهم الطرق الموصلة إلى الله تعالى". انتهى كلامه.

وأما الرسول في اللغة: فالإرسال لغة يراد به التوجيه، فإذا بعثت شخصًا في مهمة، فهو رسولك، قال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، وقد يراد بالرسول من يتابع أخبار من بعثه، تقول العرب: جاءت الإبل رُسُلًا أي: متتابعة، فالرسل إنما سموا بذلك؛ لأنهم وجهوا من قِبَلِ الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وقال الرازي -رَحِمَهُ اللهُ- في (مختار الصحاح):

"يقال: راسله مراسلة، فهو مُرَاسِل، ورسيل، وأرسله في رسالة فهو مرسل ورسول، والجمع رُسْلٌ ورُسُلٌ، والمرسلات الرياح، وقيل: الملائكة، والرسول أيضًا الرسالة". انتهى كلامه.

فالرسول في اللغة مَن أُرْسِلَ برسالةٍ لتبليغها، فهو مرسل بها، فهو فعول بمعنى مفعول، أي: رسول ومعناه مرسل.

قال الجرجاني -رَحِمَهُ اللهُ- في (التعريفات):

"الرسول في اللغة هو الذي أمره المرسل بأداء الرسالة بالتسليم أو القبض". انتهى.

وأما في الشرع -أي: تعريف النبي والرسول في الشرع-: فالنبي هو ما أوحى

الله إليـه بـأمرٍ ولم يؤمر بتبليغـه، والرسـول هـو مـن أوحـى الله إليـه بـأمرٍ وأُمِـرَ بتبليغه.

يقول شارح (الطحاوية) -رَحِمَهُ اللهُ- :

من نبأه الله بخبر السماء، إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسـول، وإن لم يـأمره أن يبلغ غيره فهو نبي، وليس كل نبي رسولًا". انتهى كلامه.

وفي كتاب (التعريفات) للجرجاني -رَحِمَهُ اللهُ- :

"النبي من أوحي إليه بملكٍ، أو أُلْهِمَ في قلبه، أو نُبِّئَ بالرؤيا الـصالحة". انتهـى، وقـال في تعريف الرسول شرعًا: "إنه إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام". انتهى.

وقال في موضعٍ آخر أيضًا: "الرسول هـو مـن أوحـي إليـه جبرائيـل خاصـةً لتنزيـل الكتاب من الله". انتهى كلامه.

ب- الفرق بين النبي والرسول:

يقول السفاريني -رحمه الله- :

"فبين النبي والرسول عموم وخصوص مطلق، فكل رسول نبي، وليس كل نـبي رسولًا، والرسول أفضل من النبي إجماعًا؛ لتميزه بالرسالة التي هـي أفـضل مـن النبوة على الأصح؛ خلافًا لابن عبد السلام -وهو الفقيه الأصولي العز بـن عبـد السلام سلطان العلماء -رحمه الله.

ووجـه تفـضيل الرسـالة: لأنهـا تثمـر هدايـة الأمـة، والنبـوة قاصـرة علـى الـنبي، فنسبتها إلى النبوة كنسبة العـالم إلى العابـد، ثـم إن محـل الخـلاف فيهمـا مـع اتحـاد

محلهما وقيامهما معًا بشخصٍ واحدٍ، أما مع تعدد المحل، فلا خلاف في أفضلية الرسالة عن النبوة ضرورةً، فالنبوة جمع الرسالة لها مع الزيادة". انتهى كلامه.

وقال في (التعريفات):

قال الكربي والفراء: كل رسولٍ نبي من غير عكس، وقالت المعتزلة: لا فرق بينهما؛ فإنه تعالى خاطب محمدًا ﷺ مرة بالنبي وبالرسول مرة أخرى". انتهى كلامه.

ويقول ابن أبي العز الحنفي - رَحِمَهُ اللهُ -:

"وقد ذكروا فروقًا بين النبي والرسول، وأحسنها أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره، فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول؛ فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، والنبوة جزء من الرسالة؛ إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس، فالرسالة أعم من جهةِ نفسِهَا، وأخص من جهةِ أهلها". انتهى كلامه.

وقد تحدث الدكتور عمر سليمان الأشقر - حفظه الله - بشيء من التفصيل عن الفرق بين النبي والرسول، فقال:

"لا يصح قول من ذهب إلى أنه لا فرق بين الرسول والنبي، ويدل على بطلان هذا القول ما ورد في عدة الأنبياء والرسل، فقد ذكر الرسول ﷺ: ((أن عدة الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، وعدة الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا)). حديث صحيح رواه أحمد في مسنده.

ويدل على الفرق أيضًا ما ورد في كتاب الله من عطف النبي على الرسول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ [الحج: ٥٢]، ووصف بعض رسله بالنبوة والرسالة مما يدل على أن الرسالة أمر زائد عن النبوة، كقوله في حق موسى # : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾ [مريم: ٥١].

والشائع عند العلماء: أن الرسولَ أعمُّ من النبيِّ، فالرسولُ هو من أوحي إليه بشرع، وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالبلاغ، وعلى ذلك، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا، وهذا الذي ذكروه هنا بعيد لأمورٍ:

الأول: أن الله نص على أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ ، فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ، فالإرسال يقتضي من النبي البلاغ.

الثاني: أن ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالى، والله لا ينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدرِ واحدٍ من الناسِ، ثم يموت هذا العلم بموته.

الثالث: قول الرسول ﷺ: ((عُرِضَت عَلَيَّ الأممُ، فرأيت النبيَّ ومعه الرهط، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان، والنبيَّ وليس معه أحد)). رواه البخاري ومسلم.

فدل هذا على أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ، وأنهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم، والتعريف المختار -والكلام ما زال للدكتور الأشقر- أن الرسول من أوحي إليه بشرعٍ جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله، وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما مات نبيٌّ قام نبيٌّ، كما ثبت في الحديث، وأنبياء بني إسرائيل كلهم مبعوثون بشريعة موسى -التوراة- وكانوا مأمورين بإبلاغ قومهم وحي الله إليهم: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

فالنبي كما يظهر من الآية يوحى إليه شيء يوجب على قومه أمرًا، وهذا لا يكون مع وجوب التبليغ، واعتبر في هذا بحالِ داودَ وسليمانَ وزكريا ويحيى، فهؤلاء جميعًا أنبياء، وقد كانوا يقومون بسياسة بني إسرائيل، والحكم بينهم، وإبلاغهم الحق، والله أعلم بالصواب". انتهى كلامه.

٢- بشرية الرسل، وعدم علمهم للغيب المطلق، وعدم قدرتهم إلا على ما أقدرهم الله عليه:

لقد شاء الله ﷻ وهو الحكيم الخبير، أن يكون الرسل الذين يرسلهم إلى الأمم بشرًا من جنس أممهم، ومن طبيعتهم، فهم بشر يأكلون الطعام، وينامون، ويتزوجون، وتكون لهم الذرية، وتصيبهم الأعراض التي يتعرض لها البشر عادةً، كالمرض والسحر، ويلدون، ويصيبهم النسيان، وهذا أمر ليس فيه غرابة، فكونهم بشرًا لا ينفي تفضيلهم بالاصطفاء من الله تعالى والوحي إليه، فالرسول بشر، ولكنه بشر مؤيد بالوحي.

ونقول: بشر يوحى إليه، كما قال تعالى عن رسولنا محمد ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الكهف: ١١٠].وقال أيضًا: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقد تساءل أعداء الرسل، وتعجبوا: كيف يكون النبي بشرًا له خصائص البشرية في المأكل، والمشرب، وكافة شئون المعاش؟! وكانت هذه الشبهة من أعظم ما صد الناس عن الإيمان بالله وتصديق الأنبياء. قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤].

وهذه الشبهة الجاهلية سَرَتْ عَلَى لسانِ المكذبين، أعداء الرسل في جميع الأمم، فقد قالوها لنوحٍ # : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقالوها لموسى وهارون -عليهما السلام-:

﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. وقالها أصحاب القرية لرسلهم: ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾ [يس: ١٥]، وقالها مشركو مكة لخاتم النبيين محمد ﷺ ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣] عند ذلك اقترح أعداء الرسل أن تكون الواسطة بين الله وبين سائر البشر من الملائكة؛ ليعاينوهم ويشاهدوهم؛ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ [الفرقان: ٢١]، ثم قالوا: فإن لم يكن ذلك فعلى الأقل يبعث الله مع الرسول ملكًا، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧].

إلا أن الرد على المكذبين للرسل والغلاة فيهم على السواء، أن نقول لهم: "إن الله اصطفى رسله إلى البشر من البشر أنفسهم، ولم يجعلهم ملائكة، بل يجوز عليهم ما يجوز على البشر مما لا يقدح في منازلهم العالية ومكانتهم الرفيعة، فالرسل -عليهم السلام- رجال من الناس يتمتعون بكافة خصائص الجسد البشري ومقوماته، وتتطلب منهم بشريتهم أن يتعاطوا مستلزمات الجسد، واحتياجاته من طعامٍ وشرابٍ ونومٍ وتعبٍ ونصب. قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠]، فهم بشر، ولهم أجساد، فمصيرهم إلى العالم الآخر؛ إذ لا خلود للبشر في الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدًا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨]، وللطبيعة البشرية لرسل الله تعالى، فإنهم يتزوجون ويتناسلون، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴾ [الرعد: ٣٨].

فإذا ثبت أن الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - بشرٌ يطرأ عليهم ما يطرأ على الجسد البشري ؛ علمنا أنهم لا يعلمون الغيب المطلق، ولا يملكون نفع الناس ولا ضرهم إلا بإذن الله تعالى، وأنهم لا يملكون شيئًا من خصائص الألوهية.

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر:

ومقتضى كونهم بشرًا أنهم ليسوا بآلهة، وليس فيهم من خصائص الألوهية شيء ؛ ولذلك فإن الرسل يتبرءون من الحَوْلِ والطَّوْلِ، ويعتصمون بالله الواحد الأحد، ولا يدَّعُون شيئًا من صفات الله تعالى، قال تعالى مبينًا براءة عيسى مما نسب إليه: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

هذه مقالةُ عِيسَى في الموقفِ الجامع في يومِ الحشرِ الأكبرِ، وهي مقولةُ صدقٍ تنفي تلكَ الأكاذيبَ والترهاتِ التي وصفَ بها النصارى عبدَ اللهِ ورسولَهُ عيسى، فطائفة قالت: الله هو المسيح ابن مريم، حلَّ في بطن مريم: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأخرى قالت: هو ثالث ثلاثة: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣]، وطائفة ثالثة: قالوا: هو ابن الله ؛ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٨٩]. لقد غلا النصارى في عيسى غلوًّا عظيمًا، وهم بمقالتهم الغالية هذه يسبون الله أعظم سبٍّ وأقبحه" انتهى كلامه.

فالأنبياء -عليهم السلام- مرسلون من قِبَلِ اللهِ لبيان الحق للناس، ومع أن الله تعالى اصطفاهم، وأيدهم بالوحي والمعجزات إلا أنهم رجالٌ متصفون بالبشرية، ولا يجوز أن يُعْتَقَدَ أن لهم تصرفًا في الكون، أو أنهم يعلمون الغيب، ولا أن يصرف لهم شيء من أنواع العبادة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ- :

"ومَن جَعَلَ الرسول ﷺ يطلب منه الناس ما يطلبونه من الله تعالى؛ فقد آذى الرسول ﷺ وأساء في حقه، وسلط عليه العامة على اختلاف أغراضهم، هذا يطلب منه إنزال المطر، وهذا يطلب منه غفران الذنوب، وهذا يطلب منه النصر على الأعداء، وهذا يطلب منه أن يتزوج، وهذا يطلب منه الولد، وهذا يطلب منه المعيشة، وهذا يطلب منه الملك، وهذا يطلب منه قضاء دينه، فَنَزَّلُوا المخلوقَ منزلةَ الإله، وطلبوا منه من جلب المنافع ودفع المضار ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى". انتهى كلامه.

وعمومًا، فإن من حق الأنبياء والرسل -عليهم السلام- على أممهم، وعلى الأتباع عمومًا، والمؤمنين- التعظيم والتوقير والإجلال والاتباع والمحبة، وأما العبادة والتقديس وطلب قضاء الحوائج كمغفرة الذنوب، ودخول الجنة والنجاة من النار، فمن حقوق الخالق -جَلَّ وَعَلَا- التي لا يجوز صرفها لغيره ﷻ لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل.

فالحقوق ثلاثة:

حقوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخالق: لا يجوز أن تصرف لغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا لملائكته المقربين ولا لأنبيائه المرسلين.

وحقوق خاصة بالأنبياء والرسل أيضًا: لا يجوز التفريط فيها، ولا التقليل من شأنها كالتعظيم، والتوقير، والاتباع، والصلاة والسلام عليهم، والإيمان بهم وبرسالاتهم، ومعرفة الإيمان بالتفصيل فيما ورد التفصيل فيه، والإيمان إجمالًا بما ورد الإيمان به إجمالًا.

والنوع الثالث من الحقوق: حقوق خاصة بالبشر فيما بينهم، كالرأفة والشفقة، والرحمة والتعاون، ومحبة المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه، إلى غير ذلك من الحقوق والواجبات التي لها مواضع تفصل فيها غير هذا الموضع، هذا والله تعالى أعلم.

٣- النهي عن الغلو في الأنبياء والرسل:

لّما كان الإيمان بالرّسل -عليهم الصلاة والسلام- جزءًا من أركان الإيمان التي يقوم عليها؛ لأنه لا إيمان لمن كَفَر برسل الله تعالى - فإنه يجب لهؤلاء الرّسل أمور هي حقوق لهم على الناس المؤمنين بهم، حتى يتمّ الإيمان بالرسل، والانتفاع برسالاتهم. فمن حقوق الرسل -عليهم السلام-: الإيمان بهم، وتصديقهم، وطاعتهم، واتّباعهم، ومحبتهم، وتُوقيرهم، وتعزيرهم، وتعظيمهم، والذّبّ عنهم في حياتهم من أجلّ نشر رسالاتهم، وهداية أممهم، وفداءهم بالنفس والمال والأهل، والموت دونهم.

وأما بعد موتهم فتتحتّم تلك الحقوق، ويزداد عليها الاستمرار على شرعهم، وإبلاغه وتطبيقه منهجًا في الحياة، والتحاكم إليه عند التنازع، ويجب أيضًا الإيمان ببشريتهم، وأنهم رجال من الناس خصّهم الله تعالى بالنبوّة، واصطفاهم على سائر الخلق، وأيّدهم بالوحي، وأنهم عبيد لله تعالى، لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا من دون الله تعالى، وأنهم مفتقرون إلى الله ﷻ محتاجون إليه في كل لمحة وطرفة،

وأنه لا يجوز أن يُعتقد فيهم شيء من الألوهية أو الربوبية، ولا أن يصرف لهم شيء من أنواع العبادة.

فللرسل الاتباع والطاعة والتوقير والتعظيم. أما العبادة فلله تعالى وحده.

يقول صاحب كتاب (الإيمان: أركانه - حقيقته - نواقضه) مبيّنًا الواجب نحو الرسل:

"ويجب علينا تصديق الرسل جميعًا بعد الإيمان بهم، وبرسالاتهم، وألّا نفرّق بينهم؛ فمن فرّق بين رسل الله فآمن ببعضهم وكفر بالآخرين، أو صدّق بعضهم وكذّب بعضًا- كان من الكافرين بنصّ القرآن الكريم، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٩، ١٥٠] كما يجب علينا أن نؤمن بأن كل رسول أرسله الله أدّى أمانته، وبلّغ رسالته على الوجه الأكمل، وبيّنها بيانًا واضحًا شافيًا كافيًا، ويجب طاعتهم وعدم مخالفتهم؛ لأن ذلك من طاعة الله سبحانه قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال أيضًا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤].

ويجب علينا أن نعتقد بأنهم أكمل الخلق علمًا وعملًا، وأصدقهم وأكملهم أخلاقًا، وأن الله سبحانه خصّهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحدٌ، وأنه عصمهم ونزّههم عن الكذب والخيانة، والكتمان والتقصير في التبليغ، وعصمهم عن الذنوب كلّها، وقد تقع منهم زلّات، وخطيئات أي: عثرات بسيطة بالنسبة إلى ما هم عليه من علوّ المقامات، كما وقع لآدم # في أكله من الشجرة على وجه النسيان، ولكنهم لا يُقرّون عليها -أي: على تلك الزّلات- بل يوفقون للتوبة

منها، كما يجب علينا أن نُؤمن بأن رسل الله جميعًا كانوا رجالًا من البشر؛ فلم يكونوا من الملائكة ولم يبعث الله أنثى، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [الأنبياء: ٧].

ونُؤمن بأن الله سبحانه لم يخصّهم بطبائع أخرى غير الطبائع البشرية، وإنما اختارهم سبحانه من الرجال الذين يأكلون، ويشربون، ويمشون في الأسواق، وينامون، ويجلسون، ويضحكون، ولهم أزواج وذرّيات، يتعرّضون للأذى وتمتدّ إليهم أيدي الظَّلَمة وينالهم الاضطهاد، وأنهم يموتون، وقد يقتلون بغير حقّ، وأنهم يتألّمون، ويُصيبهم المرض، وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدّي إلى نقص في مراتبهم العليّة بين الخلق". انتهى كلامه.

إذًا، فهناك فرق بين ما هو حقّ لله وحده لا يُشركه فيه غيره، وبين ما هو حقّ للرسول؛ فالله ﷻ بعث جميع الرسل، وأنزل عليهم كتبه السماوية بالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن صرف شيء من أنواع العبادة لما سواه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

فالعبادة والاستعانة، وما يدخل في ذلك من الدّعاء، والاستغاثة، والخشية، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والتوبة، والاستغفار كلّ هذا لله وحده، لا شريك

له ؛ فالعبادة متعلّقة بالألوهية، والاستعانة متعلقة بربوبيته، والله رب العالمين لا إله إلا هو، ولا رب لنا غيره، لا ملك، ولا نبي، ولا غيره ؛ بل أكبر الكبائر الإشراك بالله، وأن تجعل له ندًّا وهو خلقك، والشرك أن تجعل لغيره شركًا - أي : نصيبًا- في عبادتك وتوكّلك واستعانتك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ [الأنعام: ٩٤] وأصناف العبادات، الصلاة بأجزائها مجتمعة، وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها، من السجود، والركوع، والتسبيح، والدّعاء، والقراءة، والقيام، لا يصلح إلا لله، ولا يجوز أن يتنفّل على طريق العبادة إلا لله وحده، لا لشمس، ولا لقمر، ولا لملك، ولا لنبيّ، ولا صالح، هذا في جميع دين الأنبياء.

وهذا كله تفصيل الشهادتين اللتين هما أصلُ الدين، شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا عبده ورسوله، والإله من يستحقّ أن يُأْلَهَ العباد، ويدخل فيه حبّه وخوفه. فما كان من توابع الأُلوهية فهو حقّ محض لله، وما كان من أمور الرسالة فهو حقّ الرسول". انتهى كلامه رحمه الله.

وقال العلامة ابن القيم - رحمه الله- :

"وبالجملة فتجعل الرسول شيخك، وأستاذك، ومعلّمك، ومربّيك، ومؤدّبك، وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ، كما تُسقط الوسائل بينك وبين المرسل في العبودية، ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره، ونهيه، ورسالته إليك، وهذان التجريدان هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. والله وحده هو المعبود المألوه، الذي لا يستحقّ العبادة سواه، ورسوله المُطاع المتبع المهتدى به الذي لا يستحقّ الطاعة سواه". انتهى كلامه.

وهذا الأصل عظيم النفع جدًّا لمن عقل وتدبّر، وهو التفريق بين ما هو حقّ لله، وما هو حقّ لرسل الله. فمن فهم ذلك واعتقده فإنه يسلم من تلبيسات أهل الأهواء الغالين في حق الأنبياء والمرسلين، الذين ينسبون للأنبياء ما هو من خصائص رب العالمين.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

"فإن قال قائل: لا يجوز التوكّل إلا على الله وحده، ولا العبادة إلا لله وحده، ولا يُتَّقى ولا يخشى إلا الله وحده -لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم- كان هذا تحقيقًا للتوحيد، ولم يكن هذا سبًّا لهم -أي للأنبياء- ولا تنقصًا بهم، ولا عيبًا لهم، وإن كان فيه بيان نقص درجتهم عن درجة الربوبية، فنقص المخلوق عن الخالق من لوازم كلّ مخلوق، ويمتنع أن يكون المخلوق مثل الخالق، فكل عبادة ليست واجبة في شرع الرسول ولا مستحبّة كانت من الشرك والبدع، وكلما تدبّر الإنسان ما أمر به -أي: ربه- وشرعه تبيّن له أنه جمع في شرعه بين كمال توحيد الرب، وإخلاص الدين له، وبين كمال طاعة الرسل وتعزيرهم، ومحبتهم، وموالاتهم، ومتابعتهم. فأسعد الناس في الدنيا والآخرة أتبعهم للرسول باطنًا، وظاهرًا ﷺ". انتهى كلامه.

٤- النهي عن الغلو في الأنبياء -عليهم السلام- وبيان أنهم مفتقرون إلى الله تعالى:

لم يأتِ الأنبياء -عليهم السلام- إلى البشرية بالرسالات السماوية لكي يعبدوهم، ويطلبوا منهم المدد، وقضاء الحوائج، ومغفرة الذنوب؛ بل وجّهوهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وإخلاص جميع أنواع العبادات له، وحذّروهم من

صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله تعالى، لا لملك مقرّب، ولا لنبي مرسل؛ لأن أنبياء الله تعالى هم أعرف الخلق بالله تعالى وما هي حقوقه التي يجب صرفها له، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٠].

يقول الدكتور أكرم العمري في كتابه (الرسالة والرسول):

ومما لا شك فيه أن الأنبياء هم أوعى البشر بحقيقة الألوهية، ومعرفة استحقاق الإله وحده للعبادة، وذلك بما اختصّهم الله به من علم الوحي الإلهي؛ فالتمييز واضح عندهم بين ما هو حقّ لله، وما هو حقّ للنّبي؛ لذلك نفى القرآن الكريم عن الأنبياء أن يُوجّهُوا الناس لعبادتهم بدلًا من عبادة الله، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

أخرج عبد بن حميد عن الحسن البصري قال: بلغني أن رجلًا قال: يا رسول الله نُسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض! أفلا نسجد لك؟ قال: ((لا. ولكن أكرموا نبيّكم، واعرفوا الحقّ لأهله، فإنه لا ينبغي أن يُسجد لأحد من دون الله)).

وعن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني، يقال له الرئيس، أوَذاك تريده منا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: ((معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني))، فأنزل الله في ذلك

مـن قولهمـا: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ إلى قولـه: ﴿ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وهكذا اتّضح طبيعة العلاقة بين الإله، والنبيّ، والبشر، ولم يقعْ في تاريخ الإسلام الطويل أي جدل حول طبيعة النبي، كما جرى في تاريخ النصرانية التي كانت قضية طبيعة المسيح، وهل هي إلهية، أم بشرية، أم إلهية وبشرية متّحدة أساسًا؛ لانقسامها إلى فِرَق عديدة متطاحنة.

لقد أعلن محمد ﷺ للمسلمين جميعًا أنه بشر مثلهم، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠]، وإذا كان الأنبياء لا يستحقّون العبادة، وهم أفضل البشر؛ فإن القادة الفكريين، والزعماء المبرزين لا يستحقون العبادة من باب الأولى، وبالتالي قطع الإسلام الطريق أمام الدعوة إلى عبودية الإنسان من دون الله مهما بلغ مقامه، وعَظُم مكانه، وبذلك حافظ على كرامة الإنسان وحريته، ومنعه من السقوط في هاوية الخضوع الأعمى لغيره من البشر؛ فضلًا عن حمايته من عبادة المخلوقات الأخرى من حيوان، وجماد، وقوى الطبيعة.

فهذه صورة النبي في الإسلام وهو أرفع البشر، له الحبّ، والتوقير، والدعاء، وله الدرجة الرفيعة، لكنه لا يتجاوز مقام العبودية والطاعة لله، ولا يخلع على نفسه صفات الألوهية، ولا يدعو الناس إلى عبادته، بل يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويجعل نفسه مَثَلَهم الأعلى في عبادة الله وطاعته، وشعاره: كونوا ربانيين.

وقد حَرِصَ الرسول ﷺ على التمييز بين الألوهية والنبوة، خاصة وأن الأمم السابقة قد ألهت أنبياءها، فقالت اليهود: عزيرٌ ابن الله، وقالت النصارى:

المسيح ابن الله. ولا شك أن تأليه الأنبياء لم يكن في حياتهم، بل بعد زمنهم بقليل أو كثير؛ حيث تدخل المبالغات والأساطير إلى تاريخهم وسيرتهم، ويبالغ أتباعهم في أخبارهم حتى يوصلوهم إلى مرحلة الألوهية، ويعبدونهم من دون الله، أو يشركونهم في عبادة الله. من هنا حذّر رسول الله ﷺ أتباعه من تأليهه، وأكّد على صفاته البشرية رغم علوّ مكانته، وسموّ خلقه، وإشادة القرآن برفعته وعظمته، فإنه لم يتخطّ خصائص البشرية". انتهى كلامه.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

"فإن المسلمين متّفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام أن العبد لا يجوز له أن يعبد ولا يدعو ولا يستغيث ولا يتوكل إلا على الله، وأن من عبد ملكًا مقرّبًا أو نبيًّا مرسلًا، أو دعاه، أو استغاث به؛ فهو مشرك. فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول القائل: يا جبرائيل، أو يا ميكائيل، أو يا إبراهيم، أو يا موسى، أو يا رسول الله: اغفر لي، أو ارحمني، أو ارزقني، أو انصرني، أو أغثني، أو أجرني من عدوي، ... أو نحو ذلك؛ بل هذا كله للخصائص الإلهية.

وهذه مسائل شريفة معروفة قد بيّنها العلماء وذكروا الفرق بين حقوق الله التي يختصّ بها دون الرسل، والحقوق التي له ولرسله، كما ميّز سبحانه بين ذلك في مثل قوله ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٩] فالتعزير والتوقير للرسول، والتسبيح بكرة وأصيلا لله". انتهى كلامه.

إذًا، فيجب أن نؤمن بأن الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- لا يملكون شيئًا من خصائص الألوهية؛ فلا يتصرّفون في الكون، ولا يملكون النفع أو الضر لأنفسهم، ولا لغيرهم، ولا يُؤَثّرون في إرادة الله تعالى، ولا يعلمون الغيب إلا ما

أطلعهم الله عليه، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وفي هذا الاعتراف من الأنبياء -عليهم السلام- لمقامهم البشري وخصائصهم البشرية، ومقام الألوهية والربوبية الذي هو حقٌّ خالص لله تعالى بمعرفتهم لهذه المقامات كان الأنبياء، والرسل يتشرّفون، ويتلذّذون بعبوديتهم لله؛ فضلًا عن ادّعائهم أو أمرهم لأتباعهم بأن يعبدوهم، أو يصرفوا لهم شيئًا من حقوق الله كالعبادة والدعاء والاستغاثة والنذر، وأنواع القربات التي هي من العبادات.

بل إن الرسول ﷺ شرّفه الله ﷻ بذكر صفة العبودية في أشرف المقامات عند الإسراء والمعراج، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١]، وفي هذا رفع لمكانته، فعبودية الله شرفٌ يشرف به أنبياء الله. أما الغلو فيهم وإطراؤهم فهذا أمر مرفوض شرعًا، نهى عنه الأنبياء، ولا يزيد الأتباع قربًا منهم، بل يزيدهم بعدًا.

وكذلك أيضًا فأوحى في مقام الوحي، كذلك تشرف النبي ﷺ بصفة العبودية ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] هنا العبودية أيضًا مقام شريف للنبي ﷺ ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩] في مقام الدعاء أيضًا لما قام نبي الله، وخاتم النبيين ﷺ يدعو ربه وتكأكأ عليه، وتجمع عليه الجنّ أولئك الذين كتب الله لهم الهداية، واتباع الرسول ﷺ هنا في هذا الموقف، وفي هذا المقام الشريف وصفه الله ﷻ بالعبودية؛ ممّا يدلّ على أن عبودية المخلوق مكانة عظيمة، وشرف مرموق بالنسبة لمقام، يعني، إذا قارناه بالغلاة الذين يدّعون أن مقامات الأنبياء أعلى حتى يصفوهم، أو يلقوا عليهم أوصاف لا تليقُ بهم بل هي أوصاف خاصة بجلال الله ﷻ.

وفي هذا كان بعض الصالحين يقول:

ومما زادني فخرًا وتيهًا ❖ وكدتُ بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي ❖ وأن صيّرت أحمد لي نبيّا

هذا هو المقام الذي ينبغي أن يفتخر به، وأن يُشاد به، وهو أعلى ما يصله العبد. أما الربوبية والألوهية، ومقامات الخاصة بصفات الله ﷻ وجلاله، فهذه قد نهى الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- عن الدنوّ منها أو التلبّس بها، قال ﷺ: ((لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبدُ؛ فقولوا: عبدُ الله ورسولُه)).

٥. إبطال ادعاء الغلاة في أن "الكون خلق من نور محمد":

لقد حصل الغلوّ الزائد في الرسول ﷺ عند الصوفية بسبب كونهم نظروا إلى جانب التعظيم للنبي ﷺ وأهملوا جانب التوحيد وسد الذرائع المفضية إلى الشرك، فنظروا نظرة جزئية قاصرة لنصوص الشرع دون جمع النصوص بعضها إلى بعض حتى تكتمل الصورة، وتتم النظرة، ومن ثمّ يصح الحكم.

لكن الصوفية بحكم جهلهم بمقاصد الشريعة -وأقصد طبعًا هنا الصوفية الغلاة- في هذا الباب، وعدم التقيد بالكتاب والسنة في الورود والصدور، وتغليب العاطفة والبعد عن نور الوحي؛ وقعوا في هذا الغلوّ المنهيّ عنه.

فزعموا أن النبي ﷺ سبق الكون في الخلق، وأنه قِسم من ذات الله متعين بشكل المخلوقات، وأن الله تعالى قبض قبضة من نور وجهه، وقال لها: كوني محمدًا، فكان محمد ﷺ أول التعينات. وهذه القبضة من النور هي التي يطلقون عليها اسم الذات المحمدية، أو الحقيقة المحمدية، وكنتيجة حتمية لهذا الاعتقاد، وهو أن

الرسول ﷺ في نظرهم قبضة من نور الله وأنه أسبق الكون وجودًا، وأن مظاهر هذا الكون بأجمعها انبجست من نوره ﷺ بعد التعيّن؛ فالنتيجة أن الله ﷻ خلق هذا الكون من أجل محمد ﷺ.

ولولا محمد ﷺ ما خُلقت الدنيا، ولا دحيت أرض، ولا رفعت سماء، ولا أضاءت شمس، ولا قمر، ولا خلق الله بشرًا ولا بعث إليهم رسلًا، ولا أنزل وحيًا.

فإذًا، يجب طلب المدد من النبي ﷺ؛ لأنه الواسطة والأصل الذي يستمدّ منه، واستمع إلى شاعرهم يقول:

لولاه ما خلقت شمس ولا قمر ❖ ولا نجوم ولا لوح ولا قلم

ويقول آخر من فصيلته وعلى شاكلته:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من ❖ لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

فإن بجودك الدنيا وضرتها ❖ ومن علومك علم اللوح والقلم

ويستدلّ هؤلاء الغلاة على معتقدهم الفاسد في النبي ﷺ بأحاديث موضوعة، وأخبار مكذوبة كحديث "لولاك ما خلقت الأفلاك"، وهو حديث موضوع كما في (الأحاديث الموضوعة) للصاغاني، و(كشف الخفا ومزيل الإلباس) للعجلوني، و(الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة) للشوكاني، و(سلسلة الأحاديث الضعيفة) للألباني.

وأمثال هذا الحديث من الأحاديث الموضوعة لا يعوّل عليها ولا يستند عاقل في معتقده عليها، مع العلم أنها مصادمة للشرع ومخالفة للعقل؛ لأن الذي تدلّ النصوص الشرعية عليه من الكتاب والسنة أن الله ﷻ إنما خلق إنسه وجنه لغاية

ذكرها في القرآن الكريم، وهي العبادة، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

معنى الآية: أنه -تبارك وتعالى- خلق العباد ليعبدوه وحده، لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذّبه أشدّ العذاب". انتهى كلامه.

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧]، فصرّح الله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة الحكمة من خلقه الخليقة أولًا، وبعثهم ثانيًا، وهي امتحانهم وابتلاؤهم؛ ليميز المحسن فيجازى بإحسانه، ويتبين المسيء فيؤاخذ بإساءته. وهذا هو المعتقد الذي علمه النبي ﷺ لأمته، وليس هذا الغلو الزائد في خاتم النبيين ﷺ.

الإيمان بالرسل (٢)

عناصر الدرس

أدلة الإيمان بالرسل، وتعريف المعجزة والحكمة من ظهورها

١. الأدلة من القرآن الكريم على وجوب الإيمان بالرسل - عليهم السلام - :

لمّا كان الإيمان بأنبياء الله تعالى ورسله ركنًا من أركان الإيمان الستة، التي لا يصحّ إيمان أحدٍ من الناس حتى يُؤمن بها، ويقرّ بها جميعًا- لما كان الأمر كذلك، فإننا وَجَدْنَا القرآن الكريم قد اهتمّ ببيانِ هذا الأمر الواجب أتمّ بيان.

لكننا سوف نقتصر على ثلاث آيات كريمات تُبيّن وجوبَ الإيمان بالأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- ناقلين أقوال السّلف من المفسرين في تفسيرها.

الآية الأولى: قول الله -تبارك وتعالى- : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

يقول الإمام الطبري - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

يعني تعالى ذكره بذلك: قولوا أيّها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى، الذين قالوا لكم: كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا: آمنا أي: صدقنا بالله. وقد دلّلنا فيما مضى أن معنى الإيمان التصديق، بما أغنى عن إعادته، ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ يقول أيضًا: صدّقنا بالكتاب الذي أنزل الله إلى نبيّنا محمد ﷺ فأضاف الخطاب بالتنزيل إليهم؛ إذ كانوا متّبعيه ومأمورين منهيّين به، فكان -وإن كان تنزيلًا إلى رسول الله، ﷺ بمعنى التنزيل إليهم للذي لهم فيه من المعاني التي وُصفت، ويعني بقوله: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ ﴾ صدقنا أيضًا، وآمنّا بما أُنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وهم الأنبياء من ولد يعقوب.

وقوله: ﴿ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ يعني: وآمنا أيضًا بالتوراة التي آتاها الله موسى، وبالإنجيل الذي آتاه الله عيسى، والكتب التي آتى النبيين كلهم، وأقررنا، وصدّقنا أن ذلك كلّه حقّ وهدًى، ونورٌ من عند الله، وأن جميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حقّ وهدًى، يصدّق بعضهم بعضًا على منهاج واحد في الدّعاء إلى توحيد الله والعمل بطاعته، ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ يقول: لا نؤمن ببعض الأنبياء، ونكفر ببعض، ونتبرأ من بعض، ونتولّى بعضًا، كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد -عليهما السلام-، وأقرّت بغيرهما من الأنبياء، وكما تبرأت النصارى من محمد ﷺ وأقرّت بغيره من الأنبياء، بل نشهدُ لجميعهم أنهم كانوا رسلَ الله وأنبياءه، بُعثوا بالحق والهدى فذُكِرَ أن نبي الله ﷺ قال ذلك لليهود فكفروا بعيسى وبمن يُؤمن به.

وعن ابن عباس قال: "أتى رسول الله ﷺ نفرٌ من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب، ورافع بن أبي رافع، وعازر، وخالد، وزيد، وأزار بن أبي أزار، وأشيع، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال: ((أومن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وما أُوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم. لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)) فلما ذكر عيسى جَحَدُوا نبوّته، وقالوا: لا نُؤمن بعيسى، ولا نؤمن بمن آمن به، فأنزل الله فيهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٥٩]، وقال قتادة: أنزلت هذه الآية أمرًا من الله -تعالى ذكره- للمؤمنين بتصديق رسله كلهم". انتهى كلامه.

وقال الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير الآية أيضًا:

"أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أُنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلًا، وما أُنزل على الأنبياء المتقدّمين مجملًا، ونصّ على أعيان من الرّسل،

وأجمل ذكر بقيّة الأنبياء، وأن لا يفرّقوا بين أحد منهم، بل يُؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ الآية [النساء: ١٥٠، ١٥١]. وعن أبي هريرة > قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله، وما أنزل الله)). وقال ابن أبي حاتم عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: ((آمنوا بالتوراة والزبور، والإنجيل، وليسعكم القرآن))". انتهى كلامه.

وقال البيضاوي -رحمه الله- في تفسيره:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ -الخطاب للمؤمنين- في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾، ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ القرآن قدّم ذكره؛ لأنه أول بالإضافة إلينا، أو سبب للإيمان بغيره. ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ الصحف، وهي وإن نزلت إلى إبراهيم، لكنهم لما كانوا متعبّدين بتفاصيلها، داخلين تحت أحكامها؛ فهي أيضًا منزلة إليهم، كما أن القرآن منزّل إلينا. ﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ التوراة والإنجيل أفردهما بالذكر بحكم أبلغ؛ لأن أمرهما بالإضافة إلى موسى وعيسى مغايرٌ لما سبق، والنزاع وقع فيهما. ﴿ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ جملة المذكورين منهم وغير المذكورين ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ منزَّلًا عليهم من ربهم ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾، كاليهود فنؤمن ببعض ونكفر ببعض، و"أحد" لوقوعه في سياق النفي عام فساغ أن يضاف إليه "بين" و"نحن له"، أي: لله مسلمون، مذعنون، مخلصون". انتهى كلامه.

وقال الشوكاني - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

"وقوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ خطاب للمسلمين، وأمر لهم بأن يقولوا هذه المقالة، وقيل: إنه خطاب للكفّار بأن يقولوا كذلك حتى يكونوا على الحق، والأول أظهر... وقوله: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ قال الفرّاء: معناه: لا نُؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم، كما فعلت اليهود والنصارى.

قال في (الكشاف):

و"أحد" في معنى الجماعة، ولذلك صحّ دخول "بين" عليه. وقوله: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ هذا الخطاب للمسلمين أيضًا، أي: فإن آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع كتب الله ورسله، ولم يفرّقوا بين أحد منهم فقد اهتدوا". انتهى كلامه.

الآية الثانية: قول الله -تبارك وتعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

يقول الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

قال أبو جعفر -يعني الطبري نفسه-: يعني: بذلك -جل ثناؤه- صدق الرسول -يعني: رسول الله ﷺ فأقرّ بما أُنزل إليه يعني: بما أُوحي إليه من ربه، من الكتاب وما فيه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وأمر ونهي، وغير ذلك من سائر ما فيه من المعاني التي حواها.

وذكر أن رسول الله ﷺ لّما نزلت هذه الآية عليه قال: ((يحقّ له)). حدّثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد عن قتادة بقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: ((ويحق له أن يؤمن)). وقول أصحابه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ يقول: وصدّق المؤمنون أيضًا مع نبيّهم بالله وملائكته وكتبه ورسله. قال أبو جعفر: وأما قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ فإنه أخبر -جل ثناؤه- بذلك عن المؤمنين أنهم يقولون ذلك؛ ففي الكلام قراءة من قرأ "لا نفرق بين أحد من رسله" بالنون متروك قد استغني بدلالة ما ذكر عنه، وذلك المتروك هو "يقولون"، وتأويل الكلام: والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله يقولون: لا نفرق بين أحد من رسله، وترك ذكر "يقولون" لدلالة الكلام عليه، كما ترك ذكره في قوله ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] يعني: يقولون سلام، وقد قرأ جماعة من المتقدمين: "لا يفرّق بين أحد من رسله" بالياء بمعنى والمؤمنون كلهم آمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله لا يفرق الكل منهم بين أحد من رسله؛ فيؤمن ببعض ويكفر ببعض، ولكنهم يصدّقون بجميعهم، ويقرّون أن ما جاءوا به كان من عند الله، وأنهم دعوا إلى الله وإلى طاعته، ويُخالفون في فعلهم ذلك اليهود الذين أقرّوا بموسى، وكذّبوا عيسى، والنصارى الذين أقروا بموسى وعيسى، وكذّبوا بمحمد ﷺ، وجحدوا نبوّته ومن شبههم من الأمم الذين كذّبوا بعض رسل الله، وأقرّوا ببعضهم. كما حدّثني يونس وقال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: "لا نفرق بين أحد من رسله" كما صنع القوم، يعني بني إسرائيل، قالوا: فلان نبي، وفلان ليس نبيًّا، وفلان نؤمن به، وفلان لا نؤمن به". انتهى كلامه.

وقال الإمام ابن كثير - رحمه الله - تعالى:

"فقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ إخبار عن النبي ﷺ بذلك. قال ابن جرير: حدثنا بشر: قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة قال: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: لمّا نزلت عليه هذه الآية: ((ويحق له أن يؤمن)). وقد روى الحاكم في مستدركه قال: حدثنا أبو النضر الفقيه، قال: حدثنا معاذ بن نجدة القرشي، قال: حدثنا خلاد بن يحيى، قال: حدثنا أبو عقيل عن يحيى بن أبي كثير عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ قال النبي ﷺ: ((حق له أن يؤمن))، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: عطف على الرسول، ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض؛ بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مهديون، هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نُسخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين الذين تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين، وقوله: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ أي: سمعنا قولك يا ربنا، وفهمنا، وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه". انتهى كلامه.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

يقول الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ من اليهود والنصارى، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله بأن يُكذّبوا رسل الله الذين أرسلهم إلى خلقه بوحيه، ويزعم أنهم افتروا على ربهم، وذلك هو معنى إرادتهم التفريق بين الله ورسله بنحلتهم إيّاهم الكذب، والفرية على الله، وادّعائهم عليه الأباطيل.

﴿ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ ﴾ يعني: أنهم يقولون نصدق بهذا ونكذب بهذا، كما فعلت اليهود من تكذيبهم عيسى ومحمدًا -صلى الله عليهما وسلم- وتصديقهم بموسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم، وكما فعلت النصارى من تكذيبهم محمدًا ﷺ، وتصديقهم بعيسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم. ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ يقول: ويريد المفرقون بين الله ورسله -الزّاعمون أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض- أن يتخذوا بين أضعاف قولهم: نُؤمن ببعض الأنبياء، ونكفر ببعض ﴿ سَبِيلًا ﴾، يعني: طريقًا إلى الضلالة التي أحدثوها والبدعة التي ابتدعوها. يدعون أهل الجهل من الناس إليه، فقال -جل ثناؤه- لعباده منبهًا لهم على ضلالتهم وكفرهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا ﴾ يقول: أيها الناس هؤلاء الذين وصفتُ لكم صفتهم هم أهل الكفر بي، المستحقّون عذابي والخلود في ناري حقًّا، فاستيقنوا ذلك ولا يُشكّكنّكم في أمرهم انتحالهم الكذب، ودعواهم أنهم يقرّون بما زعموا، أنهم به مقرون من الكتب والرسل فإنهم في دعواهم ما ادعوا من ذلك كذبة، وذلك أن المؤمن بالكتب والرسل هو المصدق بجميع ما في الكتاب، الذي يزعم أنه به مصدق، وبما جاء به الرسول الذي يزعم أنه به مؤمن.

فأما من صدق ببعض ذلك وكذب ببعض فهو لنبوة من كذب لبعض ما جاء به جاحد، ومن جحد نبوة نبي فهو به مكذب. وهؤلاء الذين جحدوا نبوة بعض الأنبياء وزعموا أنهم مصدقون ببعض مكذبون من زعموا أنهم به مؤمنون بتكذيبهم ببعض ما جاءهم به من عند ربهم، فهم بالله وبرسله الذين يزعمون أنهم بهم مصدقون، والذين يزعمون أنهم بهم مكذبون كافرون، فهم الجاحدون وحدانية الله، ونبوة أنبيائه حقّ الجحود، المكذبون بذلك حقّ التكذيب. فاحذروا أن تغترّوا بهم وببدعتهم، فإنا قد أعتدنا لهم عذابًا مهينًا.

وأما قوله: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ فإنه يعني: وأعتدنا لمن جحد بالله ورسوله جحود هؤلاء الذين وصفت لكم -أيها الناس- أمرهم من أهل الكتاب، ولغيرهم من سائر أجناس الكفار عذابًا في الآخرة، ﴿ مُّهِينًا ﴾ يعني: يهين من عذب به بخلوده فيه، وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة عن قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ أولئك أعداء الله اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة وموسى، وكفروا بالإنجيل وعيسى. وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى، وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ، فاتخذوا اليهودية والنصرانية وهما بدعتان ليستا من الله، وتركوا الإسلام وهو دين الله الذي بعث الله به رسله.

حدثنا محمد بن الحسين قال: حدثنا أحمد بن فضل، قال: حدثنا أسباط عن السّدّي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾

يقولون: محمد ليس برسول لله، وتقول اليهود: عيسى ليس برسول لله، فقد فرقوا بين الله وبين رسله، ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض؛ فهؤلاء يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

وحدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين، قال: حدثني حجاج، قال: قال ابن جريج في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ إلى قوله: ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال: اليهود والنصارى، آمنت اليهود بعزير وكفرت بعيسى، وآمنت النصارى بعيسى وكفرت بعزير، وكانوا يؤمنون بالنبي ويكفرون بالآخر، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلًا. قال: دينًا يدينون به الله، قال أبو جعفر يعني: بذلك -جل ثناؤه- والذين صدقوا بوحدانية الله وأقرّوا بنبوة رسله أجمعين وصدقوهم فيما جاءوهم به من عند الله من شرائع دينه ولم يفرقوا بين أحد منهم يقول: ولم يكذبوا بعضهم ويصدقوا بعضهم، ولكنهم أقرّوا أن كل ما جاءوا به من عند ربهم حقّ يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم من المؤمنين بالله ورسله يقول: سوف يعطيهم أجورهم يعني: جزاءهم وثوابهم على تصديقهم الرسل في توحيد الله، وشرائع دينه، وما جاءت به من عند الله". انتهى كلامه.

ويقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: يتوعّد -تبارك وتعالى- الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى؛ حيث فرّقوا بين الله ورسله في الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، بمجرد التشهي والعادة، وما ألفوا عليه آباءهم لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك، بل بمجرد الهوى والعصبية.

فاليهود -عليهم لعائن الله- آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمدًا -عليهما الصلاة والسلام-؛ النصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ والسامرة

لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى ابن عمران، والمجوس يقال: إنهم كانوا يؤمنون بنبيّ لهم يقال لهك زرادشت، ثم كفروا بشرعه، فرفع من بين أظهرهم، والله أعلم.

والمقصود: أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب لكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض. فمن ردّ نبوّته للحسد والعصبية، أو التشهّي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًّا إنما هو عن غرض وهوى وعصبية، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ فوسمهم بأنهم كفّار بالله ورسله ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي: في الإيمان ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ أي: طريقًا ومسلكًا، ثم أخبر تعالى عنه فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا ﴾ أي: كفرهم محقّق لا محالة بمن ادّعوا الإيمان به؛ لأنه ليس شرعيًّا؛ إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلًا، وأقوى برهانًا منه، أو نظروا حق النظر في نبوّته. انتهى كلامه.

الأدلة من السنة المطهرة على وجوب الإيمان بالرسل - عليهم السلام - :

فكما ثبت أن وجوب الإيمان بالرسل - عليهم الصلاة والسلام - في القرآن الكريم، فإن وجوب الإيمان بالرسل - عليهم الصلاة والسلام - ثابت في السنة المطهرة؛ لأن الإيمان بالرسل ركنٌ من أركان الإيمان الستة، وهي:

أولًا: الإيمان بالله تعالى.

الثاني: الإيمان بالملائكة الكرام عليهم السلام.

الثالث: الإيمان بالكتب السماوية المنزلة.

الرابع: الإيمان بالرسل والأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

الخامس: الإيمان باليوم الآخر.

السادس: الإيمان بالقدر خيرِه وشرّه.

فمن تلك الأحاديث:

الحديث الأول: حديث الإيمان المشهور المعروف بحديث جبريل # الذي رواه عمر بن الخطاب > حيث قال: (بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه...)) وفيه: أن جبريل # سأل النبي ﷺ عن الإسلام، فقال: ((الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلًا))، ثم سأله عن الإيمان، فقال: ((الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره))، ثم سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإحسان، فقال: ((الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))، ثم سأله عن الساعة فقال النبي ﷺ: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل))، ثم سأله عن أماراتها فأجاب ﷺ: ((أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحُفَاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان))، ثم لبث مليًّا فقال ﷺ لعمر: ((أتدري من الرجل؟)) فقال عمر > : الله ورسوله أعلم. فقال: ((هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)). أخرجه الإمام مسلم.

فالشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ ((الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتُؤمن بالقدر خيره وشره))؛ ففيه إثبات وجوب الإيمان

برسل الله تعالى، بل هو ركن من أركان الإيمان الستة، كما رأينا الوارد في هذا الحديث الصحيح، ونجد أن ترتيب الإيمان بالرسل -عليهم السلام- بالنسبة لبقية أركان الإيمان، هو المرتبة الرابعة أي: بعد الإيمان بالله تعالى، وبالملائكة، وبالكتب.

الحديث الثاني: ما رواه الإمامان البخاري ومسلم -رحمهما الله تعالى- في صحيحيهما، من حديث عبد الله بن عمر { : أن عمر انطلق مع النبي ﷺ في رهطٍ قبل ابن صيّاد حتى وجدوه يلعب مع الصبيان، عند أطم بني مغالة، والأطم هو الشاخص من البنيان القديم، وقد قارب ابن صياد الحلم، فلم يشعر حتى ضرب النبي ﷺ بيده، ثم قال لابن صياد: ((تشهد أني رسول الله))، فقال ابن صياد: أشهد أنك رسول الأميين. فقال ابن صياد للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله. فرفض وقال: ((آمنت بالله ورسله))، فقال له: ((ماذا ترى؟)) قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، فقال النبي ﷺ: ((خُلّط عليك الأمر))، ثم قال له النبي ﷺ: ((إني قد خبأت لك خبيئة))، فقال ابن صياد: هو الدّخ أي: المقصود الدخان فقال: ((اخسأ، فلن تعدو قدرك))، فقال عمر > : دعني يا رسول الله أضرب عنقه. فقال النبي ﷺ: ((إن يَكُنْهُ فلن تسلّط عليه، وإن لم يَكُنْه فلا خير لك في قتله))، وهذا لفظ البخاري.

فالشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ جوابًا لسؤال ابن صياد: ((آمنت بالله ورسله))، فدخل في ذلك جميع الأنبياء والمرسلين من غير تفريق بين الإيمان ببعضهم وعدم الإيمان بالبعض الآخر، وابن صياد هذا الوارد في الحديث قصته ذكرها الإمام مسلم -رحمه الله- في صحيحه.

وذكر أهل العلم أن ابن صياد هذا كان صبيًّا على عهد النبي ﷺ قارب البلوغ، وكان يأتي بخوارق وتظهر على يديه أمور خارقة، وتنبؤات، فكان من العلماء

من اعتبره المسيح الدجال المنتظر، ومن العلماء من قال: إنه ليس هو المسيح، وقصته هذه تدلّ على أن من العلماء من توقّف فيه. والشاهد أن النبي ﷺ لّما رد عليه، ردّ عليه بقوله ((آمنت بالله ورسله))، و من الأحاديث التي تصرّح أيضًا بوجوب الإيمان بالنبي ﷺ، والإيمان به يُوجب الإيمان ببقية إخوانه من المرسلين -عليهم السلام- قوله ﷺ في الحديث الصحيح: ((أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله)) رواه البخاري ومسلم. فثبت من جملة هذه الأحاديث وجوب الإيمان بأنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام.

وبهذا نختم أن الإيمان بالأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- ثابت ثبوتًا قطعيًّا، بدلالة آيات الكتاب العزيز، وأحاديث النبي المصطفى ﷺ، وأن هذه الآيات وهذه الأحاديث لم تفرّق بين نبي ونبي؛ لأن الإيمان ببعض الأنبياء، والكفر ببعضهم هو كفر بالذي زُعم الإيمان به. وهذا الهدى الذي وفّق الله له أمة محمد ﷺ كانت قد وقعت فيه الأمتان اليهودية والنصرانية؛ حيث كانوا يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض، وقد رددنا عليه في موضعه.

٢- المعجزات: تعريفها، الحكمة من ظهورها:

أ- تعريف المعجزة:

المعجزة لغة: من عجز عن الشيء عجزًا، من باب ضرب، ومَعْجَزَةً -بفتح الميم- ضعف عنه، فالمعجزة اسم فاعل مأخوذ من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأيٍ أو تدبيرٍ، ويطلق على المعجزة أيضًا: الآية، وهو في اللغة العلامة الدالة على الشيء، تجمع على آيٍ، وآياي، وآيات.

والمراد بها هنا: ما يجريه الله تعالى على أيدي رسله وأنبيائه من أمورٍ خارقةٍ للسننِ الكونيةِ المعتادة التي لا قدرة للبشر على الإتيان بمثلها، كتحويل العصا إلى أفعى تتحرك وتسعى، فتكون هذه الآية الخارقة للسنة الكونية المعتادة دليلًا غيرَ قابلٍ للنقدِ والإبطال؛ يدل على صدقهم فيما جاءوا به.

فالمراد بآيات الأنبياء ومعجزاتهم أمر واحد؛ فلا فرق بين الآية والمعجزة.

وأما المراد بالمعجزة في الاصطلاح: فهي الأمر الخارق للعادة، الْمَقْرُونُ بالتحدي السالم من المعارضة.

يقول السفاريني -رَحِمَهُ اللهُ- في بيانه لتعريف المعجزة:

"وتعريف المعجزة هي: اسم فاعل مأخوذة من العجز المقابل للقدرة. في (القاموس): معجزة النبي ما أعجز به الخصم عند التحدي والهاء للمبالغة. وقال ابن حمدان في (نهاية المبتدئين): المعجزة هي ما خرق العادة من قولٍ أو فعلٍ إذا وافق دعوى الرسالة، وقارنها وطابقها على جهة التحدي ابتداءً؛ بحيث لا يقدر أحد عليها ولا على مثلها، ولا على ما يقاربها.

وقال الفخر الرازي: المعجزة عرفًا أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة.

قال العلامة التفتازاني: إنما قال: أمر؛ ليتناول الفعل كانفجار الماء من بين أصابع النبي ﷺ ويتناول عدمه، أي عدم الفعل كعدم إحراق النار إبراهيمَ # ، واحترزوا بقيد المقارنة للتحدي عن كرامات الأولياء، والعلامات الإرهاصية التي تتقدم البعثة النبوية، وعن أن يتخذ الكاذب معجزةَ من مضى من الأنبياء، أو ما تقدم له في السنين الماضية حجةً لنفْسِهِ، وبقيدِ عدمِ المعارضةِ عن السحر

والشعبذة أي: الشعوذة. وقول ابن حمدان: وطابقها؛ ليخرج ما إذا قال: معجزتي نطق هذا الحجر؛ فنطق بأنه كاذب مفتر، وكما تفل مسيلمة الكذاب في بئرٍ فغار ماؤها، ومسح على رأس غلام فصار أقرعًا، ... ونحو ذلك". انتهى كلام السفاريني -رَحِمَهُ اللهُ.

ويقول السيد سابق:

وهذه الآيات التي يؤيد الله بها رسله لا بد وأن تكون فوق مقدور البشر، وخارج نطاق طاقاتهم وعلومهم ومعارفهم، كما يجب أن تكون مخالفة للسنن الخاصة بالمادة، وخارقة للعادات المعروفة والقوانين الطبيعية المألوفة، وعَرَّفُوا المعجزة بأنها الأمرُ الخارقُ للعادةِ الذي يجريه الله على يدي نبي مرسل؛ ليقيم به الدليل القاطع على صدقِ نبوتِهِ، ومن ثم كانت المعجزة ضرورية وإظهارها واجبًا ليتم بها المقصود من تبليغ الرسالة، وتقام بها حجة الله على الناس، وهذه الآيات ممكنةٌ في ذاتِهَا، والعقل لا يمنعها، والعلم لا ينفيها، والواقع يؤيدها. انتهى كلامه.

وعَرَّفَ الجرجاني -رَحِمَهُ اللهُ- المعجزة بقوله:

"المعجزة أمر خارق للعادة، داعٍ إلى الخير والسعادة، مقرونٌ بدعوى النبوة؛ قُصِدَ به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله". انتهى كلامه.

ب- الحكمة من ظهور معجزات وآيات الرسل:

لم يرسل الله تعالى رسولًا إلا وأيده بآيات تبين صدقه في ادعاء مرسلًا من عند الله تعالى، وقد وقف كثيرٌ من أعداء الرسل في وجه الأنبياء مطالبين الرسل -عَلَيْهِم السَّلاَمُ- بمعجزاتٍ وآياتٍ وبيناتٍ تؤكد صدقهم في ادعاء الرسالة والوحي من الله

تعالى، ولم يسلم رسولٌ من الرسل من معارضٍ يرد دعوته، وينكر نبوته، ويطالبه بآيةٍ حسيةٍ، تخالف المعتاد وتخرق العادة، لكي يتأكد عند المعاندين صدقه، ويظهر للناس أمره، وأنه مؤيدٌ من الله تعالى، وأن الوحي يتلقاه من السماء، ويلقيه إليه الملك المقرب من رب العالمين.

يقول الشيخ سيد سابق:

لم يرسل الله تعالى رسول ليبلغ الناس الدين ويعلمهم الشريعة إلا وأيده بالآيات التي تقطع بأنه مرسل من عنده، وأنه موصولٌ بالملأ الأعلى يتلقى عنه، ويأخذ تعاليمه منه، وهذه الآيات التي يؤيد الله بها رسله لابد وأن تكون فوق مقدور البشر، وخارج نطاق طاقاتهم وعلومهم ومعارفهم، كما يجب أن تكون مخالفة للسنن الخاصة بالمادة وخارقة للعادات المعروفة، والقوانين الطبيعية المألوفة؛ ولذلك سمى العلماء هذه الآيات بالمعجزات؛ لأنها تعجز العقل عن تفسيرها، كما تعجز القدرة الإنسانية عن الإتيان بمثلها.

ومن ثم كانت المعجزة ضرورية وإظهارها واجبًا؛ ليتمَّ بها المقصود من تبليغ الرسالة، وتقامَ بها حجةُ الله على الناس، وهذه الآياتُ ممكنةٌ في ذاتها والعقل لا يمنعها، والعلم لا ينفيها، والواقع يؤيدها، فقد قام رجال وادعوا أنهم رسل الله، وتحدَّوُا أممهم مما أظهروه من هذه الخوارق ورآها الناس عيانًا، وآمن بها ألوف وألوف عبر القرون والأجيال، بل إن العلم الحديث نفسه أثبت أن النواميس الطبيعية يمكن تخلفها عن إحداث آثارها بنواميس أخرى أرقى منها.

كما أثبت العلم أيضا: أن معجزاتِ الأنبياء كلها صحيحة، ما بعث الله رسولًا إلا وقد أيده الله بالآيات الكونية، والمعجزات المخالفة للسنن المعروفة للناس، والخارجة عن مقدور البشر؛ ليكون إظهارها على يديه مع بشريته دليلًا على أنه

مرسل من عند الله، فعدم حرق النار لإبراهيم، وناقة صالح، وعصا موسى، وما ظهر على يدي عيسى: كلها آيات للرسل.

وكانت الآيات حسيةً يومَ أن كان العقل الإنساني في الظهور الذي لم يبلغ فيه الرشد بعد، ويوم أن كانت هذه العجائب تبلغ من نفسية الجماهير مبلغًا لا تملك معه إلا الإذعان والتسليم، فلما بدأ النوع الإنسانيُّ يدخل في الرشد، وبدأت الحياة العقلية تأخذ طريقها إلى الظهور والنماء لم تعد تلك العجائب هي الأدلة الوحيدة على صدق الرسالة، ولم يعد من السهل عن العقل أن يذعن لمجرد شيءٍ رآه خارجًا عن عُرفِ الحياةِ، إنه يريد شيئًا جديدًا يتناسب والطور الذي وصل إليه؛ يريد الإيمان الذي لا تخالطه الشكوك، واليقين الذي يبدد ظلامه، وما كان الله ليمد النوع الإنساني في طفولته بماء يحفظ به حياته الروحية ثم يدعه بعد أن أخذ سبيله إلى النظر العقلي والاستقلال الفكري دون أن يقيم له من الأدلة ما يناسب الارتقاء الذي وصل إليه.

فكان أن بعث محمدًا ﷺ وأيده بالمعجزة العلمية والحجة العقلية، وهو القرآن الكريم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((ما من الأنبياءِ نبيٌّ إلا أُعْطِيَ ما مثله آمن عليه البشر، إنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)) وهذا القرآن ليس من تأليفِ أحدٍ، وإنما هو وحيُ الله أنزله على أكملِ صورةٍ من صورِ الوحي. انتهى كلامه.

ويقول الدكتور عمر الأشقر في كتابه (الرسل والرسالات):

الأنبياء الذين ابتعثهم الله إلى عبادة يقولون للناس: نحن مرسلون من عند الله، وعليكم تصدقونا فيما نخبركم به، كما يجب عليكم أن تطيعونا بفعل ما نأمركم به وترك ما ننهاكم عنه.

وقد أخبر الله في سورة الشعراء أن نوحًا خاطب قومه قائلًا: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: من ١٠٦-١٠٨]. وبهذا القول نفسه خاطب رسل الله هودٌ وصالحٌ ولوطٌ وشعيبٌ أقوامَهُم بل هي مقالة ودعوة كل رسول لقومه؛ فإذا كان الأمر كذلك فلابد أن يقيم الله الدلائل والحجج والبراهين المبينة صدق الرسل في دعواهم أنهم رسل الله؛ كي تقوم الحجةُ على الناس، ولا يبقى لأحدٍ عذرٌ في عدم تصديقهم وطاعتهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، أي بالدلائل والبينات التي تدل على صدقهم. انتهى كلامه.

فاتضح من هذه النقول: أن الله سبحانه أَيْدَ رُسُلَهُ -عَلَيْهِم السَّلاَمُ- بالآيات والمعجزات الواضحة، والبينة لحكمة جليلة، وهي إثبات صدق الرسول فيما جاء به، وأن هذا الذي يدعي الاتصال بالملأ الأعلى، ومشافهة الملائكة، وأن الله تعالى هو الذي قال له: اذهب فبلغ الناس شرعي وأْمرهم بالمعروف، وانهاهم عن المنكر، وأخبرهم أن لدي نارًا أعذب بها العصاة، والمكذبين للرسل، وأن لدي جنةً أعددتها للمطيعين لي والمتبعين للرسل، والمصدقين بالرسالات السماوية- من ادعى ذلك لابد أن المخاطبين من العقلاء، سوف يواجهونه بالتساؤل التالي وهو: ما الدليل على صدق ما تقول؟ فإن الدعاوى سهلٌ الإتيان بها، وقد مر على البشرية كثيرٌ من مدعي النبوة، فإذا كان الرجل مؤيدًا بالوحي، ومرسلًا من قِبَل الله تعالى حقًّا- أتاه التأييد من العناية الإلهية حالًا، ولم تتخلَّ عنه العناية الإلهية، فيؤيد كل رسول بما يثبت نبوته، ويتحدى الرسول قومه في الفن الذي ينتشر بينهم؛ فكان السحر مشتهرًا في عهد موسى # وكان الطب وإنكار الروح في عهد عيسى # وكانت البلاغة في عهد نبينا خاتم النبيين محمدًا ﷺ فكانت معجزة كل نبيٍّ من جنس ما اشتهر على عهده؛ فسبحان الله الحكيم

الخبير الذي يضع الأمور في موضعها، والذي يؤيد رسله ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [غافر: ٥١].

ذكر أمثلة لآيات بعض الرسل، وبيان الفرق بين آيات الأنبياء وكرامات الأولياء، مع إعطاء نبذة عن الأنبياء والرسل الوارد ذكرهم في القرآن الكريم

١. ذكر أمثلة لآيات بعض الرسل -عَلَيْهِمِ السَّلاَمُ-:

يقول العلامة السفاريني -رَحِمَهُ اللهُ-:

ومعجزات خاتم الأنبياء كثيرة تجل عن إحصاء؛ منها كلام الله معجز الورى كانشقاق البدر في غير امتراء، وهذا يدل على أن معجزات خاتم النبيين محمدٍ ﷺ كثيرةٌ ومتنوعةٌ، منها الحسية والمعنوية، ولقد أوصلها بعض العلماء فوق الألف كما فعل البيهقي -رَحِمَهُ اللهُ- في (دلائل النبوة)، لكننا سنذكر بعض المعجزات الخاصة بنبينا محمدٍ ﷺ بعد أن نُعَرِّجَ على ذكر بعض الأنبياء قبله فنقول:

أولًا: آية نبي الله صالح #:

لقد دعا صالحٌ # قومه إلى عبادة الله تعالى وحده، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النمل: ٤٥]، فكذبوه وطلبوا منه آية تدل على صدقه: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣- ١٥٤].

يذكر المفسرون: أن ثمود اجتمعوا فطلبوا من صالحَ أن يخرج لهم من صخرة ناقة عشراء طويلة فقام يصلي # ثم دعا الله أن يجيبهم إلى ما سألوا، بعد أن أخذ

عليهم الميثاق إن آتاهم بالآية يسلموا ويتبعوه، فلما رأوها على الذين طلبوا أو على الوجه الذي طلبوا انشقت عنها الصخرة فرأوها، فبعد ذلك كفر بعضهم، وآمن بعضهم، وهو القليل.

ثانيًا: معجزة إبراهيم # :

لقد حطم إبراهيم # إله قومه وأصنامهم التي كانوا يعبدون فأشعلوا لها نارًا عظيمة ورموه فيها، فأمر الله ﷻ النار ألا تصيبه بأذى قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨- ٧٠].

ويذكر علماء التفسير في تفسير هذه أن هذه النار من عظمها كانت تبلغ عنان السماء فكان الطير، أي: طير يطير في السماء يقع فيها من شدة لهبها وطول ألسنتها.

ومن آيات إبراهيم # إحياء الموتى، وقد قص الله علينا قصة إحياء الطير في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فأمره الله تعالى أن يذبح هذه الطيور ويقطعها ويفرقها على عدةِ جبالٍ ثم دعاها؛ فلبت النداء واجتمعت الأجزاء المتفرقة، والتحمت كما كانت من قبل، ودبت فيها الحياة، وطارت محلقةً في الفضاء.

ثالثًا: معجزات نبي الله موسى # :

أعطى الله تعالى موسى # تسعَ آياتٍ بيناتٍ، وهناك غيرها إلا أن هذه التسع هي الأشهر والأظهر قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وهذه الآيات باختصارٍ هي:

الأولى: العصا، وهي أكبر هذه الآيات وأعظمها حيث كانت تتحول إلى حيةٍ عظيمةٍ عندما يلقيها على الأرض.

الثانية: أنه # كان يُدْخِلُ يده في جيبه، أي: درع قميصه ثم ينزعها؛ فإذا هي تلألأ كالقمر بياضًا من غير سوء ولا برص ولا بهق.

الثالثة: السنين، هي الجدب والقحط الذي أصابهم في عهده، # .

الرابعة: نقص الثمرات والخيرات التي تخرج عادةً من الأرض.

الخامسة: الطوفان الذي يتلف المزارع، ويهدم المدن والقرى.

السادسة: الجراد الذي لا يدعُ أخضر ولا يابسًا.

السابعة: القمل الذي آذاهم في أجسادهم.

الثامنة: الضفادع التي نغصت عليهم عيشتهم لكثرتها.

التاسعة: الدم الذي أصاب معاشهم وشرابهم؛ فكانوا لا يفتحون قِدْرًا إلا ووجدوا فيه الدم.

رابعًا: معجزات نبي الله عيسى # :

أخبر الله تعالى عن عيسى # أنه كان يصنع من الطين ما يشبه الطيرَ ثم ينفخ فيه فيصبح طيرًا بإذن الله تعالى وقدرته ومشيئته، وكان يمسحُ الأكمه والأبرص فيبرآن بإذن الله، ويُذْهِبُ اللهُ ما بهما من أذى، ويمر على الموتى فيناديهم؛ فيحيهم الله له؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ [المائدة: ١١٠].

ومن آيات عيسى # العظيمة: تلك المائدة التي أنزلها الله من السماء عندما طلب الحواريون من عيسى إنزالها، فكانت على الحال التي طلبوا من عيسى،

عيدًا لأولهم وآخرهم، وقد ورد تفصيل هذه الآية في سورة المائدة من القرآن الكريم.

خامسًا: آيات خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ: فمعجزات نبينا محمد ﷺ كثيرة جدًّا، بل لقد أوصلها بعض العلماء إلى الألف وأَزْيَدَ، وأُلِّفَتْ فيها المصنفات التي تعرف بكتب (دلائل النبوة) و(أعلام النبوة) و(الخصائص) واهتم ببيانها علماء التوحيد والحديث والسيرة والمفسرون.

وأعظم تلك الآيات التي أوتيها رسولنا محمدًا ﷺ بل أعظم آيات الرسل قاطبة: القرآن الكريم، والكتاب المبين، وهي آية تخاطب النفوس والعقول، آيةٌ باقيةٌ دائمةٌ إلى يوم الدين، لا يطرأ عليها التغيير، ولا التبديل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

ولقد كانت معجزة خاتم النبيين محمدًا ﷺ نمطًا مخالفًا لمعجزات الرسل المتقدمين، وكان الله قادرًا على أن ينزل معجزةً حسيةً تُذِلُّ من يراها، كما قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، لكنه سبحانه وتعالى شاء أن يجعل معجزة هذه الرسالة الأخيرة آية غير قاهرة، لقد جعل آية القرآن منهاج حياة كاملة، معجزًا في كل ناحية، معجزًا في بنائه التعبيري، وتنسيقه الفني... معجزًا في بنائه الفكري، وتناسق أجزائه وتكاملها؛ فلا فلتة فيه ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسق، وتتكامل، وتحيط بالحياة البشرية وتستوعبها وتلبيها، وتدفعها دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهج السامي الشامل.

معجزًا في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها وفتح مغاليقها وعلاجه لعقدها ومشاكلها في بساطة ويسر عجيبين؛ من أجل ذلك كان من المناسب أن تكون معجزة القرآن مفتوحة للبعيد والقريب، لكل أمة ولكل جيل.

ومن معجزاته ﷺ الخارقة: إسراء الله بنبيه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ حيث جمع الله له الأنبياء؛ فصلى بهم إمامًا، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١].

ومن معجزاته ﷺ: انشقاق القمر؛ حيث سأله أهل مكة آيةً؛ فانشق القمر شقين حتى رأوا حراءَ بينهما، وقد كان القمر عند انشقاقه بدرًا، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١، ٢]، ومن معجزاته ﷺ باختصارٍ تكثير الطعام ببركة يديه ﷺ ونبع الماء من بين أصابعه يديه الشريفتين؛ قال الشاعر:

يَا مَنْ تَفَجَّرَت الأنهارُ نَابِعَةً مِن ❖ أُصْبُعَيْهِ فَرَوَّى الجَيْشُ بالمَدَدِ

ومنها: كف الأعداء عنه، ومثاله كف الله تعالى لسراقة بن مالك حينما أراد النبي ﷺ فارتطمت بسراقة فرسه إلى بطنها في أرض صلبة، وتكرر مثل ذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ومنها: إجابة دعوته، ومنها إبراء المرضى.

ومنها: الإخبار بالأمور الغيبية.

ومنها: حنين الجذع في مسجده ﷺ.

ومنها: انقياد الشجر وتسليمه وكلامه.

ومنها تسليم الحجر.

ومنها شكوى البعير له من صاحبه... إلى غير ذلك من الآيات البينات والمعجزات الباهرات.

ويكفي خاتم النبيين ﷺ دلائل على نبوته ما عرف به ﷺ من محاسن الأخلاق، وصدق الأقوال والأفعال وحميد السيرة.

يقول القاضي عياض -رَحِمَهُ اللهُ- :

وإذا تأمل المتأملُ المنصفُ ما قدمناه من جميل أثره، وحميد سيرته، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وحلمه، وجملة كماله وجميع خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله- لم يمتر في صحه نبوته وصدق دعوته. انتهى كلامه.

٢- كرامات الأولياء: تعريفها والفرق بينها وبين الولاية الشرعية والمنفية:

كرامات الأولياء:

الكرامة لغة: يقال: كرم الشيء كرمًا أي: نفس وعزّ؛ فهو كريم، والجمع: كرام وكرماء، والأنثى كريمة، وجمعها كريمات وكرائم، والكريم: الصفوح، والكَرْمُ -بسكون الراء- : القلادة. يقال: رأيت في عنق المرأة كَرْمًا حسنًا من لؤلؤٍ، والمَكرُمة: واحدة المكارم، والأكرومة من الكرم، كالأعجوبة من العجب، والتكريم والإكرام بمعنى. والاسم منه: الكرامة، يقال: حمل إليه الكرامة، وهي مثل النُّزُل، أي: الهدية، والكرم ضد اللؤم، فيقال: كرم الرجلُ كَرَامَةً وكَرَمًا ومَكْرُمَةً فهو كَرِيْمُ، ويقال: له عَلَيَّ كَرَامَةٌ، أي: عَزَازَة.

ويقول الزمخشري في كتابه (أساس البلاغة):

كَرْمَ علينا فلانٌ كَرَامَةً، وله علينا كرامة، وأكرمه الله وكرمه، وأكرم نفسه بالتقوى، وأكرمها عن المعاصي، وهو يتكرم عن الشوائب، قال أبو حية:

ألم تعلمي أني إذا النفس أشرفت ❖ عَلَى طمعٍ لَم أَنْسَ أَنْ أَتَكَرَّمَ

انتهى.

أما تعريف الكرامة اصطلاحًا: فقال الجرجاني في تعريفاته:

"الكرامة هي ظهور أمرٍ خارقٍ للعادةِ من قبل شخص غير مقارنٍ لدعوى النبوة، فما لا يكون مقرونًا بالإيمان، والعمل الصالح يكون استدراجًا، وما يكون مقرونًا بدعوى النبوة يكون معجزة". انتهى.

وقال السفاريني -رَحِمَهُ اللهُ- في كتابه (لوامع الأنوار):

الكرامة: هي أمر خارق للعادة غير مقرونٍ بدعوى النبوة، ولا هو مقدمة لها، يظهر على يدي عبد ظاهر الصلاح، ملتزمٍ لمتابعة نبيٍّ كلف بشريعته، مصحوبٍ بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، علم بها ذلك العبد الصالح أم لم يعلم. انتهى كلامه.

وقال شارح (العقيدة الطحاوية):

"فالمعجزة في اللغة تَعُمُّ كلَّ خارقٍ للعادةِ وكذلك الكرامة في عرف أئمة أهل العلم المتقدمين، ولكنْ كثيرٌ من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما؛ فيجعلون المعجزة للنبي، والكرامة للولي، وجماعهما الأمر الخارق للعادة". انتهى كلامه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ- تحت عنوان "قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات":

وإن كان اسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة، وعُرْفِ الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ويسمونها الآيات، لكن كثير من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما فيجعل المعجزة للنبي، والكرامة للولي، وجماعهما الأمر الخارق للعادة.

فنقول: صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم والقدرة والغنى، وإن شئت أن تقول: العلم والإرادة والقدرة، أما على الفعل وهو التأثير، وإما على الترك وهو الغنى، والأول أجود، وهذه الثلاثة لا تصلح على وجهِ الكمال إلا لله وحده؛ فإنه الذي أحاط بكل شيءٍ علمًا، وهو على كل شيءٍ قدير، وهو غنيٌّ عن العالمين.

وقد أمر الرسول ﷺ أن يَبْرَأَ من دعوى هذه الثلاثة بقوله: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وكذلك قال نوح # فهذا أول أولي العزم، وأول رسول بعثه الله إلى الأرض، وهذا خاتم الرسل، وخاتم أولي العزم، كلاهما تبرأ من ذلك، وهذا لأنهم يطالبون الرسول ﷺ تارةً بعلم الغيب، كقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٤٨].

فما كان من الخوارق من باب العلم، فتارةً بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، وتارةً بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة ومنامًا، وتارةً بأن يعلم ما لا يعلم غيره وحيًا وإلهامًا أو إنزال علمٍ ضروريٍّ، أو فراسةٍ صادقةٍ، ويسمى كشفًا ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات؛ فالسماع مخاطبات، والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفة، ويسمى ذلك كله كشفًا، ومكاشفةً، أي: كشف له عنه. وما كان من باب القدرة فهو التأثير، وقد يكون هِمَّةً وصدقًا ودعوةً مجابةً. وقد يكون من فعل الله الذي لا تأثير له فيه بحال، مثل هلاك عدوه بغير أثرٍ منه؛ كقوله: ((مَن عَادَ لِي وليًّا؛ فقد بارزني بالمحاربة، وإني لأثأر لأوليائي، كما يثأر الليثُ الحَرِنُ)) ومثل تذليل النفوس له ومحبتها إياه ... ونحو ذلك". انتهى كلامه.

وأما الولاية: فهي مرتبة عظيمة لا يبلغها إلا من تولى الله تعالى بالطاعة، وتوالت عليه آلاء الله تعالى وألطافه، ولها شرطان وضحتهما الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٣] فالشرطان هما: الإيمان والتقوى.

يقول الدكتور أحمد سعد حمدان في مقدمة تحقيقه لكتاب (كرامات الأولياء):

"كرامات أولياء الله ﷻ: اللالكائي -رَحِمَهُ اللهُ- يقول: الولاية هي مرتبة في الدين عظيمة لا يبلغها إلا من قام بالدين ظاهرًا وباطنًا، فالولاية لها جانبان: جانب يتعلق بالعبد، وهو القيام بالأوامر، واجتناب النواهي، ثم التدرج في مراقي العبودية بالنوافل، وجانب يتعلق بالرب ﷻ وهو محبة هذا العبد ونصرته وتثبيته على الاستقامة.

أما ما قد يظهر على يديه من عجائب الأمور؛ فإن ذلك شيء إضافي، وليس من شروط الولاية؛ قال ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] هذه من جانب الرب ﷻ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣] وهذه من جانب العبد، ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] وهذه من جانب الرب ﷻ.

فالمعنى: العبد الذي آمن بالله ﷻ أي صدق به وبما جاء عنه سبحانه في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله ﷺ والتزم بشرعه ظاهرًا وباطنًا، ثم داوم على ذلك بمراقبة الله ﷻ وملازمة التقوى والحذر من الوقوع فيما يسخطه عليه من تقصير في واجب، أو ارتكابٍ لمحرمٍ هذا العبد هو وليّ الله ﷻ يحبه وينصره، ويبشره برضوانه وجنته، وعند فراقه الدنيا يرتفع عنه الخوف والحزن لما يكشف له من رحمة الله وبشارته". انتهى كلامه.

وللولاية الشرعية شروط: منها: الإيمان والتقوى، وقد نص على ذلك الإمام ابن كثير حيث قال:

إن الأولياء هم جمعوا بين الإيمان والتقوى كما فسرهم ربهم في الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٣] فكل من كان تقيًّا كان لله وليًّا؛ ولهذا قال الإمام الشافعي -رَحِمَهُ اللهُ-: إذا لم يكن العلماء أولياء فليس لله تعالى ولي". انتهى.

وقد نظم هذا المعنى المختار ابن بونة الجكني -رَحِمَهُ اللهُ- حيث قال:

والأولياءُ المؤمنونَ الأتقياءُ ❖ فالعلماءُ العاملونُ أولياءُ

فكل من اتَّقَى الله تعالى مؤمنًا فهو من أولياء الله تعالى، وقد دخل في الآية، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولي؛ فالولي الذي يوالي عبادته وطاعته؛ وطاعته تجري من غير أن يتخللها عصيان مقصود، له شروط منها: أن يكون عالمًا بأصول الدين حتى يفرق بين الخالق والمخلوق، وبين النبي والمتنبي، وأن يتصف بالأخلاق الحميدة التي دل عليها الشرع والنظر، من الورع عن المحرمات بل والمكروهات، وامتثال الأوامر، وإخلاص العمل لله ﷻ وأن لا يتعلق قلبه بما سوى الله تعالى، وأن يكون حسن المتابعة للنبي ﷺ والاقتداء بسنته في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ.

يقول العلامة شهاب الدين الآلوسي -رَحِمَهُ اللهُ-:

وأحسن ما يعتمد عليه في معرفة الولاية اتباع الشريعة الغراء، وسلوك المحجَّةِ البيضاء، فَمَن خَرَجَ عنها قيدَ شبرٍ بَعُدَ عن الولاية بمراحل. فلا ينبغي أن يطلق

عليه اسم الولي، ولو أتى بألف ألف خارق؛ فالولي الشرعي اليوم أعز من الكبريت الأحمر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أما الخيام فإنها كخيامهم ❖ أرى نساء الحي غير نسائها

انتهى.

غلو الصوفية في الولاية المنفية:

لقد نظر الصوفية إلى الولاية والكرامة نظرةً غاليةً، ومصادمةً للنص، ومخالفةً للشرعِ؛ فجعلوها دائرةً يدخل فيها التقي وغير التقي، فكلٌّ من ظهر على يديه أمر خارق للعادة، أو زعموا أن فيه سرًّا إلهيًّا، أو انتسب إلى سلسلة المشايخ وأرباب الطرق فهو الولي عندهم الذي تولى الله تعالى أمره، وجعل فيه سره فهو مطلع على ملكوت السموات، مشاهد للأفعال والصفات؛ ولهذا عرَّفُوا الولايةَ بأنها: قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه.

والولي من توالت طاعته من غير أن يتخللها عصيان، أو من يتوالى عليه إحسان الله وإفضاله، وهو العارف بالله وصفاته، بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات، المجتنب للمعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات، وقد سئل شيخ الطريقة التيجانية عن الولي؟ فقال: الولي من تولَّى اللهُ أمرَهُ بالخصوصية مع مشاهدة الأفعال والصفات. انتهى.

وهذا التعريف الغامض للولي ما سره؟

السرُّ في غموض تعريف القوم للولي هو احتكارهم للفضائل؛ كي لا تكون لغيرهم من سائر المؤمنين والمسلمين، وبذلك تختص الولاية بمشايخ الطرق، المأذون لهم في إعطاء الوردِ والتربيةِ الخلويةِ؛ ومن هنا كان الولي عند الصوفية لا يعرفه إلا الخواص.

أما عامة المسلمين: فلا سبيلَ لهم إلى معرفة الولي، ويشهد لهذه الحقيقة ويقررها ما يلي:

سئل التيجاني عن الله تعالى وعن الولي، أيهما معرفته أصعب؟

فقال: معرفة الولي أصعب من معرفة الله تعالى. وأبعد المرسي من أئمة الصوفية في تعريف الولي حتى قال: إن الولي لو كُشِفَ للناس لعبدوه؛ لأن حقيقة الولي أنه يُسْلَبُ من جميع البشرية، ويتحلى بالأخلاق الإلهية ظاهرًا وباطنًا، وقالوا: إن دائرة الولي أوسع من دائرة النبي، وهذا تفضيل منه للولي على النبي، بأسلوب خفي.

يقول السراهندي مبينًا مقام الولاية عندهم:

وأنه يصح أن يشارك النبي الولي، ينبغي أن يعلم أنه يصح أن يصل شخصٌ من طريق قربِ الولاية إلى قربِ النبوة، ويكون شريكًا في كلتا المعاملتين، ويعطى محلًّا هناك أيضًا؛ بتطفل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ويجعل معاملة كلا الطرفين مربوطة به، ليس على الله بمستكثر أن يجمع العالم في واحدٍ؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ولم تقف الصوفية عند هذا الحد من الغلو في الولاية، وزعمهم أنها تزاحم النبوة، وتقاربها حتى ادعوا أن منزلة الولاية أعلى من مرتبة النبوة.

يقول ابن عربي الصوفي:

مَقَامُ النبوةِ فِي بَرْزَخٍ ❖ فُوَيْقَ الرَّسُوْلِ وَدُوْنَ الوَلِي

بين الولاية والرسالة برزخ ❖ فيه النبوة حكمها لا يجهل

ويصرح ابن عربي بهذا المعتقد، وهو اعتقاد غلاة الصوفية فيقول:

ولَمَّا مَثَّلَ النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللَّبِنَ، وقد كمل سوى موضع لبنةٍ؛ فكان ﷺ تلك اللبنة؛ غير أنه ﷺ لا يراها كما قال لبنةً واحدةً. وأما خاتم الأنبياء فلابد له من هذه الرؤية فيرى ما مثل به رسول الله ﷺ ويرى في الحائط موضع لبنتين، واللبن من ذهب وفضة فيرى اللبنتين اللتين تنقص الحائط عنهما، وتُكمل بهما لبنة ذهبٍ ولبنة فضة؛ فلابد أن يرى نفسه تنطبع في موضع تين اللبنتين فيكون خاتم الأولياء تين كاللبنتين؛ فكمل الحائط.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ-:

ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نُصَرَاءَ يعينونهم على قتال المسلمين، وأنهم من أولياء الله وأولئك يكذبون؛ أن يكون معهم من له خرق عادة. والصواب القول الثالث، وهو أن معهم من ينصرهم من جنسهم لا من أولياء الله ﷻ وهؤلاء العُباد والزهاد الذين ليسوا من أولياء الله المتقين المتبعين للكتاب والسنة تقترن بهم الشياطين؛ فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله، لكن خوارق هؤلاء يعارض بعضها بعضًا، وإذا حصل من له تمكن من أولياء الله أبطلها عليهم ولابد أن يكون في أحدهم من الكذب جهلًا أو عمدًا، ومن الإثم ما يناسب حال الشياطين المقترنة بهم؛ ليفرق الله بذلك بين أوليائه المتقدمين، وبين المتشبهين بهمه من أولياء الشياطين انتهى كلامه.

ذكر أمثلة لبعض الكرامات:

لا شك أن الكرامة تأييد من الله تعالى لعبده المطيع، المقرب الذي انقطع عن الخلق، واستغنى بعبادة خالقه ومولاه، وكرامات أولياء الله تعالى إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ.

فمن الكرامات الصحيحة الثابتة: ما ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ- في مجموع الفتاوى: حيث قال:

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدًّا مثلما كان من أسيد بن حضير كان يقرأ سورة الكهف؛ فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج، وهي الملائكة؛ نزلت لقراءته. وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين. وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها. وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة؛ فأضاء لهما نور مثل طرف الصوت، فلما افترقا افترق الضوء معهما. رواه البخاري وغيره. وخبيب بن عدي كان أسيرًا عند المشركين بمكة -شرفها الله تعالى- وكان يُؤْتَى بِعنَبٍ يأكله وليس بمكة عنب. وخرجت أم أيمن مهاجرةً، وليس معها زاد ولا ماء؛ فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر، وكانت صائمة سمعت حسًّا على رأسها فرفعته؛ فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت، وما عطشت بقية عمرها.

وسفينة مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسولُ رسولِ الله ﷺ فَمَشَى مَعَهُ الأسد حتى أوصله مقصده. والبراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه، وكانت الحرب إذا اشتدت على المسلمين في الجهاد، يقولون: يا براء، أقسم على ربك؛ فيقول: يا ربِّ أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم، فيهزم العدو؛ فلما كان يوم القادسية قال: أقسمت عليك يا ربي لما منحتنا أكتافهم، واجعلني أول شهيد، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيدًا > ، وخالد بن الوليد حاصر حصنًا منيعًا؛ فقالوا: لا نسلم حَتَّى تَشْرَبَ السم فشربه فلم يضره، وعمر بن الخطاب لما أرسل جيشًا أَمَّرَ عليهم رجلًا يسمى سارية؛ فبينما عمر يخطب؛

فجعل يصيح على المنبر يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، فقدم رسول الجيش؛ فسأل فقال: يا أمير المؤمنين، لقينا عدوًّا فهزمونا فإذا بصائحٍ يا سارية الجبل، يا سارية الجبل فأسندنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم الله. انتهى.

ومن القصص الخرافية والحكايات الموغلة في الكذب لأولياء الصوفية: ما يزعمونه من كرامات، وهي كثيرة جدًّا، ولها كتب خاصة بذكرها كـ(الطبقات للشعراني) وغيره، فمن ذلك القصة المضحكة التالية التي يرويها الشعراني عن أحد شيوخه؛ حيث قال: ولقد قصدته في حاجةٍ وأنا فوق سطوح مدرسة أم خُنْد بمصر، فرأيته خرج من قبره يمشي من دمياط، وأنا أنظر إليه إلى أن صار بيني وبينه نحو خمسة أذرع، فقال: عليك بالصبر، ثم اختفى.

ومن كرامات الشيخ علي وحيش الصوفي: أنه كان يقيم في خان بنات الخطا فكان كلُّ من خرج يقول له الشيخ: قف حتى أشفع لك عند الله تعالى، فيشفع له، ولا يمكن أن يخرج أحدٌ حتى يجاب الشيخ في شفاعته؛ فكان منهم من يمكث اليوم واليومين ومنهم من كان في حلقة فنزل شيئًا من السماء ثم ارتفع؛ فسألوا الشيخ عنه فقال: هذا ملك وقعت منه هفوة؛ فسقط علينا يستشفع بنا؛ فقبل الله شفاعتنا فيه.

وكان هذا الشيخ إذا شاوره أحدٌ في أمر يقول له: أمهلني حتى أستشيرَ فيه جبريل # ومنهم من يحكون عنه أنه توضأ يوم قبل آذان العصر واضطجع على سريره، ومكث سبع عشر سنة، ثم قام فصلى بذلك الوضوء، ومن ذلك قول أحدهم: دعوت الله ست سنوات أن يرزقني الولد- فلم أرزق، وذهبت إلى شيخي مصطفى النقشبندي في أربيل، فما أن طلبت منه الولد حتى رزقت بتوأمين، والعياذ بالله.

والحاصل: أن الحكايات في هذا الباب عالم واسع من الخرافة لا ينتهي، والرد على هذه الخرافات والقصص في إثبات الكرامات المنفية، والرفع من شأن الأولياء- ليس معناه أن أهل السنة والجماعة ينكرون الكرامة، أو أن الله تعالى لا يخص أولياءه المتقين بأمورٍ تأييدًا لهم هذه الأمور قد تكون خارقة للعادة، لكن الصوفية وغلاتهم بالذات توسعوا في هذا الباب حتى أخرجوا الولاية من منزلتها، ورفعوها إلى أن قاربت منزلة النبوة، بل صرحوا بأنها أعلى من مقام النبوة -كما تقدم.

وأخيرًا يقول السفاريني -رَحِمَهُ اللهُ- في منظومته:

فكلُّ خارقٍ أتى عن صالحٍ ❖ من تابعٍ لشرعنا وناصحِ

فإنها من الكرامات التي ❖ بها نقول فاقف الأدلة

ومن نفاها من ذوي الضلال ❖ فقد أتى من ذاك بالمحال

فإنها شهيرة ولم تزل في ❖ كل عصر يا شقا أهل الزلل

٣- الفرق بين آيات الأنبياء وكرامات الأولياء وخوارق العادات الأخرى:

لقد تقدّم معنا أن الله ﷻ يُرسل أنبياءه ورسله الذين يصطفيهم على سائر البشر؛ ليبلغوا أوامر الله تعالى، وينشروا رسالته السماوية إلى كافة البشر، فيكونون بذلك واسطةً بين الله تعالى وخلقه في إبلاغ الوحي، ونشر الحقّ والصّدق، وإخراج الناس من الظّلمات إلى النور، وعندما يصطفي ربنا -تبارك وتعالى- هؤلاء الرسل يُصادفون -كما جرت عادة الأمم- أعداءً من الكفار المكذبين، وأعداء الرسل المعاندين، فيقفون في وجه دعوات الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ويصدّون الناس عن الإيمان بالله تعالى، ويحذّرونهم من الانفراط في

سلك تلك الرسالات السماوية مشكّكين في صدق الرّسل، ومكذبين بالوحي، والاتصال بالسّماع، ومتحدّين للرسل في إثبات صدق ادّعائهم، وأن الله تعالى أرسلهم برسالاته السماوية، وأنزل عليهم ملائكته، وأيّدهم بوحيه.

عند ذلك يصبح الرسل في حاجةٍ لما يبين صدق دعواهم، فيجري الله ﷻ على أيدي رسله معجزات، ويؤيّدهم بآياتٍ غريبة، غريبة على الناس، وليست في مقدورهم يتحدّى الله تعالى بها أعداء الرسل والمكذبين، ويبيّن بها صدق دعوات الرسل، وغالبًا ما يرعوي المعاند عند رؤيته لهذه المعجزات النبوية، كما حصل لسحرة فرعون عندما شاهدوا آية موسى # وانقلاب العصا حيةً تسعى، فأعلنوا إيمانهم بالله تعالى، وكفرهم بفرعون، وردّ ألوهيته، قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤-٤٨]، بينما الكرامة أمر خارق للعادة، وغريب على الناس، لكنه غير مقرون للتحدي وليس لصاحب الكرامة فيه تدخّل، بل إن الكرامة قد تحصل للرجل الصالح من غير علمه، فعنصر التحدّي هو أكبر فرقٍ بين المعجزة والكرامة.

يقول سيد سابق - رحمه الله - :

"لم يُرسل الله رسولًا ليبلغ الناس الدّين، ويعلّمهم الشريعة، إلا وأيده بالآيات التي تقطع بأنه مرسل من عنده، وأنه موصول بالملأ الأعلى يتلقّى عنه ويأخذ تعاليمه منه، وهذه الآيات التي يؤيّد الله بها رسله لا بد وأن تكون فوق مقدور البشر، وخارج نطاق طاقاتهم، وعلومهم، ومعارفهم، كما يجب أن تكون مخالفة للسنن الخاصة بالمادة، وخارقةً للعادات المعروفة، والقوانين الطبيعية

المألوفة، ولذلك سمى العلماء هذه الآيات بالمعجزات؛ لأنها تُعجز العقل عن تفسيرها، كما تعجز القدرة الإنسانية عن الإتيان بمثلها، ومن ثَمّ كانت المعجزة ضرورية وإظهارها واجبًا، ليتمّ بها المقصود من تبليغ الرسالة، وتُقام بها حجة الله على الناس، وهذه الآيات ممكنة في ذاتها، والعقل لا يمنعها، والعلم لا ينفيها، والواقع يؤيّدها، ولا تلتبس معجزات الرسل، وآيات الأنبياء بما يحدث على يد غيرهم من خوارق العادات، فإن المعجزات تأتي مصحوبةً بالتحدّي، وتصدر عن رجالٍ عُرفوا بالتّقوى والصلاح، وأنهم بلغوا منهما الذّروة التي لا يتطاول إليها أي إنسان.

وتأتي المعجزات بدون كسب بأحدٍ من الناس، وإنما هي آية من الله وحده، ومعجزة لنبيه يتحدّى بها معارضيه، وأما ما يظهر على يدي غير الرسل من خوارق العادات، هو كما قال الشيخ رشيد رضا، فنقلوا عن جميع الأمم في جميع العصور نقلًا متواترًا في جنسه دون أنواعه، وليست كلها حقيقيّةً، فإن منها ما له أسباب مجهولة للجمهور، وإن منها لما هي صناعي يستفاد بتعليم خاص، وإن منها لمن خصائص قوى النفس في توجيهها إلى مطالبها، وفي تأثير أقوياء الإرادة في ضعفائها، ويدخل في هذين الأمرين المكاشفة في بعض الأمور، والتنويم المغناطيسي، وشفاء بعض المرضى، ولا سيما المصابين بالأمراض العصبية التي يؤثّر فيها الاعتقاد والوهم.

ثم يقول: "ومنها انخداع البصر بالتخيل الذي يحذقه المشعوذون، ومنهم ما فعله سحرة فرعون المعني بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، ومنه انخداع السمع كالذي يفعله الذين يدعون استخدام الجن؛ إذ يتكلمون ليلًا بأصواتٍ غريبة عن أصواتهم المعتادة، فيظن مصدقهم أن ذلك صوت الجن، وقد يتكلمون نهارًا من بطونهم من غير أن يحركوا شفاههم، فلا

ينبغي أن يُوثق بشيءٍ من أخبارهم، فأين هذا من معجزات الأنبياء وآيات الرسل؟! أين هذا من انشقاق البحر لموسى، أو إحياء الموتى لعيسى، وإخراج الناقة من الصخرة لصالح، ونبع الماء من أصابع محمدٍ ﷺ؟!.

والكرامة هي ما يُكرم الله به أولياءه بما يظهره على أيديهم، وليس من شرطها أن تكون خارقةً للعادة، ولا خارجةً عن مألوف الناس، كما تقدّم معنا في المعجزة، ومن الكرامة الاستقامة والتوفيق إلى طاعة الله، والزيادة في العلم والعمل، وهداية الخلق إلى الحقّ، وقد يحدث بعضُ الخوارق للعادات على أيدي بعض الصالحين في بعض الأحوال، فيعدّ ذلك من الكرامات التي تلازم بعض المخلصين لله والمتفرغين لعبادته، والذين سلمت فطرهم، وزكت نفوسهم كما وقع للسيدة مريم، وقد حكى القرآن الكريم عنها أنه ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، ولكن مع ذلك لا يتحدّى بها، بل الأصل فيها الإخفاء والكتمان.

قال الشيخ أحمد الرفاعي:

"إن الأولياء يستترون من الكرامة، كما تستتر المرأة من دم الحيض، وهذا يُخالف المعجزة؛ لأن إظهارها واجبٌ ليتمّ بها تبليغ الرسالة". انتهى كلامه.

وكرامات أولياء الله تعالى إنما حصلتْ -وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله- ببركة اتباع رسول الله ﷺ، فهي في حقيقة الأمر تدخل في معجزاته ﷺ.

ثم يقول -رحمه الله-: ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه،

ويسدّ حاجته، ويكون من هو أكمل لله منه مستغنيًا عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلوّ درجته، وغناه عنها، لا لنقص ولايته؛ ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة بخلاف من تجري على يديه الخوارق؛ لهدى الخلق ولحاجتهم، فهؤلاء أعظم درجة". انتهى كلامه.

خوارق العادات الأخرى:

ليس كل من ظهر على يديه أمر عجيب، أو خارق من خوارق العادات يعد نبيًّا، وهذا الخارق معجزة، وكما أنه ليس بلازمٍ أيضًا أن يُعَدّ وليًّا من أولياء الله تعالى، وهذا الخارق كرامةً لصاحبه، وتأييدًا؛ بل هناك أمور عجيبة، وأحوال غريبةٌ تحصل على أيدي بعض الأشراف لا تدلّ على قربهم من الله تعالى، ولا أن الله تعالى يحبّهم؛ بل هي من قبيل الاستدراج والامتحان لصاحبها، فهناك السحرة، والمشحوذون، والدّجالون، الذين لهم صداقة، فيساعدونهم في بعض الأمور، كإحضار أمرٍ من مسافةٍ بعيدة، وإخراج شيءٍ من صندوقٍ مقفل، وسماع أصواتٍ من جمادات إلى غير ذلك.

فينبغي أن يعلم أن الأمور التي يُظهرها أمثال هؤلاء من الخوارق مما هو غير معتاد للناس ومألوفٍ عند البشر ليس من قبيل الكرامات، ولا المعجزات، وإنما هي أمور يستدرج الله ﷻ بها هؤلاء، ومن في حكمهم.

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر في كتابه (الرسالة والرسول):

"ضلّ كثير من الناس عندما ظنّوا أن كل من جرت على يديه خوارق العادات فهو من أولياء الله الصالحين، فبعض الناس يطيرُون في الهواء، ويمشون على الماء، ونحو ذلك، وهم من أفجر خلق الله، بل قد يدّعون النبوة، مثل الحارث

الدمشقي الذي خرج بالشام في زمن عبد الملك بن مروان، وادّعى النبوة. وقد أظهر أمورًا خارقة للعادة، فكانوا يضعون القيود في رجليه، فيخرجها، ويضرب بالسلاح فلا يؤثر فيه، وتسبّح الرخامة إذا مسّها بيده، وكان يري الناس رجالًا وركبانًا على خيلٍ في الهواء، ويقول: هي الملائكة.

وهذا وأمثاله من فعل الشياطين، ولذلك إذا حضر بعض الصالحين هذه الأحوال الشيطانية، وذكر الله، وقرأ آية الكرسي، أو شيئًا من القرآن- بطلتْ أحوالهم هذه.

فهذا الحارث الدمشقي الكذاب لما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه طاعن بالرمح، فلم تجرِ على يديه أمور خارقةً للعادة تُذهل من يَرَاها، وهو مع ذلك يدّعي الألوهية.

فالخوارق ليست دليلًا على أن صاحبها وليّ لله تعالى، فالكرامة سببها الإيمان والتقوى والاستقامة على طاعة الله تعالى، فإذا كانت الخارقة بسبب الكفر، والشرك، والطغيان، والظلم، والفسق، فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانيّة". انتهى كلامه.

ويقول ابن أبي العز الحنفي - رحمه الله:

"ثم الخارق من حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها دينًا وشرعًا. إما واجب أو مستحب، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكرًا، وإن كان على وجهٍ يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه كان سببًا للعذاب أو البغض، كالذي أُوتي الآيات فانسلخ منها "بلعم بن باعورا"، لكن قد يكون صاحبها معذورًا؛ لاجتهادٍ، أو تقليدٍ، أو

نقص عقلٍ أو علمٍ، أو غلبة حال، أو عجزٍ أو ضرورة، فالخارق ثلاثة أنواع: محمود في الدين، ومذموم، ومباح. فإن كان المباح منفعةً كان نعمة، وإلا فهو كسائر المباحات التي لا منفعة فيها.

قال أبو عليٍ الجوزجاني - رحمه الله:

"كن طالبًا للاستقامة لا طالبًا للكرامة، فإن نفسك متحركة لطلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة، وأما ما يبتلي الله به عبده من السحر كخرق العادة أو بغيرها، أو بالعز، فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه، ولا لهوانه عليه، بل قد سعد بها قوم إذا أطاعوه، وشقي بها قوم إذا عصوه، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] ولهذا كان الناس في هذه الأمور ثلاثة أقسام: قسم ترتفع درجتهم بخرق العادة، وقسم يتعرّضون بها لعذاب الله، وقسم يكون في حقّهم بمنزلة المباحات، وتنوّع الكشف، والتأثير باعتبار تنوع كلمات الله". انتهى كلامه.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله:

"وهكذا أهل الأحوال الشيطانيّة تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذُكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسي، ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانيّة بصدقٍ أبطلها مثل من يدخل النار بحالٍ شيطاني، أو يحضر سماع المكاء والتصدية، فتنزل عليه الشياطين، وتتكلم على لسانه كلامًا لا يُعلم، وربما لا يفقه، وربما كاشف بعض الحاضرين مما في قلبه، وربما تكلّم بألسنةٍ مختلفة، كما يتكلّم الجنّي على لسان المصروع. ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمةٍ وفواكه، وحلوى،

وغير ذلك ممّا لا يكون في ذلك الموضع. ومنهم من يطير بهم الجني إلى مكة، أو بيت المقدس، أو غيرهما. ومنهم من يحمله عشية عرفة، ثم يعيده من ليلته، فلا يحجّ حجًّا شرعيًّا، وبين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة". انتهى كلامه.

الحكمة من خلق العادة:

لقد بيّنّا سابقًا أن الخوارق أنواع؛ فمنها الخوارق التي يؤيّد الله تعالى بها عباده المرسلين تُسَمّى تلك الخوارق آيات ومعجزات، ومنها خوارق يُكرم الله تعالى بها عباده الصالحين المقرّبين، وهي دليل على صلاحهم، وصدق إيمانهم، وتفانيهم، وانقطاعهم عن الخلق إلى عبادة الله تعالى، والاشتغال بطاعته. ومنها خوارق يُظهرها الله تعالى على أيدي بعض عبيده من الكفّار، والفلاسفة، والمشعوذين، وهي ليست دليلًا على محبة الله تعالى لهم، بل هي امتحان واستدراج لهؤلاء الذين أَطلق عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- لقب "أصحاب الأحوال الشيطانية". فنجد أن الحكمة من إظهار خوارق الآيات والمعجزات، هو تأييد الله تعالى لأنبيائه ورسله، ونصرتهم، وتسليتهم؛ ليعلموا أن الله تعالى مؤيّدهم وناصرهم ومعينهم، وهي في الوقت نفسه دعوة للمعاندين للرسل إلى التصديق برسالات الأنبياء، واتّباع الرّسل، وترك مخالفتهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله:

"كثير من المتكلمين يقولون: لا بد أن تتقدّم المعرفة أولًا بثبوت الرّبّ وصفاته التي يعلم بها أنه هو، ويُظهر المعجزة، وإلا تعذّر الاستدلال بها على صدق الرسول، فضلًا عن وجود الرب.

فقد جاء القرآن بها في قصة فرعون، فإنه كان منكرًا للرب، قال تعالى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ إلى قوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦- ٣٣]، فهنا قد عَرَض عليه موسى الحجّة البينة التي جعلها دليلًا على صدقه في كونه رسول رب العالمين، وفي أن له إلهًا غير فرعون يتّخذه، وكذلك قال تعالى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [هود: ١٤].

فبين أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة، وذلك لأن المعجزة التي هي فعل خارق للعادة تدلّ بنفسها على ثبوت الصانع، كسائر الحوادث بل هي أخصّ من ذلك؛ لأن الحوادث المعتادة ليست في دلالة الحوادث الغريبة، ولهذا يسبّح الرب عندها ويمجد، ويعظم ما لا يكون عند المعتاد، ويحصل في النفوس ذلّة من ذكر عظمته ما لا يحصل للمعتاد؛ إذ هي آيات جديدة، فتعطى حقّها، وتدل بظهورها على الرسول. وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله، فتتقرّر بها الربوبية والرسالة، لا سيما عند من يقول: دلالة المعجزة على صدق الرسول ضرورية، كما هو قول طائفةٍ من متكلمي المعتزلة الجاحظ، وطوائف من غيرهم كالأشعرية والحنبلية الذين يقولون: يحصل الفرق بين المعجزة، والسحر، والكرامة بالضرورة". انتهى كلامه.

كما أن الله تعالى يؤيّد أولياءه الصالحين، وعباده المخلصين بخرق العادة، ويُسمى هذا الخارق كرامة، والحكمة من الكرامة هي إكرام الله تعالى لعباده الصالحين من أجل صلاحهم، وزهدهم، وقوة إيمانهم، وقد يكون إعطاء الكرامة سدًّا لحاجتهم، كالحاجة إلى الطعام والشراب والراحة والنوم والأمن، وقد تكون الكرامة بنصرة الدين وإظهاره على الخصوم، ورفعة لصاحبها وإعلاءً لكلمة الله، حتى يظهر الحق، ويختفي الباطل وينهزم.

وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن التأييد بالاستقامة أفضل من التأييد بالكرامة، وأن القصد من الكرامة حصول اليقين للعبد الصالح إذ يقول:

الحكمة فيه: أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثارها والقدرة تفننًا، فيقوى عزمه على هذا الزهد في الدنيا، والخروج من دواعي الهوى، وقد يكون بعض عباده يُكاشف بصدق اليقين، ويرفع عن قلبه الحجاب، ومن كوشف بصدق اليقين أغنى بذلك عن رؤية خلق العادات؛ لأن المراد منها حصول اليقين، وقد حصل اليقين، فلو كوشف هذا المرزوق صدق اليقين بشيءٍ من ذلك لازداد يقينًا، فلا تقتضي الحكمة كشف القدرة لخوارق العادات لهذا الموضع؛ استغناءً به، وتقتضي الحكمة كشف ذلك الآخر لموضع حاجته، وكان هذا الثاني يكون أتمّ استعدادًا وأهليةً من الأول، فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة، فهي كل الكرامة.

٤- الأنبياء والرسل المذكورون في القرآن الكريم: أسماؤهم وعددهم:

لا شك أن الإيمان بالرسل -عليهم السلام- ركن من أركان الإيمان، التي لا يتمّ إيمان عبد إلا باعتقادها والإيمان الجازم بها، وهؤلاء الأنبياء والرسل الذين كان

الله -جل وعلا- يصطفيهم ويرسلهم إلى أممهم واسطة بينه تعالى وبين الأمم، وجم غفير، وأعداد كبيرة؛ لأن الله تعالى ﷻ رحيم بخلقه، فلإقامة الحجة على الناس والإعذار إليهم أرسل إلى كل أمة رسولًا؛ ليبيّن لهم ما أوحى إليهم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ومضى ركب الأمم على هذا المنوال كلما خلت أمة وانقطعت رسالة السماء التي أتاهم بها رسولهم؛ بعث الله للأمة الجديدة رسولًا جديدًا حتى بعث الله خاتم النبيين محمدًا ﷺ، فكانت رسالته خاتمة الرسالات السماوية- من أجل ذلك كانت عامة لجميع البشر، وتخاطب كافة الناس قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً﴾ [سبأ: ٢٨].

يقول سيد سابق -رحمه الله-: "أوجب الله على المسلم أن يُؤمن بجميع رسل الله دون تفريق بينهم، قال سبحانه: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وبين أن هذا هو إيمان المؤمنين فقال سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وأخبر أن البر في هذا الإيمان فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وإذا آمن الإنسان ببعض الرسل ولم يؤمن بالبعض الآخر، وفرّق بينهم في الإيمان فهو كافر قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وهؤلاء الرسل منهم من قصّه الله علينا، فذكرهم بأسمائهم، ومنهم من لم يقصصه علينا قال سبحانه: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤]. أما الذين قصّهم الله علينا فعددهم خمسة وعشرون وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

وقد جمعت هذه الآيات ثمانية عشر رسولًا، ويجب الإيمان بسبعة آخرين مذكورين في عدة آيات ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣] ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ [الأعراف: ٧٣] ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥] ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦] ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. انتهى كلامه.

ويقول ابن أبي العز الحنفي - رحمه الله - :

"وأما الأنبياء والمرسلون فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلًا سواهم، وأنبياء لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم، فعلينا الإيمان بهم جملة لأنه لم يأتِ في عددهم نصّ وقد قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤]، وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أُرسلوا به على ما

أمرهم الله به، وأنهم بيّنوه بيانًا لا يسع أحد ممّن أرسل إليه جهله، ولا يحلّ خلافه، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٨٢] ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤] ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [التغابن: ١٢]". انتهى كلامه.

والمسمّاة في القرآن الكريم من الرسل سبعة وعشرون رسولًا، ذكر أسماءهم الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- في (أعلام السنة المنشورة) حيث طرح السؤال التالي:

كم سمى الله منهم في القرآن الكريم؟ ثم قال في جوابه: "سُمي منهم فيه: آدم، ونوح، وإدريس، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، ولوط، وشعيب، ويونس، وموسى، وهارون، وإلياس، وزكريا، ويحيى، واليسع، وذو الكفل، وداود، وسليمان، وأيوب، وذكر الأسباط جملة، وعيسى، ومحمدًا ﷺ وعليهم أجمعين". انتهى كلامه.

ويقول الدكتور عمر سليمان الأشقر في كتابه (الرسل والرسالات):

"ذكر الله في كتابه خمسة وعشرين نبيًّا رسولًا، فذكر في مواضع متفرقة آدم، وهود، وصالحًا، وشعيبًا، وإسماعيل، وإدريس، وذا الكفل، ومحمدًا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ [الأعراف: ٧٣]﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥] ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥] ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩] وذكر ثمانية عشر، منهم في موضع واحد في سورة الأنعام، ومن هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب؛ فقد

جاء في حديث أبي ذرّ في ذكر الأنبياء والمرسلين ((منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر)) رواه ابن حبان في صحيحه". انتهى كلامه.

ما ورد في عدد الأنبياء - عليهم السلام - :

من سنة الله تعالى أنه لم يترك الخلق هملًا، ولم يخلقهم سدًى، بل خلق الله الخلق لعبادته وابتلاهم ليعلم أيهم أحسن عملًا، ومن أجل قيام الحجة عليهم، والإعذار إليهم، ولا أحد أعذر من الله، أرسل الله إلى الأمم السابقة رسلًا مبشرين ومنذرين، فكان الرسول يبعث في قومه خاصّة، يبشرهم، وينذرهم، ويقيم الحجة عليهم حتى إذا انقضت تلك الأمة، وانطمست أنوار الرسالة السماوية التي كان يحمل مشعلها ذلك الرسول؛ بعث الله سبحانه رسولًا آخر في الأمة الجديدة حتى يعرفوا ربهم ويعبدوه حقّ عبادته ويُطيعوا رسوله، وتصلح برسالة ذلك الرسول أمور دينهم ودنياهم.

وهكذا بعث الله رسله تترى كلما خلتْ أمة وانقضت رسالتها بعث الله في الأمة الجديدة رسولًا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ [يونس: ٤٧]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، حتى جاءت رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ فختمت الرسالات فلا رسالة بعد الإسلام. كما أن محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء فلا نبيّ بعده، من أجل ذلك كانت رسالة الإسلام عامّة تُخاطب جميع الأجناس، وكافة الأمم، وكان خاتم النبيين محمد ﷺ مبعوثًا لجميع الناس في كل زمان ومكان حتى تقوم الساعة.

وبناءً على ذلك، فنجد أن الأنبياء والرسل جمّ غفير، لا يعلم عددهم وأسماءهم إلا الله الذي خلقهم؛ فمنهم من قصّ الله تعالى قصته وعرفنا أخباره

في القرآن الكريم أو في السنة المطهرة، ومنهم من لم يقصصْ علينا خبره قال تعـــالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: ٧٨].

يقول السفاريني -رحمه الله- في منظومته في (لوائح الأنور):

ولم تزل فيما مضى الأنباء ❖ من فضله تأتي لمن يشاء
حتى أتى بالخاتم الذي ختم ❖ به وأعلن على كل الأمم

ويقول في موضع آخر:

وتقدّم أن جميع الأنبياء -عليهم السلام- من لدن آدم إلى خاتمهم نبينا محمد ﷺ مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، وأن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر؛ ففي صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر الغفاري > قال: "دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده فذكر حديثًا طويلًا، وفيه ((... قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: مائة وعشرون ألفًا. قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة وثلاث عشرة جمًّا غفيرًا. قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: آدم # . قلت: يا رسول الله أنبيّ مرسل؟ قال: نعم. خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلا، ثم يا أبا ذرّ أربعة سريانيون آدم، وشيث، وأخنوخ -وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم-، ونوح، وأربعة من العرب هود، وصالح، وشعيب، ونبيك محمد. قلت: يا رسول الله، كم كتابًا أنزله الله؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب، أُنزل على شيث خمسون صحيفة، وأنزل على أخنوخ ثلاثون صحيفة، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان)) الحديث.

وقد تكلّم عليه الولي العراقي، وردّ على ابن حبان جماعة من الحفاظ لإدخاله هذا الحديث في الصحيح، وفي كتاب (شرح الإيمان والإسلام) لشيخ الإسلام ابن تيمية في قول الإمام أحمد > في الرسل وعددهم، وأنه يجب الإيمان بهم ويصح الإقرار بهم في الجملة مع الكفّ عن عددهم، وكذلك ذكر محمد بن نصر المروزي وغيرهما من أئمة السلف قال: وهذا يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب، والرسل، وأن حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم.

وقد روي أن الأنبياء ألفُ ألفٍ، ومائة ألف، والمشهور في الكتب أنهم مائة ألف وأربعة عشر ألفًا.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح):

"أن بني إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياء، وبُعث إليهم موسى بن عمران بشريعة التوراة، وبعث إليهم بعده أنبياء كثيرون حتى قيل: إنهم ألف نبيّ كلهم يأمرون بشريعة التوراة، ولا يغيرون منها شيئًا، إلى أن جاء المسيح بعد ذلك بشريعة أخرى غيّر فيها بعض شريعة التوراة بأمر الله ﷻ". انتهى كلامه.

من هم أولو العزم من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ؟

لقد اصطفى الله النبيين - عليهم السلام - من بين البشر لأداء الرسالة، وإبلاغ الوحي، وهم كلهم مصطفون حازمون، جادون، صابرون، كاملو العقل، إلا أن الله سبحانه وتعالى اصطفى من بين هؤلاء الرسل مجموعة فضّلهم على سائر الرسل بصفات خُصّوا بها، وحالات تميزوا بها، سُمُّوا بأولي العزم من الرسل.

قال الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- في نظمه عن الرسل:

أولهم نوح بلا شك كما ❖ أن محمدًا لهم قد ختم

وخمسة منهم أولو العزم الأولى ❖ في سورة الأحزاب والشورى تلا

ثم قال الشيخ حافظ، وهو يشرح هذا النظم:

وخمسة منهم أي: من الرسل. أولو أي: أصحاب العزم، يعني: الحزم، والجد، والصبر، وكمال العقل. ولم يرسل الله تعالى من رسول إلا وهذه الصفات فيه مجتمعة، غير أن هؤلاء الخمسة أصحاب الشرائع المشهورة كانت هذه الصفات فيهم أكمل وأعظم من غيرها، ولذا خُصّوا بالذكر في سورة الأحزاب يعني قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. فذكر تعالى أخذه الميثاق على جميع النبيين جملة، ونصّ منهم على هؤلاء الخمسة محمد ﷺ وهو خاتمهم، ونوح وهو فاتحهم، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وهم بينهما.

وكذا ذكرهم على وجه التخصيص في سورة الشورى؛ إذ يقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وهؤلاء الخمسة هم الذين يتراجعون الشفاعة بعد أبيهم آدم # حتى تنتهي إلى نبينا محمد ﷺ فيقول: ((أنا لها)).

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة > عن النبي ﷺ في قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية قال النبي ﷺ: ((كنت أول النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث، فبدأ بي قبلهم)). وللبزار عنه >

قال: "خيار ولد آدم خمس: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ، وعليهم أجمعين- وخيرهم محمد ﷺ".

والقول بأن أولي العزم من الرسل هم هؤلاء الخمسة، هو قول ابن عباس، وقتادة، ومن وافقهما، وهو الأشهر، وقال الكلبي: هم الذين أَمروا بالجهاد، وأظهروا المكاشفة مع أعداء الدين، وقيل: هم ستة: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى -عليهم السلام-، وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف، وهود، والشعراء، وقال مقاتل: "هم ستة: نوح صبر على أذى قومه، وإبراهيم صبر على النار، وإسحاق صبر على الذبح، ويعقوب صبر على فقد ولده وذهاب بصره، ويوسف صبر على البئر والسجن، وأيوب صبر على الضرّ".

ولعلنا نلاحظ هنا في هذا النص الذي نقله الحافظ الحكمي -رحمه الله- عن مقاتل: أن الذي صبر على الذبح إسحاق، بينما الراجح في المسألة أن الذي صبر على الذبح هو إسماعيل.

وقال ابن زيد: كلّ الرسل كانوا أولي عزم، ولم يبعث الله نبيًّا إلا كان ذا عزم، وحزم، ورأي، وكمال عقل، وإنما أدخلت "من" للتجنيس لا للتبعيض، كما يقال: اشتريت أكيسة من الخز، وأردية من البز. وقال قوم: هم نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن مسروق قال: قالت عائشة > : ظلّ رسول الله ﷺ ثم طواه ثم ظل صائمًا، ثم طواه ثم ظل صائمًا، ثم قال: ((يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد، ولا لآل محمد. يا عائشة إن الله تعالى لم يرضَ من أولي العزم من

الرسل إلا بالصبر على مكروهها، والصبر على محبوبها، ثم لم يرضَ مني إلا أن يكلفني ما كلفني، فقال: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وإني والله لأصبر كما صبروا جهدي، ولا قوة إلا بالله)). انتهى كلامه رحمه الله.

ونقول: إن الذي يُؤخذ من هذه النصوص أن أهل العلم اختلفوا في تحديد أولي العزم من الرسل؛ فمنهم من خصّهم بأولئك الخمسة، وهم نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ، ومنهم من ذهب إلى أقوال فقال: إنهم الذين ثبت أنهم صبروا، وصرّح القرآن الكريم بصبرهم، ومدحهم الله تعالى بالصبر، وقيل: إنهم أولئك الذين جاهروا الأعداء بالجهاد، والقتال؛ فكانوا أيضًا أولي عزم من هذه الناحية، ومنهم من ذهب إلى أنهم الثمانية عشر المذكورين في سورة الأنعام، ومنهم من قال: إن المقصود بأولي العزم من الرسل: هم كل الرسل أولو عزم، وإن "من" هنا للتجنيس وليست للتبعيض، يعني قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ "من" هنا للتجنيس يعني: لبيان جنس الرسل، وليست للتبعيض، كما تقول: اشتريت أكيسة من الخز، وليس المقصود هنا من بعض الخز، وإنما هي هنا لبيان الجنس، فـ"من" هنا لبيان الجنس.

لكن الذي يترجّح -والله أعلم وهو قول الجمهور- أن المراد بأولي العزم من الرسل هم الخمسة الذين سبقت الإشارة إليهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد.

الإيمان بنبوة محمد ﷺ

عناصر الدرس

بيان ما تضمنته الكتب السماوية من ذكر نبوة محمد ﷺ والشواهد التاريخية الدالة على نبوته

١- بيان ما تضمنته الكتب السماوية من ذكر نبوة محمد ﷺ:

إشارة القرآن الكريم إلى بعض البشارات في الكتب السابقة:

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وفي هذه الآية بيان من أن من الآيات البينات الدالة على صدق الرسول ﷺ وصدق ما جاء به: علمَ بني إسرائيل بذلك، وهو علم مسجل محفوظ مكتوب في كتبهم التي يتداولونها؛ كما صرح الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

فالقرآن المنزل إلينا من ربنا العليم الخبير يحدثنا أن ذكر محمد ﷺ وأمته موجود في الكتب السماوية السابقة، وأن الأنبياء السابقين بشروا به.

وقد فهم جمعٌ من المفسرين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] أن الله أخذ العهد والميثاق على كل نبي: لئن بُعِث محمد ﷺ في حياته ليؤمنن به ويترك شرعه لشرعه؛ وعلى ذلك فإن ذكره موجود عند كل الأنبياء السابقين.

فالرسول ﷺ دعوة أبيه إبراهيم، فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إني عند الله مكتوب "خاتم النبيين" وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري: دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي؛ رأت حين وضعتني وقد خرج لها نور أضاء لها منه قصور الشام))، وهو حديث صحيح.

كما أخبرنا الله تعالى أن خليل الرحمن إبراهيم وابنه إسماعيل كانا يبنيان البيت الحرام ويدعوان، ومن دعائهما ما قصه علينا في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

وقد استجاب الله دعاء خليله إبراهيم وابنه نبي الله إسماعيل، وكان محمد ﷺ هو تأويل تلك الاستجابة، ولا تزال التوراة الموجودة اليوم -على الرغم من تحريفها- تحمل شيئًا من هذه البشارة.

وأما فيما يتعلق ببشارة موسى # بنبوة محمد ﷺ فقد جاء بني إسرائيل الخبر اليقين بالنبي الأمي على يد نبي الله موسى # منذ أمد بعيد؛ حيث عرفوا خبر بعثته وصفاته ونهج رسالته وخصائص ملته؛ فهو النبي الأمِّيّ، وهو يأمر بالمعروف وينهى الناس عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عمَّن يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم؛ فيرفعها عنهم النبي الأمِّيّ حين يؤمنون به.

وأتباع هذا النبي يتقون ربهم، ويخرجون زكاة أموالهم، ويؤمنون بآيات الله، وما جاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي ويعظمونه ويوقرونه وينصرونه ويؤيدونه ويتبعون النور الذي أنزل معه؛ قال تعالى: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه أولئك هم المؤمنون به المتبعون له.

وقد بقي من هذه البشارة شيء في التوراة، سوف نذكرها في موضعها -إن شاء الله تعالى.

ولعيسى # أيضًا بشارة بنبينا محمد ﷺ فقد أخبرنا الله تعالى أن عيسى بشر برسولنا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وأحمد من أسماء نبينا محمد ﷺ كما ثبت في (صحيح البخاري): عن جبير بن مطعم > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن لي أسماءً: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأن العاقب))، ورواه مسلم بنحوه.

وقد ضرب الله ﷻ في التوراة والإنجيل مثلين لخاتم النبيين ﷺ ولأصحابه { قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

إذًا، نستخلص من هذه الآيات التي وردت فيها بشارات عن الأنبياء السابقين بخروج نبي الله وصفوته من خلقه وخاتمة رسله محمد بن عبد الله ﷺ: أنه نبي

مبعوث كغيره من الأنبياء، وأن ذلك ثابت في التوراة التي أنزلت على نبي الله موسى # وفي الإنجيل الذي أنزل على نبي الله عيسى # ومن قبل ذلك دعوة أبي الأنبياء إبراهيم # قال الله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام- : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وكلام الله تعالى صدق وحق؛ فلا بد أن هذه البشارات موجودة في كتب أولئك الأنبياء، أو أن التحريف قد طالها كما طال غيرها من الأحكام والعقائد والتصورات التي حُرفت على أيدي القساوسة والمحرفين.

إلا أن العلماء الذين تتبعوا الموجود من الأديان السابقة وجدوا أن هذه البشارات التي فيها إشارة إلى بعثة نبينا محمد ﷺ ما تزال موجودة في المتبقي من التوراة والإنجيل، بعضها على سبيل التصريح، وبعضها الآخر على سبيل الإشارة.

بشارات التوراة:

قبل أن نذكر بشارات التوراة بنبوة محمد ﷺ يجدر بي أن أنقل نصًّا مناسبًا ذكره الشيخ رحمت الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) حيث يقول:

"قبل ذكر بعض هذه البشارات فيما يلي التنبيه إلى بعض الأمور:

أولًا: أن أنبياء بني إسرائيل أخبروا عن الحوادث الآتية: كحادثة بختنصر، وقورش، وإسكندر وخلفائه، وحوادث أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل؛ فيبعد كل البعد ألا يخبر أحد منهم بخروج محمد ﷺ الذي كان وقت ظهوره كأصغر البقول ثم صار شجرة عظيمة تتآوى طيور السماء في أغصانها.

ثانيًا: أن النبي المتقدم إذا أخبر عن النبي المتأخر لا يشترط أن يخبر عنه بالتفصيل التام؛ بل غالبًا ما يكون هذا الإخبار مجملًا؛ فيكون خفيًّا عند العوام، أما عند العلماء فيكون جليًّا بواسطة القرائن.

ولذلك عاتب المسيح # علماء اليهود بقوله المذكور في إنجيل لوقا، الإصحاح الحادي عشر، العدد الاثنين والخمسين: ويل لكم أيها الناموسيون؛ لأنكم أخذتم مفاتح المعرفة، ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم...

وقال علماء الإسلام: ما انفك منزل من السماء من تضمن الذكر النبي محمد ﷺ لكن بإشارات، ولو كان مُنجَلِيًا للعوام لما عوتب علماؤهم في كتمانه، ثم ازداد ذلك غموضًا بنقله من لسان إلى لسان.

ثالثًا: أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون نبيًّا آخر غير المسيح؛ ففي إنجيل يوحنا واحد، الإصحاح التاسع عشر العدد خمسة وعشرين: أن علماء اليهود سألوا يحيى # : أأنت المسيح؟ ولما أنكر سألوه: أأنت إيليا؟ ولما أنكر سألوه: أأنت النبي؟ أي: النبي المعهود الذي أخبر عنه موسى # .

فعلم أن النبي محمدًا كان منتظرًا مثل المسيح، وكان مشهورًا عندهم؛ بحيث ما كان محتاجًا إلى ذكر الاسم؛ بل الإشارة إليه كانت كافية.

رابعًا: أن أهل الكتاب سلفًا وخلفًا عادتهم جارية في تراجمهم بأنهم غالبًا يترجمون الأسماء ويوردون بدلها معانيها، ويزيدون تارة شيئًا بطريق التفسير في متن الكلام الذي هو -بزعمهم- كلام الله؛ فلو بدلوا في نصوص البشارات المحمدية اسمًا من أسماء النبي ﷺ أو زادوا شيئًا غامضًا؛ فلا استبعاد منه". انتهى كلامه.

فمن البشارات في التوراة باسم خاتم النبيين محمدٍ ﷺ يقول الدكتور عمر الأشقر:

"لقد صرح بعض هذه البشارات باسم محمد ﷺ وقد اطلع بعض علماء المسلمين على هذه النصوص؛ ولكن التحريف المستمر لهذا الكتاب أتى على هذه النصوص:

فمن ذلك ما ورد في سفر أشعيا: "إني جعلت أمرك محمدًا، يا محمد، يا قدوسَ الرب، اسمك موجود من الأبد". وقوله: إن اسم محمد موجود من الأبد، موافق لقول الرسول ﷺ: ((كنت نبيًّا وإن آدم لمنجدل في طينته))، وفي التوراة العبرانية في الإصحاح الثالث من سفر حبقوق: "وامتلأت الأرض من تمجيد أحمد ملك بيمينه رقاب الأمم".

وفي النسخة المطبوعة في لندن قديمًا سنة ثمانية وأربعين وثمانمائة وألف ميلادي، والأخرى المطبوعة في بيروت سنة أربعٍ وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية والنسخ القديمة، تجد في سفر حبقوق النص في غاية الصراحة والوضوح: "لقد أضاءت السماء من بهاء محمد، امتلأت الأرض من حمده، زجرك في الأنهار واحتدام صوتك في البحار، يا محمد، ادنُ؛ لقد رأتك الجبال فارتاعت...

وفي بعض الأحيان يذكر مكان مبعثه؛ ففي سفر التثنية، الإصحاح الثالث والثلاثون: "أقبل الرب من سيناء، وأشرف لهم من ساعير، وتجلى من جبل فاران...". وسيناء هي الموضع الذي كلم الله فيه موسى، وساعير الموضع الذي أوحى الله فيه لعيسى، وفاران هي جبار مكة؛ حيث أوحى الله لمحمد ﷺ.

وكون جبال فاران هي مكة دلت عليه نصوص من التوراة، وقد جمع الله هذه الأماكن المقدسة في قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين: ١: ٣]، وذكرت التوراة مكان الوحي إليه؛ ففي سفر أشعيا الإصحاح

الواحد والعشرون: "وحي من جهة بلاد العرب في الوعر". وقد كان بدء الوحي في الوعر في غار حراء".

وفي هذا الموضع من التوراة حديث عن هجرة الرسول ﷺ وإشارة إلى الجهة التي هاجر إليها: "هاتوا ماء الملاقاة العطشان -يا سكان أرض تيماء- وافوا الهارب بخبزة؛ فإنهم من أمام السيوف قد هربوا، من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة، ومن أمام شدة الحر". وتيماء من أعمال المدينة المنورة.

وإذا نظرت في النصوص؛ ظهر لك بوضوح أنه يتحدث عن هجرة الرسول ﷺ وتكملة النص السابق تقول: فإنه هكذا قال لي السيدُ في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجدِ قيدار، وبقية قسي أبطال بني قيدار تقل؛ لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم".

وهذا النص يتكلم عن معركة بدر؛ فإنه بعد سنة كسنة الأجير من الهجرة كانت وقعة بدر وفنى مجد قيدار -وقيدار من أولاد إسماعيل، وأبناؤه أهل مكة، وقد قلت قسي أبناء قيدار بعد غزوة بدر.

وأشارت بعض نصوص التوراة إلى مكان هجرة الرسول ﷺ ففي سفر أشعيا الإصحاح الثاني والأربعون: "لترفع البرية ومدنُها صوتَها، الديار الذي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال؛ ليهتفوا ليعطوا الرب مجدًا". و"سالع": جبل سالع في المدينة المنورة. انتهى كلامه.

وينقل سيد سابق -رحمه الله- في كتابه (العقائد الإسلامية) عنهم في التوراة:

"يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع

السيئة بالسيئة ؛ ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الرب حتى يقيم الملة العوجاء ، بأن يقولوا : "لا إله إلا الله" ؛ فيفتح به أعينًا عمياء ، وآذانًا صماء ، وقلوبًا غلفًا". انتهى كلامه.

بشارات الإنجيل :

وكما ثبت في التوراة الموجودة بشارات بنبوة محمد ﷺ فإن كتاب الإنجيل المنزل على عيسى # أيضًا تضمن عدة إشارات.

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر :

"وفي إنجيل متى الإصحاح الحادي عشر ، عدد أربعة عشر : "وإن أردتم أن تقبلوا ؛ فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي ، من له أذنان للسمع فليسمع".

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه ليس بينه وبين عيسى نبي ؛ فيكون إيليا الذي بشر به عيسى هو محمد ﷺ وإيليا بحساب الجمل الذي أغرمت به اليهود ، يساوي محمدًا ﷺ.

وفي إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع العدد الخامس عشر : "إن كنتم تحبوني ؛ فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد". وفي اللغات الأجنبية : "فيعطيكم باراكليتوس ليمكث معكم إلى الأبد". والمعنى الحرفي لمعنى باراكليتوس هو أحمد ، وهو من أسماء الرسول ﷺ.

وفي إصحاح يوحنا الخامس عشر ، العدد السادس والعشرون : "ومتى جاء المعزي الذي أرسله أنا إليكم من الأب ، روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي" ؛ "ويشهد لي" لأن النبي محمد ﷺ شهد للمسيح بالنبوة والرسالة ، وروح الحق كناية عن الرسول محمد ﷺ.

والمعاني الواردة في هذه الترجمة الحديثة ليست دقيقة ؛ لأن أصلها باليونانية ، وهي اللغة التي ترجمت منها هذه الأناجيل مكتوبة بيركليتوس.

وفي التراجم العربية المطبوعة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة وألف ميلادية ، وسنة أربع وأربعين وثمانمائة وألف ميلادية في لندن ، تجدها فاراقليط ، وهي أقرب إلى العبارة اليونانية المشار إليها ، أما ترجمتها في الطبعات الحديثة إلى المعزي ؛ فهو من التحريف الذي ذم الله أهل الكتاب به : ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء : ٤٦].

ويلاحظ أن هناك جملة ساقطة قبل الجملة الواردة في العدد السادس والعشرين من هذا الإصحاح ؛ سقطت من الطبعات الحديثة ؛ لكنها واردة صراحة في الطبعات القديمة للإنجيل ، ونص هذه الجملة : "فلو قد جاء الْمُنْحَمَنَّا الذي يرسله الله إليكم". ومعنى "المنحمنًا" الحرفي باللغة السريانية : "محمد". انتهى كلامه.

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كثيرًا من بشارات الإنجيل في إثبات صحة نبوة سيدنا محمد ﷺ وذلك في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) من ذلك قوله :

قالوا : قال أشعياء -وذكر قصة العرب- فقال : ويدوسون الأمم دياس البيادر ، وينزل البلاء بمشركي العرب ، وينهزمون بين يدي سيوف مسلولة وقسي موترة من شدة الملحمة ، وهذا إخبار عما طرأ بعبدة الأوثان من رسول الله ﷺ يوم بدر ، ويوم حنين ، وفي غيرها من الوقائع.

قالوا : وقال يوحنا الإنجيلي : قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من إنجيله : إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي ، هو يعلمكم كل شيء".

وقال يوحنا التلميذ أيضًا عن المسيح أنه قال لتلاميذه : "إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطًا آخر يثبت معكم إلى الأبد ،

روح الحق الذي لم يُطِق العالم أن يقتلوه ؛ لأنهم لم يعرفوه ، ولست أدعكم أيتامًا ؛ لأني سآتيكم عن قريب".

وقال يوحنا : قال المسيح : من يحبني يحفظ كلمتي وأبي يحب ، وإليه يأتي ، وعنده يتخذ المنزل ؛ كلمتكم بهذا لأني عندكم مقيم والفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء ، وهو يذكركم كل ما قلت لكم ، استودعتكم وأمي ، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع ؛ فإني منطلق وعائد إليكم ، لو كنتم تحبوني كنتم تفرحون بمضيي إلى الأب ؛ فإن أنتم ثبتُّم في كلامي وثبت كلامي فيكم ؛ كان لكم كل ما تريدون ، وبهذا يمجد أبي". انتهى كلامه.

وبهذا يثبت أن الأنبياء السابقين بشروا ببعثة خاتم النبيين محمدٍ ﷺ وأن اسمه ، وصفته ، ونعته ، ونعت أمته ، وشريعته ، مذكور في كتبهم رغم التحريف الذي طال تلك الكتب السماوية.

٢. شواهد تاريخية لإثبات نبوة محمد ﷺ :

لا يشك عاقل تتبع أحوال النبي ﷺ ومراحل حياته الشريفة ، والأطوار التي مر بها في أنه نبيٌّ اصطفاه ﷻ وأيده بالوحي والملائكة لإبلاغ رسالة الإسلام السماوية.

فإنه منذ إن كان في بطن أمه آمنةَ ظهرت الإرهاصات بقدوم مولودٍ ليس كباقي المواليد ؛ فلقد رأت أمه آمنةُ رؤيا حين ولد ﷺ أنه خرج منها نور أضاء قصور الشام ؛ فعن العرباض بن سارية > قال : قال رسول الله ﷺ : ((إني عند الله مكتوبٌ "خاتم النبيين" ، وإن آدم لمنجدلٌ في طينته ، وسأخبركم بأول أمري : دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج لها نور أضاء لها منه قصور الشام)) حديث صحيح.

ولما وُلِدَ ﷺ لم يكن مثل باقي المواليد؛ فقصة إرضاعه في بني سعد، وأن حليمة السعدية لما دخلت المدينة -على عادتها- تريد أن تأخذ من مواليد قريش من ترضعه وتستعين بأجرة الرضاعة في معيشتها هي وزوجها وأبنائها، يذكرون في السيرة: أنها لم تجد مواليد من المواليد الذين آباؤهم أثرياء؛ فقيل لها: لم يبقَ إلا مولود يتيم، وهو ابن عبد الله بن عبد المطلب، فشاورت زوجها فأخذاه على مضض؛ لأنهما كانا يريدان أن يأخذا من أبناء الأغنياء.

ثم إنها لما أخذته وحملته على دابتها ورجعت به إلى ديارها في ديار بني سعد، يذكرون أنها رأت أمارات تبشر بالخير؛ حيث نزلت البركة بوجود هذا المولود في الشياه العجاف التي كانت عند حليمة؛ فمن هنا بدأت تهتم بهذا اليتيم والمولود الذي أخذته لإرضاعه مع أبنائها.

ثم تتابعت هذه الإرهاصات والأمارات التي رآها كل من رأى النبي ﷺ أو عاشره أو ساكنه.

يقول الدكتور محمد سيد المسير:

"ويكفينا في ميلاده الشريف أن نتأمل العبرة الكبرى؛ لقد ولد محمدٌ يتيمًا فآواه الله، ونشأ دون أبٍ يرعاه فأدبه ربه، وتلقفته أيدٍ كثيرة من شأنها أن تورث شتاتًا في الفكر والسلوك؛ ولكن الله تعالى أراد أن يصنعه على عينه، وأن تتمحض العناية الإلهية في كفالة هذا اليتيم؛ فيستقيم له الفكر والسلوك؛ فكان الصادق الأمين في الجاهلية، وكان خلقه القرآن في الإسلام.

ثم إن هناك تأملًا آخر؛ فالعادة جارية بأن اليتيم الذي تتلقفه أيدٍ كثيرة وتتعدد عليه الولايات لا يخفى من أمره شيءٌ؛ فتظهر أخلاقياته وتتضح سلوكياته؛ فلا

شيء مستورٌ منها، ومحمد ﷺ، وهو اليتيم الذي كفله أكثر من شخص، وعاش في أكثر من بيت، وتعدد كافلوه- ما وجد فيه عيب، وما ظهر منه نقص، وما عرف عنه مطعن، ولا أخذ عليه مأخذ؛ وإنما كان الطاهر النزيه والصادق الأمين والعفيف الزاكي. إنها كفالة الله وعناية المولى وتدبير الحكيم العليم.

ولعل نظرة في حياة الأنبياء ترينا أن أصحاب الرسالات الكبرى نشئوا في غير كفالة أبٍ وتباعدوا عن جو الأسرة الحانية، وذلك لحكمة بالغة.

فإسماعيل # ألقى به أبوه في وادٍ غير ذي زرع. ويوسف # ألقاه أخوته في الجب والتقطه بعض السيارة، وبيع لعزيز مصر، ثم دخل السجن، ثم خرج منه على خزائن الأرض، واستخلصه الملك لنفسه. وموسى # ألقت به أمه في اليم، والتقطه آل فرعون، وتربى في قصر فرعون، ولبث فيه السنين الطوال. وعيسى # أتت به مريم قومها دون أن يمسها بشر، ودون أن يقوم على أمر رعايته والد.

إن هؤلاء جميعًا كانوا أنبياء وتحملوا رسالة الوحي الإلهي". انتهى كلامه.

ويعتبر القاضي عياض -رحمه الله- من أحسن من تناول الحديث عن نبينا محمدٍ ﷺ وبيان كماله وفضائله الخَلْقية والخُلُقية وذلك في كتابه القيم (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) ﷺ حيث يقول:

"اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم ﷺ الباحث عن تفاصيل جمل قدره العظيم أن خصال الجلال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي: اقتضته الجبلة وضرورة الحياة الدنيا، ومكتسب ديني: وهو ما يحمد فعله، ويقرب إلى الله تعالى زلفى.

فأما الضروري المحض؛ فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مثلما كان في جبلته من كمال خِلقته، وجمال صورته، وقوة عقله، وصحة فهمه، وفصاحة

لسانه، وقوة حواسه وأعضائه، واعتدال حركاته، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه، ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه، من غذائه، ونومه، وملبسه، ومسكنه، ومنكحه، وماله، وجاهه.

وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالأخروية إذا قصد بها التقوى ومعونة البدن على سلوك طريقها، وكانت على حدود الضرورة وقوانين الشريعة.

وأما المكتسبة الأخروية؛ فسائر الأخلاق العلية والآداب الشرعية من الدين، والعلم، والحِلم، والصبر، والشكر، والمروءة، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن الأدب والمعاشرة، وأخواتها، وجماعها: حسن الخلق.

إذا كانت خصال الكمال والجمال ما ذكرناه؛ فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال إلى ما لا يأخذه عد، ولا يعبر عنه مقال، ولا ينال بكسب ولا حيلة، إلا بتخصيص الكبير المتعال من فضيلة النبوة والرسالة؟!.

فاعلم -نوَّر الله قلبي وقلبك وضاعف في هذا النبي الكريم حبي وحبَّك- أنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة في جبلة الخلقة؛ وجدته حائزًا لجميعها محيطًا بشتات محاسنها دون خلاف بين نَقَلة الأخبار لذلك؛ بل قد بلغ بعضها مبلغ القطع.

أما الصورة وجمالها وتناسب أعضائه في حسنها: فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك.

وأما نظافة جسمه، وطيب ريحه، وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد؛ فكان قد خصه الله في ذلك بخصائص لم توجد في غيره، ثم تممها بنظافة الشرع وخصال الفطرة العشر.

وأما وفور عقله، وذكاء لبه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال حركاته، وحسن شمائله؛ فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عجيب شمائله وبديع سيره؛ لم يمترِ في رجحان عقله.

قال وهب بن منبه: "قرأت أحد وسبعين كتابًا؛ فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلًا، وأفضلهم رأيًا".

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها، وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها، فضلًا عمن فوقه، وأذن الشرع على جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها، ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة: وهي المسماة بحسن الخلق: وهو الاعتدال في قوى النفس وأوصافها والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها؛ فجميعها كانت خلق نبينا محمد ﷺ على الانتهاء في كمالها والاعتدال إلى غايتها حتى أثنى الله بذلك عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قالت عائشة <: "كان خلقه القرآن، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه". وقال ﷺ: ((بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))، قال أنس: "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا". وعن علي بن أبي طالب < مثله.

وكان -فيما ذكره المحققون-: مجبولًا عليها في أصل خلقته وأول فطرته، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة، إلا بجودٍ إلهيٍّ، وخصوصية ربانية، وهكذا لسائر الأنبياء؛ ومن طالع سِيَرَه من صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك، كما عرف ذلك من جالس عيسى، وموسى، ويحيى، وسليمان، وغيرهم -عليهم السلام.

وقال القاضي عياض في موضعٍ آخر من كتابه (الشفاء) وهو يذكر سماحة رسول الله ﷺ وسخاءه قبل البعثة وبعد النبوة:

وكان ﷺ لا يوازَى في هذه الأخلاق الكريمة ولا يبارى؛ لهذا وصفه كل من عرفه.

وعن المنكدر: سمعت رجاء بن عبد الله يقول: ما سُئِل النبي ﷺ عن شيءٍ فقال: "لا"، وقال ابن عباس: "كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل # أجود بالخير من الريح المرسلة".

وعن أنسٍ: أن رجلًا سأله؛ فأعطاه غنمًا بين جبلين؛ فرجع إلى بلده وقال: أسلموا؛ فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى فاقة".

وأعطى غير واحدًا مائة من الإبل، وأعطى صفوان مائة، ثم مائة، ثم مائة، وهذه كانت حاله ﷺ قبل أن يبعث". انتهى كلامه.

ويقول الدكتور عمر الأشقر:

إذا شئت أن تسبر غور إنسان وتتعرف على صدقه وأمانته؛ فإنك تنظر في قسمات وجهه، وتحصي عليه أفعاله وأقواله، وتراقب حركاته وسكناته، والذين يستغلق عليك أن تصل في شأنهم إلى اليقين هم أولئك الذين لا تقابلهم إلا مقابلة سريعة، أو أولئك الذين يخفون أنفسهم ويتكلفون في أقوالهم وأفعالهم؛ فلا يظهروا على طبيعتهم.

والأنبياء والرسل كانوا يخالطون أقوامهم، ويجالسونهم، ويعاشرونهم، ويعاملونهم في أمورٍ شتى؛ وبذلك يتسنى للناس أن يدرسوهم عن كثب،

ويتعرفوا إليهم عن قرب، ولقد كانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل بعثته بالأمين؛ وذلك لصدقه وأمانته، وعندما قال لهم الرسول ﷺ في مطلع الدعوة: ((لو أخبرتكم أنَّ وراء هذا الوادي خيلًا تريد أن تغير عليكم؛ أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا)) رواه البخاري.

وقد أرشد القرآن إلى هذا النوع من الاستدلال: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦]، يقول لهم: لقد مكثت فيكم زمنًا ليس باليسير قبل أن أخبركم بأنني نبي؛ فكيف كانت سيرتي فيكم؟ وكيف كان صدقي إياكم؟ أفأترك الكذب على الناس وأكذب على رب الناس؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، ألا تعلم عقولكم أن المعدن الجيد يدل على نفسه بنفسه، والفاكهة الصالحة يدل على صلاحها لونها، وشكلها، ورائحتها، وطعمها، والمصباح الرائع ضوؤه يهدي إليه ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٣٥].

بعض الناس لم يحتَج إلى برهان ودليل ليستدل بذلك على صدق الرسول ﷺ لأن شخصه وحياته وسيرته هي أعظم دليل، ومن هؤلاء أبو بكر الصديق > فإن الرسول ﷺ عندما دعاه لم يتردد؛ ونظر عبد الله بن سلام في وجه الرسول ﷺ نظرة واحدة؛ ولكنها كانت كافية لتدله على أن هذا وجه صادق ليس بكاذب.

وخديجة التي عرفت الرسول ﷺ زوجًا وخالطته عن قرب قبل أن تعرفه نبيًّا ورسولًا لم تتردد في أن الله لن يخزيه أبدًا، ولن يصيبه ضير؛ ذلك أن سنة الله في أمثال الرسول ﷺ أن يكرموا ويشرفوا؛ ولذلك قالت له عندما جاءها قائلًا: ((لقد خشيت على نفسي))؛ وذلك بعد أن فجأَهُ الوحي في غار حراء؛ قالت:

"كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". رواه البخاري". انتهى كلامه.

شواهد أخرى:

إن للرسول ﷺ شواهدَ عديدة تبين أنه مرسل من الله تعالى، وأنه من الأنبياء المصطفين، زيادة على الشواهد التاريخية التي تثبت من خلال سيرته ﷺ وحياته وتعاملاته...

إلا أن هناك أمورًا تثبت في شخصه الكريم ﷺ وهي أيضًا علامات بارزة جعلها الله ﷻ من الأمارات البادية على كل رسولٍ مصطفى.

يقول ابن أبي العز الحنفي - رحمه الله -:

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح؛ لكن الدليل غير محصور في المعجزات؛ فإن النبوة يدعيها أصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا إلا على أجهل الجاهلين؛ بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة؛ فكيف بدعوى النبوة؟!

وما أحسن ما قال حسان رضي الله عنه:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ❖ كانت بديهَتُهُ تأتيك بالخبرِ

وما من أحد ادَّعى النبوة من الكاذبين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه، ما ظهر له لمن له أدنى تمييز؛ فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور؛ ولا بد أن يفعل أمورًا يبين بها صدقه،

والكاذب يظهر في نفسه ما يأمر به ويخبر عنه، وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة.

والصادق ضده؛ بل كل شخصين ادعيا أمرًا، أحدهما صادق والآخر كاذب؛ لا بد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة؛ إذ الصدق مستلزم للبر، والكذب مستلزم للفجور؛ كما في (الصحيحين): عن النبي ﷺ أنه قال: ((عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة؛ وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار؛ وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا))؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٦].

فمن عرف الرسول وصدقَه ووفاءَه ومطابقةَ قوله لعمله؛ علم علمًا يقينًا أنه ليس بشاعرٍ ولا كاهن، والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة في المدعي للصناعات والمقالات؛ كمدعي الفلاحة والفصاحة والكتابة، أو علم النحو، والطب، والفقه... وغير ذلك.

والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها، وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال؛ فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب؟! ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضروري؛ كما يعرف الرجل رضا الرجل، وحبه وبغضه، وفرحه وحزنه... وغير ذلك مما في نفسه بأمور تظهر على وجهه، قد لا يمكن التعبير

عنها ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [محمد: ٣٠]، ثم قال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠].

وقد قيل: ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ؛ فإذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن به من القرائن ؛ فكيف بدعوى المدعي أنه رسول الله؟ كيف يخفى صدق هذا من كذبه؟! وكيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه الأدلة؟!

وبالجملة ؛ فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول: إنه رسول الله، وأن أقوامًا اتبعوهم وأن أقوامًا خالفوهم، وأن الله نصر المرسلين والمؤمنين، وجعل العاقبة له وعاقب أعداءهم: هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها، ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم ملوك الفرس، وعلوم الطب، كأبقراط وجالينوس، وبطليموس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وأتباعه". انتهى كلامه.

ويقول سيد سابق - رحمه الله - :

"ومن دلائل نبوته # : أنه كان أميًّا، وأقام هذه الأعمال الكبار، وهو أميٌّ لم يقرأ ولم يكتب، ولم يدخل معهدًا، ولم يتتلمذ على يد أستاذ ؛ ولكنه نجح وبلغ هذه المرتبة التي لم يبلغها أحد قبله ولا أحد بعده.

والقرآن يسجل هذه الحقيقة ليجعلها أمارة صدقه ودليل أمانته ؛ يقول الله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وما كان الرسول ﷺ يعلم شيئًا من النبوة، ولا ما يتصل بالذات العلية، وجريان هذه الأعمال على يديه إنما هو دليل الإعجاز؛ لأن المتعلمين الذين ينقطعون للعلم والبحث لا يعجزون أن يصنعوا شيئًا مما فعله الرسول ﷺ ولا ريب أن هذا تأييدٌ وتوفيقٌ من الله -تبارك وتعالى- فالقرآن يقول: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ولقد كان ذلك معروفًا لدى خصومه، وكان يواجههم به، ولم يستطع أحد منهم أن يشكك في هذه الحقيقة السافرة؛ فيقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٥، ١٦]". انتهى كلامه.

وعليه؛ فإن ثبوت نبوة محمدٍ ﷺ لها شواهد كثيرة من التاريخ المتمثل في سيرته ﷺ والأطوار والمراحل التي مرت بها حياته الكريمة الحافلة، ومنها العناصر الشخصية التي أظهرها الله على وجهه ﷺ، فكان كل من رآه علم أنه نبي مرسل من الله تعالى؛ قال حسان > :

أغر عليه للنبوة خاتم ❖ من الله مشهور يلوحُ ويشهدُ

وشق له من اسمه ليجلّه ❖ فذو العرش محمود وهذا محمد

٣- ذكر مقالة النجاشي وهرقل فيما يختص بنبوة محمدٍ ﷺ:

بعض العقلاء من ملوك ذلك العصر الذي بعث فيه النبي ﷺ سأل بعض العرب من قومه الذين لم يؤمنوا به كما سأل بعضهم المؤمنين به- عدة أسئلة تتمحور

حول نسبه وصلته بأجداده، وحاله بعد البعثة، وادعاء الرسالة، وعن أتباعه، وما نوعيتهم، وعن صدقه وأمانته وماذا يأمرهم به وماذا ينهاهم عنه؟

وكان من أولئك العقلاء ملك يقال له النجاشي، وهو ملك الحبشة، وكان معروفًا بالعدل والصدق والعقل؛ فأمر النبيُّ ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة؛ فرارًا بدينهم قائلًا: ((لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدقٍ حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه)) فخرج بعض الصحابة إلى الحبشة، لكن مشركي مكة أرسلوا إلى ملك الحبشة النجاشي يوغرون صدره على أصحاب النبي ﷺ الذين هم في جواره حتى يفتنوهم في دينهم، ويعيدوهم إلى مكة، لكن النجاشي بعقله وحكمته رد على رسولَيْ قريش وبطارقته قائلًا: لا هالله؛ إذًا لا أسلمهم إليهما، ولا يكادُ قوم جاوروني، ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم؛ فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ ودعا أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، ثم سأل الصحابة فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب > فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه؛ فدعانا إلى الله؛ لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن

الفـواحش، وقـول الـزور، وأكـل مـال اليتـيم، وقـذف المحـصنات؛ فعـدد أمـور الإسـلام؛ فقـال لـه النجاشـي: هـل معـك مما جـاء بـه عـن الله مـن شـيء؟ فقـال جعفـر: نعـم، فقـال لـه النجاشـي: فـاقرأه علـي، فقـرأ عليـه صـدرًا مـن سـورة "كهعيص"؛ فبكى -والله- النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكـت أسـاقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخـرج مـن مـشكاةٍ واحـدةٍ، انطلقا -مخاطبًا رسوليْ قريش- فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون. انتهى.

ويقول شارح (الطحاوية) -رحمه الله- مبينًا الأمارات التي عَرَف الناسُ بِهَا نبوة محمدٍ ﷺ:

ولهذا كانت خديجة < تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق البار، قال لها لما جاءه الوحي: إني قد خشيت على نفسي، فقالـت: كـلا والله، لا يخزيك الله؛ إنك لتـصل الـرحم، وتـصدق الحـديث، وتحمـل الكَـلَّ، وتُقْـرِي الـضيفَ، وتكـسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، فهو لم يخف من تعمد الكذب؛ فهو يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب، وإنما خاف أن يكون قد عارض لـه عـارض سـوء، وهـو المقـام الثـاني، فـذكرت خديجـة مـا ينفـي هـذا، وهـو مـا كـان مجبولًـا مـن مكـارم الأخلاق ومحاسن الشيم.

وقد عُلِمَ من سنةِ اللهِ إن من جبله على الأخـلاق المحمـودة، ونزهـه عـن الأخـلاق المذمومـة فإنـه لا يخزيـه، وكـذلك قـال النجاشـي لمـا اسـتخبرهم عمـا يخـبر بـه، واستقرأهم القرآن فقرءوا عليه: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج مـن مـشكاةٍ واحدةٍ، وكذلك ورقة بن نوفل لما أخبره النبي ﷺ بما رآه، وكان ورقةُ قد تَنَصَّرَ، وكان يكتب الإنجيل بالعربية، فقالت له خديجة: أي عمُّ، اسمع من ابـن أخيك

ما يقول، فأخبره النبي ﷺ بما رأى؛ فقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى. انتهى كلامه.

ذكر مقالة هرقل ملك الروم:

لما استقر الأمر للمسلمين في المدينة المنورة بصلح الحديبية مع قريش في العام السادس للهجرة؛ اتجه الرسول ﷺ إلى مخاطبة ملوك العالم، وأمراء الجزيرة العربية في عهده ﷺ فبعثَ رسائلَ شخصيةً إلى هرقلَ عظيمِ الروم، وإلى كسرى عظيم فارس، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس في مصر، وكان لكل واحدٍ من هؤلاء ردٌّ خاصٌّ على الرسالة النبوية.

لكن الذي يعنينا هنا هو ردُّ هرقلَ ملكُ الرومِ على رسالة النبي محمدٍ ﷺ حيث أعمل هرقل عقله وفكره وعلمه بأحوال الرسل، وأماراتهم وصفاتهم، وما يستدل به على صحة ادعائهم النبوة، ثم اهتدى هرقل إلى أن محمدًا ﷺ مرسلٌ من ربه؛ حيث وجد فيه علامات النبوة، وإمارات الرسالة، لكنه لم يؤمن ضنًّا بملكه وخوفًا على مصلحته الدنيوية.

وقصة هرقل وحواره في هذا الشأن مشهورة ذكرها غير واحد من أهل العلم، لكننا سننقل ما ذكره ابن أبي العز الحنفي -رَحِمَهُ اللهُ- في شرحه للعقيدة الطحاوية حيث يقول:

وكذلك هرقل ملك الروم؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ لَّما كَتَبَ إليه كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام طلب من كان هناك من العرب، وكان أبو سفيان قد قدم في طائفةٍ من قريش في تجارة إلى الشام، وسألهم عن أحوال النبي ﷺ فسأل أبا سفيان، وأمر الباقي إن كذب أن يكذبوه؛ فصاروا بسكوتهم موافقين له في الإخبار.

سألهم: هل كان في آبائه من ملك؟ فقالوا: لا، قال: هل قال هذا القول أحدٌ قبله؟ فقالوا: لا، وسألهم: أهو ذو نسب فيكم؟ فقالوا: نعم، وسألهم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقالوا: لا، ما جربنا عليه كذبًا، وسألهم: هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم؟ فذكروا: أن الضعفاء اتبعوه، وسألهم: هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكروا: أنهم يزيدون، وسألهم: هل يرجع أحدٌ منهم عن دينه سخطةً له بعد أن يدخل فيه؟ فقالوا: لا، وسألهم: هل قاتلتموه؟ قالوا: نعم، وسألهم عن الحرب بينهم وبينه؟ فقالوا: يدال علينا مرة، ويدال عليه أخرى، وسألهم: هل يغدر؟ فذكروا أنه لا يغدر، وسألهم: بماذا يأمركم؟ فقالوا: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدق والعفاف والصلة، وهذه أكثر من عشرة مسائل.

ثم بَيَّنَ لَهُم ما في هذه المسائل من الأدلة، فقال: سألتكم: هل كان في آبائه من ملك؟ فقلتم: لا، قلت: لو كان في آبائه من ملك لقلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتكم: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فقلتم: لا، فقلت: لو قال هذا القول أحدٌ قبله لقلت: رجل ائتم بقولٍ قيل قبله، وسألتكم: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقلتم: لا، فقلت: قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس فيكذب على الله. وسألتكم: أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم؟ فقلتم: ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل -يعني في أول أمرهم- ثم قال: وسألتكم: أيزيدون أم ينقصون؟ فقلتم: بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتكم: هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ فقلتم: لا، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وهذا من أعظم علامات الصدق والحق. فإن الكذب والباطل لا بد أن ينكشف في آخر

الأمر؛ فيرجع عنه صاحبه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه، والكذب لا يروج إلا قليلًا ثم ينكشف، وسألتكم: كيف الحرب بينكم وبينه؟ فقلتم: إنها دول، وكذلك الرسل تبتلى، وتكون العاقبة لها، قال: وسألتكم هل يغدر؟ فقلتم: لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وهو لَّما كان عنده من علمه بعادة الرسل وسنة الله فيهم أنه تارة ينصرهم، وتارة يبتليهم، وإنهم لا يغدرون- علم أن هذه علامات الرسل، وأن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء؛ لينالوا درجة الشكر والصبر كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ((والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن إصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبرَ؛ فكان خيرًا له)) والله تعالى قد بين في القرآن ما في إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢] الآيات إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على سنته في خلقه وحكمته التي بهرت العقول.

قال: وسألتكم عما يأمر به؟ فذكرتم: أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، ويأمركم بالصلاة، والصدق والعفاف والصلة، وينهاكم عمَّا كَانَ يعبد آباؤكم، وهذه صفة نبي، وقد كنت أعلم أن نبيًّا يبعث، ولم أكن أظنه منكم، ولوددت إني أُخْلص إليه، ولولا لما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين.

وكان المُخَاطب بذلك أبا سفيان بن حرب، وهو حينئذٍ كافرٌ من أشد الناس بغضًا وعداوة للنبي ﷺ.

قال أبو سفيان بن حرب: فقلت لأصحابي ونحن خروج: لقد أَمِرَ أَمْرُ بن أبي كبشة أنه ليعظمه ملك بني الأصفر، وما زلت موقنًا بأن أمر النبي ﷺ سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام وأنا كافر. انتهى كلامه.

إذًا نأخذ من هاتين المقالتين اللتين ذكرناهما عن هذين الملكين -ملك الحبشة وملك الروم- أن هناك أمارات ودلائل تشهد ببعثة الأنبياء والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- كانت سببًا في إيمان كثير من عباد الله بالرسل -عليهم السلام- واستخلص منها العقلاء: أن من كانت هذه صفته وهذا حاله وهذه أوامره ونواهيه وأخباره وسيرته لا يمكن أن يكون كاذبًا في ادعاء النبوة؛ لأن العقلاء يفهمون بقرائن الأحوال والسمات التي تتضح على مُدَّعِي النبوةَ أنه ليس بنبي، كما يفهمون بأمارات الصدق ودلائل الحق التي تبدي صاحب الرسالة الحقيقي، والمرسل بين الله تعالى واسطة بينه وبين خلقه أنه ليس بكاذب.

يقول السفاريني -رَحِمَهُ اللهُ-:

إن نفس صورة النبي ﷺ الشريفة الباهرة، وهيئته وطلعته الظاهرة، وسمته ودلُّهُ يدل العقلاء على صدقه؛ ولهذا قال عبد الله بن سلام > : فلما رأيت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، ومن سمع كلامه ورأى آدابه لم يدخله شك في نبوته.

قال الحافظ ابن الجوزي وغيره من الحفاظ: وثبت في عدة أخبار أنه ﷺ كان في صغره يعرف بالأمانة والصدق وجميع الأخلاق، وقد قال هرقل في حديث أبي سفيان: "ما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- في (الجواب الصحيح): قال نفطويه: في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥] هو

مثلٌ ضربه الله لنبيه محمد ﷺ يقول: يكاد منظره يدل على نبوته، وإن لم يتلو قرآنًا كما قال عبد الله بن رواحة > لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر. انتهى كلامه.

ويقول محمد السيد المسير -معلقًا على مقالة هرقل السابقة-:

إن هذه الاستنتاجات العقلية تمثل منهجًا صحيحًا في الاستدلال؛ فهي قائمة على استقراء أحواله ﷺ وتتبع تطور حياته، وملامح شخصيته؛ لتتخذ من ذلك كله أعلامًا للنبوة، وقد حدَّثَ هرقل نفسه أن يصل بالاستدلال إلى نتيجته، ويلتزم بها؛ إقرارًا بصحة الدليل، واعترافًا بصدق النتيجة، فدعا وجهاء قومه وأهل الرأي فيهم إلى قصره، وغلق الأبواب ثم قال لهم: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فاتبعوا هذا النبي، ولكنَّ القومَ آثاروا متاع الحياة الرخيص، واستمرءوا ما هم في من منصب وجاه؛ فرفضوا بشدة فحاصوا عليه حيصةَ حمرِ الوحش إلى الأبواب؛ فوجدوها قد غلقت، ولم يكن هرقل بالرجل الذي يستطيع أن يواجه الناس بما يعتقد، أو ليقنع من حوله بما يرى فتراجع عن مقالته السابقة، وقال: إني قلت مقالة آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت؛ فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل. انتهى كلامه.

وبالتأمل في الاستدلال بأحوال الرسل -صَلّى اللّهُ عَلَيْهِم وَسَلّمَ- على صدق الأنبياء وصحة دعواهم في الرسالة في الاصطفاء ونزول الوحي نجد أن من العقلاء من ساقه ذلك إلى الإيمان بالرسول ﷺ كما حصل لملك الحبشة النجاشي، فقد قيل -في أصح الروايتين- أنه آمن بالنبي ﷺ وصدق به، ولذلك لما مات ووصل خبره الرسول ﷺ بطريق الوحي؛ حيث إن النبي ﷺ علم بوفاته في اليوم الذي

توفِّي فيه فأخبر الصحابة } بذلك ثم صلى عليه صلاةَ الغائب، وهذا لعمري شرف عظيم حصله النجاشي ملك الحبشة.

بينما نجد أن صاحب المقالة الثانية -هو ملك الروم هرقل- لم يُسلِم، ولم يستطع أن يصرح بإيمانه، واعتقاد الحق الذي عرفه؛ وذلك خوفًا على ملكه وتقديمًا لحظوظه الدنيوية على ما جاءه من الحق والصدق والخير، وهذا كله يؤكد لنا أن الهداية بيدِ الله تعالى ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ٣٩] وأن العقل وحده والحكمة وتجارب الدنيا لا تنفع صاحبها إذا حُرِم التوفيق والهداية.

كما أن هناك مسألة ينبغي أن ننبه إليها، وهو أن الذي سأله النجاشي مجموعة من الصحابة } المؤمنين بالرسول ﷺ والذي سأله هرقل ملك الروم هو أبو سفيان بن حرب ومعه أحد القرشيين؛ فكانوا كفارًا في ذلك الزمن، وأشد عداوةً للمصطفى ﷺ فاتفق كلام المؤمنين مع كلام الكافرين بالنبي ﷺ في وصفه ونعته، ونقل أخباره عنه إلى هذين الملكين؛ مما يدل على أنه ﷺ تأصل في هذه الأخلاق، وكانت هذه الأوصاف ثابتة عنه مشهورة عنه يعرفها الصديق والعدو.

القرآن الكريم هو الآية العظمى والدلالة الكبرى لإثبات نبوة محمد ﷺ، مع إقامة الأدلة على عموم رسالته وأنه خاتم النبيين، وحكم مدعي النبوة بعده ﷺ

١- القرآن الكريم هو الآية العظمى والدلالة الكبرى لإثبات نبوة محمد ﷺ:

لقد كان لكل نبيٍّ من الأنبياء ما يؤيده من الآيات البيّنات والمعجزات الظاهرة، للردِّ على المعاندين المكذبين للرسل، ولتقوية جانب النبوة وتأييد الرسل وأتباعهم؛ قال الله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] وكانت هذه المعجزات التي يؤيد الله تعالى بها أنبياءه

ورسله خارجةً عن مقدورِ البشرِ، مخالفةً للسننِ المعروفةِ لدى الناس؛ ليكون ذلك آكَدَ في الدلالة على أن الإنسان البشري الذي ظهرت على يديه مُرْسَلٌ من قِبَلِ اللهِ تعالى، وواسطةٌ بينه وبين خلقه.

يقول سيد سابق -رَحِمَهُ اللهُ-:

"ما بعث الله رسولًا إلا وقد أيده بالآياتِ الكونيةِ، والمعجزاتِ المخالفةِ للسننِ المعروفةِ للناسِ، والخارجةِ عن مقدورِ البشرِ؛ ليكون إظهارها على يديه مع بشريته دليلًا على أنه مرسلٌ من عند الله، فعدم إحراق النار لإبراهيم، وناقة صالح، وعصا موسى، وما ظهر على يدي عيسى من العجائب، كلها من هذا القبيل، وكانت الآيات حسية، يوم أن كان العقل الإنسانيُّ في الطور الذي لم يبلغ فيه الرشد بعد، ويوم أن كانت هذه العجائب تبلغ من نفسية الجماهير مبلغًا لا تملك معه إلا الإذعان والتسليم.

فلما بَدَأَ النوعُ الإنسانيُّ يدخل في سنِّ الرشدِ، وبدأت الحياة العقلية تأخذ طريقها إلى الظهور والنماء، لم تَعُد تلك العجائب هي الأدلة الوحيدة على صدق الرسالة، ولم يَعُدْ من السهل على العقل أن يذعن لمجرد شيءٍ رآه خارجًا عن عُرْفِ الحياة، إنه يريد شيئًا جديدًا، يتناسب والطور الذي وصل إليه، يريد الإيمان الذي لا تخالطه الشكوك، واليقين الذي يبدد ظلام الشبهات.

وما كان الله ليمد النوع الإنساني في طفولته بما يحفظ به حياته الروحية، ثم يَدَعُهُ بعد أن أخذ سبيلَهُ إلى النظر العقلي والاستقلال الفكري دون أن يقيم له من الأدلة ما يتناسب والارتقاءَ الذي انتهى إليه. فكان أن بعث محمدًا ﷺ وأيده بالمعجزة العلمية والحجة العقلية، وهو القرآن الكريم". انتهى كلامه.

لقد أيَّدَ اللهُ تعالى نبيه محمدًا ﷺ بآياتٍ بيناتٍ ومعجزاتٍ باهراتٍ، كثرت في تنوعها حتى وصلت إلى أكثرَ من ألفِ معجزة، كما أَلَّفَ فيها العلماءُ المصنفاتِ.

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر:

أجرى الله على يد نبينا محمد ﷺ معجزاتٍ باهراتٍ وآياتٍ مبصراتٍ، إذا نظر فيها مُريد الحقِّ دلَّتْهُ على أنها شهادة صادقة من الله لرسوله ﷺ وقد عدها بعض العلماء فَنَافَتْ على ألف معجزة، وقد أُلِّفَتْ فيها مؤلفات وتناولها علماء التوحيد والتفسير والحديث والتاريخ بالشرح والبيانِ.

فمن الآيات البينات والمعجزات الخارقات: إسراء الله بنبيه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حيث جمع الله له الأنبياء فصلى بهم إمامًا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] ومن هناك عُرِجَ به إلى السموات العُلى.

ومن معجزاته ﷺ: انشقاقُ القمرِ، فَقَدْ سَأَلَ أهلُ مكةَ الرسولَ ﷺ آيةً؛ فانشق القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما -أي: جبل حراء الموجود في مكة، رأوه بين فرقتين من هذا القمر، وقد كان القمر عند انشقاقه بدرًا.

ومنها: تكثيره الطعام ﷺ وقد وقع هذا أكثر من مرة.

ومنها: تكثير الماء ونبعه من بين أصابعه الشريفة.

ومنها: كف الأعداء عنه.

ومنها: إجابة دعوته.

ومنها: إبراءُ المَرْضَى.

ومنها: إخباره بالأمور الغيبية، فمن ذلك إخباره عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وإخباره عن الملائكة وصفاتهم، وإخباره عن عالم الجن، وعن الجنة والنار.

ومنها: حنين الجذع. ففي (صحيح البخاري) وغيره: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه؛ فَحَنَّ الجذعُ فأتاه فمسحَ عليه. وقصة حنين الجذع قصة مشهورة وصحيحة، ذكرها البخاري -رَحِمَهُ اللهُ- في (صحيحه) وهو: أن النبي ﷺ كان يخطب مُعتْمِدًا على جذع شجرة، فترةً طويلةً، ثم اتخذت له الأنصارية < منبرًا من أعواد أي: من خشب. ويذكر أهل السير والتاريخ: أن هذا المنبر كان درجاته ثلاثة، فلما صعد المصطفى ﷺ على هذا المنبر ليخطب، وترك الجذع الذي كان يعتمد عليه، بكى الجذع وحن حزنًا على فراق النبي ﷺ وعلى كلام النبوة الذي اعتاد عليه؛ فيقولون: إن الصحابة { سمعوا لهذا الجذع حنينًا كحنين الناقة العُشَرَاءِ، فنزلَ النبيُّ ﷺ إليه واحتضنه حتى سكت، وفي بعض الروايات أنه خيره بين أن يخطب عليه وبين أن يسكت ويكون من أعواد الجنة؛ فسكت ودفنوه، وكان ذلك رضًى منه بأن يكون في الجنة.

وهذا يدل على أن نبينا محمدًا ﷺ أَحَبَّهُ هذا الجماد، هذا الجذع، وقد أحبته جمادات أخرى، أحبه أُحد ﷺ فنحن أحق وأولى بهذا الحنين وهذا الحب له ﷺ فَحِرِيٌّ بنا أن نحبه وأن نحن إليه ﷺ كما أحبته الجبال، وحنت إليه جذوع الأشجار ﷺ.

وينقلون عن الإمام الحسن البصري -رَحِمَهُ اللهُ- أنه قال: إذا كان الجذع يحن إلى النبي ﷺ فنحن أولى بالحنين إليه من الجذع.

ومنها: انقياد الشجر وتسليمه وكلامه.

ومنها: تسليم الحجر وشكوى البعير. انتهى كلامه.

لكن أعظم هذه الآيات وأجلها على الإطلاق هي معجزة القرآن الكريم، والنبأ العظيم، وهو المعجزة الخالدة إلى يوم الدين.

يقول الشيخ حافظ الحكمي -رَحِمَهُ اللهُ-:

وأعظم معجزاته هذا القرآن، معجزة خالدة أبد الآبدين ودهر الداهرين، لا تفنى عجائبه، ولا يدرك غاية إعجازه، ولا يندرس بمرور الأعصار، ولا يُمل مع التكرار، بل يجلى مع ذلك ويتجلى، ويعلو على غيره ولا يُعْلَى، وكل معجزة قبله انقضت بانقضاء زمانها، ولم يبقَ إلا تذكارها، وكل يوم براهينه في مزيد، ومعجزاته في تجديد، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]. انتهى كلامه.

ويقول الدكتور عمر الأشقر:

شَاءَ اللهُ تَعَالَى أن تكون معجزةُ محمد ﷺ مخالفةً لمعجزاتِ الرسلِ، وكان الله قادرًا على أن يُنزل معجزةً حسيةً، تُذهل مَن يراها: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤] فَلو شاء اللهُ تَعَالَى لأنزل من السماء آيةً قاهرةً لا يملكون معها جدالًا ولا انصرافًا عن الإيمان، ويصور خضوعهم لهذه الآية في صورة حسية ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ ملوية محنية حتى لكأن هذه هيئةٌ لهم لا تفارقهم، فهم عليها مقيمون، ولكنه سبحانه شاء أن يجعل معجزة هذه الرسالة الأخيرة آية غير قاهرة، لقد جعل آية القرآن منهاج حياة كاملة؛

معجزًا في كل ناحية ؛ معجزًا في بنائه التعبيري وتنسيقه الفني باستقامته على خصائص واحدة في مستوًى واحدٍ لا يختلف ولا يتفاوت، ولا تتخلف خصائصه كما هي الحال في أعمال البشر ؛ إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد المتغير الحالات بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسقٍ واحدٍ ومستوًى واحدٍ ثابتٍ لا يتخلف ؛ يدل على مصدره الذي لا تختلف عليه الأحوال.

ومعجزًا في بنائه الفكري وتناسق أجزائه وتكاملها فلا فلتة فيه، ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسق وتتكامل، وتحيط بالحياة البشرية، وتستوعبها وتلبيها، وتدفعها دون أن تتعارض جزئيةٌ واحدةٌ من ذلك المنهج الشامل الضخم مع جزئية أخرى، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية إذ تقصر عن تلبيتها، وكلها مشدودة إلى محورٍ واحدٍ في اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة، ولا بد أن تكون هناك خبرة مطلقة غير مقيدة بقيود الزمان والمكان هي التي أحاطت به هذه الإحاطة، ونظمته هذا التنظيم.

معجزًا في يُسْرِ مداخله إلى القلوب والنفوس وليس مفاتيحها وفتح مغاليقها، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات، دون تعقيد، ولا التواء، ولا مغالطة. لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن، هو معجزة هذه الرسالة، ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق، وتخضعها، وتضطرها إلى التسليم ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة إلى الأمم كلها وإلى الأجيال كلها، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب لكل أمة ولكل جيل.

والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى لا واقع يشهد، فأما القرآن الكريم فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنًا كتاب مفتوح ومنهج مرسوم يستمد منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم لو هدوا إلى اتخاذ إمامهم، ويلبي حاجاتهم كاملة ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل، وأفق أعلى، ومصير أمثل، وسيجد فيه من بعدنا كثيرًا مما لم نجده نحن، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ويبقى رصيده لا ينفد. انتهى كلامه.

٢- بيان أوجه الإعجاز والدلالات من القرآن الكريم على نبوة محمد ﷺ:

لا شك أن معجزةَ القرآنِ الكريمِ هي أعظم معجزات خاتم النبيين ﷺ لأن الله تعالى تحدَّى بهذه المعجزة كلَّ البشر؛ بدءًا من معاصري نزول الوحي من مشركي مكة إلى يومنا هذا، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

يقول الشيخ مناع القطان في كتابه (مباحث في علوم القرآن):

هذا الكون الفسيح الذي يَعُجُّ بمخلوقاتِ الله تضاءلت جباله الشامخة وبحاره الزاخرة، ومهاده الواسعة أمام مخلوقٍ ضعيفٍ هو الإنسان؛ ذلك لما جمع الله فيه من خصائص، وما منحه من قوة التفكير التي تشع في الأرجاء؛ لتسخر عناصر القوى الكونية، وتجعلها في خدمة الإنسانية، وما كان الله ليذر هذا الإنسان دون أن يمده بقبس من الوحي بين فترة وأخرى، يقوده إلى معالم الهدى ليسلك دروب الحياة على بينةٍ وبصيرة؛ إلا أن غلواءه الفطري يأبى عليه الخضوع لقرينِهِ من بني الإنسان ما لم يأتِ له بما لا يستطيع، حتى يعترف ويخضع ويؤمن بقدرة عليا فوق قدرته؛ فكانَ رسلُ اللهِ الذين ينزل عليهم الوحي يؤيدهم الله بخوارقِ العاداتِ التي تقيم الحجة على الناس؛ ليعترفوا أمامها بالعجز ويدينوا لها بالولاء

والطاعة، ولكن العقل البشري كان في أطوار نموه الأُوَلِ لا يرى شيئًا يأخذ بلبه أقوى من المعجزات الكونية الحسية حتى لا يرقى عقله إلى السمو في المعرفة والتفكير؛ فناسب هذا أن يبعث كل رسول إلى قومه خاصة، وأن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه خارقة لما ألفوه؛ ليتحقق بعجزهم عنها إيمانهم بأنها من قوى السماء.

فلما اكتمل العقل البشري أذن الله بفجر الرسالة المحمدية الخالدة إلى الناس كافة وكانت معجزتها معجزة العقل البشري في أرقى تطوراتِ نضجِهِ ونموِّهِ؛ فبينما كان تأييد الله لرسله السابقين بآياتٍ كونيةٍ تبهر الأبصار، ولا سبيل للعقل في معارضته كمعجزة اليد والعصا لموسى، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى لعيسى؛ كانت معجزة محمد ﷺ في عصر مشرفٍ على العلم؛ معجزةً عقليةً تحاجُّ العقل البشري، وتتحداه إلى الأبد وهي معجزة القرآن بعلومه ومعارفه وأخباره الماضية والمستقبلة.

فالعقل الإنساني على تقدمه لا يعجز عن معارضته؛ لأنه آية كونية لا قِبَلَ له بها، ولكن عجزه لقصوره الذاتي؛ فيكون هذا اعترافًا منه بأنه وحي الله إلى رسوله، وهذا المعنى هو ما يشير إليه رسول الله ﷺ في قوله: ((ما من الأنبياء نبي إلا أُعْطِيَ ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليَّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا)) رواه البخاري. وهكذا كتب الله لمعجزة الإسلام الخلود، وتضعضعت القدرة الإنسانية مع تراخي الزمن، وتقدم العلم عن معارضتها. انتهى كلامه. ولماذا كانت معجزة محمد ﷺ علمية من جنس البلاغة؟

يجيب على هذا التساؤل الشيخ رحمة الله الهندي بقوله:

الجواب: أن بعض المعجزات تظهر في كل زمان من جنس ما يغلب على أهل ذلك الزمان؛ لأنهم يكونون قد بلغوا فيه الدرجة العليا، ويقفون على الحدِّ الذي

يمكن للبشر الوصول إليه ؛ فإذا شاهدوا ما هو خارج عن الحد المذكور ؛ علموا أنه من عند الله.

فمثلًا عندما رأى سحرة فرعون في زمان موسى # أن عصاه انقلبت ثعبانًا يتلقف سحرهم علموا أن هذا الأمر خارج عن حد صناعة السحر وأنه معجزة لموسى من عند الله فآمنوا به وبمن أرسله ، وفي زمان عيسى # كان علمُ الطبِّ متقدمًا ؛ فَلَمَّا رَأَى أهل ذلك الزمان إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص علموا أنها ليست من حد صناعة الطب وأنها معجزة لعيسى من عند الله ليؤمنوا برسالته ويتبعوه.

وفي زمانِ محمدٍ ﷺ كانت البلاغة قد وصلت إلى الدرجة العليا ، وكان بها فخارهم نثرًا وشعرًا ، فَلَمَّا أَتَى النبيُّ محمدٌ ﷺ بهذا القرآن الذي أعجز جميع البلغاء ؛ عُلِمَ أنه من عند الله قطعًا ، وأن من لم يؤمن به فهو عنيد مستكبر. انتهى كلامه.

ولهذه المعجزة الخالدة -القرآن الكريم- وجوهٌ من الإعجاز بَيَّنَهَا العلماءُ تدل على أن هذا القرآن كلامُ الله تعالى أوحاه إلى عبده محمد ﷺ ، كما تدل أيضًا على أن خاتم النبيين محمدًا ﷺ رسولٌ مصطفى ، ونبيٌّ مجتبى ، صادقٌ في دعواه النبوةَ ؛ سارٍ على سنن إخوانه المرسلين قبله.

يقول القاضي عياض -رَحِمَهُ اللهُ- وهو يعدد أوجه الإعجاز في القرآن الكريم :

اعلم -وفقنا الله وإياك- أن كتاب الله العزيز منطوٍ على وجوهٍ من الإعجازِ كثيرة ، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه :

أولها : حسن تأليفه ، والتئام كلمه ، وفصاحته ، ووجوه إعجازه وبلاغته الخارقة عادةَ العرب ؛ وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن ، وفرسان الكلام ؛ قد خُصُّوا

من البلاغة والحكم بما لم يختص به غيرهم من الأمم، فمنهم البدوي ذو اللفظ الجذري، والقول الفصل والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنزع القوي، ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة...

الوجه الثاني من إعجازه: صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب، المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطعُ آيِهِ، وانتهت فواصل كلماته إليه. ولما سمع كلامه ﷺ الوليدُ بن المغيرة، وقَرَأَ عليه القرآن رقَّ، فجاءه أبو جهل منكرًا عليه قال: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا...

الوجه الثالث من الإعجاز: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع؛ فوجد كما ورد، وعلى الوجه الذي أخبره به كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣]، وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] فكان جميع هذا كما قال، فغلبت الروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس في الإسلام أفواجًا؛ فما مات ﷺ حتى دخل بلاد العرب كلها الإسلام، ولم يبقَ منها موضعٌ لم يدخله الإسلام...

الوجه الرابع: ما أنبئنا به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدَّاثِرَةِ، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذُّ الواحد من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك؛ فيورده النبي ﷺ على وجهه ويأتي به على نصه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه وأن مثله لم ينله بتعليم وقد علموا أنه ﷺ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة ولا منافسة، أي: مجالسة، ولم يغب عنهم ولا جهل حاله أحدهم منهم. انتهى كلامه.

يقول السفاريني -رَحِمَهُ اللهُ- في نظمه في منظومته:

ومعجزاتُ خاتَمِ الأَنْبياءِ ❖ كَثِيْرَةٌ تَجِلُّ عَنْ إِحْصَاءِ

مِنْهَا كَلاَمُ اللهِ مُعْجِزُ الوَرَى ❖ كَذَا انْشِقَاقُ البَدْرِ فِي غَيْرِ امْتِرَى

وبالجملة: فإن معجزة القرآن الكريم هي أعظم معجزات نبينا ﷺ وفيها من التحدي للبشر ما يعجز عن جمعه، بل هل رد عليه جميع عقلائهم من لدن عقلاء قريشٍ في مكة إلى عقلاء القرن الخامس عشر الهجري الذي نعيش فيه الآن؟ وهذا أكبر شاهد على أن محمدًا ﷺ صادقٌ، وليس بكاذبٍ في دعواه النبوة، وتلقي الوحي.

ولا شك أن الكلام في مجالات إعجاز القرآن الكريم أمرٌ طويلٌ، ويعجز عن الإلمام به وحصره مثلي، لكنه شيق ويزيد المسلم إيمانًا ويقوي من عزيمته.

٣- إقامة الأدلة على عموم رسالة نبينا محمد ﷺ:

لقد جاءت الرسالات السماوية على نوعين:

النوع الأول: رسالة خاصة بأمة معينة، تنتهي بموت النبي الذي أرسل بها، وبانقضاء تلك الرسالة واضمحلال معالمها، يبعث الله نبيًّا آخر لأمة أخرى، وهكذا تتابعت الرسل والأنبياء -عليهم السلام- كل رسول يبعث إلى قومه خاصة، ينذرهم ويبشرهم حتى ختم الله تلك الرسالات.

النوع الثاني: الرسالة العامة خاتمة الرسالات السماوية رسالة الإسلام؛ فكانت عامة إلى كل أمة وصالحة لكل زمان ومكان، فهيمنت على ما سبقها من رسالة ونسختها، وختم الله بالمبعوث بها ﷺ النبوة، فلا رسول بعده، ولا رسالة بعد

رسالته. من أجل ذلك كانت رسالة الإسلام رسالة عامة لجميع الناس، بل للثقلين، بل هي رسالة للعالمين.

يقول أبو جعفر الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته:

"وهو المبعوث إلى عامة الجنّ وكافة الورى بالحق والهدى، وبالنور والضياء".

ثم يقول شارح (العقيدة الطحاوية) -رحمه الله- وهو أبي العز الحنفي:

"أما كونه مبعوثًا إلى عامة الجن، فقال تعالى حكاية عن قول الجن: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وكذا سورة "الجن" تدل على أنه أرسل إليهم أيضًا، قال مقاتل: لم يبعث الله رسولًا إلى الإنس والجن قبله، وهذا قول بعيد، فقد قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ... ﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية، والرسول من الإنس فقط، وليس من الجن رسول"، كذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف.

وقال ابن عباس: "الرسل من بني آدم ومن الجن نذر -أي: جمع نذير- وظاهر قوله حكاية عن الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ... ﴾ [الأحقاف: ٣٠] الآية، يدلّ على أن موسى مرسل إليهم أيضًا".

وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلًا، واحتج بهذه الآية الكريمة، وفي الاستدلال بها على ذلك نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي -والله أعلم- كقوله ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ والمراد: من أحدهما.

وأما قوله: "مبعوثًا إلى كافة الورى"، فقد قال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقد قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي: وأنذر من بلغه، وقال تعالى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ [النساء: ٧٩].

وأما قول النصارى: إنه رسول إلى العرب خاصة، فظاهر البطلان، فإنهم لّما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه في كل ما يُخبر به، وقد قال: إنه رسول الله إلى الناس عامة، والرسول لا يكذب؛ فلزم تصديقه حتمًا فقد أرسل رسله، وبعث كتبه في أقطار الأرض إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، والمقوقس، وسائر ملوك الأطراف يدعو إلى الإسلام.

وقوله: "بالحق والهدى، والنور والضياء"، هذه أوصاف ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين، والشرع المؤيّد بالبراهين الباهرة من القرآن الكريم، وسائر الأدلة، وضياءً أكمل من النور قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا ﴾ [يونس: ٥]" انتهى كلامه.

ويقول الدكتور عمر الأشقر مبينًا الفرق بين الرسالة العامة والرسالة الخاصة:

"الرسالات السماوية السابقة أنزلت لأقوام بأعيانهم، والرسالة الخاتمة التي أنزلت على خاتم الأنبياء والرسل رسالة عامة للبشرية كلها، وهذا يقتضي أن تمتاز هذه الرسالة عن الرسالات بما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وقد جعلها الله كذلك، وأنزل على رسوله ﷺ قبل وفاته: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة: ٣].

وقد بيّن سيد قطب -رحمه الله- هذا المعنى وجلّاه في تفسيره لهذه الآية قال:

"إن المؤمن يقف أمام كمال هذا الدين يستعرض موكب الإيمان، وموكب الرسالات، وموكب الرسل منذ فجر البشرية، ومنذ أول رسول آدم # إلى هذه الرسالة الأخيرة، رسالة النبي الأمي إلى البشر أجمعين، فماذا يرى؟ يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل موكب الهدى والنور، ويرى معالم الطريق على طول الطريق، ولكنه يجد كل رسول قبل خاتم النبيين، إنما أرسل إلى قومه، ويرى كل رسالة قبل الرسالة الأخيرة إنما جاءت لمرحلة من الزمان رسالة خاصة لمجموعة خاصة في بيئة خاصة.

ومن ثمّ كانت كل تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه، متكيفة بهذه الظروف كلها تدعو إلى إله واحد، فهذا هو التوحيد، وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد، فهذا هو الإسلام، ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تُناسب حالة الجماعة وحالة البيئة، وحالة الزمان والظرف، حتى إذا أراد الله أن يختم رسالته إلى البشر أرسل إلى الناس كافّة رسولًا خاتم النبيين برسالة للإنسان، لا لمجموعة من الأناس في بيئة خاصة، في زمان خاصّ، في ظروف خاصة برسالة تخاطب الإنسان من وراء الظروف، والبيئات والأزمنة؛ لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدّل ولا تتحول، ولا ينالها التغيير: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠].

وفصّل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة الإنسان من جميع أطرافها، وفي كل جوانب نشاطها، وتضع لها المبادئ الكلية، والقواعد الأساسية فيما يتطوّر فيها ويتحوّر بتغير الزمان والمكان، وتضع الأحكام التفصيلية، والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحوّر بتغير الزمان والمكان.

بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة الإنسان، منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان من ضوابط وتوجيهات، وتشريعات وتنظيمات؛ لكي تستمر، وتنمو، وتتطور، وتتجدد حول هذا المحور، وداخل هذا الإطار.

لقد جمعت الشريعة الخاتمة محاسن الرسالات السابقة، وفاقتها كمالًا وجلالًا، يقول الحسن البصري > : "أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان أي: القرآن، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان". انتهى كلامه.

فلما كانت الرسالات السماوية السابقة إنما أُنزلت لإصلاح شئون أقوام بأعيانهم، والرسالة الخاتمة التي أُنزلت على خاتم خاتمة الوسائط من الرسل رسالة عامة للبشرية كلها، لما كان الأمر كذلك؛ فإن هذا يقتضي أن تمتاز هذه الرسالة بحكم عالميتها عن غيرها من الرسالات بخصائص تجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وتفي بمصالح جميع بني الإنسان، وقد جعلها الله تعالى كذلك، وأنزل على رسوله ﷺ قبل وفاته: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] جاءت رسالة الإسلام عامة إلى الثقلين الإنس والجن، وإلى الأبيض والأسود، وهذه من الخصائص الكبرى المميّزة للإسلام. فإن الرسالات السابقة كانت خاصة بأمة معينة، وتنقضي بزمان محدّد، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

وأما خاتم النبيين محمد ﷺ فقد كان مبعوثًا إلى كافّة الناس بعكس الأنبياء السابقين، وكتابه ﷺ هيمن على ما بين يديه من كتب السماء بحكم أنه خاتم الكتب المنزلة، وقد بين القرآن الكريم والسنة المطهرة ذلك أحسن بيان في أكثر من

موضـع، قـال تعـالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، ومع أنه إجماع المسلمين فهو أيضًا معلوم بالاضطرار من الدين، وكما أن الرسالة الخاتمة امتدت بآفاقها الرحيبة إلى الماضي، فاعترفت برسالات الأنبياء السابقين في التاريخ، فإنها اختصت بعمومها وعالميتها، فهي لسائر البشر صالحة لكل زمان ومكان، وليست رسالة أمة معينة، ولا تنقضي بزمن محدد، وهي دين الحاضر والمستقبل.

ورسالة الإسلام هي الرسالة العالمية التي ارتضاها الله للبشرية جمعاء حتى قيام الساعة، وقد أمر الله أتباع الديانات الأخرى بالدخول فيها مبينًا لهم أنها نسخت الرسالات كلها، فلا يقبل الله بعد بعثة محمد ﷺ نبيًّا، ولا بعد رسالته رسالة قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال أيضًا: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] فالرسالة الإسلامية بحكم عالميتها، وكونها خاتمة لرسالات الله دعوة للوحدة الإنسانية تحت راية التوحيد، لا تعترف بالطبقية، ولا العنصرية، ولا باختلاف اللون، والعرق، واللغة؛ بل هي تتجاوز كل ذلك تحقيقًا للمساواة التامة بين البشر، وتوحيدًا لموكب الإيمان في طريقه إلى الله تعالى.

يقول الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه (الرسالة والرسول):

"بعث محمد ﷺ رحمة للعالمين، بعد أن ضاعت معالم الرسالات السماوية السابقة، وتحرفت معالمها، وخفت إشعاعها وضعف أثرها في الحياة الإنسانية؛ فكانت رسالته تجديدًا لدعوة التوحيد التي بعث بها سائر الأنبياء والمرسلين، وتعديلًا للشرائع السابقة وإكمالًا لها بعد أن ارتقت البشرية، وتفتحت عقولها، وتهيّأت نفوسها لاستقبال الرسالة الخاتمة بكل جوانبها الروحية والاجتماعية. وقد

أوضح المصطفى ﷺ أن رسالته إكمالًا لرسالات الأنبياء السابقين قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وفي الحديث الشريف عن جابر > عن النبي ﷺ قال: ((مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى دارًا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع اللبنة)) قال رسول الله ﷺ: ((فأنا موضع اللبنة، جئتُ فختمتُ الأنبياء)) رواه مسلم.

والحديث يبيّن إكمال الرسالة الخاتمة، ووفاءها بحاجات البشرية مهما درجت في مراقي التقدم الحضاري ثقافة وصناعة مما نصّ عليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾.

انتهى كلامه.

٤ـ الأدلة من الكتاب والسنة على عالمية رسالة الإسلام:

لقد ثبتتْ بعثة نبينا محمد ﷺ إلى عموم الناس، بل إلى الثّقلين من الإنس والجن، وذلك في كثير من النصوص القرآنية والحديثيّة. فمن ذلك:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي، ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين، وأنه

مبعوث إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، والآيات في هذا كثيرة كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تُحصى، وهو معلوم من دين الإسلام بالضرورة أنه ﷺ رسول الله إلى الناس كلهم.

قال البخاري -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: وساق السند حتى قال: سمعت أبا الدرداء > يقول: كانت بين أبي بكر وعمر { محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضبًا، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل، حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء ونحن عنده: قال رسول الله ﷺ: ((أما صاحبكم هذا فقد غامر)) أي: غاضب ((وحاقد))، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر. قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم. فقال رسول الله ﷺ: ((هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت)). انفرد به البخاري. انتهى كلامه.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾.

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- :

في تفسير هذه الآية: "صرّح في هذه الآية الكريمة بأنه ﷺ منذرٌ لكلّ من بلغه هذا القرآن العظيم كائنًا من كان، ويُفهم من الآية أن الإنذار به عام لكل من بلغه، وأن كل من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار، وهو كذلك. أما عموم إنذاره لكل من بلغه، فقد دلت آيات أُخَرُ أيضًا عليها كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾، وقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

وأما دخول من لم يؤمن به النار فقد صرّح به تعالى في قوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ وأما من لم تبلغه دعوة الرسول ﷺ فله حكم أهل الفترة الذين لم يأتهم رسول، والله تعالى أعلم". انتهى كلامه

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله- في تفسيره:

"أي: وأوحى الله إليّ هذا القرآن الكريم؛ لمنفعتكم ومصلحتكم، لأنذركم به من العقاب الأليم. والنذارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به من الترغيب والترهيب، وبيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، التي من قام بها فقد قبل النذارة. فهذا القرآن فيه النذارة لكم أيها المخاطبون، وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة؛ فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية". انتهى كلامه.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩].

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢].

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

"ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه نزّل الفرقان وهو هذا القرآن العظيم على عبده، وهو محمد ﷺ لأجل أن يكون للعالمين نذيرًا، أي: منذرًا، وقد قدمنا مرارًا أن الإنذار هو الإعلام المقترن بتهديد، وتخويف، وأن كل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذارًا، كما أوضحناه في أول سورة الأعراف.

وهذه الآية الكريمة تدلّ على عموم رسالته ﷺ للأسود والأحمر، والجن والإنس؛ لدخول الجميع في قوله تعالى: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، وهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في آيات أُخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية، أي: أرسلناك للناس كافة، أي: جميعًا. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ (٣٣) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣، ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١]". انتهى كلامه.

ومن الأدلة على عموم رسالته ﷺ من السنة المطهرة: قوله ﷺ في الحديث الصحيح: ((أعطيتُ خمسًا لم يُعطَهُنّ أحدٌ قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثتُ إلى الناس عامة)) رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: ((والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كان من أصحاب النار)) رواه مسلم. فعموم رسالته ﷺ أمرٌ ثابت بالأدلة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة.

٥. أدلة عموم رسالته ﷺ:

يقول الشيخ السفاريني -رحمه الله- في منظومته مبينًا أن الرسول محمدًا ﷺ مرسلٌ إلى الناس أجمعين، وليس إلى العرب خاصة يقول:

ولم تزلْ فيما مضى الأنباء ❖ من فضله تأتي لمن يشاء
حتى أتى بالخاتم الذي ختم ❖ به وأعلن على كل الأمم
وخصّه بذاك كالمقام ❖ وبعثه لسائر الأنام

ثم قال السفاريني -رحمه الله- في شرحه لهذا النظم مبينًا أن من خصائص خاتم النبيين التي اختصّه الله بها من دون سائر الأنبياء والمرسلين كونه مبعوثًا إلى الثقلين الإنس والجن رسولًا يقول:

"والثالثة أنه تعالى خصّ نبيه ﷺ ببعثه نبيًّا ورسولًا لسائر -أي: لجميع الأنام- والأنام كسحاب، الخلق من الأنس والجن بالإجماع، واختلف في إرساله إلى الملائكة على قولين:

أحدهما: أنه لم يكن مرسلًا إليهم، وبهذا جَزَمَ جمعٌ محققون، وهو ظاهر كلام علمائنا. وقال ابن حمدان في (نهاية المبتدين): "ونجزم بأن محمدًا ﷺ رسول الله حقًّا إلى الإنس والجن كافة". قال القاضي أبو يعلى: "وإنه ﷺ خاتم الأنبياء وأفضلهم، نصّ عليه الإمام أحمد". انتهى. ونقل الإجماع على ذلك غير واحد.

القول الثاني: "بأنه ﷺ مبعوث إلى الملائكة أيضًا، ورجّحه الجلال السيوطي في (الخصائص)، والسبكي قوله، وزاد "أنه ﷺ مرسل إلى جميع الأنبياء، والأمم السابقة، وزعم أن قوله ﷺ: ((بُعثت للناس كافة)) شامل لهم؛ من لدن آدم إلى قيام الساعة، ورجّح هذا القول البارزي، وزاد "أنه مرسل إلى جميع الحيوانات"، واستدلّ على ذلك بشهادة الضبّ له بالرسالة، وبشهادة الحجر والشجر له أيضًا بذلك.

قال الحافظ السيوطي: "وأزيد إلى ذلك أنه مرسل إلى نفسه"، وتقدم كلام صاحب الفروع وغيره في (التنبيهات الملحقة) تحت قوله: "وكل إنسان وكل جنة في دار نارٍ أو نعيم جنة".

فإن قلت: قد علم يقينًا أن قوم نوح بعد الطوفان كانوا جميع أهل الأرض، ورسالة نوح # عامة لهم؛ فالجواب أن عمومها أمر اتفاقيّ، إذ لم يسلم من الهلاك إلا من كان معه في السفينة، فالعموم صار ثانيًا وبالعرض على أنه لم يُبعث للجن - أي: نوح # ، والحاصل أن نبيّنا محمدًا ﷺ مبعوث إلى الثقلين بالإجماع، ورسالته مطبقة جميع الأكوان، ولا التفات لزعم بعض ملحدي أهل الكتاب من خصوص رسالته للعرب؛ لأن هذا مكابرة باطلة ومغالطة عاطلة". انتهى كلامه.

وفي شرح (العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز الحنفي - رحمه الله - بعد أن ذكر قول الطحاوي - رحمه الله -: "وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، وبالنور والضياء"، يقول:

"أما كونه مبعوث إلى عامة الجن، فقال تعالى حكاية عن قول الجن: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم أيضًا، قال مقاتل: لم يبعث الله رسولًا إلى الإنس والجن قبله، وهذا قولٌ بعيدٌ،

فقد قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية". والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسول. كذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف. وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم ومن الجن نُذُر، أي: جمع نذير، وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ ﴾ [الأحقاف: ٣٠] الآية، يدل على أن موسى مرسل إليهم أيضًا، والله أعلم.

وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم في الجن رسلًا، واحتجّ بهذه الآية الكريمة، وفي الاستدلال بها على ذلك نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي والله أعلم كقوله تعالى: ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢] والمراد من أحدهما.

وأما كونه مبعوثًا إلى كافة الورى فقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقد قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي: وأنذر من بلغه، وقال تعالى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ [يونس: ٢] الآية، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١] وقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقال ﷺ: ((أعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلّت لي الغنائم، ولم تُحلّ لأحد قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثتُ إلى الناس عامّة)) أخرجاه في

الصحيحين. وقال ﷺ: ((لا يسمع بي رجل من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يُؤمن بي إلا دخل النّار)) رواه مسلم، وكونه ﷺ مبعوثًا إلى الناس كافة، معلومٌ من دين الإسلام بالضرورة". انتهى كلامه.

ولّما كانت الرسالات السماوية السابقة إنما أُنزلت لإصلاح شئون أقوامٍ بأعيانهم، والرسالة الخاتمة التي أُنزلت على خاتمة الوسائط من الرّسل، رسالة عامّة للبشرية كلّها- لّما كان الأمر كذلك، فإن هذه الرسالة تمتاز بعالميتها، وكونها موجهة للإنس والجن، والأبيض والأسود؛ فقد فسّر الإمام القرطبي -رحمه الله- "العالمين" في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، بأنه يَعُمّ عالم الجن وعالم الإنس. ورسالة الإسلام هي الرسالة العالمية التي ارتضاها الله للبشرية جمعاء، حتى قيام الساعة، وقد أمر الله أتباع الديانات الأخرى بالدخول فيها؛ مبيّنًا لهم أنها نسخت الرسالات كلها، فلا يقبل الله بعد بعثة محمد ﷺ نبيًّا، ولا بعد رسالته رسالة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالرسالة الخاتمة دعوة لوحدة الإنسانية تحت راية التوحيد، لا تعترف بالطبقية، ولا بالعنصرية، ولا باختلاف اللون والعرق واللغة؛ بل هي تتجاوز كل ذلك تحقيقًا للمساواة التامّة بين البشر.

وتوحيدًا لموكب الإيمان في طريقة إلى الله تعالى، وبالجملة: فإن إثبات عموم رسالة الإسلام، وكون خاتم النّبيين محمدٍ ﷺ مبعوثًا إلى الناس كافّة؛ بل وُجد في زمنهم من اليهود والنصارى، وغيرهم من أصحاب الملل الأخرى، ومَن أتى بعد زمنه ﷺ ممّن بلغته الدعوة إلى قيام الساعة أمرٌ مُجمع عليه، وأكّدته الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، بل هو معلوم من دين الإسلام بالضرورة.

ويدلّ هذا الأمر على أن ادّعاء مَن ادّعى من الناس: أن محمدًا ﷺ مبعوثٌ إلى العرب خاصة أمرٌ مردودٌ على صاحبه؛ فلم يكن ﷺ نبيًّا خاصًّا لقومه من العرب ولا رسالته خاصة بأمّة معينة، ومحددة بزمان معين، ومكان معين، كما هي حال الرسالات السماوية قبله، بل هي للناس كافّة، وهو مبعوث إلى العالمين؛ لأنه لا نبيّ بعده، ولا رسالة تنزل إلى أهل الأرض بعد رسالة الإسلام، وقد انقطع الوحي بعد موته ﷺ، ومن أجل ذلك تكفّل الله بحفظ هذا القرآن إلى الأبد، وحتى يصل نوره إلى من أراد الله هدايته من العالمين.

٦. ليست رسالة النبي محمد ﷺ خاصّة للعرب:

ذهب بعض ملحدي النصارى إلى ادّعاء أن خاتم النبيين محمدًا ﷺ مبعوث إلى العرب خاصة، وليس إلى الناس عامّة، وقد ذكروا شبهات واهية، وقام بالرّد عليهم علماء الإسلام، وممّن اهتمّ بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)؛ حيث ذكر في سرد تأليفه لهذا الكتاب أنه اطّلع على كتاب لأحد علماء النصارى يدّعي فيه: أنه وجد الأدلّة السمعية من القرآن الكريم تؤيّد مذهبه النصراني، وتؤكّد أن نبي الإسلام محمدًا ﷺ مبعوثٌ إلى قومه من العرب خاصة، وليس إلى الناس أجمعين. فلا يضرّ اليهود أو النصارى رفضهم لدعوته، وكفرهم بنبوته؛ لأنهم يتبعون أنبياءهم، وهذا النبي الخاتم ﷺ ليس مبعوثًا إليهم، وليسوا محتاجين إلى بعثةِ نبيٍّ آخر، فرسالة الإسلام وتعاليم محمد ﷺ لا تعنيهم في شيء من أمورهم.

ثم أخذ شيخ الإسلام يردّ عليهم فقال: "قال الكاتب على لسان الأسقف: إنهم يقولون: إنا سمعنا أنه قد ظهر إنسان من العرب، اسمه محمد، ويقول: إنه رسول الله، وأتى بكتاب فذكر أنه منزل عليه من الله، فلمْ نزل إلى أن حصل

الكتاب عندنا قال، فقلت له: إذا كنتم قد سمعتم بهذا الكتاب، وهذا الإنسان، واجتهدت على تحصيل هذا الكتاب الذي أتى به عندكم، فلأي حال لم تتبعوه، ولا سيما وفي هذا الكتاب يقول: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾؟ أجابوا قائلين: بأحوال شتّى. قال: فقلت: وما هي؟ قالوا: منها أن الكتاب عربي وليس بلساننا، حسب ما جاء فيه يقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال في سورة الشعراء: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]، وقال في سورة البقرة: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١]، قالوا: فلما رأينا هذا علمنا أنه لم يأتِ إلينا، بل إلى جاهلية العرب الذين قالوا: إنه لم يأتهم رسول ولا نذير من قبله، وإنه لا يلزمنا اتباعه؛ لأننا نحن قد أتانا رسلٌ من قبله، خاطبونا بألسنتنا، وأنذرونا بديننا الذين نحن متمسكون به، يومنا هذا، وسلّموا إلينا التوراة والإنجيل بلغتنا، على ما يشهد لهم هذا الكتاب الذي أتى به هذا الرجل، وهذه ألفاظه بأعيانها في الفصل الأول.

وهذا الفصل لم يتعرّض فيه لا لتصديقه ولا لتكذيبه، فنحن نبدأ بالجواب على هذا، ونبيّن أنه ﷺ أخبر أنه مرسل إليهم، وإلى جميع الإنس والجن، وأنه لم يقلْ قط أنه لم يرسل إليهم، ولا في كتابه ما يدلّ على ذلك. وأن ما احتجوا به من الآيات التي غلطوا في معرفة معناها، فتركوا النصوص الكثيرة الصريحة في كتابه التي تُبيّن أنه مرسل إليهم من جنس ما فعلوه في التوراة، والإنجيل، والزبور، وكلام الأنبياء؛ حيث تركوا النصوص الكثيرة الصريحة، وتمسّكوا بقليل من المتشابه الذي لم يفهموا معناه. ومعلوم أن الكلام في صدق مدّعي

الرسالة وكذبه متقدم على الكلام في عموم رسالته وخصوصها، وإن كان قد يُعلم أحدهما قبل الآخر، لكن هؤلاء القوم ادّعوا خصوص رسالته وذكروا أن القرآن يدلّ على ذلك فنُجيب عمّا ذكروه على حسب ترتيبهم فصلًا فصلًا، فنقول -وبالله التوفيق-:

الكلام فيمن خاطب الخلق بأنه رسول الله إليهم، كما فعل محمّد ﷺ وغيره ممّن قال: إنه رسول الله كإبراهيم وموسى ونحوهما من الأنبياء الصادقين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- وكمسيلمة الكذاب والأسود العنسي، ونحوهما من المتنبئين الكاذبين الكلام ينبني على أصلين:

أحدهما: أن يُعرف ما يقوله في خبره وأمره، فيعرف ما يُخْبِرُ به ويأمر به، وهل قال: إنه رسول الله إلى جميع الناس، أو قال: إنه لم يرسل إلا إلى طائفة معينة، لا إلى غيرها.

الثاني: أن نعرف هل هو صادق أو كاذب، وبهذين الأصلين يتمّ الإيمان المفصّل، وهو معرفة صدق الرسول، ومعرفة ما جاء به إلى أن قال: فصل إذا عرف هذا فهؤلاء القوم في هذا المقام ادّعوا أن محمدًا ﷺ لم يُرسل إليهم، بل إلى أهل الجاهلية من العرب، فهذه الدعوى على وجهين؛ إما أن يقولوا: إنه بنفسه لم يدّعي أنه أُرسل إليهم، ولكن أمّته ادّعوا له ذلك. وإما أن يقولوا: إنه ادّعى أنه أرسل إليهم وهو كاذب في هذه الدعوى، إلى أن يقول: وحينئذٍ فهؤلاء إن أقرّوا برسالة محمد ﷺ، وأنه صادق فيما بلّغه عن الله من الكتاب والحكمة؛ وجب عليهم الإيمان بكلّ ما ثبت عنه من الكتاب والحكمة، كما يجب الإيمان بكلّ ما جاءت به الرسل وإن كذّبوه في كلمة واحدة، أو شكّوا في صدقه فيها؛ امتنع مع ذلك أن يُقرّوا بأنه رسول الله.

وإذا لم يقرّوا بأنه رسول الله كان احتجاجهم بما قاله كاحتجاجهم بسائر ما يقوله مَنْ ليس بالأنبياء؛ بل من الكذابين، أو من المشكوك في صدقهم. وهذا أمر اتفق عليه الناس كلهم: المسلمون واليهود والنصارى، وغيرهم اتفقوا على أن الرسول لا بد أن يكون صادقًا معصومًا فيما يبلّغه عن الله، لا يكذّب على الله خطأً ولا عمدًا، فإن مقصود الرسالة لا يحصل بدون ذلك، كما قال موسى # لفرعون: ﴿يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥].

وفي القراءة المشهورة يُخبر أنه جديرٌ، وحريٌّ، وثابتٌ، ومستقرٌّ على أن لا يقول على الله إلا الحقّ، وعلى القراءة الأخرى أخبر أنه واجبٌ عليه ألا يقول على الله إلا الحق، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧]، وإنما المقصود هنا أن احتجاجهم بكلمة واحدة ممّا جاء به محمدٌ ﷺ لا يصحّ بوجهٍ من الوجوه، فإنه إن كان رسولًا صادقًا في كلّ ما يُخبر به عن الله ﷻ فقد علم كل واحد أنه جاء بما يُخالف دين النصارى، فيلزم -إذا كان رسولًا صادقًا- أن يكون دين النصارى باطلًا. وإذ قالوا في كلمة واحدة ممّا جاء به: إنها باطلة؛ لزم أن يكون عندهم رسولًا صادقًا مبلغًا عن الله، وحينئذٍ فسواء قالوا: هو ملك عادل، أو هو عالم من العلماء، أو هو رجل صالح من الصالحين، أو جعلوه قديسًا عظيمًا من أعظم القديسين، فمهما عظموه به ومدحوه به لما رأوه من محاسنه الباهرة، وفضائله الظاهرة، وشريعته الطاهرة متى كذّبوه في كلمة واحدة، ممّا جاء به، أو شكّوا فيها- كانوا مكذّبين له في قوله: إنه رسول الله". انتهى كلامه.

وفي الحقيقة إن ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في هذا الكتاب يقول: ولكنّني اختصرتُ ما ذكره في الفصلين الأولين الخاصين بالكلام على قول هذه

الفرقة من الملحدين من النصارى: إن رسالة محمدٍ ﷺ خاصة بالعرب، وإلا فإن الكتاب مكوّن من أربعة أجزاء، وهو في الرّدود المطوّلة على ما يعتقده النصارى وما يرمون به المسلمين، وكتابهم، ونبيهم ﷺ من ادّعاءات، ويطرح ما يعرضون من شبهات.

وبالجملة: فإن قتال النبي ﷺ لأهل الكتاب، وسبي ذَرَارِيهم، واستباحة دمائهم، وضرب الجزية عليهم أكبرُ دليل على أنه كان مبعوثًا إليهم؛ لأنه لو لم يكن مبعوثًا إليهم لما قاتلهم أصلًا، ولما خاطبهم أصلًا بكتابه، ولم يكن في القرآن الكريم والسنة المطهرة ما يدعوهم صريحًا إلى الدخول في هذا الدين الجديد، وهذا أيضًا من الأدلة الصريحة الواضحة على أنه كذب من ادّعى أن رسالة الإسلام رسالة خاصة، وليست عامة.

ثم إن إرسال النبي محمدٍ ﷺ كتبه، وبعثه الرسائل في أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر، والنجاشي والمقوقس، وسائر ملوك الأطراف يدعوهم إلى الإسلام، من أقوى الأدلة على أنه ﷺ مبعوث إلى الناس أجمعين. فلا عبرة لمن يدّعي أنه لم يُرسل إلا إلى العرب، فإنها دعوى كاذبة وعارية عن الدليل، ولقد أحسن القائل: "والدعاوى ما لم تُقيموا عليها بيّنات أبناؤها أدعياء".

٧ـ إقامة الأدلة على أنه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين:

أولًا: إثبات ختم النبوة لمحمدٍ ﷺ:

لقد أرسل الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ خاتمةً للوسائط من النبيين بعد أن أرسل قبله جمًّا غفيرًا من الأنبياء والرسل، وكانت بعثته ﷺ تختلف عن بعثتهم، فبينما كان النبي يبعث في قومه خاصة، جاءت بعثته ﷺ عامة لجميع الناس، بل بُعِثَ إلى

الإنس والجن، إلى العالمين، وكانت رسالته التي جاء بها صالحةً لكل زمانٍ ومكان، وفيها تفصيل لكل شيء وافية لجميع حاجات البشر، ومتطلبات الحياة، وفيها تفسيرٌ لكل ما يقعُ في الحياة الدنيا، وحياة البرزخ، وحياة الآخرة، وأعطت للإنسان ما يحتاجه من تصوراتٍ للإنسان والكون والحياة، وأصبحت هذه الرسالة الخالدة هي آخر رسالات الله السماوية إلى الأرض، ومبلغها ﷺ هو آخر رسل الله إلى الناس، وكتابه الذي جاء به -القرآن الكريم- هو خاتمة الكتب المنزلة، فلا رسالة بعد الإسلام، ولا كتاب بعد القرآن الكريم، ولا نبي بعد محمدٍ ﷺ.

يقول سيد سابق -رَحِمَهُ اللهُ- :

"الأنبياء جميعًا -صلوات الله وسلامه عليهم- كانت مهمتهم أن يوقظوا الناس ويخرجوهم من الظلمات إلى النور، فكانوا دائمًا دعاةَ الخيرِ وأئمةَ الإصلاح، وحملةَ المشاعلِ في الدنيا المظلمة، وكانَ كلٌّ واحدٍ منهم يأتي عقب الآخر؛ لِيُتِمَّ ما بناه مَن قبله، فيزيد في الإصلاح لبنة حتى استكمل البناء بخاتمهم محمدٍ ﷺ.

فكان دينهُ خلاصةَ الأديانِ السابقةِ، وكانت دعوته هي الدعوة الجديرة بالبقاء؛ ففيها عناصر الحياةِ، ودعائمُ الإصلاح، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [الأنعام: ٣]، وبإكمالِ دينِ اللهِ الحقِّ تمتْ نعمة الله على الناس بما أنزله إليهم من هداية، فلا حاجة إلى هدايةٍ بعدَهَا، وبهذا انقطعت النبوة، وخُتِمت الرسالة، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وإذا كانت النبوة قد انقطعت، فقد انقطعت بالتالي الرسالة، فلا نبوةَ ولا رسالةَ بعد نبوةِ محمدٍ خاتم الرسل، وفي

ذلك يقول ﷺ: ((مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَكَانَ مَنْ دَخَلَهَا، فَنَظَرَ إِلَيْهَا، قَالَ: مَا أحسنَهَا إلا موضعَ هذه اللبنة، فَأَنَا اللبِنَةُ خُتِمَ بِيَ الأنبياءُ -عليهم الصلاة والسلام-)). انتهى كلامه.

ويقول الشيخ السفاريني -رَحِمَهُ اللهُ- في منظومته:

وخَصَّه بِذَاكَ كَالْمَقَامَ ❖ وبَعْثِهُ لِسَائِرِ الأَنَامِ

ثم في شرحه لمنظومته قال: وخصه أي: خص الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ دون سائر الأنبياء بذاك، أي: بكونه خَتَمَ به النبوةَ والرسالةَ، فلا نبيَّ بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وذلك يستلزم خَتْمَ المرسلين؛ لأن ختم الأعم يستلزم ختم الأخص بلا عكس. ومعنى ختم النبوة بنبوته ﷺ: أنه لا تبتدئ نبوة، ولا تشرع شريعة بعد نبوته وشرعته.

وأما نزول عيسى # وكونه متصفًا بنبوته السابقة، فلا ينافي ذلك أن عيسى # إذا نزل إنما يتعبد بشريعة نبينا محمدٍ ﷺ دون شريعته المتقدمة؛ لأنها منسوخةٌ، فلا يتعبد إلا بهذه الشريعة أصولًا وفروعًا؛ فيكون خليفةً لنبينا محمدٍ ﷺ وحاكمًا من حُكَّام مِلَّتِهِ بين أمته بما علَّمَهُ الله تعالى في السماء قبل نزوله، وبنظره في كتاب الله الذي هو القرآن وسنة رسوله محمدٍ ﷺ وهو لا يقصر عن رتبة الاجتهاد المؤدي إلى استنباط ما يحتاج إليه أيام مُكْثِهِ في الأرض من الأحكام، وكسر الصلبان، وقتل الخنزير، ووضع الجزية، وعدم قبولها مما عُلِمَ من شريعتنا.

لا يقال: هذا نسخٌ لشرعةِ محمدٍ ﷺ؛ لأنا نقول: بل هذا من شرعة نبينا محمدٍ ﷺ مُفْضٍ إلى نزولِ عيسى # فإذا نزل انتهى ذلك، كما قال ﷺ: ((ينزل عيسى ابن مريم حكمًا عدلًا))، فنزوله غاية لإقرار الكفار ببذل تلك الأموال ثم لا يقبل إلا الإسلام، فلا نسخ لها. وقد قدمنا ذلك قريبًا". انتهى كلامه -رَحِمَهُ اللهُ.

ويقول الدكتور عمر سليمان الأشقر - مبينًا فضل الرسول الخاتم محمدٍ ﷺ:

وقد فضله في نفسه ودعوته وأمته بفضائل، فمن ذلك: أنه اتخذه خليلًا كما اتخذ الله إبراهيم خليلًا، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه وأبو عوانة: ((إن اللهَ اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا))، وآتاه القرآن العظيم الذي لم يُعْطَ أحدٌ من الأنبياء والرسل مثله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

وخصه الله دون غيره بستٍّ لم يُعْطَهَا أحدٌ من الأنبياء قبله، ففي الحديث: ((فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ، أُعطيت جوامعَ الكلمِ، ونُصرتُ بالرعب، وأحِلَّتْ لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون)) رواه مسلم والترمذي.

ويخبر الرسول ﷺ بأن الله فضله على غيره بستٍّ: أوتي جوامع الكلم، وذلك بأن يجمع في القول الوجيز المعاني الكثيرة، ونُصِرَ بالرُّعْبِ، وذلك ما يلقيه الله في قلوب أعدائه من الخوفِ من رسولِهِ وأتباع رسوله ﷺ، وأُحِلَّتْ له الغنائم، فكانت غنائم من قبلنا من الرسل وأتباعهم تُجمع ثم تنزل نار من السماء فتحرقها، وجُعلت له ولأمته الأرض مسجدًا وطهورًا.

فحيثما أدركت رجلًا من هذه الأمة الصلاةُ، فبإمكانه أن يتوضأ؛ فإن لم يجد يتيمم، ثم يصلي في مسجدٍ مقامٍ أو في منزل، أو في الصحراءِ، وأرسل إلى الناس كافة عربهم وعجمهم، أبيضهم وأصفرهم وأحمرهم من كان في وقت بعثته، ومن يأتي من بعده حتى تقوم الساعة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وأرسله إلى الجن كما أرسله إلى الإنس، وقد رجع وفد الجن بعد سماع القرآن والإيمان بما نزل من الحق داعين قومهم إلى الإيمان: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ

﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجن: ٣١، ٣٢].

فالفضيلة السادسة: أنه خاتم الأنبياء، فلا نبي بعده ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وإذا كان رسولنا خاتم الأنبياء، فهو خاتم المرسلين؛ ذلك أن كلَّ نبيٍّ رسول، ومعنى كونه خاتم الأنبياء والمرسلين: أنه لا يبعث رسولٌ من بعده بغير شرعه، ويبطل شيئًا من دينه.

أما نزول عيسى آخر الزمان، فهو حقٌّ وصدقٌ، كما أخبر المصطفى ﷺ ولكنه لا ينزل ليحكم بشريعة التوراة والإنجيل، بل يحكم بالقرآن، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويؤذن بالصلاة". انتهى كلامه.

ويبين الدكتور فهد الرومي في كتابه (خصائص القرآن الكريم) معنى كون محمدٍ ﷺ خاتم النبيين وكون رسالته خاتمةَ الرسالاتِ؛ فيقول:

وتأمل أخي المسلم كمال هذا الدين، واستعرض موكبَ الأديانِ من قبْلِهِ منذ خَلْقِ آدمَ # إلى رسالة محمدٍ ﷺ سترى أنبياءَ تترى، فإن تأملت وتدبرت رأيت كلَّ نبيٍّ إنما أرسل لقومه، وأنَّ كلَّ رسالةٍ محدودةٍ بزمنٍ معينٍ، فكل رسالةٍ إنما هي لطائفةٍ خاصة في بيئةٍ خاصة.

ومن ثم كانت كلُّ رسالةٍ محكومةً بظروفِهَا، ومتوازنةً مع هذه الظروف، فكان لكل منها شريعةٌ للحياة تناسب حال الجماعة والزمان والمكان، حتى إذا ما أراد الله أن يختم الأديان كلها بدينٍ واحدٍ يجتمع عليه الناس كلهم، أرسل لهم جميعًا رسولًا برسالةٍ يخاطب الفطرةَ الإنسانيةَ التي لا تختلف في بيئةٍ أو في عصرٍ عن عصرٍ، لا تخضع لزمانٍ معين، ولا تتقيد بظروف معينة؛ لأنها تخاطب في الإنسان

مَلَكَةً لا تتغير ولا تتبدل، لا تتحور، ولا تتطور، ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠]. انتهى كلامه.

بعث الله النبيَّ محمدًا ﷺ خاتمًا للنبيين، وجاءت رسالته خاتمةً للرسالاتِ، فَخَتَمَ اللهُ بمحمدٍ ﷺ المرسلين، وختَمَ برسالةِ الإسلامِ الرسالاتِ السماويةَ، فلا نبيَّ بعد محمدٍ ﷺ ولا رسالةَ، ولا شريعةَ بعد الإسلام.

ومعنى ختم الرسالة أي: انتهاء إنباء الله للنَّاسِ، وانقطاع وحيِّ السماء، والأدلة على ختم الرسالات الإلهية برسالة الإسلام كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾.

قال الإمام ابن جرير الطبري -رَحِمَهُ اللهُ- في تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الذي ختم النبوة، فطبع عليها، فلا تُفتح لأحدٍ بعده إلى قيامِ الساعةِ.

وقال الإمام ابن كثيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"فهذه الآية نصٌّ في أنه لا نبي بعده ﷺ وإذا كان لا نبي بعده، فلا رسول بطريق الأَوْلَى والأَحْرَى؛ لأن مقام الرسالة أخصُّ من مقام النبوة؛ فإن كلَّ رسولٍ نبي، ولا عكس.

وقد أعلن النبي ﷺ أن رسالته خاتمة الرسالات، وأنه ﷺ خاتمُ النبيين في أحاديث نبوية كثيرة، منها: حديث أبي هريرة > أن النبي ﷺ قال: ((مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كمثل رجلٍ بنى بيتًا وأحسنه وأجمله، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجَبُونَ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ)) رواه البخاري ومسلم.

فيفهم من هذا الحديث، أن النبي ﷺ كَمَّلَ عَقْدَ الأنبياء المرسلين على أحسن حال، وكان ﷺ واسطةَ ذلك العقد، وأن جمال الوجود اكتمل ببعثته ﷺ فلا حاجةَ لنبيٍّ بعده ﷺ؛ لأن شريعته باقيةٌ إلى يوم القيامة، ولأنها فَصَّلَت الحلالَ والحرامَ، فلا حاجة لبعثة نبيٍّ بعد خاتم النبيين ﷺ.

ولما طرح الشيخ حافظ الحكمي -رَحِمَهُ اللهُ- السؤال التالي، وهو: ما الدليل على أن النبي ﷺ خاتم النبيين؟ أجاب بقوله:

قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾، وقال النبي ﷺ: ((إنه سيكون بعدي كذابون ثلاثون كلُّهم يدعي أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، ولا نبي بعدي))، وفي هذا الحديث يذكرون قصةً طريفة أحب أن أذكرها لكم، وهو أنه لما اتُّهِمَ الشاعر العربي المشهور أبو الطيب أحمد المتنبي الذي ظهر بداية القرن الرابع، وكان من شعراء بلاط سيف الدولة الحمداني في الشام، كان يتنقل ما بين الشام والعراق؛ فيقولون في إحدى الروايات: إنه ادَّعى النبوة في بلدة "السماوة" في العراق؛ ومن أجل ذلك سمي متنبيًا، وأنه كان يأتي بأسجاع ونصوص يدعي أنها وحي، ولما أخبروه بأن النبي ﷺ قال: إنه خاتم النبيين، ولا نبي بعده، قال: نعم، النبي ﷺ قال: ((أنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي)) هو كأنه يبشر بي؛ أنا اسمي في السماء "لا"؛ فقوله ﷺ: ((لا نبي بعدي)) يعني: يريد أنني أنا النبي بعده؛ لأن أنا اسمي "لا"، فلا نبي بعدي يعني "لا" الرجل الذي اسمه "لا" سيكون نبيًّا بعدي، وهذا هي طبعًا من الطرائف التي تذكر في التاريخ، والراجح أن أبي الطيب المتنبي لم يصح إثبات نسبة النبوة إليه، كما ذكره وأكده صاحب (الصبح المنبي عن حيثية المتنبي) وغيره.

نعود إلى الحديث: ((وأنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي)) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه، وفي الصحيح قوله ﷺ لعلي > : ((ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي)) رواه البخاري ومسلم، وقوله ﷺ في حديث الدجال: ((وَأَنَا خَاتَمُ النبيين ولا نبي بعدي)) رواه البخاري ومسلم، وغير ذلك كثير. انتهى كلامه.

وقال شارح (الطحاوية) - رَحِمَهُ اللهُ - :

وإنه خاتم الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وقال ﷺ: ((ومثل الأنبياء كمثل قصرٍ أُحْسِنَ بناؤه، وتُرِكَ منه موضعُ لبنةٍ فطاف به النُّظار يتعجبون من حسن بنائه إلا موضع تلك اللبنة لا يعيبون سواها، فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة؛ خُتِمَ بي البنيان وخُتِمَ بي الرسل)) أخرجاه في الصحيحين.

وقال ﷺ: ((إني لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب))، والعاقب: الذي ليس بعده نبي.

وفي (صحيح مسلمٍ) عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: ((وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي)) الحديث.

ولمسلمٍ أن رسول الله ﷺ قال: ((فضلت على الأنبياء بستٍّ: أُعطيتُ جوامعَ الكلم، ونُصرتُ بالرعب، وأُحلت لي الغنائم، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتِمَ بي النبيون)). انتهى كلامه.

وقال الشيخ حافظ الحكمي -رَحِمَهُ اللهُ- في منظومته:

وكلُّ مَن مِنْ بعدِهِ قَد ادَّعَى نبوةً ❖ فَكَاذِبٌ فِيمَا ادَّعَى

فَهْوَ خِتامُ الرُّسْلِ باتفاقِ ❖ وَأَفْضَلُ الخَلَقِ عَلَى الإطلاقِ

ثم أخذ يشرح هذين البيتين بالأدلة الشرعية من الكتاب السنة على ثبوت ختم النبوة، بمحمدٍ ﷺ إلى يوم القيامة، فقال:

"المسألة الخامسة: أن محمدًا ﷺ خاتمُ الرسلِ؛ فلا نبيَّ بعده، وكتابه خاتم الكتب؛ فلا كتاب بعده، فهو مُحكمٌ أبدًا، قال الله -تَبَارَكَ وتَعَالَى-: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وروى الإمام أحمد والترمذي وصححه، عن أنس ابن مالك > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الرسالةَ والنبوةَ قد انقطعت، فلا رسولَ بعدي ولا نبي)) قال: فشقَّ ذلك على الناس؛ فقال: ((ولكن المبشرات))، قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: ((رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة)).

وروى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته))، أي: لم تُنْفَخْ فيه الروح بعد، وقد وردت عدة أحاديث في صفة خاتم النبوة بين كتفيه آيةً باهرةً ودلالةً ظاهرةً على أنه لا نبي بعده، لا بأس أن نذكر ما تيسر منها، فروى البخاري ومسلم عن السائب بن يزيد > قال: "ذهبت بي خالتي إلى رسول الله ﷺ

فقالت: يا رسول الله، إن ابن أختي وقع فمسح رأسي ودعا لي بالبركة، وتوضأ فشربت من وضوئه ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم بين كتفيه مثل ذر الحجلة"، وفي روايةٍ: قال: "رأيت خاتمًا في ظهر رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمام".

وقال البخاري -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: حدثنا أبو اليمان، قال: أخبرنا شعيب عن عبد الله بن أبي الحسين، قال: حدثنا نافع بن جبير عن ابن عباسٍ { قال: قَدِمَ مسيلمةُ الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمدٌ من بعده -يعني: الأمر- تبعته، وقدمها في بشرٍ كثيرٍ من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يدِ رسول الله ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، وقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أُرِيْتُ فيه ما رأيت، وهذا ثابتٌ يجيبك عني، ثم انصرف عنه".

قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ: "وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت، فأخبرني أبو هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأوحي إلي في المنام: أن أنفخهما، فنفختهما، فطارا، فأولتهما كَذَّابَيْن يخرجان بعدي؛ أحدهما العنسي والآخر مسيلمة)). انتهى كلامه.

وبهذا يتضح بدلالة النص من القرآن الكريم والسنة المطهرة: أن نبينا محمدًا ﷺ خاتم النبيين، فلا نبي بعده، والتاريخ يشهد بذلك، فكم من مدَّعٍ للنبوة ظهر في تاريخ المسلمين كمُسيلمة، والأسود العنسي، وسجاح، وفي القرن الماضي ادَّعَاهَا محمد الشيرازي الملقب بالباب، وأتباعه البابية، ومع ادعائه النبوة ادَّعى

أيضًا الألوهية، ثم سار على نهجه تلميذه بهاء الله، وأتباعه البهائية، ومنهم غلام أحمد القادياني وأتباعه القاديانية، وقد تكفل الله تعالى بفضح كل مَن ادَّعى هذه الدعوى وهتك ستره ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩].

٨- حكم مدعي النبوة بعد محمد ﷺ:

قد أوضح المصطفى ﷺ أن رسالته إكمالٌ لرسالات الأنبياء السابقين؛ قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وفي الحديث الشريف عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع اللبنة، قال رسول الله ﷺ: فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء)) رواه مسلم.

والحديث يُبَيِّنُ اكتمال الرسالة الخاتمة، ووفاءها بحاجات البشرية مهما درجت في مراقي التقدم الحضاري ثقافةً وصناعةً مما نص عليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ فالإسلام هو الدين الخاتم الذي لا دينَ بعده، ومحمد هو الرسول الخاتم فلا نبيَّ بعده، فهو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء حتى قيام الساعة، وقد أَمَرَ اللهُ أتباعَ الديانات الأخرى بالدخول فيه؛ مبينًا لهم أنه نسخ الأديان كلها؛ فلا يقبل الله بعد بعث محمد ﷺ دين سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد أخذ الله العهدَ على جميع الأنبياءِ والرسلِ من قبله أن يؤمنوا به إذا أدركوا بعثته، وأن ينصروه؛ لذلك فقد كانوا وأتباعهم على علمٍ بصفاته حيث وجد في كتبهم المنزلة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وعليه فإنَّ كلَّ من يأتي بعد تصريح الله ﷻ بختمِ النبوة وغلق باب الإرسال، وتصريح رسول الله ﷺ بأنه ختم الأنبياء والرسل، ولا نبي بعده، كل من يأتي بعد هذا ويدَّعِي النبوة والرسالة، ويزعم أنه مرسل من قِبَلِ الله تعالى، وأنه جاء يحمل للناس الخير ويضيء لهم السبيل سواء أكان في الأصل متبعًا لرسالة الإسلام ويعد نفسه من المسلمين أو أطل برأسه من خلال أتباع الديانات الأخرى- فحكم هذا كله الكفر -والعياذ بالله- فإن كان متبعًا في الأصل خاتم النبيين محمد ﷺ ومنتسبًا للإسلام؛ فقد ارتد عن دينه وخرج من دائرة الإسلام بزعمه الكاذب أنه نبي مبعوث بعد رسول الله محمد ﷺ ولا يشك عاقل في أن ادعاءه النبوة بعد محمد ﷺ كذبٌ وزورٌ، ونبوته باطلةٌ وغيٌّ وهوًى.

يقول الإمام أبو جعفر الطحاوي -رَحِمَهُ اللهُ- في عقيدته:

وإن محمدًا عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى، وإنه خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، وكل دعوى النبوة بعده فغيٌّ وهوًى.

ثم شرح ابن أبي العز الحنفي -رَحِمَهُ اللهُ- قوله: "وكل دعوى النبوة بعده فغيٌّ وهوًى" فقال:

لما ثبت أنه خاتم النبيين عُلِمَ أن مَن ادعى بعده النبوة فهو كاذب، ولا يقال: فلو جاء المدَّعي للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة، كيف يقال بتكذيبه؟ لأنا نقول: هذا لا يتصور أن يوجد وهو من باب فرض المحال؛ لأن الله تعالى لَّما أَخْبر أنه خاتم النبيين فمن المحال أن يأتي مدَّعٍ يدعي النبوة، ولا يظهر أمارة كذبه في دعواه. والغي ضد الرشاد، والهوى عبارة عن شهوة النفس، أي: أن تلك الدعوى بسبب هوى النفس، لا عن دليل فتكون باطلة. انتهى بنصه.

ويقول صاحب (كتاب الإيمان: أركانه حقيقته نواقضه):

ونؤمن أنه خاتم الأنبياء؛ لِمَا وَرَدَ في كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ فأما القرآن، فقد قال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾، وأما السنة، فقد قال ﷺ: ((مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كمثل رجل بنى بيتًا؛ فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيُعْجَبُونَ لَهُ، ويقولون: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ)) وقال أيضًا: ((أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يُمْحَى بِيَ الْكُفْرُ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى عَقِبِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ)) وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ. متفق عليه.

ونعتقد اعتقادًا جازمًا: أنه لا نبوة بعده ﷺ وأن كل من ادعاها بعده فهو كذاب، قال رسول الله ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبًا من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله)) رواه مسلم.

كذلك يجب أن نؤمن أنه ﷺ إمام المتقين الذي يقتدى به في الخير كله، وأنه وحده الجدير بالاقتداء والتأسي به دون غيره، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال أيضًا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. انتهى كلامه.

٩- نماذج لبعض مدعي النبوة بعد محمد ﷺ وفضح الله تعالى لهم:

رغم التأكيدات المتتالية التي صرح القرآن الكريم بها، وحذر الرسول ﷺ ممن يأتي بخلافها، وهي أن النبي محمدًا ﷺ خاتم النبيين، لا نبي بعده، ولا تعاليم يدعي صاحبها أنها وحي من الله تعالى بعد تعاليم الإسلام؛ رغم كل ذلك فإنه ظهر على مرِّ التاريخ في زمنِ النبي ﷺ وبعده رجال يدَّعُون النبوة، ويزعمون أنهم مرسلون من قبل الله تعالى، حتى أن مدعي النبوة لم يقصروها على جنس الرجال فحسب، بل ظهرت سجاح التميمية تدَّعِي النبوة في بني تميم، لكن الله ﷻ فضح كل دعوى للنبوة ظهرت سواء قويت شوكة ذلك المدعي للنبوة أم لم تقوَ.

وقد حدثنا ابن إسحاق -رَحِمَهُ اللهُ- في السيرة عن خبر مسيلمة الكذاب الحنفي، والأسود العنسي في اليمن، فقال:

وقد كان تكلَّمَ في عهد رسول الله ﷺ الكذابان مُسيلمة بن حبيب باليمامة في بني حنيفة، والأسود بن كعب العنسي بصنعاء.

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد، وساق السند إلى أبي سعيد الخدري > أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب الناس على منبره، وهو يقول:

((أيها الناس، إني قد رأيت ليلة القدر ثم أنسيتها، ورأيت في ذراعيَّ سوارين من ذهب؛ فأهمني شأنهما فنفضتهما فطارا، فأولتهما هذين الكذابين صاحب اليمن وصاحب اليمامة)).

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم عن أبي هريرة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالًا، كلهم يدَّعِي النبوة)).

ثم ذكر ابن إسحاق قصة كتاب مُسيلمة الذي بعثه إلى رسول الله ﷺ يدعي فيه النبوة وأنه شريك مع الرسول ﷺ في البعث والإرسال.

قال ابن إسحاق: وكان مُسيلمة بن حبيب قد كتب إلى رسول الله ﷺ: "من مُسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد: فإني قد أُشْرِكْتُ في الأمر معك، وإنا لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قومٌ يعتدون".

فقد ورد عليه رسولان له بهذا الكتاب -أي: بكتاب مُسيلمة- ثم ذكر ابن إسحاق جواب النبي ﷺ على رسوليْ مُسيلمة، بقوله بعدما قرأ الكتاب: ((فما تقولان أنتما؟)) قالا: نقول كما قال؛ فقال: ((أما والله لولا أن الرسل لا تُقْتَلُ لضربت أعناقكما))، ثم كتب إلى مسيلمة: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسولِ اللهِ إلى مسيلمةَ الكذاب، السلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)). وذلك في آخر سنة عشر. انتهى كلامه.

وذكر الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- أقوال أهل العلم في هؤلاء الكذابين وعددهم وأعيانهم؛ فقال:

قال القرطبي: وقد جاء عددهم معين في حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: "يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون، منهم أربع نسوة"، أخرجه أبو نعيم، وقال: هذا حديث غريب تفرد به معاوية بن هشام.

قلت: حديث ثوبان أصح من هذا، قال القاضي عياض: عدد مَن تنبأ من زمنِ رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة على ضلالته فوجد هذا العدد فيهم، ومَن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا، وقال الحافظ: قد ظهر مصداق ذلك في زمن النبي ﷺ فخرج مُسيلمة الكذاب باليمامة والأسود العنسي باليمن ثم خرج في خلافة أبي بكر الصديق طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح التميمية في بني تميم، وقُتِلَ الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ وقُتِلَ مسيلمة الكذاب في خلافة أبي بكر > وتاب طليحة، ومات على الإسلام على الصحيح في زمن عمر > ، ويقال: إن سجاح تابت أيضًا، ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي، وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير؛ فأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين فاتبعهم فقتل كثيرًا ممن باشر ذلك وأعان عليه؛ فأحبه الناس، ثم إنه زين له الشيطان أن يدعي النبوة، وزعم أن جبريل # يأتيه.

ومنهم الحارث الكذاب خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فَقُتِلَ، وخرج في خلافة العباسيين جماعةٌ، وليس المراد بالحديث مَن ادّعى النبوة مطلقًا؛ فإنهم لا يحصون كثرةً لكون غالبهم ينشأ عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكةٌ وبدت له شبهة كمن وصفنا، وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقية منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال. انتهى كلامه.

ويقول الدكتور عمر سليمان الأشقر:

ظهر بعد بعثة الرسول ﷺ مجموعة من أدعياء النبوة كمسيلمة، والأسود العنسي، وسجاح، ولا يزال يظهر بين الفينة والفينة دَعِيٌّ من أمثال هؤلاء، وقد ظهر في القرن الماضي علي محمد الشيرازي، وُلِدَ سنة تسع عشرة وثمانمائة وألف ميلادي، ولُقِّبَ بالبَابِ، وأتباعه يدعون البابية، وادّعى النبوة حينًا والألوهية حينًا، وسار على نهجه تلميذه الذي لُقِّبَ ببهاء الله، وأتباعه يدعون البهائية.

ومن هؤلاء الأدعياء ميرزا غلام أحمد القادياني، وله أتباعٌ منتشرون في الهند وألمانيا وإنجلترا وأمريكا، ولهم فيها مساجد يضلون بها المسلمين، وكانوا يسمون بالقاديانية، وهم يسمون اليوم أنفسهم بالأحمدية؛ إمعانًا في تضليل عباد الله، وآخر هؤلاء الأدعياء رجل ظهر في السودان يدَّعي أنه نبي. وقد تكفل الله بفضح كل مَن ادَّعى هذه الدعوة وهتك ستره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩]. انتهى كلامه.

وأزيد أنا فأقول: إنَّ من يقرأُ كتبَ الرافضة؛ سيجد كثيرًا من شيوخ فرقهم قد ادَّعى هذه النبوة، ومنهم من يدعي الألوهية للأئمة -رحمهم الله- وهم من ذلك برآء، ومن أشهرهم الرجل الذي كان يقال له بيان بن سمعان، وأتباعه يسمون البيانية، كان يقول لأتباعه: إنه نبي وإن الله ﷻ بشر به في القرآن فقال: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾، فقال: أنا اسمي بيان، فهنا النبي ﷺ بَشَّرَ بِي، وكثيرٌ كثيرٌ غيره -نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

وقال الشيخ سليمان آل الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ-:

السبب في ادعائهم النبوة إما أن يكون بسبب الجنون أو بسبب الطبيعية السوداوية التي تغلب على طبائع بعض هؤلاء المدعين، وأنهم أيضًا يُنقل عنهم كثير من الأسجاع يدعون أنها وحي من الله، ويعارضون بها كلام الله ﷻ ومن ذلك الترهات التي كانت تروى عن مسيلمة الكذاب أنه كان يقول: أيها الضفدعة والضفدعين، ما لك تنقنين؟! أنفك في السماء، وذيلك في الطين.

إلى آخر تلك الترهات والأقوال التي يعرف كذبها الصبيان المسلمين.

مذهب أهل السنة والجماعة في الخلافة والإمامة (١)

عناصر الدرس

معنى الخلافة والإمامة والجماعة

مسألة الخلافة والإمامة من المسائل المهمة التي وقع فيها الخلاف بين أبناء هذه الأمة المحمدية، وسفكت بسببها دماء كثيرين من المسلمين، حتى قال عبد القاهر البغدادي -رحمه الله- صاحب كتاب (الفرق بين الفرق): "ما سلَّ سيف في الإسلام إلا بسبب الإمامة".

فلذلك سوف نعرّف بهذه المصطلحات الثلاثة تباعًا، وهي:

أولًا: الخلافة:

الخلافة في اللغة: من خلف فلان فلانًا إذا كان خليفته، واستخلف فلانًا من فلان: جعله مكانه، يقال: خلفه في قومه خلافة، وخلفته أيضًا: إذا جئت بعده، والخليفة: الذي يُستخلف ممن قَبله. والجمع: خلائف، وخُلفاء، وخِلافٍ أيضًا، والخلافة: الإمارة، وهي الخِلِّيفى أيضًا -بكسر الخاء واللام وتشديدها، ويقال: هذا فلانٌ وإنه لخليفة، أي: بيّن الخلافة والخلِّيفي، والخليفة: السلطان الأعظم، وقد يؤنث.

وأنشد الفراء:

أبوك خليفةٌ ولدته أخرى ❖ وأنت خليفةٌ ذاك الكمال

الخلافة في الاصطلاح: هي كما عرفها الإمام الماوردي -رحمه الله- وجعلها مرادفة للإمامة؛ فقال: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به".

وعرفها ابن خلدون بقوله: "فوجب -بمقتضى الشرائع- حملُ الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة، وهم الأنبياء، ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء.

فقد تبين من ذلك معنى الخلافة، وأن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة.

والسياسة: هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار.

والخلافة: هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به". انتهى كلامه.

وعرف الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله- الخلافة بقوله: "الخلافة، والإمامة العظمى، وإمارة المؤمنين، ثلاث كلمات معناها واحد، وهو: رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا". انتهى كلامه.

ثانيًا: الإمامة:

قبل أن نذكر تعريف الإمامة لتعلم أن ما قلناه في تعريف الخلافة ينطبق على الإمامة؛ لأنهما مترادفان لمسمى واحد، فالإمامة هي الخلافة، والإمام هو الخليفة.

إلا أن ابن خلدون -رحمه الله- يشير إلى سبب إطلاق أحد المصطلحين دون الآخر؛ فيقول: "وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب، وأنه نيابة عن صاحب الشريعة

في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة، والقائم به يسمى خليفة وإمامًا، فأما تسميته إمامًا فتشبيهًا بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به، ولهذا يقال: الإمامة الكبرى، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته، فيقال: خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله ﷺ". انتهى كلامه.

وعرّف الشريف الجرجاني -رحمه الله- الإمامَ -وهو تعريف للإمامة- فقال: "الإمام الذي له الرئاسة العامة في الدين والدنيا جميعًا". انتهى كلامه.

وعرّف أبو المعالي الجويني -رحمه الله- الإمامة بقوله: "الإمامة: رئاسة تامة، وزعامة عامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا. مهمتها حفظ الحوزة، ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، وكفّ الخيف -أي: الاختلاف- والحيف -أي: الظلم- والانتصاف للمظلومين من الظالمين، واستيفاء الحقوق من الممتنعين، وإيفاؤها على المستحقين". انتهى كلامه.

ثالثًا: الجماعة

أي: جماعة المسلمين، وهو لقب مرضي لأهل السنة؛ لأنهم يحذّرون من الفرقة التي هي سمة أهل الأهواء، حتى أصبح يطلق على أهل الإسلام الحق، الذين يمثلونه خير تمثيل: أهل السنة مرة، وأهل الجماعة، وأهل السنة والجماعة مرة أخرى، وقد ورد هذا الوصف لهم في عدة أحاديث، أشهرها حديث معاوية بن أبي سفيان > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن هذه الأمة ستفترق على إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة)).

وفي حديث عمر بن الخطاب > أن النبي ﷺ قال: ((عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة -أي: أوسطها وأوسعها- فعليه بالجماعة)).

وأحق من يوصف بالجماعة هو أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة، من الصحابة الأبرار والتابعين الأخيار، ومن بعدهم من الذين يتمسكون بالكتاب والسنة، ويدعون إلى اجتماع الكلمة، ويحذرون من الفرقة والاختلاف إلى يومنا هذا.

أفضلية الخلفاء الأربعة وأن أفضليتهم حسب ترتيبهم والأدلة على ذلك، ودفع شبه الروافض والنواصب، وبيان وسطية أهل السنة في ذلك

أولًا: بيان أفضلية الخلفاء الأربعة حسب ترتيبهم:

لا شك أن أفضل الناس بعد الأنبياء هم أصحاب رسول الله ﷺ الذين أثنى الله تعالى عليهم في غير موضع من كتابه العزيز؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

يقول العلامة زين العابدين الكوراني -رحمه الله- في بيان فضل الصحابة أخذًا من هذه الآية: "وقد صرح الله تعالى برضاه عنهم، وإرضائه إياهم، وإنجازه ما وعده على طاعته، وإسعاده إياهم بالجنات المبتهجة الخالدة، والفوز الكامل العظمة، فلا مجال لمن يؤمن بالله وبرسوله أن يتكلم بسوء الخاتمة لمن هو آخر لاحقيهم، فضلًا عمن هو أسبق سابقيهم، فمن نال منهم فقد كذّب القرآن، وفارق الإيمان"، انتهى كلامه.

ويقول الإمام الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته: "ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان،

وبغضهم كفرٌ ونفاق وطغيان، ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولًا لأبي بكر الصديق > تفضيلًا له وتقديمًا على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب > ثم لعثمان > ثم لعلي بن أبي طالب > وهم الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون". انتهى كلامه.

ثم قال ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- في شرحه لـ(عقيدة الإمام الطحاوي): "اختلف أهل السنة في خلافة الصديق > : هل كانت بالنص أو بالاختيار؟ فذهب الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بالنص الخفي والإشارة، ومنهم من قال: بالنص الجلي، وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار.. ونثبت الخلافة بعد أبي بكر > لعمر > وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه، واتفاق الأمة بعده عليه، وفضائله > أشهر من أن تنكر وأكثر من أن تذكر، ونثبت الخلافة بعد عمر لعثمان { وفي فضائل عثمان > الخاصة: كونه خَتَن رسول الله ﷺ، أي: صهره- على ابنتيه، ونثبت الخلافة بعد عثمان لعلي { لما قتل عثمان وبايع الناس عليًّا صار إمامًا حقًّا واجب الطاعة، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة، كما دل عليه حديث سفينة المتقدم ذكره.. فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب > بعد عثمان > بمبايعة الصحابة".

ثم قال ابن أبي العز -رحمه الله- معلقًا على قول الإمام الطحاوي: "وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون، تقدم الحديث الثابت في السنن، وصححه الترمذي عن العرباض بن سارية قال: ((وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودِّع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين

المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعَضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)).

وترتيب الخلفاء الراشدين { في الفضل كترتيبهم في الخلافة، ولأبي بكر وعمر { من المَزية أن النبي ﷺ أمرنا باتباع سنة الخلفاء الراشدين، ولم يأمرنا في الاقتداء في الأفعال إلا بأبي بكر وعمر، فقال: ((اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر))، وفرْق بين اتباع سنتهم والاقتداء بهم، فحال أبي بكر وعمر فوق حال عثمان وعلي { وقد روي عن أبي حنيفة تقديم علي على عثمان، ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان على علي، وعلى هذا عامة أهل السنة، وقد تقدّم قول عبد الرحمن بن عوف لعلي > : "إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان". وقال أيوب السختياني: "مَن لم يقدم عثمان على علي فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار"، في (الصحيحين) عن ابن عمر { قال: ((كنا نقول ورسول الله ﷺ حيّ: أفضل أمة النبي ﷺ بعده: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان))". انتهى كلامه.

فإذًا مذهب أهل السنة -وهو المذهب الحق-: أن أفضل الصحابة { الخلفاء الراشدون المهديون، وأن فضلهم يتفاوت بتفاوت ترتيب خلافتهم؛ فأفضلهم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عن الجميع.

الأدلة على أفضلية الخلفاء الأربعة وأن أفضليتهم حسب ترتيبهم، ودفع شبه الروافض والنواصب، وبيان وسطية أهل السنة في ذلك:

ثانيًا: الأدلة على أفضلية الخلفاء الأربعة حسب ترتيبهم للخلافة:

يستدل أهل السنة والجماعة على أفضلية الخلفاء الراشدين الأربعة، وأن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة بنصوص كثيرة؛ منها: حديث أبي هريرة > في

(الصحيحين) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو -القليب: أي البئر- فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة، فنزع منها ذنوبًا أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم استحالت غربًا، فأخذها ابن الخطاب، فلم أرَ عبقريًّا من الناس يفري فريّه، حتى ضرب الناس بعطن)).

وفي (سنن أبي داود) وغيره من حديث الأشعث عن الحسن عن أبي بكرة: ((أن النبي ﷺ قال ذات يوم: مَن رأى منكم رؤيا؟ فقال رجل: أنا رأيت ميزابًا أنزل من السماء فوُزِنت أنت وأبو بكر، فرجحتَ أنت بأبي بكر، ثم وُزن عمر وأبو بكر، فرجحَ أبو بكر، ووُزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رُفع، فرأيت الكراهة في وجه النبي ﷺ فقال: خلافة نبوة، ثم يؤتي الله المُلك من يشاء)).

فبين رسول الله ﷺ في هذا الحديث أن ولاية هؤلاء الخلفاء الثلاثة -وهم أبو بكر وعمر وعثمان } خلافة نبوة، ثم بعد ذلك تكون مُلكًا، وليس في الحديث ذكر علي > لأنه لم يجتمع الناس في زمانه، بل كانوا مختلفين، فلم ينتظم في عهده خلافة النبوة ولا الملك.

وروى أبو داود أيضًا عن جابر > أنه كان يحدِّث أن رسول الله ﷺ قال: ((رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله ﷺ ونِيط عمر بأبي بكر، ونِيط عثمان بعمر، قال جابر: فلما قُمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ وأما المنوطُ بعضهم ببعض فهم ولاة هذا الأمر الذي بَعث الله به نبيه)).

وروى أبو داود أيضًا عن سمُرة بن جندب: "أن رجلًا قال: يا رسول الله، رأيت كأن دلوًا دُلّي من السماء فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شربًا ضعيفًا، ثم

جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء عليٌّ فأخذ بعراقيها، فانتشطت منه، فانتضح عليه منها شيء".

وروي عن محمد ابن الحنفية أنه قال: "قلت لأبي: مَن خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: يا بُني، أوَما تعرف؟ فقلت: لا، قال: أبو بكر، قلتُ: ثم مَن؟ قال: عمر، وخشية أن يقول: ثم عثمان! فقلت: ثم أنت؟ فقال: ما أنا إلا رجلٌ من المسلمين".

وفي (الصحيحين) عن ابن عمر قال: ((كنا نقول ورسول الله ﷺ حيّ: أفضل أمة النبي ﷺ بعده أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان)).

ثالثًا: بيان وسطية أهل السنة في باب الصحابة، والرد على الروافض والنواصب:

لقد تقدم قول الإمام الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته: "ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرِط في حبّ أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض مَن يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان".

وهذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة في صحابة رسول الله ﷺ: حبهم والترضي عنهم وعدم ذكرهم إلا بخير، والإمساك عما شجر بينهم، وبغض من يذكرهم بسوء أو يبغضهم أو يسبهم.

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- وهو يشرح ما ذكره الإمام الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته سابقًا: "يشير الشيخ -رحمه الله- إلى الرد على الروافض

والنواصب، وقد أثنى الله على الصحابة هو ورسوله ورضي عنهم، ووعدهم الحسنى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاءوا من بعدهم، يستغفرون لهم، ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلًّا لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء، فمن كان في قلبه غلّ للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا يستحق في الفيء نصيبًا بنص القرآن.

وقد ثبت في (صحيح مسلم) أن النبي ﷺ قال: ((لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة)). ولقد صدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم؛ حيث قال: "إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يُقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئًا فهو عند الله سيئ"، فمن أضل ممن يكون في قلبه حقدٌ على خيار المؤمنين، وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين؟! بل قد فضَلهم اليهود والنصارى بخصلة، قيل لليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وقيل للنصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى، وقيل للرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد ﷺ

لم يستثنوا منهم إلا القليل، وفيمن سبوهم من هو خير ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة.

وقوله -أي: الطحاوي-: "ولا نفرط في حب أحد منهم"، أي: لا نتجاوز الحد في حب أحد منهم، كما تفعل الشيعة، فنكون من المعتدين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١] وقوله: "ولا نتبرأ من أحد منهم" كما فعلت الرافضة، فعندهم: لا ولاء إلا ببراء، أي لا يُتولى أهل البيت حتى يُتبرأ من أبي بكر وعمر. وأهل السنة يوالونهم كلهم، ويُنزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف، لا بالهوى والتعصب، فإن ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [الجاثية: ١٧]" انتهى كلامه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "ومن أصول أهل السنة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] وطاعة النبي ﷺ في قوله: ((لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه)).

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، ويُفضلون من أنفق من قبل الفتح -وهو صلح الحديبية- وقاتَل على من أنفق من بعده وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر -وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر-: ((اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم)) ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، كالعشرة المبشرين بالجنة، وكثابت بن

قيس بن شماس، وغيره من الصحابة. لكن المسألة التي يضلل المخالف فيها هي: مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ومَن طعن في خلافة أحد من هؤلاء الأئمة فهو أضل من حمار أهله". انتهى كلامه.

وبالجملة، فإن مذهب أهل السنة وسطٌ بين معتقد الرافضة والخوارج في أصحاب رسول الله ﷺ لأن الرافضة يكفِّرون الصحابة { ويسبّونهم، ويطعنون فيهم، ويزعمون أنهم ارتدّوا بعد رسول الله ﷺ إلا ستة رجال، والخوارج أيضًا يطعنون في عليّ، ويقولون: إنه حكّم الرجال في كتاب الله تعالى، كذلك -أهل السنة أيضًا- عقيدتهم وسطٌ بين النواصب الذين ينصبون العداء لعلي > وأهل البيت.

وقد بيّن أهل العلم في ردودهم على هذه الفرق والطوائف أن المذهبَ الحق هو تولي الصحابة والترضّي عنهم وموالاتهم، ومن ذلك ما قاله جلال الدين الديواني -رحمه الله- في رده على الرافضة حيث قال: "نعم، إن أتت الرافضة بقرآن نزل بعد القرآن ناسخٍ له أو نبي بعد محمد ناسخٍ شريعته مُسَلّمين مقطوعين بهما، ونقل أحدهما ارتداد الصحابة إلا الستة أمكن ذلك!! وهو محال، فثبت كذبهم.

الثاني: أن هذا الدين ثبت بشهادة الصحابة وبسيوفهم، فإن ادعى الرافضة كفرَهم لم يقم على أعداء الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم بهذا الدين حجة وأمكنهم الطعن به، وحاشا هذا الدين القويم من مثل ذلك، فجازى الله الرافضة شرّ الجزاء على ما يخبطون ويعمهون". انتهى كلامه.

مذهب أهل السنة والجماعة في الخلافة والإمامة (٢)

عناصر الدرس

الأمور التي تنعقد بها الإمامة، وشروط الإمام

أولًا: الأمور التي تنعقد بها الإمامة:

تنعقد الإمامة عند أهل السنة والجماعة بالنص والإجماع، أما النص فكخلافة أبي بكر الصديق > عند بعض أهل السنة وجماعة من أصحاب الحديث، كالإمام الحسن البصري وابن حجر الهيتمي، والإمام أحمد في إحدى روايتيه -رحمهم الله- وغيرهم، والبيهسية من الخوارج.

ويستدل أصحاب هذا الرأي بأدلة؛ منها: ما ورد في (صحيح مسلم) عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه: ((أن امرأة سألت رسول الله ﷺ شيئًا فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: يا رسول الله، إن جئت فلم أجدك؟ -كأنها تعني الموت- قال: فإن لم تجديني فأتي أبا بكر)). رواه البخاري ومسلم.

ومن ذلك ما ورد عن عائشة > أن النبي ﷺ قال: ((لقد هممتُ -أو أردتُ- أن أرسلَ إلى أبي بكر وابنَه، وأعهد أن يقول القائلون، أو يتمنى المتمنون! ثم قلتُ: يأبى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون)) رواه البخاري.

ولم يتم الكتاب لعلم رسول الله ﷺ أن المؤمنين لن يختلفوا على أبي بكر > فترك الأمر لهم.

وقال الإمام الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: واستدل من قال: إنه نصٌّ على خلافة أبي بكر > بأصول كلية وقرائن حالية، تقتضي أنه أحق بالإمامة، وأولى بالخلافة، وهناك مَن ذهب إلى أن النبي ﷺ لم ينصّ على أحدٍ بعينه، وهذا مذهب كثير من أهل السنة والجماعة، ويشاركهم المعتزلة والخوارج

والمرجئة في هذا، ويستدلون بما نُقل عن عمر بن الخطاب > كما في (صحيح البخاري) عن عبد الله بن عمر { قال: "قيل لعمر: ألا تستخلف؟ فقال: إن أستخلفْ فقد استخلفَ من هو خير مني أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من خير مني رسول الله ﷺ". أخرجه البخاري.

ويؤيد -أيضًا- هذا الرأي أن النقاش الذي دار في سقيفة بني ساعدة، وقد حضره كبار المهاجرين والأنصار لم يذكر فيه أحدٌ أن رسول الله ﷺ استخلف، ولو ذكر شيء من هذا لكان حاسمًا للنقاش.

يقول القرطبي -رحمه الله-: "لو كان عند أحد من المهاجرين والأنصار نصٌّ من النبي ﷺ على تعيين أحد بعينه للخلافة لما اختلفوا في ذلك ولا تفاوضوا فيه، وهذا قول جمهور أهل السنة".

ومن تأمل ما ذكرناه ظهر له إجماع الصحابة -المهاجرين منهم والأنصار- على تقديم أبي بكر، وظهر برهان قوله ﷺ: ((يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر))، وظهر له أن رسول الله ﷺ لم ينص عينًا لأحد من الناس، لا لأبي بكر، كما زعمه طائفة من أهل السنة، ولا لعلي، كما زعمه طائفة من الرافضة، ولكن أشار إشارة قوية، يفهمها كل ذي لُب وعقل إلى الصديق.

إذًا اختُلف في الطريقة التي انعقدت بها خلافة أبي بكر الصديق > فقيل: إنها بالنص، وقيل: إنها بالإجماع، لكن بإشارات قوية من النصوص الثابتة عن رسول الله ﷺ في تفضيل أبي بكر وترجيح خلافته، ولعل هذا الرأي هو الراجح، ثم كانت خلافة عمر > بالتعيين؛ حيث عينه أبو بكر > خليفةً بعده، وهذا من الأمور التي تنعقد بها الإمامة، وهي التعيين، فإن أبا بكر > خافَ أن يحصل في الأمة ما حصل عند وفاة الرسول ﷺ من الاختلاف، فأراد أن

يترك المسلمين على قلب رجلٍ واحد، يكون خيرهم وأفضلهم وأحقهم بالإمامة، فلذلك سأل عن عمر > كبار الصحابة، قائلًا: ما رأيكم فيه؟ فأثنوا عليه خيرًا، فطلبَ منهم أبو بكر > أن يكتموا الأمر، حتى كتب أبو بكر كتابه بتولية عمرَ > ثم قرئ الكتاب على الناس علنًا، فقالوا: سمعنا وأطعنا. ثم كانت خلافة عثمان بن عفان > بالإجماع، وهذا أيضًا من الأمور التي تنعقد بها الإمامة؛ حيث إن عمر > جعل الأمر شورى في ستة من خيار الصحابة { وهم أهل الشورى: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وبعد أن تنازل الباقون من هؤلاء الستة كل واحد لأخيه انحسر الأمر في عثمانَ وعليٍّ { ثم إن عبد الرحمن بن عوف أخذَ يسأل الناس في السِرِّ: مَن يفضلون لإمامتهم: عثمان أو عليًّا؟ فاستقرّ رأي الجميع على ميلهم لعثمان > فتمّ استخلافه > .

يقول الدكتور أمير عبد العزيز في كتابه (نظام الإسلام)، وهو يتحدث عن طريقة انتخاب رئيس الدولة: "لدى اختيار خليفة للمسلمين يجتمع أهل الحَلّ والعقد - وهم الطليعة العالمة الرائدة في الأمة - لينظروا أكثرَ الناس صلاحًا للاطلاع بثقل الإمامة، وهم في ذلك يحرصون بالغ الحرص على اختيار من هو أشدُّ الناس صلاحًا، وأوسعهم علمًا وفقهًا بأمور الشريعة، وأكثرهم حكمة وحنكة وقربًا من أذهان الناس وقلوبهم، فتهوي إليه رغباتُهم، فيبادرون له بالطاعة عن رضا ومودة، ثم يعرض عليه أهل الحلِّ والعقد رغبتهم في ترشيحه للإمامة ليكون للمسلمين خليفة، فإذا أجابهم موافقًا بايعوه، ثم بادره المسلمون جميعًا بالبيعة، بعد أن يعرض -أي: الخليفة- على الناس في المسجد في مقر رئاسة الدولة برنامجه وخططه في سياسة البلاد وإدارتها.

وإذا تكافأ في شروط الإمامة اثنان اختاروا منهما أكبرهما سنًّا، ولو كان أحدهما أعلم والآخر أشجع، وقع الاختيار تَبعًا لحاجة المسلمين، وفي ضوء ما تقتضيه الظروف الملحّة، فإذا كان المسلمون في حالة من الحرب اقتضى ذلك أن يتجلى فيه عنصر الشجاعة، وبذلك يختار الأشجع، وإن كان المسلمون في حال من صراع الفكر وتوارد الفلسفات والمبادئ الغريبة فقد اقتضى ذلك أن يتجلى في الإمام عنصر العلم والمعرفة، وبذلك يُنتخب الأعلم، وإن توافر في الإمام كلا العنصرين -الشجاعة والعلم- كان ذلك خيرًا وأفضل". انتهى كلامه.

ثانيًا: شروط الإمامة:

اشترط أهل العلم بعض الشروط للإمام الذي يختارونه للخلافة والرئاسة، ومن تلك الشروط:

أولًا: الإسلام: وهذا من الشروط المتفق عليها، فلا يجوز للكافر أن يليَ إمامة المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١].

ثانيًا: التكليف: يشترط أن يكون الإمام مكلفًا -أي: بالغًا عاقلًا- لقول النبي ﷺ: ((رُفع القلم عن ثلاثة)) وذكر منها: ((وعن الصغير حتى يكبر)) رواه الإمام أحمد، وصححه أحمد شاكر، وأبو داود في سننه.

ثالثًا: الحرية: فالمملوك لا يصح أن يكون إمامًا للمسلمين كالعبد ومن في حكمه كالآبق، والمكاتَب، والمدبّر، وهو الذي اتفق مع سيد على عتقه بوفاة سيده.

رابعًا: الذكورة: فالمرأة لا يصح أن تلي الإمارة؛ لما ثبت في (صحيح البخاري) أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملّكوا عليهم بنت كسرى قال: ((لن يُفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة)).

خامسًا: العدالة: والمراد بها في اصطلاح الفقهاء: اجتناب الكبائر وعدم الإصرار على الصغائر، وإذا حصل من الإمام ما يخالف هذا الشرط من المعاصي فإنه لا يجوز الخروج عليه، كما سيأتي.

سادسًا: الكفاءة: بحيث يكون عنده الرأي السديد في تدبير شئون الدولة، والشجاعة والحزم لتجهيز الجيوش ورد الأخطار عن البلاد وتنفيذ الحدود الشرعية.

سابعًا: العلم: لما كان الإمام يتولى تنفيذ الأحكام وتطبيق الحدود، وحمل الناس عليها وجب عليه أن يكون عالمًا بهذه الأحكام، عالمًا أيضًا بهذه الحدود، فمن العلماء من اشترط أن يصل إلى مرتبة الاجتهاد، كالماوردي وابن خلدون -رحمهما الله- ومنهم من لم يشترط ذلك، وهو مذهب أهل السنة الجماعة.

ثامنًا: سلامة الحواس: وهذا ليس شرطًا مجمعًا عليه وإن اختاره الماوردي وابن خلدون -رحمهما الله- وذهب إلى عدم الاشتراط ابن حزم -رحمه الله- والراجح أن العيوب التي لا تمنع عقد الإمامة معفيٌّ عنها، فقد ولى رسول الله ﷺ عبد الله ابن أم مكتوم مرارًا على المدينة، إذا خرج للغزو رغم أنه أعمى.

تاسعًا: النسب القرشي: وهذا الشرط مختلف فيه، والأرجح اشتراطه لكن لو تولي غير القرشي وجبت طاعته وعدم الخروج عليه.

عاشرًا: الأفضلية: وهو أن يكون أفضل المرشحين، وممن ذهب إلى اشتراط الأفضلية أبو يعلى الفراء -رحمه الله- حيث قال: يشترط أن يكون من أفضلهم في العلم والدين.

وجوب طاعة ولي الأمر بالمعروف، والنهي عن الخروج عليه لوجوب لزوم جماعة المسلمين وتحريم التفرق

أولًا: وجوب طاعة ولي أمر المسلمين بالمعروف ما لم يأتِ كفرًا بواحًا، والجهاد معه، والصلاة خلفه:

مذهب أهل السنة والجماعة أن وليَّ أمر المسلمين يجب طاعته وعدم مخالفته، حتى ولو تلبّس ببعض المعاصي، ما دام لم يظهر كفرًا صريحًا؛ وذلك لأهمية لزوم جماعة المسلمين، وعدم شق عصا الطاعة وفتح باب الفرقة والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦].

يقول الإمام الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته: "ونرى الصلاةَ خلف كل برٍّ وفاجر من أهل القبلة، وعلى مَن مات منهم، ولا نرى الخروج على أئمتنا ووُلاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة، والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين، برِّهم وفاجرهم إلى قيام الساعة، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما".

ثم أخذ ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- يشرح هذه العقيدة؛ فقال: "قال ﷺ: "صلوا خلف كل بَرّ وفاجر" رواه مكحول عن أبي هريرة > .

وفي (صحيح البخاري): "أن عبد الله بن عمر { كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي، وكذا أنس بن مالك"، وكان الحجاج فاسقًا ظالمًا، وفي صحيحه أيضًا: أن النبي ﷺ قال: ((يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم، وإن أخطئوا فلكم وعليهم)).

ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند أكثر العلماء، والصحيح أنه يُصليها ولا يعيدُها، فإن الصحابة { كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار، ولا يعيدون، كما كان عبد الله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف، وكذلك أنس > كما تقدم، وكذلك عبد الله بن مسعود > وغيره، يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعًا، ثم قال: أزيدكم؟! فقال له ابن مسعود: "ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة".

وفي الصحيح: "أن عثمان بن عفان > لما حُصر، صلى بالناس شخصٌ فسأل سائلٌ عثمان: إنك إمام عامة، وهذا الذي صلّى بالناس إمام فتنة؛ فقال: يا ابن أخي، إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسنوا فأحسِن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم".

وقد دلّت النصوص من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر وإمام الصلاة والحاكم وأمير الحرب وعامل الصدقة يُطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يُطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة الائتلاف، ومفسدة الفرقة الاختلاف، أعظم من أمر المسائل الجزئية.

ويروى عن أبي يوسف: أنه لما حج مع هارون الرشيد، فاحتجم الخليفةُ، وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ. وصلى بالناس؛ فقيل لأبي يوسف: أصليت خلفه؟! قال: سبحان الله! أمير المؤمنين. يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ((مَن أطاعني فقد أطاع الله، ومَن عصاني فقد عصى الله، ومَن يطع الأمير فقد أطاعني، ومَن عصى الأمير فقد عصاني))، وعن أبي ذر > قال: ((إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدًا حبشيًّا مجدّع الأطراف))، وعند البخاري: ((ولو لحبشي كأن رأسه زبيبة)). وفي (الصحيحين) أيضًا: ((على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكَرِه، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة))، وعن ابن عباس > قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَن رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات فميتته جاهلية)). وفي رواية: ((فقد خلع رِبقة الإسلام من عنقه)).

وعن عوف بن مالك > عن رسول الله ﷺ قال: ((خيار أئمتكم الذين تُحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويُصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم، فقلنا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئًا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزّعنه يدًا من طاعة)) انتهى كلامه.

ثانيًا: النهي عن الخروج على ولاة الأمور ما لم يأتوا كُفرًا بواحًا، ووجوب لزوم جماعة المسلمين وتحريم التفرق:

ذهب أبو المعالي الجويني -رحمه الله- إلى أن الإمام الذي انعقدت له البيعة من المسلمين لا يجوز خلعه، ولا الخروج عليه بدون سبب مقتضٍ لذلك وهو الكفر البواح؛ حيث يقول: "الإمام إذا لم يخلُ عن صفات الأئمة، فرامَ العاقدون له عقد الإمامة أن يخلعوه؛ لم يجدوا إلى ذلك سبيلًا باتفاق الأئمة، فإن عقدَ الإمامة

لازم، لا اختيار في حلِّه من غير سبب يقتضيه، ولا تنتظم الإمامة، ولا تفيد الغرض المقصود منها إلا مع القطع بلزومها، ولو تخير الرعايا في خلع إمام الخلق على حكم الإيثار والاختيار لما استتب للإمام طاعة، ولما استمرت له قدرة واستطاعة، ولما صحّ لمنصب الإمام معنى". انتهى كلامه.

ولما طرح الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- السؤال التالي: ما الواجب لولاة الأمر؟ أجاب بقوله: "الواجب لهم النصيحة بموالاتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم برفق، والصلاة خلفهم والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، والصبر عليهم، وإن جاروا، وترك الخروج عليهم ما لم يُظهروا كفرًا بواحًا، وأن لا يغرّوا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعى لهم بالصلاح والتوفيق.

والأدلة على ذلك كثيرة؛ منها: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾، وقول النبي ﷺ: ((اسمعوا وأطيعوا، وإن تأمر عليكم عبد)) رواه البخاري، وقال ﷺ: ((مَن رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية)) رواه البخاري، ومسلم، وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: ((دعانا النبي ﷺ فبايعناه فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان)) رواه البخاري.

وقال ﷺ: ((على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)) رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: ((وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع)) رواه مسلم" انتهى كلامه.

وقال الشيخ ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- : "فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر، ما لم يأمروا بمعصية، فتأمل قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩] كيف قال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ ولم يقل: "وأطيعوا أولي الأمر منكم"؟ لأن أولي الأمر لا يُفردون بالطاعة، بل يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله، وأعاد الفعل مع الرسول للدلالة على أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله، فإن الرسول ﷺ لا يأمر بغير طاعة الله، بل هو معصوم في ذلك، وأما ولي الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله، فلا يُطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله، وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الحسنات، فإن الله تعالى ما سلّطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، وعن مالك بن دينار أنه جاء في بعض كتب الله: "أنا الله مالك الملك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، لكن توبوا أعطفهم عليكم". انتهى كلامه.

وبهذا يتضح أن مذهب أهل السنة والجماعة يحرِّم الخروج على ولاة أمور المسلمين، ورفض طاعتهم، بل الواجب طاعتهم بالمعروف، ونصحهم، والدعاء لهم؛ عسى الله أن يصلحهم، لأنه بصلاحهم يصلح العباد ويستقيم شأن البلاد، ولأن السلف كانوا يخافون من الفرقة والاختلاف؛ لأن الفوضى إذا حلّت بأمة بسبب النزاع على الخلافة والسلطة فإنه تراقُ عند ذلك دماء كثيرة، وقد جرب المسلمون ذلك في خلافة عثمان وعلي }.

من أجل ذلك نجد أن أهل السنة يدعون إلى جمع الكلمة ولمّ الشمل، وينهون عن الفرقة والنزاع، وقد دلّ على ذلك نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

مذهب أهل السنة في سائر الصحابة ﷺ

عناصر الدرس

عقيدة أهل السنة في الصحابة }

يعتقد أهل السنة والجماعة أن أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين هم صحابة رسول الله ﷺ وتقدم قول ابن مسعود > : "إن الله نظر إلى قلوب العباد فرأى قلب محمد ﷺ خير القلوب فاصطفاه لرسالته، ونظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فرأى قلوب أصحابه خير القلوب فاختارهم لصحبة نبيه ﷺ فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن".

يقول الشيخ أبو جعفر الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته: "ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نُفْرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحدٍ منهم، ونبغض مَن يبغضهم، وبغير الحق يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان". انتهى كلامه.

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- في شرحه لـ(عقيدة الإمام الطحاوي): "يشير الشيخ -رحمه الله- إلى الرد على الروافض والنواصب، وقد أثنى الله على الصحابة هو ورسوله، ورضي عنهم، ووعدهم الحسنى، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]".

ثم قال بعد أن ساق الآيات التي تثبت عدالة الصحابة } : "وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاءوا من بعدهم، يستغفرون لهم، ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلًّا لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء، فمن كان في قلبه غلٌّ للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا يستحق في الفيء نصيبًا بنص القرآن".

ولقد صدق عبد الله بن مسعود > في وصفهم، حيث قال: "إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلبَ محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في القلوب بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئًا فهو عند الله سيئ"، وفي رواية: "وقد رأى أصحاب محمد جميعًا أن يستخلفوا أبا بكر".

وتقدم قول ابن مسعود: "مَن كان مستنًّا فليستنّ بمن قد مات، فمن أضل ممن يكون في قلبه حقد على خيار المؤمنين، وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين".

وقوله -أي الإمام الطحاوي-: "ولا نفرط في حب أحد منهم" أي: لا نتجاوز الحد في حب أحد منهم، كما تفعل الشيعة، فنكون من المعتدين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ٧٧].

وقوله: "ولا نتبرأ من أحد منهم" كما فعلت الرافضة، فعندهم: لا ولاء إلا ببراء، أي: لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر { وأهل السنة يوالونهم كلهم، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف، لا بالهوى والتعصب، فإن ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد.

وقوله: "وحبهم دين وإيمان وإحسان" لأنه امتثال لأمر الله فيما تقدم من النصوص". انتهى كلامه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- مبينًا أن عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة وسط بين الغالين والجافين؛ فيقول: "وهم أيضًا في أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، وسط بين الغالية الذين يغالون في علي > فيفضّلونه على أبي بكر وعمر { ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما، وأن الصحابة ظلموا

وفسقوا، وكفّروا الأمة بعدهم كذلك، وربما جعلوه نبيّا أو إلهًا، وبين الجافية الذين يعتقدون كفره، وكفر عثمان } ويستحلون دماءهما، ودماء من تولاهما، ويستحبون سبَّ علي وعثمان ونحوهما، ويقدحون في خلافة علي < وإمامته، وكذلك في سائر أبواب السنة هم وسط؛ لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان...".

إلى أن قال: "وكذلك يجب الاقتصاد والاعتدال في أمر الصحابة والقرابة } فإن الله تعالى أثنى على أصحاب نبيه ﷺ من السابقين والتابعين لهم بإحسان، وأخبر أنه رضي عنهم ورضوا عنه، وقد اتفق أهل السنة والجماعة على ما تواتر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب < أنه قال: "خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر } " واتفق أصحاب رسول الله ﷺ على بيعة عثمان بعد عمر } .

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم تصير مُلكًا))، وقال ﷺ: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعَضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)).

وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب < آخر الخلفاء الراشدين المهديين، وقد اتفق عامة أهل السنة من العلماء والعُبّاد والأمراء والأجناد على أن يقولوا: أبو بكر ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي } ودلائل ذلك وفضائل الصحابة كثيرٌ، ليس هذا موضعه". انتهى كلامه.

وقال الشيخ السفاريني -رحمه الله- في عقيدته:

وليس في الأمة كالصحابة ❖ في الفضل والمعروف والإصابة

فإنهم قد شاهدوا المختارا ❖ وعاينوا الأسرار والأنوارا

وجاهدوا في الله حتى بانا ❖ دين الهدى وقد سما الأديانا

وقد أتى في محكم التنزيل ❖ من فضلهم ما يشفي للغليل

وفي الأحاديث وفي الآثار ❖ وفي كلام القوم والأشعار

ثم قال -أي: السفاريني رحمه الله- : "فصلٌ في ذكر الصحابة الكرام بطريق الإجمال، وبيان مزاياهم على غيرهم والتعريف بما يجب لهم من المحبة والتبجيل والترضي والتفضيل على سائر الأمة، وتقبيح من آذاهم وشانهم -أي: أبغضهم- والكف عما جرى بينهم، مما لعله لم يصح عنهم، ومما صح فله تأويلات سائغة، وإذا كان لأحد منهم هنات تقع مكفَّرة مستهلكة في عظيم حسناتهم، وجسيم مجاهداتهم.

وليس في الأمة المحمدية المفضلة على سائر الأمم بأفضلية نبيها ﷺ وأفضلية ما جاء به الذكر الحكيم، والدين القويم، والصراط المستقيم، فيكون الصحابة أفضلَ خلق الله تعالى بعد أنبيائه ورسله، كالصحابة الكرام الذين فازوا بصحبة خير الأنام -عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

وعلى كل حال، لا يرتاب ذووا الألباب من ذوي الأفضال أن الصحابة الكرام حازوا قصبات السبق بصحبة خير الأنام، واستولوا على الأبد، فلا مطمع لأحد من الأمة بعدهم في اللحاق، ولكن المبرّز مَن اتّبع صراطهم المستقيم، وقوله ﷺ: ((مثل أصحابي كمثل المِلح في الطعام)) يعني: كما أن المِلح صلاح الطعام؛ فأصحابي صلاح الأنام".

قال في (أعلام الموقعين): "كما أن الملح به صلاح الطعام فالصواب به صلاح الأنام، فلو أخطأ الصحابة فيما أفتوا به لاحتاج ذلك إلى ملح يصلحه، فإذا أفتى من بعدهم بالحق كان قد أصلح خطأهم، فكان ملحًا لهم، انتهى.

أي: والحال أنهم هم الملح المُصلِح فكيف يكون غيرهم مصلحًا لهم؟! فهذا خلفٌ، فهم أعلم الناس بكتاب ربهم وسنة نبيهم، وقد شاهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل.

فظهر بهذا أن الصحابة } أولى الأمة بالإصابة فيما ثبت عنهم، فإنهم } كانوا أبرّ قلوبًا، وأعمق علمًا، وأقلّ تكلفًا، وأقرب إلى أن يوفّقوا للصواب" انتهى كلامه.

وقال زين العابدين الكوراني -رحمه الله- في رده على الرافضة: "انظر كيف قرنهم الله تعالى بنبيه في درجة القبول، وأثنى عليهم باحتمال المشاق، وارتكاب الضرورات في نصرة دينه وإعانة نبيه، وكيف يتجاسر هؤلاء الضالون على القدح فيهم، نعوذ بالله من تسويلات الشيطان ومزيلات الإيمان".

قال الشهرستاني في كتاب (الملل والنحل): "وفي ذلك دليل على عِظم قدرهم عند الله، وكرامتهم ودرجتهم عند الرسول، فليت شعري: كيف يستجيز ذو دين الطعن فيهم؛ بالكفر أو نسبته الظلم إليهم، والعجب كل العجب من أن هؤلاء الضالين كيف يتجاسرون على القول بكفر أشراف الصحابة بمجرد ترك المبايعة لعلي > ولا يلتفتون إلى أن عليًّا > لم يكفِّر الذين حاربوا معه في وقعة معاوية > على ما وقع في (نهج البلاغة) المنسوبة إليه > ".

إلى أن يقول: "فظهر أن هؤلاء في قولهم بارتداد عامة الصحابة } ضالون، تابعون للشيطان، وخارجون عن الإيمان، قاتلهم الله أنى يؤفكون؛ وذلك لأن معتقدهم من المقال مخالفٌ لصريح ما ضبطوه في كتبهم؛ من قول من زعموه إمامهم، ومعتمدهم من الرجال، وأيضًا هؤلاء الضالون المسترسلون بعقولهم الضعيفة لا ينظرون إلى أن قدحهم في كبار الصحابة موجبٌ للقدح في نبيهم، وفي

معتقدهم وإمامهم > بل هو موجب لتخفيف شأن سيد المرسلين عند سائر الكافرين كالنصارى واليهود.

كيف وهم من أشراف عشيرته وأكابر قبيلته ﷺ وبنتا أبي بكر وعمر كانتا عند النبي، وبنتا النبي ﷺ عند عثمان، وبنت علي كانت عند عمر > .

وبالجملة هم راجعون إلى حسبه ونسبه ﷺ حسبًا ونسبًا، رجوع الأغصان إلى الشجرة، فالمدح فيهم مدحٌ فيه ﷺ والقدح فيهم قدحٌ فيه ﷺ". انتهى كلامه.

أدلة عدالة الصحابة وفضلهم من القرآن الكريم والسنة المطهرة

أ- الأدلة من القرآن على عدالة الصحابة وفضلهم:

أولًا: قوله تعالى في النبي ﷺ وأصحابه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].

قال ابن حجر الهيتمي -رحمه الله-: "من هذه الآية أخذ الإمام مالك القول بكفر الروافض الذين يبغضون الصحابة } ويطعنون فيهم. وقال: لأن الصحابة يغيظونهم، ومَن أغاظه الصحابة فهو كافر".

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "فالصحابة { الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح قد جمع الله لهم بين المغفرة التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة". انتهى كلامه.

ثانيًا: وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وفي هذه الآية صرح الله تعالى بأنه تولى إثبات الإيمان في قلوب الصحابة، وتأييدهم به، ووعدهم بالخلود في الجنات المبتهجة.

ثالثًا: وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. ولا يقع رضا الله إلا على مَن يعلم الله موته على الإسلام، كما قال ابن حجر الهيتمي -رحمه الله.

رابعًا: وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وفي هذه الآية صرح الله ﷻ بأن الموصوفين بهذا الوصف فائزون بالرحمة والسعادة، ومبشرون بحسن الخاتمة.

خامسًا: وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]، وفي هذه الآية بشارة للمهاجرين والأنصار بوصفهم بكمال الإيمان، ووعدهم بالرزق الكريم في جنات النعيم.

سادسًا: وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

سابعًا: وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال أهل العلم: والصحابة } هم المشافهون بهذا الخطاب على لسان رسول الله ﷺ.

ثامنًا: وقوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة: ١١٧].

وبالجملة: فقد صرحت آيات كثيرة من القرآن الكريم بعدالة الصحابة الكرام { وبينت فضلهم، وموعود الله تعالى لهم بالمغفرة، وكمال الإيمان، وحسن العاقبة بدخول الجنان، فهل يُحتاج بعد هذا إلى تعديل الخلق لهم فضلًا عن الطعن فيهم وسبهم وإنكار فضلهم، وبغضهم كما هي عقيدة الروافض والخوارج والنواصب؟!.

ب- الأحاديث الشاهدة بفضلهم، وعدالتهم، والنهي عن الطعن فيهم:

أولًا: قوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: ((لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه)).

ثانيًا: ما روي أنه ﷺ قال: ((لا تسبوا أصحابي، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا)).

ثالثًا: ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما أن النبي ﷺ قال: ((خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي قوم يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمن)).

رابعًا: ومنها قوله ﷺ في الحديث الصحيح: ((قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وغِفار وأشجع مواليّ، ليس لهم مولى دون الله)).

خامسًا: ومنها قوله ﷺ: ((إن الله اطلع على أهل بدر، فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم)).

سادسًا: ومنها حديث البشارة المشهورة، وهو قوله ﷺ: ((عشرة في الجنة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة الجراح)).

سابعًا: ومنها قوله ﷺ: ((آية الإيمان حُبّ الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار)).

ثامنًا: ومنها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، أن النبي ﷺ قال: ((الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، مَن أحبهم أحبه الله، ومَن أبغضهم أبغضه الله)).

تاسعًا: ومنها الحديث الصحيح، وهو قوله ﷺ: ((لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، لكن أبا بكر أخي وصاحبي، ولقد اتخذ الله صاحبكم خليلًا)). يقصد نفسه الشريفة ﷺ.

عاشرًا: ومنها قوله ﷺ من حديث جابر > : ((لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة)) أخرجه مسلم.

الحادي عشر: ومنها ما روي أنه ﷺ قال: ((الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا -أي: هدفًا- بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومَن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومَن آذاهم فقد آذاني، ومَن آذاني فقد آذى الله تعالى، ومَن آذى الله تعالى يوشك أن يأخذه)).

الثاني عشر: وروى ابن بطة بإسناد صحيح عن ابن عباس { أنه قال: "لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ فلمقام أحدهم ساعة -يعني: مع النبي ﷺ خيرٌ من عمل أحدكم أربعين سنة"، وفي رواية وكيع: "خير من عبادة أحدكم عُمُرَه".

وبالجملة: إن السنة المطهرة مليئة بذكر فضائل الصحابة { ونشر محاسنهم، وبيان عدالتهم، والتحذير من الطعن فيهم، أو سبهم أو ذكر مساوئهم ومثالبهم التي يزعمها أهل البدع فيهم، وهم مبرءون من كل ذلك، وأعراضهم أصفى وأنظف مما هنالك، كما وضحته الأحاديث النبوية الصحيحة السابقة وغيرها مما لم نذكره، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

مذهب أهل السنة والجماعة في أهل البيت، وأهل السنة الصالحين -رحمهم الله-

عناصر الدرس

معتقد أهل السنة في أهل البيت رحمهم الله

أولًا: بيان فضائل أهل البيت } :

يعتقد أهل السنة والجماعة أن أهل بيت رسول الله ﷺ لهم منزلة رفيعة، ودرجة عالية من الاحترام والتقدير، فهم يحبونهم ويتولونهم، ويراعون حقوقهم التي شرعها الله لهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ التي قالها يوم غدير خُم، وهو غدير أو وادٍ بين مكة والمدينة عند الجحفة، قال ﷺ: ((أذكركم الله في أهل بيتي)) رواه مسلم، فهم أسعد الناس بهذه الوصية والأخذ بها وتطبيقها، فيتبرءون من طريقة الروافض، الذين غلوا في بعض أهل البيت غلوًّا مفرطًا، وطريقة النواصب الذين يؤذونهم ويبغضونهم.

فأهل السنة متفقون على وجوب محبة أهل البيت وتحريم إيذائهم، أو الإساءة إليهم بقول أو فعل؛ طاعة لله ولرسوله ﷺ وقد وردت في القرآن الكريم آياتٌ تدل على فضائل أهل البيت، كما وردت في السنة أحاديث كثيرة مشهورة وهي مبسوطة في (الصحيحين) و(المسانيد) و(السنن) وغيرها من كتب الحديث، لكننا سنقتصر على ذكر الآيات التي تدل على فضلهم، والأحاديث الصحيحة التي وردت في مناقبهم } وذلك في نقطتين:

الأولى: الآيات التي تشير إلى فضائل ومناقب أهل البيت } وهي كالتالي:

أ. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ففي هذه الآية منقبة عظيمة شرف الله بها آل البيت ؛ حيث طهرهم من الرجس تطهيرًا ، وهي شاملة لجميع أهل بيته ﷺ من الصحابة } والقرابة المكرمين.

قال ابن حجر الهيتمي -رحمه الله- : "هذه الآية منبع فضائل أهل البيت النبوي ؛ لاشتمالها على غُرر من مآثرهم والاعتناء بشأنهم ؛ حيث ابتدئت بـ"إنما" المفيدة لحصر إرادته تعالى في أمرهم على إذهاب الرجس الذي هو الإثم ، أو الشك فيما يجب الإيمان به عنهم ، وتطهيرهم من سائر الأخلاق والأحوال المذمومة". انتهى كلامه.

وقد اختلف المفسرون في معنى الرجس ؛ فقيل : الإثم ، وقيل : الشرك ، وقيل : الشيطان ، وقيل : الأفعال الخبيثة والأخلاق الذميمة ، فالأفعال الخبيثة كالفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والأخلاق الذميمة كالشح والبخل والحسد وقطع الرحم.

ب. وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] وهذه منقبة عظيمة أيضًا ودرجة عالية شريفة ؛ حيث أمر الله ﷻ بالصلاة عليهم تبعًا للصلاة على خاتم النبيين ﷺ يوضح ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن كعب بن عجرة > قال : ((لما نزلت هذه الآية ، قلنا : يا رسول الله ، قد علمنا كيف نسلم عليك ، فيكف نصلي عليك؟ قال : قولوا : اللهم صلِّ على آل محمد)).

جـ. وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] وفي هذه الآية فضيلة عظيمة ومنقبة كريمة لأصحاب الكساء ، وهم : فاطمة ، وعلي ، والحسن ، والحسين } .

فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص > قال: ((لما نزلت هذه الآية: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ دعا رسول الله ﷺ عليًّا وفاطمة وحسنًا وحسينًا؛ فقال: اللهم هؤلاء أهلي)).

قال ابن حجر الهيتمي -رحمه الله-: "فعُلِمَ أنهم المراد من الآية، وأن أولاد فاطمة وذريتهم يُسمّون أبناءه وينسبون إليه نسبة صحيحة نافعة في الدنيا والآخرة".

الثانية: الفضائل الثابتة لأهل البيت في السنة المطهرة:

لقد وردت أحاديث كثيرة في شأن أهل البيت تبين فضلهم، وتنشر مناقبهم، ومن تلك الأحاديث:

أ. قوله ﷺ لما قال له العباس بن عبد المطلب >: ((يا رسول الله، إن قريشًا جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم فجعلوا مَثلك مثل نخلة في كبوة من الأرض -أي: مثل الكناسة، وهو التراب الذي يكنس من البيت- فقال ﷺ: إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فِرقهم، وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسًا وخيرهم بيتًا)). رواه الترمذي وحسنه.

ب. وروى مسلم في صحيحه عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)).

ج. ما رواه مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم > قال: ((قام رسول الله ﷺ يومًا خطيبًا فينا بماء يدعى: خما بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى

عليه، وذكّر ووعظ ثم قال: أما بعد، ألا أيها الناس، إنما أنا بشر، يوشك أن يأتيني رسول ربي ﷻ وإنني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله ﷻ فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغّب فيه، وقال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي؛ فقيل: مَن أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته يا زيد؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصدقة بعده، قيل: ومَن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس)).

ففي هذا الحديث منقبة عظيمة وفضيلة عالية لآل بيته ﷺ حيث قرن الوصية بهم مع الوصية بالالتزام والتمسك بكتاب الله تعالى، وجعلهم ثقلًا دليل واضح على عظم حقهم وارتفاع شأنهم وعلو منزلتهم.

د- ما رواه مسلم في صحيحه أن عائشة < قالت: ((خرج النبي ﷺ وعليه مرطٌ مرجلٌ -أي: كساء من شعر أسود- فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾)). إلى غير ذلك من الأحاديث الشاهدة بفضلهم والمبينة لمنزلتهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وكذلك أهل بيت رسول الله ﷺ تجب محبتهم وموالاتهم، ورعاية حقهم، وهذان الثقلان اللذان وصّى بهما رسول الله ﷺ.

وقد روي عن النبي ﷺ من وجوهٍ حسان أنه قال عن أهل بيته: ((والذي نفسي بيده، لا يدخلون الجنة حتى يُحبوكم من أجلي)) وقد أمرنا الله بالصلاة على آل

محمد، وطهّرهم من الصدقة التي هي أوساخ الناس، وجعل لهم حقًّا في الخُمس والفيء.

ولهذا اتفق أهل السنة والجماعة على رعاية حقوق الصحابة والقرابة، وتبرءوا من الناصبة الذين يكفِّرون علي بن أبي طالب، ويفسقونه، ويتنقصون لحرمة أهل البيت، مثل من كان يعاديهم على الملك، أو يعرض عن حقوقهم الواجبة".

انتهى كلامه.

ثانيًا: بيان حقوق أهل البيت على المسلمين:

لا ريب أن لآل النبي ﷺ حقوقًا على الأمة لا يشاركهم فيها غيرهم، فمن ذلك:

أ- محبتهم وتوقيرهم: فيستحقون من زيادة المحبة والموالاة ما لا يستحقه غيرهم، ودليل ذلك حديث غدير خم، الذي سبقت الإشارة إليه، وفيه قوله ﷺ: ((وأهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي))، قالها ثلاث مرات.

ففي هذا الحديث من الوصية بأهل البيت والتأكيد على محبتهم وتوقيرهم وإعطائهم ما لهم من الحقوق، وأن ذلك فيه طاعة لرسول الله ﷺ.

قال القرطبي -رحمه الله-: وهذه الوصية وهذا التأكيد العظيم يقتضي وجوب احترام أهله، وإبرارهم وتوقيرهم، ومحبتهم، وجوب الفروض المؤكدة التي لا عذر لأحدٍ في التخلف عنها.

وروى الحاكم بإسناده عن أبي سعيد الخدري > قال: قال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده، لا يبغضنا أهل البيت أحدٌ إلا أدخله الله النار)). رواه في (المستدرك) وسكت عنه الذهبي -رحمه الله.

فهنا بين النبي ﷺ أن بغض آل البيت سبب لدخول النار، كما حث على حبهم، وجعل محبتهم دليلًا على محبته ﷺ.

وقد فهم وصية النبي ﷺ بأهل بيته حق الفهم أبو بكر الصديق > فأحبهم وأكرمهم، ودعا الناس إلى إكرامهم ومحبتهم، فقد روى البخاري في صحيحه أن أبا بكر > قال: "ارقبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته".

ب- الصلاة عليهم: من الحقوق الثابتة لأهل البيت } مع محبتهم وتوقيرهم: الصلاة عليهم، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقد بين النبي ﷺ كيفية الصلاة عليه، وأن الصلاة على آله تبعٌ للصلاة عليه ﷺ فقد روى مسلم عن أبي مسعود الأنصاري > قال: ((أتانا رسول الله ﷺ في مجلس سعد بن عبادة؛ فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليتَ على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم)).

جـ- الحقوق المالية: فمن الحقوق المتعلقة بأهل البيت والتي يجب مراعاتها -إضافة إلى ما تقدم من محبتهم واحترامهم وتكريمهم، والصلاة عليهم- أن الله تعالى قد حرّم عليهم الزكاة والصدقة، كما جعل لهم حقًّا في الخمس والفيء.

فاستحقاق أهل البيت لخمس الخمس -وهو معروف بسهم ذوي القربى- ثابتٌ بعد موت النبي ﷺ حيث ذكرهم الله تعالى في كتابه من ذوي السهام؛ فقال ﷻ:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وثبت في السنة أن النبي ﷺ كان يعطيهم الخمس، ففي (صحيح البخاري) أن جبير بن مطعم قال: ((مشيتُ أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، أعطيتَ بني المطلب وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيءٌ واحدٌ)).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وكذلك آل بيت رسول الله ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها، فإن الله جعل لهم حقًّا في الخمس والفيء، وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ فقال لنا: ((قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد)). وآل محمد هم الذين حرمت عليهم الصدقة، هكذا قال الشافعي وأحمد بن حنبل، وغيرهما من العلماء -رحمهم الله- وحرم الله عليهم الصدقة؛ لأنها أوساخ الناس وفي (المسانيد) و(السنن): ((أن النبي ﷺ قال للعباس -لما شكا إليه جفوة قوم لهم-: والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم من أجلي))" انتهى كلامه.

ولما طرح الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- السؤال التالي، وهو: ما الواجب التزامه في أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته؟ أجاب بقوله: "الواجب لهم علينا سلامة قلوبنا وألسنتنا له، ونشر فضائلهم والكف عن مساويهم، وما شجر

بينهم، والتنويه بشأنهم كما نوّه تعالى بذكرهم في التوراة والإنجيل والقرآن، وثبتت الأحاديث الصحيحة في الكتب المشهورة من الأمهات وغيرها فضائلهم"...

إلى أن قال: "وكذلك القول في زوجات النبي ﷺ وأهل بيته، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، وتبرأ من كل من وقع في صدره أو لسانه سوء على أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته، أو على أحدٍ منهم، ونُشهد الله تعالى على حبهم وموالاتهم والذبّ عنهم ما استطعنا؛ حفظًا لرسول الله ﷺ في وصيته؛ إذ يقول: ((لا تسبوا أصحابي))، ويقول: ((الله الله في أصحابي))، وقال: ((إني تارك فيكم ثقلين: أولهما: كتاب الله، فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به)) ثم قال: ((وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي)). الحديث في (الصحيحين) وغيرهما". انتهى كلامه.

معتقد أهل السنة والجماعة في حق أهل السنة الصالحين ومن بعدهم من التابعين لهم بإحسان، وإحسان الظن بهم

ومن منهج أهل السنة والجماعة: أن التابعين ومن تبعهم بإحسان من علماء هذه الأمة وخيارها لا يذكرون إلا بالجميل والثناء والدعاء لهم.

يقول الإمام الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته: "وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل". انتهى كلامه.

ثم يشرح ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- كلام الطحاوي فيقول: "قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، فيجب على كل مسلم بعد

موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن خصوصًا الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم؛ يُهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم؛ إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها إلا المسلمين، فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول ﷺ من أمته، والمحيون لما مات من سنته، فبهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، متفقون اتفاقًا يقينًا على وجوب اتباع الرسول ﷺ ولكن إذا وُجد لواحد منهم قولٌ قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له في تركه من عذر، وجماع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

والثاني: عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق، وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا } ، ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]".

انتهى كلامه.

إذًا يجب إحسان الظن بمن جاء بعد الصحابة } من المؤمنين الصالحين، والعلماء العاملين، من التابعين وأتباعهم إلى يوم الدين، من الترحّم عليهم وذكر محاسنهم.

يقول الشيخ محمد السفاريني -رحمه الله-: "وبعد الصحابة المخصوصين بالفضل والعدالة العامة والإصابة، فالتابعون لهم بإحسان أحق وأجدر بالفضل والإتقان والتقديم على غيرهم من سائر أهل الإيمان، وتعريف التابعي: هو كل من صحب الصحابي، ومطلقه مخصوص بالتابعين، ويقال للواحد: تابع وتابعي.

وقد اختُلف في أفضل التابعين ؛ فقال سيدنا الإمام أحمد وغيره من أهل العلم : أفضل التابعين سعيد بن المسيب ، وقال قوم : أفضل التابعين أويس بن عامر القرني ، واستدلوا له بحديث : ((خير التابعين أويس)) رواه الحاكم ، فإن قيل : كيف استجاز الإمام أحمد ومن نحا نحوه تفضيل سعيد بن المسيب على سائر التابعين مع وجود النص الصريح بالنقل الصحيح في تفضيل أويس القرني؟

فالجواب : أن مراد سيدنا الإمام أحمد وأضرابه أفضلية سعيد في العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه ونفع الأمة بذلك ، وبما بلّغه عن الصحابة الكرام عن النبي ﷺ فإنه الإمام الحافظ الثقة المأمون حتى قيل فيه : أعلم أمة محمد بدين محمد بعد محمد سعيد بن المسيب -رحمه الله ورضي عنه.

والدال على أفضلية التابعين قول النبي ﷺ : ((خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم)). قال عمر : "فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة" ، وقد قال ﷺ : ((لا تمسّ النار مسلمًا رآني أو رأى مَن رآني)).

قال الإمام المحقق ابن القيم : "ألقى الصحابة الكرام إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصًا صافيًا ، وكان سندهم عن نبيهم ﷺ عن جبريل عن رب العالمين سندًا صحيحًا عاليًا ، وقالوا : هذا عهد نبينا إلينا ، وقد عهدناه إليكم ، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا ، وهي وصيته وفرضه عليكم ، فجرى التابعون لهم بإحسان على مِنهاجهم ، واقتفوا آثار صراطهم المستقيم". انتهى كلامه.

وقال الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- في كتابه (معارج القبول) : "وتابعو الرسول ﷺ وأصحابه السادة الأخيار ، على مراتبهم ، كما قال الله تعالى فيهم على الترتيب : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ الآية ، وقال تعالى في ذكر التابعين بعد ذكر

الصحابة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الجمعة: ٢] هذا في الصحابة، ثم قال في التابعين: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٣، ٤] وغير ذلك من الآيات الكريمات.

وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة < : ((أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة؛ فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أن قد رأينا إخواننا. قالوا: أوَلسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد)) الحديث.

وفي (المسند) عن أنس < قال: قال رسول الله ﷺ: ((وددتُ أني لقيتُ إخواني، قال: فقال أصحاب النبي ﷺ: نحن إخوانك. قال: أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي و لم يروني)) إسناده حسن، وقد صح.

وفيه عن أبي أمامة وأنس بن مالك } قالا: قال رسول الله ﷺ: ((طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني)) سبع مرات". انتهى كلام الحكمي -رحمه الله.

وبالجملة: فإن أهل السنة والجماعة يحسنون الظن بعامة أهل السنة الصالحين، ومن بعدهم من التابعين لهم بإحسان، ويترحّمون عليهم، ولا يذكرونهم إلا بخير؛ لأنهم هم الواسطة بيننا وبين صحابة نبينا ﷺ ورضي عنهم، ولا يذكر أهل السنة والجماعة أحدًا من أمة محمد ﷺ بشرٍّ أو سوء، فضلًا عن الصالحين منهم المشهود لهم بالصلاح والفضل والدين.

الإيمان بنعيم القبر وعذابه

عناصر الدرس

الأدلة من الكتاب والسنة على ثبوت نعيم القبر وعذابه

أولًا: الأدلة القرآنية على ثبوت نعيم القبر وعذابه:

مذهب أهل السنة والجماعة -وهو المذهب الحق- على إثبات نعيم القبر وعذابه؛ لثبوت ذلك بالقرآن والسنة، ومعلوم أن القول بنعيم صاحب القبر أو عذابه من أمور الغيب التي لا مجال للعقل فيها، ومنهج أهل السنة والجماعة التقيّد بالكتاب والسنة في جميع مسائل الدين، ومن ذلك أمور العقيدة، وبالأخص ما يتعلق بالمسائل الغيبية كمسألتنا هذه؛ لذلك لم يقل أهل السنة والجماعة بوقوع نعيم القبر وعذابه إلا بعد أن أثبت ذلك في الكتاب العزيز أو في السنة المطهرة.

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر: "وقد وردت إشارات في القرآن تدل على عذاب القبر، وقد ترجم البخاري في كتاب "الجنائز" لعذاب القبر؛ فقال: "باب ما جاء في عذاب القبر"، وساق في الترجمة قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٤، ٤٥].

والآية الأولى التي ساقها البخاري -رحمه الله- إنما هي في تعذيب الملائكة الكفار في حالة الاحتضار.

والآية الثانية تدل على أن هناك عذابين سيصيبان المنافقين قبل عذاب يوم القيامة: العذاب الأول: ما يصيبهم الله به في الدنيا إما بعقاب من عنده، وإما

بأيدي المؤمنين، والعذاب الثاني: عذاب القبر، قال الحسن البصري -رحمه الله-: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ عذاب الدنيا وعذاب القبر.

وقال الطبري -رحمه الله-: والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والأخرى تحتمل أحد ما تقدم ذكره من الجوع أو السبي أو القتل والإذلال، أو غير ذلك.

والآية الثالثة حجة واضحة لأهل السنة الذين أثبتوا عذاب القبر، فإن الحق -تبارك وتعالى- قرر أن آل فرعون يُعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا، وهذا قبل يوم القيامة؛ لأنه قال بعد ذلك: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] قال القرطبي -رحمه الله-: "الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر".

ومن الإشارات القرآنية الواضحة الدالة على فتنة القبر وعذابه قوله -تبارك وتعالى-: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ففي الحديث الذي يرويه البراء بن عازب } عن النبي ﷺ قال: ((إذا أقعد المؤمن في أقبره أتي ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾)) وفي رواية أخرى: وزاد: ((﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ نزلت في عذاب القبر))"، انتهى كلام الأشقر.

ونستخلص من كلام الدكتور الأشقر أن هناك آيات صريحة في إثبات نعيم القبر وعذابه، وهناك آيات أخرى ليست صريحة في الإثبات، فمن أهل العلم من استدل بها على إثباته، ومنهم من جعلها خاصة بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، وليست نصًّا في إثبات نعيم القبر وعذابه.

وفيما يلي نستعرض الآيات المتفق على أنها تثبت نعيم القبر أو عذابه، وسنتبعها بأقوال المفسرين المعتبرين من أهل السنة والجماعة، حتى يتضح مذهبهم في ثبوت نعيم القبر وعذابه.

الآية الأولى: قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسيره: "﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾: أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم، وفي البرزخ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، فهذه العقوبات الشنيعة التي تحل بالمكذبين لرسل الله المعاندين لأمره". انتهى كلامه.

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره (أضواء البيان): "وقال في مصيرهم في البرزخ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ وقال في عذابهم في الآخرة: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾" انتهى كلامه.

وبهذا يتبين أن عذاب القبر ثابت بدليل كتاب الله تعالى، أخذًا من هذه الآية الكريمة، كما أكد ذلك التفسير الوارد عن أهل العلم من المفسرين الموثوقين.

الآية الثانية: قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾ [التوبة: ١٠١].

قال الإمام النسفي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ هما القتل وعذاب القبر، أو الفضيحة وعذاب القبر، أو أخذ الصدقات من أموالهم ونهك أبدانهم، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾ أي: عذاب النار". انتهى كلامه.

الآية الثالثة: قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

يقول الشيخ السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "ولما ذمّ الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار ويوم القيامة؛ فقال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ -أي: شدائده وأهواله الفظيعة وكربه الشنيعة- لرأيت أمرًا هائلًا وحالةً لا يقدر الواصف أن يصفها، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها وتعصِّيها للخروج من الأبدان: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ أي: العذاب الشديد الذي يهينكم ويذلكم، والجزاء من جنس العمل، فإن هذا العذاب ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾، من كذبكم عليه، وردكم للحق الذي جاءت به الرسل، ﴿ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي: ترفّعون عن الانقياد لها والاستسلام لأحكامها. وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب والعذاب الموجّه إليهم إنما هو عند الاحتضار وقبل الموت وبعده". انتهى كلامه.

الآية الرابعة: قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "يخبر تعالى أنه يثبّت عباده المؤمنين -أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها فيثبتهم الله- في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات

بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها، وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح إذا قيل للميت: مَن ربك؟ وما دينك؟ ومَن نبيك؟ هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبييّ ﷺ، ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفتها، ونعيم القبر وعذابه". انتهى كلامه -رحمه الله.

ونقل السفاريني -رحمه الله تعالى- عن العلامة ابن القيم -رحمه الله- أنه قال: "وأما الجواب المفصّل، فهو أن نعيم البرزخ وعذابه مذكور في القرآن في مواضع؛ منها: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ الآية، وهذا خطاب لهم عند الموت قطعًا، وقد أخبرت الملائكة -وهم الصادقون- أنهم حينئذ: ﴿ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ولو تأخّر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صحّ أن يقال لهم: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ إلى قوله: ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ الآية، فذِكْرُ عذاب الدارين صريحًا لا يحتمل غيره.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾" انتهى كلام ابن القيم.

وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله ﷺ يدعو: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر. حتى نزلت: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر: ١، ٢])).

وقال ابن مسعود: "إذا مات الكافر أجلس في قبره فيقال له: مَن ربك؟ وما دينك؟ فيقول: لا أدري، فيُضيّق عليه قبره، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال: المعيشة الضنك: هي عذاب القبر".

وقال البراء بن عازب { في قوله تعالى: ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ قال: "عذاب القبر".

وروي عن ابن عباس { في قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ قال: "عذاب القبر"، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس في قول الله: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾: "إحداهما في الدنيا والأخرى عذاب القبر". انتهى.

ثانيًا: الأدلة من السنة المطهرة على ثبوت نعيم القبر وعذابه:

وقد حذر النبي ﷺ أمته من عذاب القبر في أحاديث كثيرة، مبينًا أن الميت يفتن في قبره، فمن ذلك: ما رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب "الجنائز"، باب ما جاء في عذاب القبر، حيث ساق البخاري -رحمه الله- الأحاديث الواردة في عذاب القبر، وهي:

١. حديث البراء بن عازب { عن النبي ﷺ قال: ((إذا أقعد الميت في قبره أتي ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾)) وزاد: ((﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ نزلت في عذاب القبر)).

٢. حديث عائشة < قالت: ((إنما قال النبي ﷺ: إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول حق، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾)).

٣. حديث ابن عمر { قال: ((اطّلع النبي ﷺ على أهل القليب فقال: وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فقيل له: تدعو أمواتًا؟ فقال: ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون)).

٤. حديث عائشة < : ((أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؛ فقال: نعم عذاب القبر، قالت عائشة < : فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوّذ من عذاب القبر)) زاد غندر: ((عذاب القبر حق)).

٥. حديث عروة بن الزبير } أنه سمع أسماء بنت أبي بكر } تقول: ((قام رسول الله ﷺ خطيبًا، فذكر فتنة القبر التي يُفتتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجًّا)).

٦. حديث أبي أيوب الأنصاري < قال: ((خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس -أي: غابت- فسمع صوتًا؛ فقال: يهودُ تعذب في قبورها)).

٧. حديث أبي هريرة < قال: ((كان رسول الله ﷺ يدعو: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال)).

٨. حديث ابن عباس } قال: ((مرّ النبي ﷺ على قبرين فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، ثم قال: بلى، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما أحدهما فكان لا يستتر من بوله، قال: ثم أخذ عودًا رطبًا فكسره باثنتين، ثم غرز كل واحد منهما على قبر، ثم قال: لعله يخفف عنهما، ما لم ييبسا)).

ونقل السفاريني -رحمه الله- في (لوامع الأنوار) قول الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: "وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في عذاب القبر، ففي (الصحيحين) عن أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق } أنها قالت: ((سألتُ النبي ﷺ عن عذاب القبر؛ فقال: نعم عذاب القبر حق)).

وفي (صحيح مسلم) عن ابن عباس } عن النبي ﷺ: ((أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم،

وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال)).

وأخرج مسلم أيضًا وابن أبي شيبة عن زيد بن ثابت > قال: ((بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به فكادت أن تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة؛ فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا، فقال: متى مات هؤلاء؟ فقال: ماتوا في الإشراك، فقال النبي ﷺ: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوّذوا بالله من عذاب القبر)) الحديث.

وفي (الصحيحين) عن عائشة < أن النبي ﷺ قال: ((إن أهل القبور يعذبون في قبورهم عذابًا تسمعه البهائم))". انتهى كلام السفاريني.

ذِكْر بعض أسباب عذاب القبر، وهل يدوم أم ينقطع؟ والحكمة في عدم إطلاع الناس عليه

أ- ذكر بعض أسباب عذاب القبر:

لعذاب القبر أسباب عديدة، لكننا سوف نجمل بعض تلك الأسباب كما ذكرها أهل العلم، أخذًا من أحاديث المصطفى ﷺ ومن الآيات القرآنية قبل ذلك؛ فنقول:

السبب الأول والثاني: عدم الاستتار من البول والنميمة:

فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس } قال: ((مرّ النبي ﷺ على قبرين فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، ثم قال: بلى، أما

أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله، ثم قال: ثم أخذ عودًا رطبًا فكسره باثنتين، ثم غرز كل واحد منهما على قبر، ثم قال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)) رواه البخاري ومسلم.

وقد أخبر الرسول ﷺ أن عامة عذاب القبر من البول، فقد روى أنس > أن رسول الله ﷺ قال: ((تنزهوا من البول؛ فإن عامة عذاب القبر منه)) ورواه ابن عباس } بلفظ: ((عامة عذاب القبر من البول، فتنزهوا منه)) ورواه أبو هريرة > بلفظ: ((أكثر عذاب القبر من البول)).

السبب الثالث: الغلول:

فمن الذنوب التي يعذب صاحبها في القبر الغلول، وقد صح في ذلك أكثر من حديث، فعن أبي هريرة > قال: ((أهدى رجل لرسول الله ﷺ غلامًا يقال له: مِدعم، فبينما مدعم يحطّ رحلًا لرسول الله ﷺ إذ أصابه سهم عاثر، فقتله، فقال الناس: هنيئًا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا. فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين إلى النبي ﷺ فقال: شراك من نار، أو شراكين من نار)) متفق عليه.

والغلول: أخذ شيء من معالم المعركة قبل قسمته بين الجنود. والسهم العاثر: الذي لا يُدرى مَن رماه.

السبب الرابع: الكذب.

السبب الخامس: هجر القرآن.

السبب السادس: الزنا.

السبب: السابع: الربا.

ودليل هذه الأسباب مجتمعة -وهي أربعة- أن الله ﷻ أرى نبيه ﷺ أنواعًا مما يُعذب به بعض الخلق بسبب هذه المخالفات.

ففي (صحيح البخاري) عن سمرة بن جندب > قال: ((كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه، فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال: فإن رأى أحدٌ قصها، فيقول: ما شاء الله! فسألنا يومًا، فقال: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قلنا: لا، قال: لكني رأيت الليلة رجلين، أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم بيده كلوب من حديد، قال بعض أصحابنا عن موسى: كلوب من حديد يدخله في شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا، فيعود فيصنع مثله، قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهرٍ أو صخرة فيشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر -أي: سقط- فانطلق إليه ليأخذه، فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه. قلت: من هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع، يتوقد تحته نار، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عُراة. فقلت: من هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم على وسط النهر-قال يزيد ووهب وجرير عن جرير بن حازم-: وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة

فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه، فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان، فقلت: من هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نارٌ يوقدها، فصعدا بي في الشجرة وأدخلاني دارًا لم أرَ قط أحسن منها، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل، فيها شيوخ وشباب.

قلت: طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت. قالا: نعم، أما الذي رأيته يشق شدقه: فكذّاب يحدث بالكذبة، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة.

والذي رأيته يشدخ رأسه: فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل، ولم يعمل به في النهار، يفعل به إلى يوم القيامة.

والذي رأيته في الثقب فهم الزناة.

والذي رأيته في النهر آكلو الربا.

والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم # ، والصبيان حوله أولاد الناس، والذي يُوقد النار مالك خازن النار.

والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك، فرفعت رأسي، فإذا فوقي مثل السحاب، قالا: ذلك منزلك. قلت: دعاني أدخل منزلي. قالا: إنه بقي لك عمر لم تستكمله، فلو استكملت أتيت منزلك)) رواه البخاري.

وقال السفاريني -رحمه الله- ملخصًا هذه الأسباب وغيرها: "الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين: مجمل، ومفصل، أما المجمل: فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم معاصيه، فلا يعذب الله روحًا عرفته وأحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه، ولا بدنًا كانت فيه أبدًا، فإن عذاب القبر، بل وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار بارتكاب مناهيه ولم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقلّ ومستكثر، ومصدّق ومكذب.

وأما المفصل فقد أخبر رسول الله ﷺ عن الرجلين الذين رآهما يعذبان في قبورهما: أن أحدهما كان يمشي بالنميمة بين الناس، والآخر كان لا يستتر من البول.

قال المحقق ابن القيم في (الروح): فهذا ترك الطهارة الواجبة، وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقًا، وفيه تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب والزور والبهتان أعظم عذابًا، كما أن في ترك الاستبراء من البول تنبيهًا على أن من ترك الصلاة التي الاستبراء من البول بعض شروطها أشدّ عذابا.

وفي (صحيح البخاري) في تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق، وفي حديث ابن مسعود، في الذي ضرب في قبره سوطًا امتلأ القبر عليه نارًا؛ لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور، ومرّ على مظلوم فلم ينصره، وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به في النهار، وتعذيب الزناة والزواني، وتعذيب آكل الربا، كما شاهدهم النبي ﷺ في البرزخ، وحديث أبي هريرة: وفيه: رضخ

رءوس أقوام بالصخر لتثاقل رءوسهم عن الصلاة، والذين يأكلون الزقوم والضريع لتركهم الزكاة.

ومن الذين يعذبون في قبورهم، وأخبر عنهم النبي ﷺ: الجبّارون، والمتكبرون، والمراءون، والهمازون، واللمازون، والطعانون على السلف، والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم، وأعوان الظلمة الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، ونحو هؤلاء ممن يشتغل بذنوب الناس عن ذنبه، وبعيوبهم عن عيبه، فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم". انتهى كلامه.

ب- هل يدوم عذاب القبر أم ينقطع؟

جوابه: أنه نوعان كما في (شرح العقيدة الطحاوية):

الأول: لا ينقطع للكفار.

والثاني: يدوم مدة ثم ينقطع، وهو للعصاة.

لقد قدمنا أن البحث في هذه المسألة وهي الحياة البرزخية ونعني بها حالة الأموات في قبورهم، وأنهم إما منعّمون أو معذّبون كل ذلك أمر غيبي لا مجال للعقل فيه ولا مسرح للنظر، فالكلام فيه يعتمد على ما ورد عن النبي ﷺ في حدود نصوص الوحي.

وعليه، فإن النصوص الواردة في عذاب القبر توضح أنه مستمر ولا ينقطع إلا إذا قامت القيامة بالنسبة للكفار، وهذا النوع الأول، ففي حديث أنس أن العبد المؤمن إذا أجاب الإجابة الصادقة في قبره عندما يسأله الملكان يقال له: ((انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، قال النبي ﷺ: فيراهما جميعًا)) قال قتادة: وذُكِرَ لنا: ((أنه يفسح له في قبره))، وذكر في حديث أنس: أن الكافر

والمنافق بعد أن يجيب في قبره تلك الإجابة الكاذبة يقال له: ((لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربةً بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين)). أخرجه البخاري ومسلم.

ولفظ الحديث للبخاري ومسلم: ((إن العبد إذا وضع في قبره)) ثم ذكر نحوًا مما تقدم إلى قوله: ((وذكر لنا أنه يفسح فيه سبعين ذراعًا، ويملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون)) وفي رواية لأبي داود: أن العبد المؤمن بعد أن يسأل ويجيب: ((ينطلق به إلى بيت كان له في النار، فيقول له: هذا كان لك، ولكن الله عصمك فأبدلك به بيتًا في الجنة، فيراه فيقول: دعوني حتى أذهب فأبشّر أهلي، فيقال له: اسكن)).

يقول الدكتور عمر الأشقر: "وهذا الذي أشارت إليه الأحاديث من أن كل إنسان يعرض عليه مقعده بعد أن يسأل في قبره مستمر طيلة بقائه في القبر، وقد صرّح بذلك الرسول ﷺ ففي الحديث الذي يرويه عبد الله بن عمر } أن النبي ﷺ قال: ((إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)) رواه البخاري ومسلم.

وفي (سنن الترمذي) عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ أخبر: ((أن الملكين يقولان للعبد المؤمن بعد أن يجيب الإجابة السديدة: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين، ثم ينوّر له فيه، ثم يقال له: نَمْ، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نَمْ كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وأنهما يقولان للمنافق: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال معذبًا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك))" انتهى كلامه.

والمقصود: أن عذاب القبر أمر دائم وغير منقطع بالنسبة للكفار، كما مر معنا في هذه الأحاديث التي أوردناها، وكما يُفهم من قول الله تعالى في عذاب آل فرعون -والعياذ بالله تعالى-: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥]، فهؤلاء المجرمون -آل فرعون- لسوء فعلهم وطغيانهم يسومهم الله تعالى سوء العذاب، أما في البرزخ فيعذبون بعرضهم على النار كل غداة وعشي، وهذا كناية عن ديمومة العذاب واستمراره، فهو لا ينقطع عنهم وهم في قبورهم، ويوم القيامة حين يخرجون من تلك القبور ينقلون إلى عذاب أشد من عذابهم في البرزخ، ألا وهو عذاب النار وبئس المصير.

أما عذاب العصاة، فإنه مدة ثم ينقطع عنهم؛ لخفة جرائهم، فيعذب كلٌّ بحسب جرمه ثم يخفف عنه.

جـ- الحكمة في عدم إطلاع الناس على عذاب القبر:

بعد أن بينا بالأدلة من الكتاب والسنة على ثبوت عذاب القبر ونعيمه نذكر الحكمة في أن الله ﷻ حجب عن عامة الناس سماع عذاب القبر، لكننا نورد أولًا أن الرسول ﷺ أطلعه الله على عذاب القبر وسماع أصوات المعذبين.

يقول الدكتور عمر الأشقر: "وقد أعطى الله رسوله القدرة على سماع المعذبين في قبورهم، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن زيد بن ثابت > قال: ((بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له، ونحن معه إذ حادت به فكادت أن تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا، قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراك، فقال: إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه)).

وفي (صحيحي البخاري ومسلم) و(سنن النسائي) عن أبي أيوب الأنصاري < قال: ((خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس فسمع صوتًا؛ فقال: يهود تعذب في قبورها)).

ويدل على سماع الرسول ﷺ للمعذّبين في قبورهم الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن ابن عباس } وفيه: ((أن رسول الله ﷺ مر بقبرين، فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير))، وقد مر بتمامه". انتهى كلام الأشقر.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إلى أن غير الأنبياء قد يسمع شيئًا من ذلك، فقال: "وما ذكرنا من أن الموتى يسمعون الخطاب، ويصل إليهم الثواب، ويعذبون بالنياحة، بل وما لم يسأل عنه السائل من عقابهم في قبورهم، وغير ذلك فقد يكشف لكثير من أبناء زماننا يقظة ومنامًا، ويعلمون ذلك ويتحققونه، وعندنا من ذلك أمور كثيرة". انتهى كلامه.

لكن الله ﷻ حجبَ عن الإنس والجن عمومًا سماع تعذيب أهل القبور، ولم يطلعهم عليه لأن أمور القبور وأهوالها من أمور الآخرة ومقدماتها؛ فلذلك هي غيب عنهم.

يقول السفاريني -رحمه الله-: "إن الله تعالى جعل أمر الآخرة وما كان متصلًا بها غيبًا وحجبها عن إدراك العقول في هذه الدار، وذلك من كمال حكمته، ولتمييز الذين آمنوا بالغيب من غيرهم، ومنها: أن النار التي في القبر ليست من نار الدنيا، فيشاهدها من يشاهد نار الدنيا، وإنما هي من نار الآخرة، وكيف يستنكر من عرف الله وأقرّ بقدرته أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار خلقه وأسماعهم؛ حكمة منه ورحمة بهم؛ لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها،

والعبد أضعف بصرًا وسمعًا من أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر، وكثير ممن أشهده الله ذلك ضعف وغشي عليه، ولم ينتفع بالعيش زمنًا، وبعضهم كُشِفَ قناع قلبه فمات". انتهى كلامه.

إذًا أسمعَ الله ﷻ أصوات المعذبين في قبورهم لنبيه ﷺ ولعامة الحيوان من البهائم، ولم يُطلع عليه الثقلين من الإنس والجن؛ لحكمة ذكرها رسولنا الكريم ﷺ كما مر معنا في الحديث الصحيح؛ وهو: خشية أن لا يدفن بعضنا بعضًا.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- وهو يشرح ألفاظ هذا الحديث: "((يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين)) وهذا يدخل فيه الحيوان والجماد، وفي رواية أبي هريرة: ((يسمعه كل دابة إلا الثقلين)) والمراد بالثقلين: الإنس، والجن. قيل لهم ذلك لأنهم كالثقل على وجه الأرض. وقال المهلب: الحكمة في أن الله يسمع الجن قول الميت "قدموني" ولا يسمعهم صوته إذا عُذب بأن كلامه قبل الدفن متعلق بأحكام الدنيا، وصوته إذا عُذب في القبر متعلق بأحكام الآخرة، وقد أخفى الله عن المكلفين أحوال الآخرة إلا من شاء الله؛ إبقاءً عليهم -كما تقدم". انتهى كلامه.

الحيازة البرزخية

عناصر الدرس

حياة الأنبياء والشهداء البرزخية، وتعلقات الروح بالبدن

أ- المراد بالحيازة البرزخية التي اختص الله بها الأنبياء والشهداء:

المراد بالحياة البرزخية هي: عودة الروح إلى الجسد في القبر، فإن عودة الروح إلى جسدها هذا التعلق يسمى حياة، ومعنى "البرزخ" أي: الحاجز بين أمرين، كما قال تعالى عن البحر العذب والمالح: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن ١٩، ٢٠] أي: حاجز يحجز بينهما، فلا يمتزجان بسببه، فالحياة في القبر برزخ بين حياتين: حياة الدنيا، وحياة الآخرة، وقد ثبت في نصوص الشريعة: أن الناس متفاوتون في نوع هذه الحياة البرزخية، فالكفار والعصاة يعذّبون، والعياذ بالله، وأما أكمل الخلق حياة في البرزخ فهم الأنبياء -عليهم السلام- والشهداء.

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-: "إن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت، فمنها أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- وهم متفاوتون في منازلهم، ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء، لا كلهم، بل من الشهداء من تُحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه، كما في (المسند) عن عبد الله بن جحش: ((أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: الجنة، فلما ولّى قال: إلا الدين سارني به جبريل آنفًا)).

ومن الأرواح من يكون محبوسًا على باب الجنة، كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: ((رأيت صاحبكم محبوسًا على باب الجنة))، ومنهم من يكون محبوسًا في قبره.

وأما الحياة التي اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤] فهي أن الله -سبحانه تعالى- جعل أرواحهم في أجواف طير خضر، كما في حديث عبد الله بن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لما أصيب إخوانكم -يعني: يوم أحد- جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب، مظللة في ظل العرش)) الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود، وبمعناه في حديث ابن مسعود رواه مسلم.

فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله ﷻ حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم منها في البرزخ أبدانًا خيرًا منها، تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من تنعم الأرواح المجردة عنها، ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير، أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير، وتأمل لفظ الحديثين، ففي (الموطأ): أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: ((إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه))، فقوله: ((نسمة المؤمن)) تعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: ((هي في جوف طير خضر)) ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير، فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار، فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة من كثير منهم، فله نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه، والله أعلم.

وحرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، كما روي في السنن، وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدةٍ من دفنهم كما هو لم يتغير، فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة، والله أعلم.

وكأنه -والله أعلم- كلما كانت الشهادة أكمل والشهيد أفضل كان بقاء جسده أطول". انتهى كلامه.

وقال الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره لآية "البقرة" التي تتحدث عن حياة الشهداء: "وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون كما جاء في (صحيح مسلم): ((إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ما تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يُسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى، لما يرون من ثواب الشهادة، فيقول الرب ﷻ: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون)).

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ((نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه))، ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضًا، وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن، تشريفًا لهم وتكريمًا وتعظيمًا". انتهى كلامه.

وذكر الإمام ابن كثير -رحمه الله- أيضًا في تفسير آية "آل عمران" التي تتحدث عن حياة الشهداء البرزخية بعد أن ذكر حديث ابن عباس { أن رسول الله ﷺ قال: ((الشهداء على بارق -نهر بباب الجنة- فيه قبة خضراء، يخرج إليهم رزقهم في الجنة بكرة وعشيًّا))".

ثم قال ابن كثير: "وكأن الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر، فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم.

وقد روينا في (مسند الإمام أحمد) حديثًا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضًا فيها وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة. وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها". انتهى كلامه.

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسيره: "ولكونه -أي: الجهاد- مؤديًا للقتل وعدم الحياة التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعيٌ لها، ودفع لما يضادها، ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى أن مَن قُتل في سبيله بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدني من المأكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحي، وهو الفرح والاستبشار وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص". انتهى كلامه.

وبهذا يتضح أن حياة الأنبياء والشهداء البرزخية هي أكمل حياة وأنعمها وأفضلها، وكما أن الشهداء يتفاضلون في أنواع النعيم في هذه الحياة البرزخية -

كما مر معنا- فإن حياة الأنبياء فوق حياة الشهداء، ونعيمهم أعلى، وفضلهم أجل.

يقول السيد نعمان خير الدين الألوسي -رحمه الله- : "فنعتقد حياتهم -أي: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- حياة برزخية فوق حياة الشهداء، وأن نبينا ﷺ قد جُعِلَ عند قبره الشريف ملكٌ يبلغه سلام المسَلّمين الذين عند ضريحه المكرم، والنائيين عنه، ونعتقد أن الأنبياء -عليهم السلام- جميعهم طريون لا تأكل الأرض أجسادهم الشريفة". انتهى كلامه.

ب- أنواع تعلُّقات الروح بالبدن:

إن الروح التي تسري في جسم الإنسان لها شأن عظيم، فكما أن الله ﷻ جعل أمرها غيبًا لا يعلمه إلا هو؛ فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] فإن تعلقها ببدن الإنسان له حالات، فتتصل به أول ما تتصل عند نفخ الملك فيه الروح وهو في بطن أمه، ثم يكون لها شأن مع البدن حين يخرج الإنسان من بطن أمه، ويبدأ يستقل بنفسه عن أمه ويدب على الأرض، ويكون لها شأن مع البدن أيضًا في حال النوم، وفي البرزخ في نعيم القبر وعذابه، ثم أخيرًا يكون لها مع الجسد تعلق أخير، وهو أكمل تلك الحالات وأقواها؛ حين تعود الروح للبدن عودًا تامًّا لا مفارقه بعده يوم البعث وخروج الناس من قبورهم للحساب، فإما إلى الجنة وإما إلى النار.

يقول شارح (العقيدة الطحاوية) -رحمه الله- : "وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه، لمن كان لذلك أهلًا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا يُتكلم في كيفيته؛ إذ ليس للعقل

وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تُحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليها إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا، فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق، متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلّقها به في بطن الأم جنينًا.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه، ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليًّا، بحيث لا يبقى لها إليه التفات ألبتة، فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسَلِّم، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، وهذا الرد إعادة خاصة، لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن معه، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه؛ إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتًا ولا نومًا ولا فسادًا، فالنوم أخو الموت، فتأمل هذا يزح عنك إشكالات كثيرة. وليس السؤال في القبر للروح وحدها كما قال ابن حزم وغيره، وأفسد منه قول من قال: إنه للبدن بلا روح، والأحاديث الصحيحة ترد القولين، وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعًا، باتفاق أهل السنة والجماعة، وتنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به.

فالحاصل: أن الدور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وقد جعل الله لكل دار أحكامًا تخصها، وركّب هذا الإنسان من بدن ونفس وجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح

والأبدان تبعًا لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعًا، فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل، ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل، وأنه حق لا مرية فيه، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم". انتهى كلامه.

ونقل السفاريني -رحمه الله- في (لوامع الأنوار) عن ابن القيم -رحمه الله- في حديث ابن القيم عن عودة الروح إلى الجسد في الحياة البرزخية قوله: "ثم تعاد روحه في جسده، لا يدل على حياة مستقرة، وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن، وتعلق به، والروح لم تزل متعلقة ببدنها وإن بلي وتمزق، وسرّ ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنينًا.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه، ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليًّا، بحيث لا يبقى لها إليه التفات ألبتة، وقد ذكرنا من الأحاديث ما يوجب ردها إليه، وكذلك ثبت أنها تُرد إليه عند سلام المسلِّم، وهذا الرد إعادة خاصة، لا توجب حياة البدن قبل يوم القيام.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل تعلقاتها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه؛ إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتًا ولا فسادًا". انتهى كلامه.

ويقول السيد سابق -رحمه الله- وهو يتكلم عن مستقر الأرواح، وتعلقات الروح بالبدن في الحياة البرزخية، يقول: "وأنها -أي: الروح- مع كونها في

الجنة فهي في السماء، وتتصل بفناء القبر، وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالًا، وصعودًا وهبوطًا، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة، وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض، ولذة ونعيم وألم -أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبس، والألم، والعذاب، والمرض، والحسرة، وهنالك اللذة والراحة، والنعيم والإطلاق، وما أشبه حالها في هذا البدن بحال الطفل في بطن أمه، وحالتها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار، فلهذه الأنفس أربع دور، كل دار أعظم من التي قبلها:

الدار الأولى: في بطن الأم، وذلك الحصر والضيق والغم، والظلمات الثلاث.

والدار الثانية: هي الدار التي نشأت فيها وألفتها، واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة.

والدار الثالثة: دار البرزخ، وهي أوسع من هذه الدار وأعظم، بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى.

والدار الرابعة: دار القرار، وهي الجنة أو النار، فلا دار بعدهما، والله ينقلها في هذه الدور طبقًا بعد طبق، حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها، ولا يليق بها سواها، وهي التي خُلقت لها، وهيئت للعمل الموصل لها إليها.

ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن، غير شأن الدار الأخرى، فتبارك الله فاطرها ومنشئها، ومميتها ومحييها، الذي فاوت بينها في درجات سعادتها وشقاوتها، كما فاوت بينها في مراتب علومها وأعمالها". انتهى كلامه -رحمه الله.

انتفاع الميت بالأعمال التي تسبب فيها في حياته، وحكم دعاء الأحياء للأموات

أ. الأدلة على انتفاع الميت بالأعمال التي تسبب فيها في حياته:

مذهب أهل السنة والجماعة: أن الميت ينتفع بالأعمال التي تسبب بها في حياته، فهي من كسْبه الذي يلحقه بعد موته ثواب الطاعات والقربات التي حصلت بسبب ذلك الكسب، ولهذا قرر ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- وهو يشرح قول الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته: "وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات".

قال ابن أبي العز في الشرح: "اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين:

أحدهما: ما تسبب إليه الميت في حياته.

والثاني: دعاء المسلمين، واستغفارهم، والصدقة، والحج، على نزاع فيما يصل من ثواب الحج" انتهى كلامه.

والأدلة التي توضح انتفاع الميت بالأعمال التي تسبب بها في حياته أدلة قرآنية ونبوية:

أما عن أدلة القرآن: فقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم ٣٩: ٤١].

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي: كل

نفس ظلمت نفسًا بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾، وقال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أي: كما لا يحمل عنه وزر غيره كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي -رحمه الله- ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم، ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة } ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما". انتهى كلامه.

ومن الأدلة من السنة المطهرة على انتفاع الميت بالأعمال التي تسبب فيها في حياته: فالحديث الصحيح الذي رواه مسلم -رحمه الله- في صحيحه أن النبي ﷺ قال: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))، فصرح الحديث بأن هذه الأشياء الثلاثة التي عملها ابن آدم وسعى فيها في حياته، هي من كسبه، فهي بالتالي تنفعه ويلحقه ثوابها، وعملها الخيري بعد مماته.

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالى-: "وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث...)) الحديث، فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: ((إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه))، والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال

تعـــالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ [يــس: ١٢]، والعلم الذي نشره في الناس، فاقتدى به الناس بعده هو أيضًا من سعيه وعمله. وثبت في الصحيح: ((مَن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَن تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا))". انتهى كلام ابن كثير -رحمه الله.

وقال شارح (العقيدة الطحاوية) -رحمه الله-: "اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين:

أحدهما: ما تسبب إليه الميت في حياته.

والثاني: دعاء المسلمين واستغفارهم له، والصدقة والحج على نزاع فيما يصل من ثواب الحج؛ فعن محمد بن الحسن: "أنه إنما يصل إلى الميت ثواب النفقة، والحج للحاج" وعند عامة العلماء: ثواب الحج للمحجوج عنه، وهو الصحيح، واختلف في العبادات البدنية كالصوم والصلاة، وقراءة القرآن والذكر؛ فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها، وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء ألبتة، لا الدعاء ولا غيره، وقولهم مردود بالكتاب والسنة؛ لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم: ٣٩] وقوله: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يــس: ٥٤] وقولــه: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو لد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده)) فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة، وما لم يكن تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه". انتهى كلامه.

ب- مذهب أهل السنة في حكم الدعاء والانتفاع به، مع ذكر الأقوال في انتفاع الأموات بدعاء الأحياء، والراجح من ذلك:

إن مذهب أهل السنة والجماعة -رحمهم الله تعالى- أن الدعاء للميت يصله وينفعه، وذلك لحديث: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث)) الحديث الصحيح السابق، وذكر منها: ((أو ولد صالح يدعو له))، ومن الأدلة على ذلك الصلاة على الميت ودعاء المصلين للجنازة، وكذلك زيارة القبور، والسلام على أهلها والدعاء لهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في جوابه لمن سأل عن الآية: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] وعن حديث: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله)): هل يقتضي ذلك أن الميت إذا مات لا يصل إليه شيء من أفعال البر؟

قال -رحمه الله-: "ليس في الآية ولا في الحديث أن الميت لا ينتفع بدعاء الخلق له، وبما يُعمل عنه من البر، بل أئمة الإسلام متفقون على انتفاع الميت بذلك. وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام، وقد دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، فمن خالف ذلك كان من أهل البدع، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ﴾ [غافر: ٧- ٩] فقد أخبر سبحانه أن الملائكة يدعون للمؤمنين بالمغفرة، ووقاية العذاب، ودخول الجنة، ودعاء الملائكة ليس عملًا للعبد.

ومن السنن المتواترة التي من جحدها كفر: صلاة المسلمين على الميت، ودعاؤهم له في الصلاة، وكذلك شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة، فإن السنن فيها متواترة، بل قد ثبت أنه يشفع لأهل الكبائر، وشفاعته دعاؤه وسؤاله الله تبارك وتعالى، فهذا وأمثاله من القرآن والسنن المتواترة، وجاحد مثل ذلك كافر بعد قيام الحجة عليه.

والأحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة، مثل ما في الصحاح عن ابن عباس } : ((أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إن أمي توفِّيت، أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال: نعم، قال: إن لي مخرفًا -أي: بستانًا- أشهدكم أني تصدقت به عنها)) وفي (الصحيحين) عن عائشة < : ((أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إن أمي افتتلت نفسها ولم توصِ -أي: ماتت- ولو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: نعم)) وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة < : ((أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إن أبي مات ولم يوصِ، أينفعه إن تصدقت عنه؟ قال: نعم)).

والأئمة اتفقوا على أن الصدقة تصل إلى الميت، وكذلك العبادات المالية كالعتق. وإنما تنازعوا في العبادات البدنية: كالصلاة، والصيام، والقراءة، ومع هذا في (الصحيحين) عن عائشة < عن النبي ﷺ قال: ((مَن مات وعليه صيام صام عنه وليه))، وفي (الصحيحين) عن ابن عباس } : ((أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن أمي ماتت وعليها صيام نذر؟ قال: أرأيت إن كان على أمك دين فقضيته، أكان يؤدي ذلك عنها؟ قالت: نعم، قال: فصومي عن أمك)).

فهذه الأحاديث الصحيحة صريحة في أنه يصام عن الميت ما نذر، وأنه شبه ذلك بقضاء الدين، والأئمة تنازعوا في ذلك، ولم يخالف هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة مَن بلغته، وإنما خالفها مَن لم تبلغه، وقد تقدم حديث عمرو بأنهم إذا

صاموا عن المسلم نفعه، وأما الحج فيجزي عند عامتهم، ليس فيه إلا اختلاف شاذ.

وفي (الصحيحين) عن ابن عباس } : ((أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ فقال: حجي عنها، أرأيتِ لو كان على أمك دين أكنت قاضيته عنها؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء)).

ففي هذه الأحاديث الصحيحة أنه أمر بحج الفرد عن الميت، وبحج النذر، كما أمر بالصيام، وأن المأمور تارة يكون ولدًا وتارة يكون أخًا، وشبه النبي ﷺ ذلك بالدين يكون على الميت، والدين يصح قضاؤه من كل أحد، فدلّ على أنه يجوز أن يفعل ذلك من كل أحد، لا يختص ذلك بالولد، كما جاء مصرحًا به في الأخ، فهذا الذي ثبت بالكتاب والسنة والإجماع عِلمٌ مفصلٌ مبيّنٌ، فعلم أن ذلك لا ينافي قوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، ((وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث)) بل هذا حق، وهذا حق، فإنه إنما يستحق سعيه فهو الذي يملكه ويستحقه، كما أنه إنما يملك من المكاسب ما اكتسبه هو، وأما سعي غيره فهو حق وملك لذلك الغير لا له، لكن هذا لا يمنع أن ينتفع بسعي غيره، كما ينتفع الرجل بكسب غيره، فمن صلى على جنازة فله قيراط، فيثاب المصلي على سعيه الذي هو صلاته، والميت أيضًا يرحم بصلاة الحي عليه". انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله.

وقال شارح (العقيدة الطحاوية) -رحمه الله-: "واختلف في العبادات البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر؛ فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها،

واستدل المقتصرون على وصول العبادات التي تدخلها النيابة كالصدقة والحج بأن النوع الذي لا تدخله النيابة بحال كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن يختص ثوابه بفاعله لا يتعداه، كما أنه في الحياة لا يفعله أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولا ينوب فيه عن فاعله غيره، والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح؛ أما الكتاب فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء، وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة، والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة ومستفيضة، وكذا الدعاء له بعد الدفن. وكذا الدعاء لهم عند زيارة قبورهم". انتهى كلامه.

إذًا يتضح مما تقدم أن الدعاء يصل للميت وينتفع به، ومن أدلة ذلك ما لم يتقدم ذكره قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: ((ما من رجل يدعو لأخيه دعوة إلا وكل الله به ملكًا، كلما دعا لأخيه دعوة قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثله)).

قيام الساعة وأشراطها

عناصر الدرس

الحكمة في إخفاء علم قيام الساعة، وذكر أقسام أشراطها

أ. الحكمة في إخفاء علم قيام الساعة:

لقد أخفى الله ﷻ علم وقت قيام الساعة، فلم يُطلع على ذلك ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا، فضلًا عن غيرهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ ﴾ [لقمان: ٣٤] وقال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقد سُئل الرسول ﷺ عن الساعة؛ فقال: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل)) وكان هذا السائل جبريل متمثلًا في صورة بشر، فإذا كان أعلى الملائكة منزلة وهو جبريل، وأعلى البشر منزلة وهو محمد ﷺ لا يعلمان متى تكون، فحريٌّ بأن لا يعرف أحدٌ غيرهما وقت وقوعها.

ويتضح مما سقناه من الأدلة أن معرفة الوقت الذي تكون فيه الساعة لا يعرفه إلا رب العزة والجلال، وأن هذه الساعة تأتي بغتة لا يشعر الخلق بها، وأن الرسول ﷺ لا يعلم وقت وقوعها؛ لأنها من مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله ﷻ ولهذا ثبت في (صحيح البخاري) من حديث ابن عمر { أن النبي ﷺ قال: ((مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ ﴾ الآية)).

ولعل السر والحكمة في إخفاء علم وقت قيام الساعة هو أن يجتهد المرء في الطاعة مدة حياته، ويبتعد عن المعصية؛ لأنه لا يدري متى يفجؤه أحد أمرين: إما

الموت أو قيام الساعة، وهذا كإخفاء معرفة العبد مدة حياته ووقت وفاته، وكإخفاء معرفة ليلة القدر في شهر رمضان، وكإخفاء ساعة الإجابة من يوم الجمعة.

يقول الإمام الشوكاني -رحمه الله-: "فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها في الوقت المعين لذلك، ثم أمره الله أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: علمها باعتبار وقوعها عند الله لا يعلمها غيره، ولا يهتدي إليها سواه، وفي استئثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة، وتدبير بليغ، كسائر الأشياء التي أخفاها الله واستأثر بعلمها"، انتهى كلامه.

وقال السفّاريني -رحمه الله-: "ولما كان أمر الساعة شديدًا، وهولها مزيدًا، وأمرها بعيدًا كان الاهتمام بشأنها أكثر من غيرها، ولهذا أكثر النبي ﷺ من بيان أشراطها وأماراتها، وأخبر عما بين يديها من الفتن البعيدة والقريبة، ونبّه أمته وحذرهم ليتأهبوا لتلك العقبة الشديدة، ثم اعلم أن وقت مجيء الساعة مما انفرد الله بعلمه، وإنما أخفاه تعالى لأنه أصلح للعباد لئلا يتباطئوا عن التأهب والاستعداد، كما أن إخفاء وقت الموت أصلح لهم وأنفع، وقد انتدب جماعة من العلماء على تعيين قربها وزمن كونها ومجيئها، واستدلوا بأحاديث غير صحيحة، وهذا أيضًا مردود؛ لأن كل من تكلم بشيء من ذلك فهو ظنٌّ وحسبان لا يقوم عليه برهان". انتهى كلامه.

وقال السيد سابق -رحمه الله-: "وقيام الساعة أو اليوم الآخر مما استأثر الله بعلمه، فلم يُطْلع عليه أحدًا من خلقه، لا نبيًّا مرسلًا، ولا ملكًا مقربًا، ولقد كان الناس يسألون عنها رسول الله ﷺ ويلحفون في المسألة، فأمره الله أن يرد علمها إليه وحده: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧] عن ابن عمر } أن

النبي ﷺ قال: ((مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤]. قال الألوسي في تفسيره: وإنما أخفى الله سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك، فإنه أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أن إخفاء الأجل الخاص بالإنسان كذلك، ولو قيل: بأن الحكمة التكوينية تقتضي ذلك أيضًا لم يبعد". انتهى كلامه -رحمه الله.

ب- أقسام أشراط الساعة:

لقد أخفى الله ﷻ وقت وقوع الساعة عن عباده، لكنه أعلمهم بأمارات وعلامات تدل على قرب وقوعها، وقد سمى القرآن الكريم هذه الأمارات بأشراط الساعة، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد: ١٨].

يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "قال الطيبي: الآيات أمارات الساعة؛ إما على قربها وإما على حصولها، فمن الأول: الدجال، ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، والخسف، ومن الثاني: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس". انتهى كلامه.

وقد وردت أحاديث كثيرة، عدد فيها رسول الله ﷺ جملةً من أشراط الساعة، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر

الفتن، ويكثر الهرج -وهو القتل- وحتى يكثر فيكم المال، فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به -أي: لا حاجة لي- وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨])).

وهذه الأشراط المذكورة في الآيات والأحاديث كثيرة جدًّا.

يقول الدكتور عمر الأشقر: "وهذه الأشراط التي ذكرها الرسول ﷺ في هذه الأحاديث، وفي أحاديث أخرى كثيرة، قسّمها أهل العلم إلى قسمين: علامات صغرى، وعلامات كبرى، والعلامات الصغرى يمكن تقسيمها إلى قسمين: قسم وقع، وقسم لم يقع بعد، والذي وقع قد يكون مضى وانقضى، وقد يكون ظهوره ليس مرة واحدة، بل يبدو شيئًا فشيئًا، وقد يتكرر وقوعه وحصوله، وقد يقع منه في المستقبل أكثر مما وقع في الماضي؛ ولذلك سنعقد لعلامات الساعة أربعة فصول:

الأول: العلامات الصغرى، التي وقعت وانقضت.

الثاني: العلامات الصغرى، التي وقعت ولا تزال مستمرة، وقد يتكرر وقوعها.

الثالث: العلامات الصغرى التي لم تقع بعد.

الرابع: العلامات الكبرى". انتهى كلامه.

وقسم السفاريني -رحمه الله تعالى- أشراط الساعة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو الذي ظهر وانقضى.

القسم الثاني: ظهر وما زال يظهر بكثرة.

القسم الثالث: العلامات الكبرى التي تعقبها الساعة.

يقول السفاريني: "ثم اعلم أن أشراط الساعة وأماراتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم ظهر وانقضى، وهي الأمارات البعيدة، وقسم ظهر ولم ينقضِ، بل لا يزال في زيادة، حتى إذا بلغ الغاية ظهر القسم الثالث، وهي الأمارات القريبة الكبيرة التي تعقبها الساعة، وأنها تتابع كنظام خرزات انقطع سلكها". الخرزات: أي حبات السبحة، فإذا انقطع السلك فإنها تسقط متتالية من غير تريث". انتهى كلامه.

ذكر بعض أشراط الساعة القريبة من قيامها وأدلتها، وذكر ما وقع من تلك الأشراط والعلامات

أ- ذكر الأشراط القريبة من قيام الساعة وأدلتها:

نقصد بالأشراط القريبة من قيام الساعة العلامات الكبرى التي تدل على قرب قيام الساعة، وهذه العلامات كثيرة ومشهورة، فقد وردت في الآيات والأحاديث الصحيحة، لكن المشكل في أمرها هو ترتيبها؛ فقد وردت في بعض النصوص مرتبة ترتيبًا يختلف عن ترتيبها في نصوص أخرى.

يقول الإمام الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته: "ونؤمن بأشراط الساعة؛ من خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم # من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض من موضعها".

ويقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- في شرحه لـ(عقيدة الطحاوي): "وعن حذيفة بن أُسيد قال: ((اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال: ما

تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، فقال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات؛ فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)).

وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيرًا من الدنيا وما فيها))، ثم يقول أبو هريرة: "اقرءوا إن شئتم: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩]".

وأحاديث الدجال، وعيسى ابن مريم # ينزل من السماء ويقتل الدجال، ويخرج يأجوج ومأجوج في أيامه بعد قتله الدجال، فيهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة، ببركة دعائه عليهم.

وأما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وروى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن مَن عليها، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل))، وروى مسلم عن عبد الله بن

عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبًا)) أي: أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال، ونزول عيسى # من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، كل ذلك أمور مألوفة لأنهم بشر، مشاهدة مثلهم مألوفة، أما خروج الدابة على شكل غريب غير مألوف، ثم مخاطبتها الناس، ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر، فأمرٌ خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية" انتهى كلامه.

ونقل الحافظ ابن حجر -رحمه الله- عن الحاكم أبي عبد الله أنه قال: "الذي يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة، ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو الذي يقرب منه، قلت -والكلام للحافظ ابن حجر-: والحكمة في ذلك أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة، فتخرج الدابة تميّز المؤمن من الكافر؛ تكميلًا للمقصود من إغلاق باب التوبة، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس، كما تقدم في حديث أنس في بدء الخلق" انتهى كلامه.

وفيما يلي سردٌ لأشراط الساعة القريبة منها، أو ما يُطلِق عليه بعض أهل العلم العلامات الكبرى مع أدلتها:

أولا: الدخان:

من الآيات العظيمة والدلائل الكبرى على قيام الساعة: دخانٌ يغشى الناس، ويمكث في الأرض أربعين يومًا، يأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام، ويأخذ بأنفاس الكفار فينتفخون حتى يخرج من مسامعهم، والعياذ بالله.

ودليل هذه الآية قول الله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الدخان: ١٠، ١١]، ومن السنة ما مر معنا في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ دخل على أصحابه وهم يتذاكرون أمر الساعة، فقال: ((إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان...)) الحديث، ويرى ابن مسعود > وطائفة أن هذه الآية قد مضت وانقضت في أيام قحط قريش وجدبهم بمكة، لما آذوا النبي ﷺ فدعا عليهم بالقحط والجدب، فكانوا من الجوع ينظرون إلى السماء فيخيل إليهم أنهم يروا هيئة كالدخان.

ثانيًا: خروج الدجال:

وفتنة الدجال من أعظم الفتن التي تمر على البشرية؛ فلذلك حذر كل نبي أمته من الدجال، ودليل هذه الآية ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس > أن النبي ﷺ قال: ((ما بُعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب: كافر)).

ثالثًا: ظهور المهدي:

وخلاصة القول فيه: أنه سيظهر في آخر الزمان رجلٌ اسمه محمد بن عبد الله، أو أحمد بن عبد الله، وأنه من آل بيت رسول الله ﷺ من ولد فاطمة > وأنه يشبه رسولنا محمد ﷺ في الخُلُق ولا يشبهه في الخَلق، وأنه يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت ظلمًا وجورًا، وأنه يقيم شريعة الإسلام ويحيي ما اندثر من سنة رسول الله ﷺ وأن الإسلام تعلو كلمته وينتشر في عهده، وينتشر الرخاء في عهده ويكثر المال؛ لأن هذا المهدي يحثو المال حثوًا، ولا يعده عدًّا، وأنه يمكث سبع سنين، ثم يخرج الدجال، ثم ينزل عيسى # فيتعاون عيسى مع المهدي على قتل الدجال، ثم يموت المهدي فيصلي عليه المسلمون.

رابعًا: نزول عيسى ابن مريم # :

وقد أشار الحق -تبارك وتعالى- في كتابه إلى أن عيسى سينزل في آخر الزمان، وأن نزوله علامة على قرب الساعة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، كما أخبر الله تعالى أن أهل الكتاب في ذلك الزمان سيؤمنون به: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، ودليل هذه الآية من السنة ما رواه مسلم في صحيحه عن جابر > أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعالَ صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة)).

خامسًا: خروج يأجوج ومأجوج:

وهما أمتان كثيرتا العدد، من ذرية آدم # وثبت في الكتاب العزيز أن السدّ الذي أقامه ذو القرنين مانعهم من الخروج: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، وأخبر الحق -تبارك وتعالى- أن ذلك سيستمر إلى آخر الزمان، عندما يأتي وعد الله ويؤذن لهم بالخروج، عند ذلك يُدكّ السد ويخرجون على الناس أفواجًا كثيرة كموج البحر، وذلك قرب الساعة والنفخ في الصور، وورد أن الله ﷻ بعد أن يحمي عيسى ابن مريم ومن معه من المسلمين يرسل على يأجوج ومأجوج آفة تقتلهم بسرعة، وهي دودة تكون في رقابهم، فيريح الله المؤمنين من فتنتهم، وقد جاءت قصتهم في سورة "الكهف" وأن ذا القرنين في تطوافه في الأرض بلغ بين السدين، فوجد من دونهما قومًا لا يكادون يفقهون قولًا، فاشتكوا له من الضرر الذي يلحق بهم من يأجوج ومأجوج،

وطلبوا منه أن يقيم بينهم وبينه سدًّا يمنع عنهم فسادهم، فاستجاب لطلبهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ۝٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ۝٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ۝٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۝٩٨ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ [الكهف: ٩٣: ٩٩].

سادسًا: دروس الإسلام ورفع القرآن وفناء الأخيار:

دروس الإسلام: أي أنه يُنسى فلا يذكر ولا تطبق تعاليمه.

من علامات الساعة الكبرى وبعد الانتشار العظيم للإسلام في مشارق الأرض ومغاربها يضعف الإسلام مرة أخرى وينحسر، ويترعرع الشر، ويُرفع القرآن الكريم، ففي (سنن ابن ماجه) والحاكم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يدرس الإسلام كما يدرس وشيّ الثوب -أي: جدته ولونه وجماله- حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليُسرى على كتاب الله في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة "لا إله إلا الله" فنحن نقولها)).

سابعًا: عبادة الأوثان وعودة البشرية إلى الجاهلية الأولى:

وذلك أنه إذا درس الإسلام ونُسي، ورُفع القرآن، وخرجت الريح التي تقبض روح كل من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، عادت البشرية إلى ما كانت عليه في

الجاهلية، فتطيع الشيطان، وتعبد الأوثان، ودليل هذه العلامة ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: ((ثم يرسل الله ريحًا باردة من قِبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، فيبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: ما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارّة أرزاقهم، حسنٌ عيشهم، ثم يُنفخ في الصور)).

ثامنًا: هدم الكعبة على يدي ذي السويقتين:

فقد ثبت أنه في آخر الزمان يأتي خبيثٌ من الحبشة يعرف بساقيه الرقيقتين، وهي صفة في السودان غالبًا، فيهدم الكعبة حجرًا حجرًا، ففي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة > أن الرسول ﷺ قال: ((يخرّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة)).

تاسعًا: طلوع الشمس من مغربها:

ودليل هذه الآية العظيمة ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم، عن أبي هريرة > أن النبي ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعين، فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا)).

عاشرًا: خروج الدابة:

وهذه الدابة آية من آيات الله، تخرج في آخر الزمان، عندما يكثر الشر ويقل الخير ويعم الفساد، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسير لهذه الآية: "وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث، ولم يأتِ دليل يدل على كيفيتها ولا من أي نوع هي". انتهى كلامه.

الحادي عشر: العلامة الكبرى: النار التي تحشر الناس:

وهي آخر علامات الساعة الكبرى، التي تقع قبيل قيام الساعة، فقد ورد أنها تخرج من قعر عدن تحشر الناس إلى محشرهم، وتسوقهم إلى أرض الشام.

قال السفاريني -رحمه الله- في منظومته:

وآخر الآيات حشر النار ❖ كما أتى في محكم الأخبار

ودليل هذه العلامة ما تقدّم من حديث حذيفة بن أُسيد الغفاري > أنه ﷺ قال: ((لن تقوم الساعة حتى ترى قبلها عشر آيات، فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم # وخروج يأجوج ومأجوج، وثلاث خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب. قال: وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)).

ب- ذكر ما وقع من أشراط الساعة:

قسم بعض العلماء علامات الساعة الصغرى إلى قسمين: هما:

أولًا: علامات صغرى وقعت وانقضت.

ثانيًا: علامات صغرى وقعت ولا تزال مستمرة، وقد يتكرر وقوعها:

النوع الأول: وهو علامات الساعة التي وقعت، وهي كثيرة، منها:

١- بعثة الرسول ﷺ ووفاته:

ففي (الصحيحين) من حديث سهل بن سعد قال: ((رأيت رسول الله ﷺ قال: بإصبعيه هكذا، الوسطى والتي تلي الإبهام، وقال: بعثتُ أنا والساعة كهاتين))، وفي (صحيح البخاري) من حديث عوف بن مالك > أن النبي ﷺ ذكر أشراط الساعة فقال: ((اعدد ستًّا بين يدي الساعة، ثم ذكر في أولها: موتي...)) ﷺ.

٢- انشقاق القمر:

لقد ثبت انشقاق القمر في عهد رسول الله ﷺ آية لرسول الله ﷺ لما طلبها منه مشركو مكة. قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

٣- نار الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرى:

ففي (الصحيحين) من حديث أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز، تضيء أعناق الإبل ببصرى)).

وقد ذكر ابن كثير -رحمه الله- في تأريخ هذه النار: أنها وقعت سنة أربع وخمسين وستمائة للهجرة، وأن النار أضاءت أعناق الإبل ببصرى بالشام، وأن طلبة العلم كانوا يقرءون على ضوئها في بعض البلدان.

٤- توقف الجزية والخراج:

يقول الدكتور عمر الأشقر: "كانت الجزية التي يدفعها أهل الذمة في الدولة الإسلامية والخراج الذي يدفعه مَن يستغل الأراضي التي فتحت في الدولة

الإسلامية من أهم مصادر بيت مال المسلمين، وقد أخبر الرسول ﷺ بأن ذلك سيتوقف، وسيفقد المسلمون بسبب ذلك موردًا إسلاميًّا مهمًّا، ففي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة < قال: قال رسول الله ﷺ: ((منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مدّها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه)) قال النووي في تعليقه على الحديث: الأشهر في معناه أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان، فيمنعون حصول ذلك للمسلمين".

ثانيًا: علامات صغرى، وقعت ولا تزال مستمرة وقد يتكرر وقوعها، وهذه كثيرة أيضًا، منها:

١- الفتوحات والحروب:

كان الرسول ﷺ يخبر الصحابة } بما سيكون من الفتوحات والانتصارات التي سيجريها الله على أيديهم أو على أيدي مَن بعدهم، قال لهم ذلك في الوقت الذي كانوا فيه مستضعفين في مكة، أو محاصرين في المدينة، يعيشون في خوف مستمر من اجتياح الأعداء، روى البخاري في صحيحه عن خباب بن الأرت قال: ((شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّد بُردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيشق بائنتين -أي: شقين أو جزأين- وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله لَيُتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)) ولقد حصل ما أخبر به الرسول ﷺ مما يدل على أن

حصوله -كما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ علم من أعلام النبوة، وعلامة من علامات قرب قيام الساعة.

٢- خروج الدجالين أدعياء النبوة:

ففي صحيح البخاري ومسلم، عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذابون، قريب من ثلاثين، كلٌّ يزعم أنه رسول الله)).

يقول الدكتور عمر الأشقر: "وقد خرج من هؤلاء عدد كبير في الماضي، ففي عهد الصحابة خرج مسيلمة الكذاب، والأسود العَنسي، وسجاح الكاهنة، وفي عصر التابعين خرج المختار الثقفي مدعيًا النبوة، ومنذ أكثر من قرن قام حسين بن علي بن المرزا عباس في إيران مدعيًا النبوة، ولُقّب بهاء الله، وأتباعه البهائية". انتهى كلامه.

٣- ظهور الفتن التي أخبر بها النبي ﷺ:

فقد حدث النبي ﷺ أصحابه عن فتن ستقع في هذه الأمة، وتكون علامة على قرب قيام الساعة، ففي سنن الترمذي -رحمه الله- من حديث أنس بن مالك > أن رسول الله ﷺ قال: ((يكون بين يدي الساعة فتنٌ كقطع الليل المظلم، يُصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي كافرًا ويصبح مؤمنًا، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا))، وأول تلك الفتن مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان > وافتراق الأمة، وكذلك فتنة الخوارج إلى يومنا هذا.

٤- إسناد الأمر إلى غيره أهله:

ففي (صحيح البخاري) عن أبي هريرة > قال: ((بينما رسول الله ﷺ في مجلس يحدّث القوم إذ جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ في

حديثه، فقال بعض القوم: سمع ما قاله فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: أين السائل عن الساعة؟ قال: هأنذا يا رسول الله، قال: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: وكيف إضاعتها؟ قال: إذا وسِّد الأمر -أي: إذا وكِّل- إلى غيره أهله فانتظر الساعة)).

٥- فساد المسلمين:

حيث تُرفع الأمانة، وهذا الرفع تدريجي، وقد بدأ يظهر في الأمة.

٦- ولادة الأمة ربتها، وتطاول الحفاة العراة رعاة الشاء في البنيان:

فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب > وسؤال جبريل للنبي ﷺ عن الساعة؛ فقال النبي ﷺ: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)). فالمراد بالحفاة العراة رعاء الشاء: العرب، وقد حصل، والمراد بولادة الأمة ربتها: أن يكون الأبناء أمهاتهم أمهات أولاد، وذلك لكثرة السراري، فإن ولد الأمة من سيدها بمنزلة سيدها، وقيل: معناه أن يلدن الملوك، فتكون أمه من جملة رعيته، وهو سيدها، وكل هذا قد وقع، فقد كثر تسري الأحرار من الإماء بملك اليمين، وقد وصل بعض هؤلاء الأبناء إلى الملك.

٧- تداعي الأمم على الأمة الإسلامية:

حيث يتكالب أهل الكفر على المسلمين، ففي (مسند الإمام أحمد) و(سنن أبي داود) وغيرهما، من حديث ثوبان > قال: قال رسول الله ﷺ: ((يُوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة

نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت))، وقد وقع هذا التداعي عبر التاريخ أكثر من مرة، في ظهور التتار، وتمزيق الخلافة الإسلامية على يد الاستعمار، والآن على يد قوى الشر؛ لنهب خيرات البلدان الإسلامية.

٨- الخسف والقذف والمسخ الذي يعاقب الله به أقوامًا من هذه الأمة:

يقع في هذه الأمة من أنواع البلاء الخسف والقذف والمسخ، بسبب تعاطيها للذنوب والمعاصي علانية، كشرب الخمر، ولبس الرجال الحرير، وتعاطي الزنا، وأكل الربا، ونحو ذلك من الفساد الذي يحصل بسبب استحلال الحرام.

ففي (معجم الطبراني الكبير) بإسناد صحيح عن سهل بن سعد أن الرسول ﷺ قال: ((سيكون في آخر الزمان خسفٌ وقذفٌ ومسخٌ إذا ظهرت المعازف والقينات، واستحلت الحرمات))، وقد ظهرت هذه المعاصي وللأسف الشديد وانتشرت بين أبناء المسلمين، فالله المستعان.

تقرير القرآن الكريم للبعث وإمكان وقوعه

عناصر الدرس

الأدلة الشرعية والعقلية على تقرير البعث

لقد دل الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة على تقرير البعث بعد الموت، وإعادة المخلوقات نشأة أخرى للحساب والجزاء.

يقول الشيخ ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-: "الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة، فأخبر الله تعالى عنه في كتابه العزيز، وأقام الدليل عليه، وردّ على المنكرين في غالب سور القرآن؛ وذلك أن الأنبياء كلهم متفقون على الإيمان بالله، فإن الإقرار بالرب عامٌّ في بني آدم، وهو فطري، كلهم يقر بالرب، إلا من عاند، كفرعون، بخلاف الإيمان باليوم الآخر فإن منكريه كثيرون، ومحمد ﷺ لما كان خاتم الأنبياء، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين، وكان هو الحاشر المُقفِّي بيَّن تفصيل الآخرة بيانًا لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء، ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ﷺ وجعلوا هذا حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري، والقرآن بيّن معاد النفس عند الموت، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في غير موضع من القرآن الكريم، وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى، وينكرون معاد الأبدان، ويقول من يقول منهم: إنه لم يُخبر به إلا محمدٌ ﷺ على طريق التخييل، وهذا كذب. فإن القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم -عليهم السلام.

وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم فقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥]، ولما قال إبليس اللعين: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾ [ص: ٧٩- ٨١].

وأما نوح # فقال: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧، ١٨]، وقال إبراهيم # : ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ إلى آخر القصة [الشعراء: ٨٢]، وقال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية، وأما موسى # فقال تعالى لما ناجاه: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه ١٥، ١٦]، بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد، وإنما آمن بموسى، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر ٣٢، ٣٣] إلى قوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩] إلى قوله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] وقال موسى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقد أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين في آيات من القرآن، وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد، يذكر ذلك فيها في الدنيا والآخرة، وأمر نبيه ﷺ أن يقسم على المعاد فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وأخبر عن اقترابها فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وذم المكذبين بالمعاد

فقال: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام: ٣١]، ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ [النحل: ٣٨]". انتهى ما نقله ابن أبي العز -رحمه الله.

وجمع السفاريني -رحمه الله- الآيات الدالة على البعث، والصريحة في إحياء الخلق يوم القيامة وإعادتهم النشأة الأخرى؛ فقال: "وإمكان المعاد لأنه إما إيجاد ما انعدم أو جمع ما تفرق، أو حيي بعد ما أميت، وهذه كلها ممكنة، لا إحالة في شيء من ذلك أصلًا، مع ما تواتر أخبار الأنبياء والكتب السماوية، ولا سيما في القرآن العظيم والذكر الحكيم، ما لا مزيد عليه مثل: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٦]، ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس: ٥١]، ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: ٥١] ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ٣، ٤]، ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٤]، ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١]، ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم: ١٩]، والآيات في ذلك كثيرة جدًّا"، انتهى كلامه.

إذًا فالقرآن الكريم اهتم ببيان عقيدة البعث والنشور اهتمامًا كبيرًا، وشغلت الآيات التي تؤكد على إعادة الخلق مرة أخرى يوم الجزاء حيزًا كبيرًا، لأهمية هذه القضية، ولوجود المنكرين لها بدءًا من مشركي قريش الذين شككوا في إعادة الأجساد وبعثها مرة ثانية من القبور.

كما أن الأحاديث أيضًا كثيرة في بيان هذا الأمر، ففي صحيحي البخاري ومسلم من حديث ابن عباس { قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول: ((إنكم ملاقو الله حفاة عراة غرلًا)) ومعنى كلمة "غرلًا" أي: غير مختونين، كما خلقوا، ومثله في (الصحيحين) من حديث عائشة < قالت: ((فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: الأمر أشد من أن يهمهم ذلك)).

وفي (الصحيحين) عن أبي هريرة < قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما بين النفختين أربعون، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس في الإنسان شيء إلا بلي، إلا عظم واحد، وهو عجب الذنب، منه يركّب الخلق يوم القيامة)).

وفي (صحيح البخاري) عن أبي هريرة < قال: قال النبي ﷺ: ((قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد)).

إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية التي تؤكد على هذه الحقيقة، وهي أن الله ﷻ سوف يعيد هذه الخلائق، بأرواحها وأجسادها خلقًا جديدًا يوم البعث والنشور للحساب والجزاء.

وإذا كانت الآيات والأحاديث اتفقت على تأكيد هذه الحقيقة، فإن الفطرة السليمة أيضًا لا تنكر هذا الأمر، فإن الله الذي خلق هذه المخلوقات، على تنوع أشكالها وأصنافها، وجعل فيها الروح التي تسري فيها الحياة، ثم سَلب هذه

الروح عند الموت قادرٌ على إعادة كل مخلوق بشكله وهيئته مرة أخرى يوم البعث والنشور ؛ لأن القادر الذي أمره بين الكاف والنون لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والعقل السليم يقر بأن خلق الشيء وإبداعه على غير مثال سابق أهون منه إعادة المخلوق على ما كان عليه من هيئة وشكل قبل الممات.

ذكر بعض مسالك القرآن الكريم في تقرير البعث

لقد سلك القرآن الكريم مسالك عديدة في بيان إمكانية البعث وإعادة أجساد المخلوقات خلقًا جديدًا ؛ فتارة ينبّه المكذبين بالبعث إلى أن الإعادة أهون من البداءة، وتارة يمثل إعادة الله للخلائق يوم القيامة عند النشأة الأخرى، بإحياء الأرض الميتة الهامدة التي إذا نزل عليها الماء أنبتت البذر الذي كان ميتًا في طياتها، فإذا هي خضراء تهتز، فكذلك البعث والنشور، إلى غير ذلك من المسالك التي تقرب فهم مسألة البعث والحياة الأخروية للسامعين.

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- بعد أن استشهد بهذه الآية في تقرير البعث: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٧: ٩٩]، كما استشهد بالآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٩: ٥٢].

ثم بعد أن استدل ابن العز -رحمه الله- بهاتين الآيتين على تقرير القرآن الكريم لمسألة البعث وتنوع مسالكه في ذلك التقرير يقول: "فتأمل ما أجيب به من كل سؤال على التفصيل:

فإنهم قالوا: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴾؟!

فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم، فهلا كنتم خلقًا لا يفنيه الموت، كالحجار والحديد؟ وما هو أكبر في صدوركم من ذلك؟! فإن قلتم: كنا خلقًا على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقًا جديدًا، وللحجة تقدير آخر، وهو: لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما- فإنه قادر على أن يفنيكم، ويحيل ذواتكم، وينقلها من حال إلى حال، ومَن يقدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة؛ فما الذي يعجزه فيما دونها؟.

ثم أخبر أنهم يسألون سؤالًا آخر بقولهم: من يعيدنا إذا استحالت جسومنا وفنيت؟

فأجابهم بقوله: ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ ﴾.

فلما أخذتهم الحجة، ولزمهم حكمها انتقلوا إلى سؤال آخر، يتعللون به بعلل وهو قولهم: متى هو؟

فأجيبوا بقوله: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾، ومن هذا قوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلۡقَهُۥ قَالَ مَن يُحۡىِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨] إلى آخر السورة.

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها بألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز وواضح الأدلة وصحة البرهان

لما قدر، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحدٌ اقتضى جوابًا، فكان في قوله: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ ما وفى بالجواب، وأقام الحجة وأزال الشبهة، لولا ما أراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى؛ إذ كل عاقل يعلم علمًا ضروريًّا أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس ٧٩]، فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته، ومواده، وصورته، فكذلك الثاني، فإذا كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم!.

ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جوابًا عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ من الرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه- هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه؛ من إحياء العظام وهي رميم.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجلِّ الأعظم على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار كان على حمل أوقية أشد اقتدارًا؛ فقال:

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١]، فأخبر أن الذي أبدع السموات والأرض - على جلالتهما وعظم شأنها، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقهما - أقدر على أن يحيي عظامًا صارت رميمًا، فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال في موضع آخر: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر ٥٧]، وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١].

ثم أكد سبحانه ذلك وبيّنه ببيّنات أُخر، وهو أنه ليس فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلَفة، والنَّصَب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بد معه من آلة ومعين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفسُ إرادته، وقوله للمكون: "كن" فإذا هو كائن كما شاءه وأراده، ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨٣].

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦: ٤٠].

فاحتج سبحانه على أنه لا يتركه مهملًا عن الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك أشد الإباء، كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] إلى آخر السورة، فإن من نقله من النطفة إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم شق سمعه وبصره، وركّب فيه الحواس والقوى، والعظام والمنافع والأعصاب، والرباطات التي هي أشده، وأحكم خلقه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة التي هي أتم

الصور، وأحسن الأشكال كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية؟! أم كيف تقتضي حكمته وعنايته به أن يتركه سدى؟ فلا يليق ذلك بحكمته، ولا تعجز عنه قدرته.

فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب بالقول الوجيز، الذي لا يكون أوجز منه، والبيان الجليل الذي لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على أقرب منه، وكم في القرآن من مثل هذا الاحتجاج، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾ [الحج: ٥]، إلى أن قال: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [الحج: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾ [المؤمنون: ١٢]، إلى أن قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٦].

وذكر قصة أصحاب الكهف، وكيف أبقاهم موتى ثلاثمائة سنة شمسية وهي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية، وقال فيها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ ﴾ [الكهف: ٢١]" انتهى كلام شارح (العقيدة الطحاوية).

ومن مسالك القرآن الكريم في تقرير البعث، يقول الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله-: "قال الله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ [الإنسان: ١] الآيات، بل السورة كلها وجميع السور التي بعدها: "المرسلات"، و"النبأ"، و"النازعات"، و"عبس"، و"التكوير"، و"الانفطار"، و"المطففين"، و"الانشقاق"، و"الطارق"، و"الغاشية"، و"الفجر"، و"البلد"... وغيرها من السور، بل القرآن كله -من فاتحته إلى خاتمته- مملوء بذكر أحوال اليوم الآخر، وتفاصيل ما فيه، وتقرير ذلك بأصدق الأخبار، وضرب الأمثال للاعتبار، والإرشاد إلى دليل ذلك لكل امرئ بأن يعتبر في بدنه ويستدل به على إعادته،

وكذلك إحياء الأرض بعد موتها، فيحييها تعالى بالمطر فتصبح مخضرة تهتز بعد موتها بالقحط وهمودها وخمودها، واسودادها، فإذا أنزل عليها الماء اهتزّت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا يذكر إحياء الموتى بعد ذكر إحيائه الأرض؛ ليستدل من له قلب شهيد على الآجل بالعاجل، وعلى الغيب بالشهادة، فيقول ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾، ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾، ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾، ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾". انتهى كلامه.

ويقول الشيخ سيد سابق -رحمه الله-: "ولقد أورد القرآن أدلة كثيرة على البعث مستدلًا بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، ومبينًا أن الله قادرٌ على كل شيء، وعالمٌ بكل شيء، فلا تعجزه إعادة الأجسام لنفوذ قدرته، ولا يضيع منها شيء لسعة علمه: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

والإنسان وتطوره في الخلق وتحوله من حال إلى حال، والأرض وما تخرجه من نبات مظهر للعلم والقدرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥- ٧].

وإذ كان الله لم يعي بخلق السموات والأرض، ولا يزال يخلق ويرزق ويحيي ويميت، وهل يستبعد بعد هذا المشاهد المنظور أن يعيد الخلق مرة أخرى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]. إن إنكار البعث وإعادة الحياة مرة أخرى بعد هذه الدلائل البينة في الأنفس والآفاق لا معنى له.

انتهى كلام الشيخ سيد سابق -رحمه الله.

وبهذا يتبين أن القرآن الكريم لم يترك لمنكري البعث مجالًا للشك أو الحيرة في مسألة الحياة الأخروية، وإعادة الأجسام بأرواحها في النشأة الأخرى؛ لأنه سلك كل مسلك لتقريب هذه القضية إلى أفهام الناس، بضرب الأمثال والتشبيه، والتذكير بالقدرة على ما هو أعظم من إحياء الخلق وبعثهم مرة أخرى للجزاء والحساب.

منكرو البعث والرد عليهم

عناصر الدرس

منكرو البعث وبيان أقوالهم المخالفة

قسم الدكتور عمر الأشقر المكذبين بالبعث والنشور ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الملاحدة الذين أنكروا وجود الخالق، ومن هؤلاء كثير من الفلاسفة الدهرية الطبائعية، ومنهم الشيوعيون في عصرنا، وهؤلاء ينكرون صدور الخلق عن الخالق؛ فهم منكرون للنشأة الأولى والثانية، ومنكرون لوجود الخالق أصلًا.

ولا يحسن مناقشة هؤلاء في أمر المعاد؛ بل يناقَشون في وجود الخالق ووحدانيته أولًا، ثم يأتي إثبات المعاد بعد ذلك؛ لأن الإيمان بالمعاد فرع الإيمان بالله.

القسم الثاني: الذين يعترفون بوجود الخالق، ولكنهم يُكَذِّبُون بالبعث والنشور، ومن هؤلاء العرب الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وهم القائلون -فيما حكاه الله عنهم-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٧، ٦٨]، وهؤلاء يدَّعون أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يدَّعون أن قدرة الله عاجزة عن إحيائهم بعد إماتتهم، وهؤلاء هم الذين ضرب الله لهم الأمثال، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور، وأنه لا يعجزه شيء، ومن هؤلاء طائفة من اليهود يسمون بالصادوقيين، يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بتوراة موسى، وهم يكذبون بالبعث والنشور، والجنة والنار.

القسم الثالث: الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاءت بها الشرائع السماوية.

ويقول الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- : "ثم منكرو البعث على أربعة أصناف :

صنف : أنكروا المبدأ والمعاد، وزعموا أن الأكوان تتصرف بطبيعتها فتوجد وتعدِم بأنفسها ليس لها رب يتصرف فيها، إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة الدهرية والطبائعية.

والصنف الثاني : من الدهرية طائفة يقال لهم "الدورية"، وهم منكرون للخالق أيضًا، ويعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا في المعقول، وكذبوا المنقول فقبحهم الله تعالى.

وهاتان الطائفتان يعمهم قوله ﷻ : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ولهذا ورد عن السلف الصالح في هذه الآية تفسيران :

الأول : معنى قولهم : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أي : يموت الآباء ويحيى الأبناء هكذا أبدًا. وهو قول الطائفة الأولى.

والمعنى الثاني : أنهم عنوا كونهم يموتون ويحيون هم أنفسهم، ويتكرر ذلك منهم أبدًا، ولا حساب ولا جزاء، بل ولا موجِد، ولا معدِم، ولا محاسب، ولا مجازي، وهذا قول الدورية.

الصنف الثالث : الدهرية من مشركي العرب ومَن وافقهم، وهم مقرُّون بالبداءة، وأن الله تعالى ربهم وخالقهم ؛ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ومع هذا قالوا : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ [الدخان: ٣٥]، فأقرُّوا بالبداءة والمبدئ، وأنكروا البعث والمعاد، وهم المذكورون في حديث أبي هريرة الصحيح : ((وأما تكذيبه إياي ؛ فقوله : لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته)).

والصنف الرابع: ملاحدة الجهمية ومَن وافقهم، أقرُّوا بمعاد ليس على ما في القرآن، ولا فيما أخبرت به الرسل عن الله ﷻ بل زعموا أن هذا العالم يُعدم عدمًا محضًا، وليس المعاد هو؛ بل عالم آخر غيره، فحينئذٍ تكون الأرض التي تحدث أخبارها وتخبر بما عُمل عليها من خير وشر، ليست هي هذه، وتكون الأجساد التي تعذَّب وتجازَى، وتشهد على من عمل بها المعاصي ليست هي التي أعيدت؛ بل هي غيرها، والأبدان التي تنعم في الجنة وتثاب ليست هي التي عملت الطاعة، ولا أنها تحولت من حال إلى حال؛ بل هي غيرها تُبتدَأ ابتداءً محضًا، فأنكروا معاد الأبدان، وزعموا أن المعاد بداءة أخرى" انتهى كلامه.

وقد تعرض شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- لبيان أنواع منكري البعث والنشور من الملل الأخرى كاليهود والنصارى والصابئة والفلاسفة، ومنافقي هذه الأمة؛ فقال: "الذين كفروا من اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب والنكاح في الجنة، ويزعمون أن أهل الجنة إنما يتمتعون بالأصوات المطرِبة والأرواح الطيبة، مع نعيم الأرواح، وهم يقرون -مع ذلك- بحشر الأجساد مع الأرواح ونعيمها وعذابها.

وأما طوائف من الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم فيقرون بحشر الأرواح فقط، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط، وطوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون لا بمعاد الأرواح، ولا الأجساد، وقد بيَّن الله تعالى في كتابه على لسان رسوله أمرَ معادِ الأرواح والأجساد، ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك، بيانًا تامًّا، غاية التمام والكمال.

وأما المنافقون من هذه الأمة، الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسُّنة المشهورة فإنهم يحرفون الكلام عن مواضعه ويقولون: هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية، الذين قولهم مؤلف من قول المجوس

والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام، وطائفة ممن ضاهوهم: من كاتب، أو متطبِّب، أو متكلِّم، أو متصوِّف كأصحاب (رسائل إخوان الصفا) وغيرهم، أو منافق، وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان" انتهى كلامه.

ويقول الشيخ محمد السَّفَّارينيُّ -رحمه الله-: "اعلم أن المعاد الجسماني حق واقع وصدق صادق دل عليه النقل الصحيح، ولم يمنعه العقل، فوجب الإيمان به، والتصديق بموجبه لأنه جاء في السماع الصحيح المنقول، ودل عليه عند الجمهور صريح المعقول، وهو أن يبعث الله تعالى الموتى من القبور بأن يجمع أجزاءهم الأصلية، ويعيد الأرواح إليها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] إلى غير ذلك من النصوص القرآنية القطعية، والأحاديث الساطعة النبوية، وقد أنكره الطبائعيون والدهرية والملحدة، وفيه تكذيب للنقل الصريح والعقل الصحيح، على ما قرره المحققون من أهل الملة، وأنكرت الفلاسفة المعاد الجسماني، بناء على امتناع إعادة المعدوم بعينه.

ووافق المعتزلة أهل الحق على المعاد الجسماني، بناء منهم على أن المعدوم عندهم شيء؛ فلو لم يقولوا به لأحالوه؛ لأن المعدوم قبل الوجود عندهم قابل للوجود، فكذلك إذا انعدم بعد الوجود، وعند أهل السنة المعدوم نفي محض وهم -مع ذلك- قائلون بجواز إعادته.

وللمتكلمين في جواز إعادة الأَعراض قولان: جواز إعادتها، وهو الحق لأنه تعالى على كل شيء قدير. والثاني: قول الفلاسفة ومن وافقهم من المعتزلة كأبي الحسين البصري والخورازمي، والكرامية". انتهى كلامه.

الــــرد علــــى منكــــري البعــــث

يجمع بين منكري معاد الأجسام والأرواح أنهم لا يؤمنون بالوحي ولا يصدقون الأنبياء فيما جاءوا به، فهم إما فلاسفة يُحَكِّمون عقولهم القاصرة الضعيفة، أو أمم ليست على شيء من دين الأنبياء، وإما على شيء محرَّف، أو على خرافة عقدية، فجميعهم لا يصدقون الوحي، ولا يؤمنون بتعاليم الأنبياء -عليهم السلام- وأمر المعاد أمر غيبي لا تصل إلى حقيقته العقول المجردة؛ فلو لم يخبرنا الله تعالى في كتابه، أو علَّمنا رسوله ﷺ بحقيقة البعث والنشور وإمكانها لما استطاعت عقولنا مجردةً أن تحيط بتفاصيل تلك الحقيقة؛ مع أن العقول الصحيحة لا تمنع إعادة الخلق وبعثه وإحياءه حياة أخرى، لإمكان القدرة الإلهية التي لا تدرك عقولنا حدودها، فمن يؤمن بالقدرة الإلهية، سوف يصدق بقضية البعث والنشأة الأخرى؛ لأنه يُعلَم بالعقل أن إبداع الشيء وإيجاده على غير مثال سابق أصعب وأبعد من إعادته على شكله وهيئته وصفته.

والذين كذبوا بإعادة الأجسام أو الذين زعموا أن المعاد للأرواح فقط، أو أن المعاد جسماني فقط، أو نكروا المعاد بالكلية، أو توقفوا في بيان حقيقة المعاد الأخروي مخطئون جميعًا؛ لأن خالق الكون قادر على كل شيء وقد قدر على إيجادهم من عدم فإعادتهم أهون.

يقول الشيخ ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-: "والقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة لهم في المعاد خبط واضطراب، وهم فيه على قولين:

- منهم من يقول: تعدم الجواهر ثم تعاد.

- ومنهم من يقول: تفرق الأجزاء ثم تجمع.

فأورد عليهم: الإنسان الذي يأكله حيوان وذلك الحيوان أكله إنسان؛ فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا لم تعد من هذا.

وأورد عليهم: أن الإنسان يتحلل دائمًا، فما الذي يعاد؟ أهو الذي كان وقت الموت؟ فإن قيل بذلك، لزم أن يعاد على صورة ضعيفة، وهو خلاف ما جاءت به النصوص، وإن كان غير ذلك فليس بعض الأبدان بأولى من بعض! فادَّعى بعضهم أن في الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل، ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني! والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل، ليس فيه شيء باقٍ، فصار ما ذكروه في المعاد مما قوَّى شبهة المتفلسفة في إنكار معاد الأبدان.

والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء: أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال، فتستحيل ترابًا، ثم ينشئها الله نشأة أخرى، كما استحال في النشأة الأولى: فإنه كان نطفة، ثم صار علقة، ثم صار مضغة، ثم صار عظمًا ولحمًا، ثم أنشأه خلقًا سويًا، كذلك الإعادة: يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عَجْبَ الذنب، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ((كل ابن آدم يبلى إلا عَجْب الذنب، منه خلق ابن آدم، ومنه يركَّب)) و((عجب الذنب)): هو آخر فقرة من فقرات الظهر مما يلي الوركين، وفي حديث آخر: "أن السماء تمطر مطرًا كمني الرجال، ينبتون في القبور كما ينبت النبات"، فالنشأتان نوعان تحت جنس، يتفقان ويتماثلان من وجه، ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر، والمعاد هو الأول بعينه، وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم البداءة فرق، فعجْب الذنب هو الذي يبقى، وأما سائرة فيستحيل فيعاد من المادة التي استحال إليها.

ومعلوم أن من رأى شخصًا وهو صغير، ثم رآه وقد صار شيخًا علم أن هذا هو هو ذاك، مع أنه دائمًا في تحلل واستحالة، وكذلك سائر الحيوان والنبات؛ فمن

رأى شجرة وهي صغيرة، ثم رآها كبيرة، قال: هذه تلك، وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة، حتى يقال: إن الصفات المغيرة؛ لا سيما أهل الجنة إذ دخلوها؛ فإنهم يدخلونها على صورة آدم طوله: ستون ذراعًا -كما ثبت في (الصحيحين) وغيرهما- وروي أن عرضه سبعة أذرع، وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات، وهذه النشأة فانية، معرضة للآفات" انتهى كلامه.

وقال الشيخ سيد سابق -رحمه الله- في بيانه لشبهة منكري البعث ورده عليهم: "لقد استبعد طوائف من الناس هذه الحقيقة -أي: حقيقة البعث والنشور- زاعمين أنها مخالفة لما عهدوه من السنن المألوفة ومستبعدين ذلك ومستعظمين أمره؛ لأن عقولهم لا تكاد تصدِّق إعادة الحياة إلى الأجسام بعد تفرقها وتحللها، وبعد أن يتداخل بعضها في بعض؛ فإن الإنسان بعد أن يموت يتحول جسمه إلى تراب، ثم يتحول التراب إلى نبات، فيغتذي إنسان آخر بذلك النبات ثم يموت.

هكذا الإنسان يتحول كغيرة، وهكذا تتداخل الأجسام بعضها في بعض؛ فكيف يبعث الناس بعد هذا التداخل؟.

يجيب علماء العقائد عن هذه الشبهة بأن للإنسان أجزاء أصلية وأجزاء عرضيَّه، والأجزاء تبقى كما هي، والأجزاء العرضية هي التي تتحول.

وهذه الشبهة قديمة ولا تزال تتردد في صدر الكثير، والقرآن ذكر هذه الشبهة وعالجها، فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤- ٢٦].

فهؤلاء الذين استنكروا البعث رد الله عليهم بأن استبعادهم لا معنى له، لأنهم يجهلون عظمة الله، وقدرته، وعلمه وحكمته، وأنهم لا يبصرون في أنفسهم

فهم أنفسهم أدل الدلائل وأقوى الحجج على نفي ما ينكرونه من البعث، فالله أحياهم أولًا، وأماتهم ثانيًا، ولا تزال القدرة صالحة لإحيائهم مرة، وجمعهم مرة أخرى يوم القيامة، فأي استبعاد في هذا؟!.

والناس يختلفون عند البعث اختلافًا كبيرًا حسب أعمالهم، فالذين صلحت عقائدهم وأعمالهم، وزكت نفوسهم يكونون أكمل أجسادًا وأرواحًا، والذين خبثت أعمالهم، وفسدت عقائدهم يكونون أنقص أجسادًا وأرواحًا.

فعن أبي هريرة > أن الرسول ﷺ قال: ((يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف ركبان، وصنف على وجوههم. قيل: يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك)).

وفي الحديث يقول الرسول ﷺ: ((يحشر المتكبرون والمتجبرون يوم القيامة في صور الذر، تطؤهم الناس، لهوانهم على الله ﷻ)) وروى مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يبعث على كل عبد ما مات عليه))، أي: إن من مات على خير بُعث على حال سارة، ومن مات على شر بعث على حال شنيعة.

ومع كون البعث بالأجساد والأرواح، إلا أن القوى الروحية تكون هي القادرة على التصرف في الأجساد، فتستطيع قطع المسافات البعيدة في أقصر مدة، والتخاطب بالكلام بين أهل الجنة والنار، ويكون مثلهم في ذلك مثل الملائكة والجن في قدرتها على التشكل، وظهورها في أجساد تأخذها من مادة الكون، وقد ثبت ذلك ثبوتًا علميًّا، كما تقدم في مسألة الروح" انتهى كلامه.

وقال الشيخ السفاريني -رحمه الله- في رده على المنكرين لبعث الأجساد، وأن هذا البعث هل يسمى إعادة بعد تفرق أم بعد عدم؟: "اختلف الناس هل البعث إعادة بعد تفريق، أو إيجاد معدوم؟ قال عكرمه -رحمه الله-: إن الذين يغرقون

في البحر وتقتسم لحومهم الحيتان، ولا يبقى منهم شيء إلا العظام فتلقيها الأمواج إلى الساحل، فتمكث حينًا، ثم تصير نخرة، ثم تمر بها الإبل فتأكلها، ثم تسير الإبل فتبعر، ثم يجيء قوم فينزلون فيأخذون ذلك البعر، فيوقدونه، ثم تخمد تلك النار فتجيء الريح فتلقي ذلك الرماد على الأرض، فإذا جاءت النفخة، فإذا هم قيام ينظرون. يخرج أولئك وأهل القبور سواء".

قال العلامة الشيخ مرعي -رحمه الله-: "قال العلماء: إن الله تعالى يجمع ما تفرق من أجساد الناس من بطون السباع وحيوانات الماء، وبطن الأرض، وما أصاب النيران منها بالحرق، والمياه بالغرق وما أبلته الشمس، وذرته الرياح، فإذا جمعها، وأكمل كل بدن منها، ولم يبقَ إلا الأرواح نفخ إسرافيل # في الصور فأرسلها بنفخة من ثقب الصور، فترجع كل روح إلى جسدها، فإذا هم قيام ينظرون".

والحاصل: أن إعادة الأجسام حق يجب الإيمان به، ثم هذه الإعادة هل هي المعدوم المحض، أو التفريق المحض، والمشهور أنه جمع متفرق، والأصح أنه إيجاد بعد عدم، ونص عليه علماء السنة، وكذا المعتزلة، وهو مذهب المحققين...

وقيل: نمنع إعادة الأعراض مطلقًا كما ذهب إليه بعض الأشاعرة، وذهب أكثر المعتزلة إلى امتناع إعادة الأعراض التي لا تبقى كالأصوات، والإرادات لاختصاصها عندهم بالأوقات.

وقسموا الباقية إلى ما يكون مقدورًا للعبد فمنعوا إعادتها، وإلى ما لا يكون مقدورًا للعبد فجوزوا إعادتها.

وقد قال ابن العربي في (سراج المريدين) -رحمه الله- والقرطبي في (تذكرته) -رحمه الله-: "الذي عند أهل السنة أن تلك الأجساد الدنيوية تعاد بأعيانها، وبأعراضها، بلا خلاف بينهم" انتهى كلام القرطبي -رحمه الله.

النفخ في الصور وما يلقاه الخلق في المحشر من الأهوال

عناصر الدرس

أدلة النفخ في الصور، مع ذكر الاستشكال الحاصل في حديث: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة)) والجواب عليه

أ. أدلة النفخ في الصور:

قبل أن نذكر أدلة النفخ في الصور من الكتاب والسنة يحسن بنا أن نذكر المراد بالصور؛ فالصور -في لغة العرب-: القرن، فقد فسره الرسول ﷺ بما تعرفه العرب في لغتها بأنه القرن؛ ففي الحديث الذي رواه أهل السنن: عن عبد الله بن عمرو بن العاص > قال: ((جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: الصور قرن ينفخ فيه)) وذكر البخاري -رحمه الله- أن مجاهدًا -رحمه الله- قال: "الصور كهيئة البوق".

فمن الأدلة على النفخ في الصور: قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٤٩، ٥٠].

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير آية "الزمر"، وهي قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨] يقول -تبارك وتعالى- مخبرًا عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة؛ فقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، كما جاء مصرحًا به مفسرًا في حديث الصور

المشهور ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولًا، وهو الباقي آخرًا بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦] ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه، فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]: أنا الذي كنت وحدي وقد قهرت كل شيء وحكمت بالفناء على كل شيء.

ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ أي: أحياء بعد ما كانوا عظامًا ورفاتًا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] انتهى كلامه.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "والقرآن قد أخبر بثلاث نفخات:

- نفخة الفزع، ذكرها في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

- ونفخة الصعق والقيام، ذكرها في قول: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ انتهى كلامه.

وقد جاءت الأحاديث مصرحة بالنفخ في الصور؛ ففي (صحيح البخاري) و(مسلم): عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ما بين النفختين أربعون)). قالوا: يا أبا هريرة؛ أربعون يومًا؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهرًا. قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت.

وفي (صحيح مسلم) عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أنه سمع رسول الله ﷺ: يقول: ((ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتًا، ورفع ليتًا، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيُصعق، ويُصعق الناس، ثم يرسل الله -أو قال: يُنزل الله- مطرًا، كأنه الطل -أو الظل، نعمان الشاك، أي: راوي الحديث- فتنبت منه أجساد الناس، ثم يُنفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون)).

ومعنى: ((أصغى ليتًا، ورفع ليتًا))، أي: مد عنقه للاستماع.

وأخرج البيهقي بسند قوي عن ابن مسعود موقوفًا قال: "ثم يقوم الملك الصور بين السماء والأرض، فينفخ فيه -والصور قرن- فلا يبقى خلق في السموات ولا في الأرض إلا مات إلا من شاء ربك، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون".

وروى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة > قال: قال النبي ﷺ: ((يصعق الناس حين يصعقون، فأكون أول مَن قام، فإذا موسى آخذ بالعرش، فما أدري أكان فيمن صعق؟!)).

وروى الإمام أحمد من حديث عبد الله: عن أبي سعيد الخدري > أن النبي ﷺ قال: ((كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه -أي: وضعه في فمه- وأصغى سمعه، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر، فقالوا: يا رسول الله: وما تأمرنا؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)).

وبالجملة؛ فإن النفخ في الصور ثابت بنصوص الكتاب والسنة وكلام أهل العلم؛ لأن هذه المسألة من المسائل الغيبية التي لا مجال لمعرفة تفاصيلها، وكيفية النفخ في الصور، ومَن النافخ إلا عن طريق الوحي. والله تعالى أعلم.

ب- بيان الاستشكال الحاصل في حديث: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة يوم الطور؟!)):

والجواب عليه: هذا الحديث رواه الإمام البخاري -رحمه الله- في صحيحه مطولًا من حديث أبي هريرة > قال: ((استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود؛ فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين. فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين. قال: فغضب المسلم عند ذلك فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم؛ فقال رسول الله ﷺ: لا تخيروني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان موسى فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله ﷻ؟!)).

والاستشكال: هل هذا الذي تحدث عنه النبي ﷺ صعق وغشي يحصل بعد البعث أو هو النفخة الأولى التي يموت بسببها كل مخلوق في السماء والأرض إلا من شاء الله وهو المستثنى في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- لحل هذا الإشكال بعد أن أورد الحديث السابق: "فإن قيل: كيف تصنعون بقوله في الحديث: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش)).

قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث، فركب بين اللفظين، فجاء هذان الحديثان هكذا: أحدهما: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق))، كما تقدم، والثاني: ((أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة)) فدخل على

الراوي هذا الحديث في الآخر... وكذلك اشتبه على بعض الرواة فقال: ((فلا أدري؛ أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ؟)).

والمحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول، وعليه المعنى الصحيح، فإن الصعق يوم القيامة لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء، فموسى # إن كان لم يصعق معهم، فيكون قد جوزي بصعقة يومِ تجلَّى ربه للجبل، فجعله دكًّا، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضًا عن صعقة الخلائق لتجلي ربه يوم القيامة؛ فتأمل هذا المعنى العظيم، ولا تهمله". انتهى كلامه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل ما استثناه الله، فإن الله أطلق في كتابه... والنبي ﷺ قد توقف في موسى، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا؟ فإذا كان النبي ﷺ لم يخبر بكل من استثنى الله لم يمكنَّا نحن أن نجزم بذلك"، انتهى كلامه.

بيان ما ينال الخلق في المحشر من الأهوال، والأرض التي يقفون عليها، ومدة وقوفهم، والجمع بين قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وبيان ما جاء في الحديث: ((ليس أحد يحاسب إلا هلك))

أ- بيان ما ينال الخلق في المحشر من الأهوال، والأرض التي يقفون عليها، ومدة وقوفهم:

لقد وصف القرآن الكريم بشيء من التفصيل بعض معالم أهوال يوم القيامة؛ وكذلك بيَّن رسوله المصطفى ﷺ في كثير من أحاديثه الشريفة، فمن أهوال يوم القيامة: الدمار الكوني الذي يصيب الأرض وجبالها، والسماء ونجومها،

وشمسها وقمرها، ودليل هذا الدمار الكوني الشامل الرهيبأن الأرض تُزلزل وتُدك، وأن الجبال تسير وتنسف، والبحار تفجَّر وتُسجَّر، والسماء تتشقق وتمور، والشمس تُكوَّر وتذهب، والقمر ينخسف، والنجوم تنكدر ويذهب ضوؤها وينفطر عقدها.

فالله ﷻ يقبض الأرض بيده يوم القيامة، ويطوي السموات بيمينه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧] والأرض يدكها دكًّا؛ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٣، ١٤] والسماء تنفطر وتتشقق، ونجوم السماء تنفطر وتتناثر؛ قال تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار: ١، ٢].

وقد تحدث الشيخ السَّفارينيُّ -رحمه الله- عن أهوال يوم القيامة وما يصيب الناس فيه فقال: "واعلم أن ليوم الوقوف أهوالًا عظيمة، وشدائد جسيمة تذيب الأكباد وتذهل المراضع وتشيب الأولاد، وحق ثابت ورد به الكتاب والسنة، وانعقد عليه الإجماع وهو يوم القيامة.

وقد اختُلف في تسمية ذلك اليوم بيوم القيامة، فقيل: لكون الناس يقومون من قبورهم، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ [المعارج: ٤٤] وقيل: لوجود أمور المحشر والوقوف ونحوهما فيه، وقيل: لقيام الناس لرب العالمين، كما روى مسلم في صحيحه: عن ابن عمر { مرفوعًا: ((﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، قال: يقوم الناس أحدهم في رشحه إلى نصف أذنيه)) -أي: في عرقه. قال ابن عمر { : يقومون مائة سنة، ويروى عن كعب: يقومون ثلاثمائة سنة.

وروى أبو يعلى وابن حبان في صحيحه: عن أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ : مقدار نصف يوم من خمسين ألفًا، فيهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب)) وروى الإمام أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد الخدري > عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة. فقيل: ما أطول هذا اليوم! فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده؛ إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة)).

وعن عبد الله بن مسعود > عن النبي ﷺ قال: ((يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قيامًا أربعين سنة، شاخصة أبصارهم، ينتظرون فصل القضاء)) الحديث.

وعن أبي هريرة: "يقومون سبعين سنة"، وقيل: "مقداره ألف سنة".

رواه الطبراني من حديث ابن عمر } مرفوعًا، ولفظه: ((أما مقام الناس بين يدي رب العالمين فألف سنة، لا يؤذن لهم)) وأخرج البيهقي عنه: "يمكثون ألف عام في الظلمة لا يتكلمون".

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة > مرفوعًا: ((يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم)).

وأخرج مسلم عن المقداد > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إذا كان يوم القيامة أُدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين، قال: فتصهرهم الشمس، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجامًا)).

وقال ابن مسعود > : الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها كواعبها وأكوابها، والذي نفس عبد الله بيده؛ إن الرجل ليفيض عرقًا حتى يسيخ في الأرض قامته، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسه الحساب، قالوا: مم ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس"، انتهى كلامه.

وأما الأرض التي يقف عليها الخلائق للحساب يوم القيامة؛ فهي أرض أخرى غير هذه الأرض قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله-: "وتبدل السموات غير السموات، وهذا التبديل تبديل صفات لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تُسوَّى، وتُمد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومَعْلَم فتصير قاعًا صفصفًا، لا ترى فيه عوجًا ولا أمتًا، وتكون السماء كالمهل من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه"، انتهى كلامه.

وفي (صحيحي البخاري ومسلم) عن سهل بن سعد > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي)) قال سهل: معنى: ((عفراء)): خالصة البياض، و((النقي)): أي الدقيق النقي الخالص من الغش والنخال.

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) -رحمه الله-: "قال عياض: المراد أنها ليس فيها علامة سكنى، ولا بناء، ولا أثر، ولا شيء من العلامات التي يُهتدى بها في الطرقات؛ كالجبل، والصخرة البارزة، وفيه تعريض بأرض الدنيا، وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها، وفيه إشارة إلى أن أرض الموقف أكبر من هذه الأرض الموجودة جدًّا، والحكمة في الصفة المذكورة أن ذلك اليوم يوم عدل وظهور

حق ؛ فاقتضت الحكمةأن يكون المحل الذي يقع فيه ذلك طاهرًا عن عمل المعصية والظلم ؛ وليكون تجليه سبحانه على عباده على أرض تليق بعظمته، ولأن الحكم فيه إنما يكون لله وحده، فناسب أن يكون المحل خالصًا له وحده". انتهى كلامه.

ب. الجمع بين قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٧، ٨] وبين ما جاء في الحديث: ((ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك)):

هاتان الآيتان يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسيرهما: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أي: سهلًا، بلا تعسير، أي: لا يَحَقَّق عليه جميع دقائق أعماله ؛ فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة، انتهى كلامه.

ويقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- في الجمع بين الآية والحديث: "يعني: أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكنه تعالى يعفو ويصفح". انتهى كلامه.

وقد ناقش الحافظ ابن حجر -رحمه الله- هذه المسألة أيضًا، فقال: "وجه المعارضة: أن لفظ الحديث عام في تعذيب كل من حوسب، ولفظ الآية دال على أن بعضهم لا يعذب، وطريق الجمع: أن المراد بالحساب في الآية العرض: وهو إبراز الأعمال وإظهارها، فيُعرَّف صاحبها بذنوبه ثم يُتجاوز عنه". انتهى كلامه.

وقال الإمام النووي -رحمه الله- في شرحه للحديث وبيانه لوجه الجمع بين الآية والحديث: معنى ((نوقش)): استُقصِيَ عليه، قال القاضي: وقوله: ((عُذِّب)) له معنيان:

أحدهما: أن نفس المنافسة، وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب؛ لما فيه من التوبيخ.

والثاني: أنه مفضٍ إلى العذاب بالنار، ويؤيده قوله في الرواية الأخرى: ((هلك)) مكان ((عُذِّب)) هذا كلام القاضي.

وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه: أن التقصير غالب في العباد؛ فمن استُقصِيَ عليه ولم يسامَح؛ هلك، ودخل النار؛ ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرط لمن يشاء". انتهى كلامه -رحمه الله.

ذكر الحوض والكوثر، ومجيء الله تعالى يوم القيامة لفصل القضاء

عناصر الدرس

ذكر الحوض والكوثر، وأدلة ثبوتهما

أ- ذكر الكوثر والحوض وصفتهما:

لقد ثبت أن الله ﷻ يكرم نبينا محمدًا ﷺ بكثير من الكرامات في كثير من المقامات والمواقف؛ فبالإضافة إلى رفع ذكره في الدنيا والآخرة -كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]- وتشريفه بالمقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون، وتكريمه بالشفاعة العظمى يوم القيامة كرمه الله في الموقف بإعطائه حوضًا واسع الأرجاء، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، وهذا الحوض اللذيذ العظيم القدر والشأن يأتيه هذا الماء الطيب من نهر في الجنة يسمى الكوثر، وهو أيضًا تشريف بعد تشريف لخاتم النبيين ﷺ.

فالكوثر نهر في الجنة يصب في الحوض الذي كرم الله به نبيه محمدًا ﷺ وشرفه به، وهذا الحوض ترد عليه أمة محمد ﷺ ويشرب منه المسلم، فلا يظمأ بعده أبدًا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وَفِي عَرْصَةِ الْقِيَامَةِ: الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنْ الْعَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا". انتهى كلامه.

وقال أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في شأن الكوثر: وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] تدل هذه الآية على عطية كثيرة صادرة عن معطٍ كبير، غني واسع، وأنه تعالى وملائكته وجنده معه... وحذف موصوف

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ ليكون أبلغ في العموم، لما فيه من عدم التعيين، وأتى بالصفة، أي: أنه ﷻ قال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ فوصفه بـ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾، و﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ المعروف إنما هو نهر في الجنة، كما قد وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة.

وقال ابن عباس: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ إنما هو من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، وإذا كان أقل أهل الجنة من له فيها مثل الدنيا عشر مرات، فما الظن بما لرسول الله ﷺ مما أعده الله له من الخيرات، واتصالها، وزيادتها، وسمو المنزلة وارتفاعها، وأن ذلك النهر -وهو ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾- أعظم أنهار الجنة، وأطيبها ماء، وأعذبها وأحلاها وأعلاها...

والمقصود أن ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ نهر في الجنة، وهو من الخير الكثير الذي أعطاه اللهُ رسولَه ﷺ في الدنيا والآخرة، وهذا غير ما يعطيه الله من الأجر الذي هو مثل أجور أمته إلى يوم القيامة". انتهى كلامه.

وقال الإمام الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته: "والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثًا لأمته حق"، ثم يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- في شرحه لـ(عقيدة الطحاوي): "الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيًّا... والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة، من نهر "الكوثر" الذي هو أشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحًا من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر، وفي بعض الأحاديث أنه كلما شرب منه فهو في زيادة واتساع، وأنه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ، وقضبان

الذهب، ويثمر ألوان الجواهر، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء، وقد ورد في أحاديث أن لكل نبي حوضًا، وأن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها، وأكثرها واردًا -جعلنا الله منهم بفضله وكرمه".انتهى كلامه.

وفي مقدار الحوض وتحديده يقول الشيخ السفاريني -رحمه الله-: "اختلفت الروايات في تحديد الحوض وتقديره اختلافًا كثيرًا؛ ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص } أنه: ((مسيرة شهر، وزواياه سواء))، وفي رواية عند الإمام أحمد: أن الحوض ((كما بين عدن وعمان))، وفي رواية في (الصحيحين): ((ما بين صنعاء والمدينة))، وفي رواية لهما أيضًا: ((ما بين المدينة وعمان))، وفي رواية: ((ما بين أيلة ومكة))، وعند ابن ماجه: ((ما بين أيلة وصنعاء اليمن))، وهو في (الصحيحين).

قال في (جامع الأصول) عن كون حوض النبي ﷺ: ((ما بين جنبيه كما بين جرباء وأذرح)). رواه البخاري ومسلم وأبو داود. وقال بعض الرواة: هما قريتان بالشام، بينهما مسيرة ثلاث ليالٍ، وفي لفظ: "ثلاثة أيام".

قال بعض العلماء: وهذا الاختلاف والاضطراب لا يوجب الضعف؛ لأنه من اختلاف التقدير والتحديد لا من الاختلاف في الرواية؛ لأن ذلك لم يقع في حديث واحد فيعد اضطرابًا، وإنما جاء في أحاديث مختلفة عن غير واحد من الصحابة، وقد سمعوه في مواطن متعددة، وكان النبي ﷺ يمثل لكل قوم الحوض بحسب ما يعلم المتكلم، ويفهم السائل وبحسب ما يسمح له ﷺ من العبارة ويحدد الحوض بحسب ما يفهم الحاضرون من الإشارة"، انتهى كلامه.

ب- تعيين موضع الحوض:

وقد اختلف أهل العلم في موضع الحوض، فذهب الغزالي والقرطبي -رحمهما الله تعالى- إلى أنه يكون قبل المرور على الصراط في عرصات القيامة، واستدلا

على ذلك بأنه يؤخذ بعض وارديه إلى النار، فلو كان بعد الصراط لما استطاعوا الوصول إليه، واستظهر الحافظ ابن حجر -رحمه الله- أن مذهب الإمام البخاري أن الحوض يكون بعد الصراط؛ لأن الإمام البخاري أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة وأحاديث نصب الصراط، وما ذهب إليه القرطبي والغزالي أرجح.

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-: "قال العلامة أبو عبد الله القرطبي -رحمه الله- في (التذكرة): "واختُلف في الميزان والحوض: أيهما يكون قبل الآخر؟ فقيل: الميزان، وقيل: الحوض؛ قال أبو الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل. قال القرطبي: والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشًا من قبورهم، كما تقدم، فيقدم قبل الميزان والصراط".

قال أبو حامد الغزالي في كتاب (كشف علوم الآخرة): "حكى بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد الصراط، وهو غلط من قائله". قال القرطبي: "هو كما قال". ثم قال القرطبي: "ولا يخطر ببالك أنه في هذه الأرض؛ بل في الأرض المبدلة، أرضٍ بيضاء كالفضة، لم يسفك فيها دم، ولم يظلم على ظهرها أحد قط، تظهر لنزول الجبار ﷻ لفصل القضاء... فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض، وأخلِقْ بهم أن يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر". انتهى كلامه.

وتكلم الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- على هذه المسألة فقال: "ظاهر هذا أن الحوض من وراء الجسر، فكأنهم لا يصلون إليه حتى يقطعوا الجسر، وقد روى البخاري: عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة؛ حتى إذا عرفتهم؛ خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم:

هلم، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى النار والله. قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم. فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم)).

قال: فهذا الحديث مع صحته أدل دليل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط؛ لأن الصراط إنما هو جسر ممدود على جهنم؛ فمن جازه سلم من النار.

قلت -والكلام للحكمي-: وليس بين أحاديث رسول الله ﷺ تعارض ولا تناقض، ولا اختلاف، وحديثه كله يصدق بعضه بعضًا، وأصحاب هذا القول إن أرادوا أن الحوض لا يُرى ولا يوصل إليه إلا بعد قطع الصراط؛ فحديث أبي هريرة هذا وغيره يرد قولهم، وإن أرادوا أن المؤمنين إذا جازوا الصراط وقطعوه بدا لهم الحوض، فشربوا منه فهذا يدل عليه حديث لقيط هذا، وهو لا يناقض كونه قبل الصراط، فإن قوله: ((طوله شهر وعرضه شهر)).... فإذا كان بهذا الطول والسعة، فما الذي يحيل امتداده إلى وراء الجسر، فيرده المؤمنون قبل الصراط وبعده، فهذا في حيز الإمكان، ووقوعه موقوف على خبر الصادق، والله أعلم.

وقوله: "والله على أظمأ ناهلة قط" الناهلة: العطاش، الواردون الماء، أي: يردونه أظمأ ما هم إليه، وهذا يناسب أن يكون بعد الصراط؛ فإنه جسر النار، وقد وردوها كلهم، فلما قطعوه اشتد ظمؤهم إلى الماء، فوردوا حوضه ﷺ كما وردوه في موقف القيامة"، انتهى كلامه.

وقال السفاريني -رحمه الله-: "ذهب بعض السلف إلى أن الحوض يورد بعض الصراط، وهو غلط من قائله، قال القرطبي: وهذا المعنى يقتضي تقديم الحوض على الصراط، فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشًا فناسب تقديمه لحاجة

الناس إليه، قال ابن عباس } : ((سئل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدي الله تعالى: هل فيه ماء؟ قال: إي، والذي نفسي بيده، إن فيه الماء، وإن أولياء الله ليردون إلى حياض الأنبياء -عليهم السلام)).

ورجح القاضي عياض أن الحوض بعد الصراط، وأن الشرب منه يقع بعد الحساب والنجاة من النار. وقال ابن حمدان في عقيدته: يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة، وبعد جواز الصراط.

وقال القرطبي في (التذكرة): "إن للنبي ﷺ حوضين: أحدهما: في الموقف قبل الصراط، والثاني: في الجنة، وكلاهما يسمى كوثرًا، و"الكوثر" في كلام العرب: الخير الكثير"، انتهى كلامه.

وبهذا يتضح أن الكوثر فُسِّر مرة بأنه: الخير الكثير، ومرة بأنه: نهر من أنهار الجنة يصب في الحوض الذي أعطيه محمد ﷺ تكرمة الله لنبيه ﷺ في ذلك اليوم العظيم، والموقف للحساب، وأن موضع الحوض، قيل: إنه في العرصات قبل الصراط، وقيل: إنه بعده، وقيل: إن للنبي ﷺ حوضين. والله تعالى أعلم.

جـ- أدلة ثبوت الكوثر والحوض ومن يرده ومن يزاد عنه:

أما الكوثر، فدليله من الكتاب والسنة:

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسيره: "أي الخير الكثير، والفضل الغزير الذي من جملته ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة من النهر الذي يقال له: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾، ومن الحوض طوله شهر وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته كنجوم السماء في كثرتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا". انتهى كلامه.

وأما دليل الكوثر من السنة: فقد بوَّب البخاري في صحيحه فقال: باب في الحوض، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ ثم أورد حديث ابن عباس { قال: "الكوثر: الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت: إن أناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه".

وأما دليل الحوض فمن السنة: وهي أحاديث كثيرة جدًّا، يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-: "الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيًّا، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير -تغمده الله برحمته- في آخر تاريخه الكبير المسمى بـ(البداية والنهاية) فمنها: ما رواه البخاري -رحمه الله تعالى-: عن أنس بن مالك > أن رسول الله ﷺ قال: ((إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء)) وعنه أيضًا: عن النبي ﷺ قال: ((ليردن علي ناس من أصحابي، حتى إذا عرفتهم اختُلجوا دوني، فأقول: أصحابي! فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك)) رواه مسلم.

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك قال: ((أُغفِي رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه مبتسمًا، إما قال لهم، وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه أنزلت علي آنفًا سورة، فقرأ: "بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ حتى ختمها، ثم قال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هو نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب إنه من أمتي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)) رواه مسلم، ولفظه: ((هو نهر

وعدنيه ربي، عليه خير كثير))، ((هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة))، والباقي مثله.

ومعنى ذلك: أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض والحوض في العرصات قبل الصراط؛ لأنه يختلج عنه، ويمنع أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط.

وروى البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله البجلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((أنا فرطكم على الحوض))، والفرط: الذي سبق إلى الماء، وروى البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: ((إني فرطكم على الحوض، مَن مر عليَّ شرب، ومَن شرب لم يظمأ أبدًا، ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم، فأقول: إنهم من أمتي؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُحقًا))، أي: بعدًا" انتهى كلامه.

وعن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن حوضي أبعد من أيلة - مدينة العقبة في الأردن- من عدن، لهو أشد بياضًا من الثلج وأحلى من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه، كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه، قالوا: يا رسول الله؛ أتعرفنا يومئذ؟ قال: نعم، لكم سيماء ليست لأحد من الأمم، تردون علي غرًّا محجلين من أثر الوضوء)) رواه مسلم.

وثبت بهذه الأحاديث أن كل مسلم متبع لسنة المصطفى ﷺ ولم يبدل ولم يبتدع؛ فهو من الواردين لحوض نبينا ﷺ وأما من بدل وابتدع وارتد -والعياذ بالله- فإنه يذاد ويُمنع من ورود حوض خاتم النبيين ﷺ الذي عرفنا صفته وطوله وعرضه وحلاوته وعذوبته.

يقول الشيخ السفاريني -رحمه الله- : "والحاصل أن من الذين يُذادون عن الحوض جنس المفترين على الله تعالى، وعلى رسوله ﷺ من المحدثين في الدين من الروافض والخوارج وسائر أصحاب الأهواء والبدع المضلة، وكذلك المسرفون من الظلمة المفرطون في الظلم والجوْر، وطمس الحق، كذاك المتهتكون في ارتكاب المناهي، والمعلنون في اقتراف المعاصي".

قال القرطبي: "قال علماؤنا: كل من ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به؛ فهو من المطرودين عن الحوض، وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين؛ كالخوارج والروافض والمعتزلة على اختلاف فرقهم، فهؤلاء كلهم مبدلون"، انتهى كلامه.

مجيء الله ﷻ يوم القيامة لفصل القضاء

من عقيدة أهل السنة والجماعة إثبات الصفات الواردة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تأويل ولا تعطيل، ومن ذلك أنه ﷻ ينزل ويأتي، ويجيء، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "أي: ليس كل ما أحببتم من الأموال وتنافستم فيه من اللذات بباقٍ لكم، بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم، تُدك فيه الأرض والجبال وما عليها، حتى تُجعل قاعًا صفصفًا، لا عوج فيه ولا أمت، ويجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، ويجيء الملائكة الكرام، أهل السموات كلهم، ﴿ صَفًّا صَفًّا ﴾، أي: صفًّا بعد صفٍّ، كل سماء يجيء ملائكتها صفًّا، يحيطون بمن

دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار، ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل". انتهى كلامه.

وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "يقول تعالى مهددًا للكافرين بمحمد ﷺ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ يعني: يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين؛ فيجزي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر: ٢١- ٢٣] وقال: ﴿ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] الآية.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر الطبري ها هنا حديث الصور بطوله... وفيه: ((أن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحدًا، واحدًا، من آدم، فمن بعده؛ فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ فإذا جاءوا إليه قال: أنا لها. فيذهب فيسجد لله تحت العرش، ويشفع عند الله في أن يأتيَ لفصل القضاء بين العباد، فيشفِّعه، ويأتي في ظلل من الغمام بعدما تنشق السماء الدنيا، وينزل من فيها من الملائكة، ثم الثانية، ثم الثالثة، إلى السابعة، وينزل حملة العرش والكروبيون، قال: وينزل الجبار ﷻ في ظلل الغمام والملائكة، ولهم زجل من تسبيحهم، يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبوح قدوس، رب الملائكة والروح، سبوح قدوس، سبحان ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطان والعظمة، سبحانه، سبحانه، سبحانه أبدًا، أبدًا)).

وقال ابن مردويه: يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، قيامًا، شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام، من العرش إلى الكرسي، وقال ابن أبي حاتم: يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب، منها النور، والظلمة، والماء، فيصوِّت الماء في تلك الظلمة صوتًا تنخلع له القلوب"، انتهى كلامه.

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله-: "وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتُنثر الكواكب، وتُكوَّر الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق، وينزل الباري -تبارك وتعالى-: في ظلل من الغمام؛ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل؛ فتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله؛ فهنالك يعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات الاختيارية؛ كالاستواء، والنزول، والمجيء ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف". انتهى كلامه.

وقال الشيخ محمد الجامي -رحمه الله- في كتاب: (الصفات الإلهية): "فإتيان الله تعالى يوم القيامة ثبت بآيات من الكتاب العزيز، وبأحاديث نبوية صحيحة تلقاها علماء السلف بالقبول، ونقلوها إلى من بعدهم كما فهموها -ثم ذكر الآيات في صفة المجيء فقال-: جاء في الكتاب عدة آيات تخبرنا عن مجيء الله يوم القيامة،

ليفصل بين عباده، وليحكم بينهم، ومن تلك ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله سبحانه: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله سبحانه: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]..

ومما يؤمن به أهل السنة والجماعة: أن الله تعالى يُحدِث من أمره ما شاء، ومما يُحدِثه في نهاية المطاف لهذه الدار أن يأمر الشمس أن تطلع من مغربها بدل مشرقها إعلانًا لنهاية هذه الحياة.. ثم إذا جمع الله الأولين والآخرين يأتي يوم القيامة ليحاسب عباده... فيأتي الرب تعالى فيعرفه المؤمنون بعلامته الخاصة فيسجدون له سبحانه سجود تعظيم وشكر في آنٍ واحد". انتهى كلامه.

ويتضح مما تقدم إثبات مجيء الله تعالى يوم القيامة لفصل القضاء ومحاسبة الخلق.

ذكر الميزان والصراط وجزاء الأعمال يوم القيامة

عناصر الدرس

الميـــزان ومـــا جـــاء فيـــه

أ- صفة الميزان وأدلته من الكتاب والسنة:

لقد دلت النصوص على أن الميزان الذي يضعه المولى ﷻ يوم القيامة لمحاسبة الخلائق ميزان حقيقي لا يقدر قدره إلا الله ﷻ فقد روى الحاكم عن سلمان > عن النبي ﷺ أنه قال: ((يوضع الميزان يوم القيامة؛ فلو وُزن فيه السموات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك)).

قال ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-: "ونؤمن بالميزان، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة؛ فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها، قال: وقوله: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يحتمل أن يكون ثَمَّ موازين متعددة توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن تكون الموزونات تُجمع باعتبار تنوُّع الأعمال الموزونة. والله أعلم.

والذي دلت عليه السنة أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان. روى الإمام أحمد من حديث أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول:

قال رسول الله ﷺ: ((إن الله سيخلص رجلًا على رءوس الخلائق يوم القيامة؛ فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا، يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا، يا رب. فيقول: بلى؛ إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فتُخرَج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقول: أحضروه. فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظلم. قال: فتوضع السجلات في كِفة، والبطاقة في كِفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء "بسم الله الرحمن الرحيم")).

وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه، وابن أبي الدنيا من حديث الليث، زاد الترمذي: ((ولا يثقل مع اسم الله شيء)) وفي سياق آخر: ((توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة...)) الحديث.

وفي هذا السياق فائدة جليلة: وهي أن العامل يوزن مع عمله.

يشهد له ما روى البخاري: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة. قال: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾)) [الكهف: ١٠٥] وروى الإمام أحمد: عن ابن مسعود >: "أنه كان يجني سواكًا من الأراك وكان دقيق الساقين؛ فجعلت الريح تكفؤه؛ فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: ((مم تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال والذي نفسي بيده، لهُما أثقل في الميزان من أُحُد)).

وقد وردت الأحاديث أيضًا بوزن الأعمال أنفسها، كما في (صحيح مسلم) عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: ((الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان)) وفي (الصحيح)، وهو خاتمة كتاب البخاري: قوله ﷺ:

((كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)).

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك > عن النبي ﷺ قال: ((يؤتى بابن آدم يوم القيامة، فيوقف بين كِفتي الميزان، ويؤكل به ملك، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق: سعِد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدًا، وإن خف ميزانه، نادى الملك بصوت يسمع الخلائق: شقِي فلان شقاوةً لا يسعد بعدها أبدًا)).

فلا يُلتَفت إلى ملحدٍ معاندٍ يقول: الأعمال أعراض، لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الأجسام -أي: وإنما يقبل الوزن الأجسام- فإن الله يقلب الأعراض أجسامًا كما تقدم، وكما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة > أن النبي ﷺ قال: ((يؤتى بالموت كبشًا أغثر -أي: لونه داكن يميل إلى الغبرة- فيوقف بين الجنة والنار؛ فيقال: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، ويرون أن قد جاء الفرج، فيُذبَح، ويقال: خلود لا موت)) ورواه البخاري بمعناه.

فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان، والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات" انتهى كلام ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله.

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن الميزان: هل هو عبارة عن العدل؟ أم له كفتان؟ فأجاب بقوله: "الميزان هو ما يوزن به الأعمال، وهو غير العدل، كما دل على ذلك الكتاب والسنة مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وفي (الصحيحين) عن النبي ﷺ أنه قال: ((كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)) وقال عن ساقي عبد الله بن مسعود: ((لهما في الميزان أثقل من أُحُد)) وفي الترمذي وغيره حديث البطاقة وصححه الترمذي، والحاكم وغيرهما في الرجل الذي يؤتى به: ((فينشر له تسعة وتسعون سجلًّا، كل سجل منهما مد البصر، فيوضع في كفة، ويؤتى له ببطاقة، فيها شهادة أن لا إله إلا الله، قال النبي ﷺ: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة)).

وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس؛ فهو ما به تبين العدل، والمقصود بالوزن: العدل، كموازين الدنيا. وأما كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أُخبرنا به من الغيب". انتهى كلامه.

وناقش الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- ما الذي يوزن في الميزان يوم القيامة؛ هل هو العمل أو العامل، أو الثواب؟ فقال: "والذي استُظهر من النصوص -والله أعلم- أن العامل وعمله وصحيفة عمله، كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكلٍّ من ذلك، ولا منافاة بينهما، ويدل لذلك ما رواه أحمد -رحمه الله تعالى- عن عبد الله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة؛ فهذا الحديث يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها -أي: صحيفة الحسنات- في كفة، وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، ولله الحمد والمنة".انتهى كلامه.

ب. الحكمة في وزن الأعمال:

لم يخلق الله ﷻ خلقه عبثًا، ولم يتركهم سدى، بل خلق الخلق لعبادته، وبيَّن لهم ذلك بشريعته التي بعث بها أنبياءه ورسله مبشرين ومنذرين، لئلا يكون

للناس على الله حجة بعد الرسل، ولتقوم الحج على الناس وليتم الإعذار إليهم، ولا أحد أعذر من الله، لكن كثيرًا من الحكم الإلهية في كثير من الأوامر والنواهي الشرعية قد يطلع الله عليها عباده، وقد لا يظهرها لهم فتخفى عليهم، وليس في خفاء الحكمة التشريعية دليل على عدم وجودها أصلًا، فمن الله الأمر، وعلى الرسل البلاغ، وعلينا التسليم.

فلذلك نحن قد لا نعلم الحكم والأسرار الإلهية في وزن الأعمال يوم القيامة؛ لأن عقولنا قاصرة عن إدراك الحِكَم الإلهية، في جميع التشريعات الربانية؛ لكننا يمكن أن نفهم أن في وزن الأعمال عند محاسبة الخلق يوم القيامة إظهارًا لعدل الله تعالى في ذلك اليوم الذي تُبدَّل فيه الأرض بأرض غير الأرض التي سُفكت عليها الدماء ووقع على ظهرها ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وفي ذلك اليوم يتم الإعلان من رب العزة والجلال بأنه: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧] وفي ذلك من الطمأنينة للعاملين ما لا يخفى.

فإذا كان مثقال ذرة من عمل الخير لا يضيع، بل يوزن ويحسب لصاحبه، ومثقال ذرة من الشر كذلك؛ ففي هذا تعريف الله سبحانه وتعالى لعباده ما لهم عنده من الجزاء على الخير أو الشر، وفي ذلك إقامة الحجة على عاملي الشر في الدنيا؛ فإنهم قد عرَّفتهم الرسل عن طريق الوحي أن الأعمال محاسب عليها، وأن الخير والشر سوف يوزنان، وعاقبة الخير لمن رجحت كفة حسناته على كفة سيئاته.

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله تعالى-: "ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة، كما أخبر الشارع؛ لخفاء الحكمة عليه، ويقدح في النصوص بقوله: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقَّال والفوَّال وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنًا، ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين؛ فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطِّلاع

لنا عليه؟! فتأمل قول الملائكة كما قال الله لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]" انتهى كلامه.

وتحدث الشيخ السفاريني -رحمه الله- عن الحكمة في وزن الأعمال فقال: "فإن قيل: ما الحكمة في الوزن مع أن الله عالم بكل شيء؛ فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟ أجاب الثعلبي: بأن الحكمة في ذلك: تعريف الله عبيده ما لهم عنده من الجزاء من خير أو شر.

وقال العلامة الشيخ: بل الحكمة فيه: إظهار العدل، وبيان الفضل؛ حيث إنه يزن مثاقيل الذر من خير أو شر، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾" انتهى كلامه.

الصراط وما جاء فيه

أ- الصراط وصفته:

المراد بالصراط لغةً: الطريق، قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط ❖ إذا اعوجَّ الموارد مستقيم

وفي الشرع: هو جسر ممدود على متن جهنم، يرده الأولون والآخرون؛ فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار، وخُلق من حين خلقت جهنم.

يقول السفاريني -رحمه الله-: "قال القرطبي في تذكرته: اعلم -رحمك الله تعالى- أن في الآخرة صراطين: أحدهما: مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم

وخفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب، وإلا من يلتقطه عنق من النار -عنق: أي جزء- فإذا خلُص من خلُص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه، ولا يخلص عنه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم، حبسوا على صراط خاص لهم، ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد -إن شاء الله تعالى- لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم التي يسقط فيها من أوبقته ذنوبه وزاد على الحساب جرمه وعيوبه.

قال الحافظ ابن حجر: "قوله: يخلص المؤمنون من النار، أي: ينجون من السقوط فيها بمجاوزة الصراط فيها، قال: واختُلِف في القنطرة المذكورة فقيل: إنها من تتمة الصراط، وهي طرفه الذي يلي الجنة، وقيل: إنها صراط آخر، وبه جزم القرطبي.

قال العلماء: الصراط أدقُّ من الشعرة، وأحدُّ من السيف، وأحمى من الجمرة، فقد أخرج الطبراني بإسناد حسن: عن عبد الله بن مسعود > قال: "يوضع الصراط على سواء جهنم مثل حد السيف المرهف مدحضه -أي: مزلقة- أي: لا يثبت عليه قدم؛ بل تزل عنه، إلا من يثبته الله تعالى، وعليه كلاليب من نار تخطف أهلها؛ فتمسك بهواديها ويستبقون عليه بأعمالهم، فمنهم من شدُّه كالبرق -أي: مشيه وسرعته- فذاك الذي لا ينشب أن ينجو، ومنهم من شده كالريح، ومنهم من شده كالفرس الجواد، ومنهم من شده كهرولة الرجل، ثم كرمَل الرجل -أي: مشيه وسرعته- ثم كمشي الرجل، وآخر من يدخل الجنة رجل قد لوحته النار، فيقول الله له: سلْ وتمنَّ. فإذا فرغ قال: لك ما سألت ومثله معه".

وأخرج ابن منيع في مسنده عن أبي هريرة > مرفوعًا: ((الصراط كحد السيف، دحض، مزلة، ذا حسك وكلاليب)).

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة < قالت: قال رسول الله ﷺ: ((لجهنم بسرادق من الشعر، وأحدُّ من السيف عليه كلاليب وحسك، تأخذ من شاء الله، والناس عليه كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: رب سلم، سلم؛ فناج مسلَّم، ومخدوش مسلَّم، ومكوَّر في النار على وجهه)).

وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: "بلغني أن الجسر أدق من الشعر، وأحدُّ من السيف"، وأخرج ابن ماجه عن أبي سعيد أيضًا: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((وُضِع الصراط بين ظهراني جهنم، عليه حسك كحسك السعدان -نوع من الشجر- ثم يستجيز الناس؛ فناجٍ مسلم، ومخدوش به، ثم ناجٍ ومحتبس به، ومنكوس فيها)).

وأخرج البيهقي عن أنس < : سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((الصراط كحد السيف، وإن الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات، وإن جبريل لآخذ بحجزتي وإني لأقول: يا رب سلم سلم، فالزالون، والزالات يومئذ كثير))، وأخرج ابن عساكر عن الفضيل بن عياض -رحمه الله تعالى- قال: "بلغنا أن الصراط مسيرة خمسة عشر ألف سنة: خمسة آلاف صعود، وخمسة آلاف هبوط، وخمسة آلاف مستوي، أدق من الشعرة، وأحدُّ من السيف على متن جهنم، لا يجوز عليه إلا ضامر مهزول من خشية الله تعالى".

وفي بعض الآثار: "أن طول الصراط مسيرة ثلاثة آلاف سنة: ألف منها صعود، وألف منها هبوط، وألف منها استواء"، وفي بعض الروايات: "أن جبريل في أوله، وميكائيل في وسطه، يسألون الناس عن عمرهم فيما أفنوه، وعن شبابهم فيما أبلوه، وعن علمهم ماذا عملوا به". وفي بعض الآثار: "أن فيه سبع قناطر، يُسأل كل عبد عند كل قنطرة منها عن أنواع من التكليف".

قلت -والكلام للسفاريني- : وقد ذكر القرطبي في تذكرته عن بعض أهل العلم أنه قال : "لن يجوز أحد الصراط حتى يُسأل عن سبع قناطر :

- فأما القنطرة الأولى فيُسأل عن الإيمان بالله : وهي شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها مخلصًا -والإخلاص قول وعمل- جاز.

-ثم يُسأل في القنطرة الثانية عن الصلاة ؛ فإن جاء بها تامة جاز.

-ثم يُسأل في القنطرة الثالثة عن صوم رمضان ؛ فإن جاء به تامًّا جاز.

- ثم يُسأل في الرابعة عن الزكاة ؛ فإن جاء بها تامة جاز.

- ثم يُسأل في الخامسة عن الحج والعمرة ، فإن جاء بهما تامَّين جاز إلى القنطرة السادسة.

- فيُسأل عن الغسل والوضوء ؛ فإن جاء بهما تامين جاز إلى السابعة.

- وليس في القناطر أصعب منها ، فيُسأل فيها عن ظُلامات الناس وتهمات الخلق".

وجاء في الحديث الشريف أنه : ((إذا صار الناس على طرف الصراط ؛ نادى ملك من تحت العرش : يا فطرة الملك الجبار ، جوزوا على الصراط ، وليقف كل عاصٍ منكم وظالم)).

وأخرج الحاكم وصححه والطبراني عن أم الدرداء قالت : "قلت لأبي الدرداء : ألا تبتغي لأضيافك ما تبتغي الرجال لأضيافهم؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((إن أمامكم عقبة كئودًا لا يجوزها المثقلون ؛ فأحب أن أتخفف لتلك العقبة)).

وأخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ((إن خليلي ﷺ عهد إليَّ : أن دون جسر جهنم طريقًا ذا دحض ومزلة ، وأنَّا إن نأتِ عليه وفي أحمالنا اقتدار واصطبار أحرى أن ننجو من أن نأتي عليه ونحن مواقير -أي : مثقلون)). انتهى كلامه.

ب- معنى الورود في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾:

ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بورود النار المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١] هو دخول النار، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وكان يستدل على ذلك بقول الله تعالى في فرعون: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ [هود: ٩٨] وبقوله: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٦] وقوله: ﴿ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ [الأنبياء: ٩٩].

وروى مسلم الأعور عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: داخلها.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالورود هنا: المرور على الصراط، وليس دخول النار.

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-: "واختلف في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ما هو؟ والأظهر والأقوى: أنه المرور على الصراط؛ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢] وفي (الصحيح) أنه ﷺ قال: ((والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحدٌ بايع تحت الشجرة. قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾؟ فقال: ألم تسمعيه قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾)).

أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه، ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ [هود: ٥٨]، ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا ﴾ [هود: ٦٦]، ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ [هود: ٩٤]، ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك.

وكذلك حال الوارد في النار يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًّا؛ فقد بيَّن ﷺ في حديث جابر المذكور أن الورود هو الورود على الصراط، وروى الحافظ أبو نصر الوائلي عن أبي هريرة > قال: قال ﷺ: ((علِّمْ الناس سنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت أن لا تُوقَف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدثن في دين الله حدثًا برأيك)) أورده القرطبي.

وروى أبو بكر بن أحمد بن سليمان النجار عن يعلى بن منية عن رسول الله ﷺ قال: ((تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جُز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي))" انتهى كلامه.

وهذا الذي ذهب إليه ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- هو المذهب الحق، وهو رأي شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- حيث يقول: "وأما الورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فقد فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح، رواه مسلم في صحيحه عن جابر: بأنه المرور على الصراط، والصراط هو الجسر؛ فلا بد من المرور عليه لكل من يدخل الجنة، من كان صغيرًا عن الدنيا ومن لم يكن". انتهى كلامه.

ورجح الدكتور عمر الأشقر أن الورود وردان؛ فقال: "والحق أن الورود على النار وردان:

- ورود الكفار -أهل النار- فهذا ورود دخول لا شك في ذلك، كما قال تعالى في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود: ٩٨]، أي: بئس المدخل المدخول.

والورود الثاني: ورود الموحدين، أي: مرورهم على الصراط على النحو المذكور في الأحاديث". انتهى كلامه.

الشفاعة وأدلتها وأنواعها، ووجود الجنة والنار، ودوامهما والرد على المخالفين

عناصر الدرس

أدلة ثبوت الشفاعة وأقسامُها، وشروطُها

أ. أحاديث الشفاعة وشروطها:

الشفاعة لغة: الانضمام إلى آخر من أجل نصرته، فالشفاعة تدل على ضم شيئين ومقارنتهما، واشتقاقها -أي: الشفاعة- من الشفع الذي هو ضد الوتر.

وأما الشفاعة اصطلاحًا: فهي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

والشفاعة تنقسم إلى قسمين:

- شفاعة مثبتة: وهي التي أثبتها القرآن الكريم والسنة المطهرة.

- وشفاعة منفية: وهي التي يثبتها الكفار والمشركون وأهل البدع للشفعاء الذين لا يملكون الشفاعة؛ كاستشفاع المشركين بأصنامهم، واستشفاع أهل البدع بمتبوعيهم.

فالشفاعة المثبتة: هي التي ثبتت للنبي ﷺ يوم القيامة، ولغيره كذلك، في كثير من الأحاديث النبوية الثابتة الصحيحة.

فمن ذلك: حديث الشفاعة العظمى، وملخصه: أن الأمم يوم القيامة تفزع إلى الأنبياء تطلب منهم الشفاعة عند الله تعالى ليقضي بينهم، ويريحَهم من مقامهم ذلك؛ بسبب شدة الكرب والضيق الذي يصيب الخلائق؛ فتفزع إلى آدم فيعتذر عنها، ثم إلى نوح فيعتذر ثم إلى إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى -عليهم الصلاة والسلام- حتى ينتهي الأمر إلى خاتم النبيين محمد ﷺ فيقول: ((أنا لها)).

ففي (الصحيحين) من حديث أبي هريرة > ، وفيه أن النبي ﷺ يقول: ((فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سلْ تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يا رب، أمتي، أمتي. فيقال: يا محمد، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة)).

قال القرطبي -رحمه الله- مبينًا وجه الاستدلال بهذا الحديث على الشفاعة: "وقوله: ((فيقال: يا محمد، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه)) يدل على أنه شفع فيما طلب من تعجيل حساب أهل الموقف، فإنه لما أمر بإدخال من لا حساب عليه من أمته؛ فقد شُرع في حساب من عليه حساب من أمته وغيرهم". انتهى كلامه.

ومن أحاديث الشفاعة: قوله ﷺ: ((أنا أول شفيع في الجنة، لم يصَدَّق نبي من الأنبياء ما صُدِّقتُ، وإن من الأنبياء نبيًّا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد)) رواه مسلم، وقال ﷺ: ((آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك)) رواه مسلم.

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي سعيد الخدري > أن رسول الله ﷺ ذُكِر عنده عمه أبو طالب فقال: ((لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه)).

وروى البخاري في صحيحه من حديث عمران بن حصين { : أن النبي ﷺ قال: ((يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة، يسمَّون الجهنميين)).

وعن أنس بن مالك > أن النبي ﷺ قال: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)) رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه، وصححه الشيخ الألباني.

وأما عن شروط الشفاعة المثبَتة؛ فإن أهل العلم استنبطوا من آيات الشفاعة وأحاديثها شروطًا، وهذه الشروط، هي:

١. كون المشفوع من أهل التوحيد.
٢. رضا الله تعالى عن المشفوع له، ولا يرضى الله إلا عن أهل التوحيد.
٣. إذن الله تعالى للشافع في الشفاعة.
٤. ومن أهل العلم من يزيد شرطًا رابعًا: وهو: قدرة الشافع على الشفاعة.

وبعد أن قرر العلامة ابن القيم -رحمه الله- شروط الشفاعةوأطلق عليها أصول الشفاعة؛ فقال: "فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها، لا شفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله ﷺ". انتهى كلامه.

والدليل على هذه الشروط من الكتاب العزيز: قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩] وقوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦].

وقد قرر أهل العلم -رحمهم الله تعالى- هذه الشروط وتوسعوا في إيراد الأدلة عليها من الكتاب والسنة؛ فلتراجعها في مواضعها.

ب. أقسام الشفاعة وأنواعها، وأنواع الشفعاء:

لقد قدمنا جملة من أحاديث الشفاعة الثابتة عند أهل السنة والجماعة، ويحسن بنا أن نذكر أنواع الشفاعة أخذًا من تلك الأحاديث السابقة:

فالشفاعة نوعان في الأصل:

أ. شفاعة خاصة بنبينا محمد ﷺ.

ب. وشفاعة مشتركة يشارك فيها غيره من الشفعاء ﷺ وفيما يلي بيان لتلك الشفاعات:

أولًا: الشفاعة العظمى: وهذه خاصة بنبي الرحمة ﷺ وهي المشار إليها "بالمقام المحمود" في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

والدليل على هذه الشفاعة: ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر } أنه قال: ((إن الناس يصيرون يوم القيامة جثًا -أي: جماعات- كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود)).

وقد قدمنا في أحاديث الشفاعة أيضًا ملخصًا لهذه الشفاعة، وهي: أن الناس يأتون آدم # فيطلبون منه الشفاعة فيعتذر، ثم يتقدمون إلى نوح فيعتذر، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى كل نبي ينتهوا إلى عيسى آخر الأنبياء قبل محمد ﷺ فيعتذر ويحيلهم إلى خاتم النبيين ﷺ فيأتون المصطفى ﷺ فيطلبون الشفاعة فيقول: ((أنا لها)).

ثانيًا: الشفاعة في استفتاح باب الجنة لأهلها:

فقد ورد في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ هو أول من يشفع لأهل الجنة في دخولها، وقد تقدم في أحاديث الشفاعة الحديث الصحيح في هذا النوع من الشفاعة. وهو: ((أن النبي ﷺ يدق باب الجنة ويستفتح فيقال: من أنت؟ فيقول: أنا محمد. فيقول له الخازن: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك)) فيفتح له الباب ﷺ.

ثالثًا: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه:

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ لعمه أبي طالب، ودليلها: ما جاء في (الصحيحين): عن العباس بن عبد المطلب < قال: ((يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحفظك ويغضب لك؟ قال: "نعم، هو في ضحضاح - والضحضاح: ما رق من الماء على وجه الأرض، واستعير للنار، أي: الخفيفة- ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)).

رابعًا: الشفاعة في رفع درجات أقوام من أهل الجنة:

ودليلها: ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة < : ((أن النبي ﷺ دعا لأبي سلمة لما توفي فقال: اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين أي: الباقين- واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه)).

خامسًا: الشفاعة في دخول الجنة بلا حساب:

ودليل هذه الشفاعة: قوله ﷺ لعكاشة بن محصن: ((اللهم اجعله منهم)). وذلك لما ذكر النبي ﷺ أن من أمته سبعين ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب يدخلون الجنة؛ فقال عكاشة للنبي ﷺ: "ادع الله أن يجعلني منهم"، فقال النبي ﷺ: ((أنت منهم)). فقام إليه رجل آخر، فقال: "ادع الله أن يجعلني منهم"، فقال: ((سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ)) رواه البخاري ومسلم.

سادسًا: الشفاعة لأهل الكبائر:

المراد بأهل الكبائر: العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بسبب ذنوبهم، فيشفع فيهم الرسول ﷺ لإخراجهم من النار بعد دخولها، ودليلها ما سبق في الأحاديث وهو قوله ﷺ: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)).

سابعًا: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة:

ففي (صحيح مسلم) عن أنس > أن النبي ﷺ قال: ((أنا أول شفيع في الجنة)).

ثامنًا: شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم:

فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أُمِر بهم إلى النار؛ فلا يدخلونها.

وقد ثبت في نصوص الشرع أن هناك شفعاءً يشفعون أيضًا، ويأذن الله تعالى لهم في الشفاعة، وهم: الملائكة، والأنبياء، والمؤمنون؛ قال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: ((شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين)).

كما ثبت أن الشهيد يشفع لأهله، قال ﷺ: ((يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته)) أخرجه أبو داود في سننه، وصححه الشيخ الألباني في (صحيح الجامع الصغير).

كما ثبت أن أولاد المؤمنين إذا ماتوا صغارًا قبل الحُلُم يكونون شفعاء لوالديهم حتى يدخلوا الجنة جميعًا.

كما ثبت أن القرآن والصيام يشفعان للمؤمن يوم القيامة؛ كما ثبت في الحديث الصحيح: قوله ﷺ: ((الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة)) أخرجه الإمام أحمد في (المسند) والحاكم في (المستدرك) وصححه، ووافقه الذهبي وصححه الشيخ الألباني.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن شفاعة غير النبي ﷺ ممن ذكرنا تكون مشتركة مع النبي ﷺ في ثلاث شفاعات وهي:

أ. الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها.

ب. الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها.

ج. الشفاعة في رفع درجات المؤمنين في الجنة.

فهذه الشفاعات ليست خاصة بالنبي ﷺ بل تكون للملائكة والنبيين والصديقين وغيرهم من المؤمنين والصالحين، حتى يشفع الرجل في أهله، وفي جيرانه وفيما أشبه ذلك.

أدلة وجود الجنة والنار ودوامها، والرد على المخالفين

أ. الأدلة على خلق الجنة والنار وأنهما موجودتان الآن:

يعتقد أهل السنة والجماعة أن الله ﷻ خلق الجنة والنار، كغيرهما من المخلوقات، وأنهما موجودتان الآن معدتان لسكانهما، وأن النبي ﷺ قد أطلعه الله عليهما في بعض المقامات؛ ولهذا قال الإمام الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته: "والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لهما أهلًا، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلًا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلًا منه، وكلٌّ يعمل لما قد فُرِّغ له، وصائر إلى ما خُلق له، والخير والشر مقدَّران على العباد".

ثم شرع الشيخ ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- في شرحه لعقيدة الطحاوي فقال: "أما قوله: إن الجنة والنار مخلوقتان: فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار

مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل على ذلك أهل السنة حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة. وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذين وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا، وقاسوه على خلقه في أفعالهم؛ فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث؛ لأنها تصير معطلة مددًا متطاولة؛ فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضلّلوا وبدّعوا مَن خالف شريعتهم.

فمن نصوص الكتاب: قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وعن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣-١٥].

وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى، كما في (الصحيحين) في حديث أنس > في قصة الإسراء، وفي آخره: ((ثم انطلق بي جبرائيل حتى أتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي. قال: ثم دخلت الجنة، فإذا هي جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك)).

وفي (الصحيحين) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: ((إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي؛ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة؛ وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)). وتقدم حديث البراء بن عازب وفيه: ((ينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحها وطيبها)).

وفي (صحيح مسلم) عن عائشة < قالت: "خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ..." فذكرت الحديث وفيه: ((وقال رسول الله ﷺ: رأيت في مقامي هذا كل شيء وُعِدتم به، حتى لقد رأيتني آخذ قطفًا من الجنة، حين رأيتموني تقدمت، ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضًا حين رأيتموني تأخرت)).

وفي (الصحيحين) -واللفظ للبخاري- عن عبد الله بن عباس قال: "انخفست الشمس على عهد رسول الله ﷺ..." فذكر الحديث، وفيه: ((فقالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئًا في مقامك، ثم رأيناك تكعكعت فرجعنا فقال: إني رأيت الجنة، وتناولت عنقودًا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار، فلم أرَ منظرًا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهل النار النساء، قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال: بكفرهن، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان؛ لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت خيرًا قط)).

وفي (صحيح مسلم) من حديث أنس: ((وايم الذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا. قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت الجنة والنار)).

وفي (الموطأ) و(السنن) من حديث كعب بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة))، وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

وفي (صحيح مسلم) و(السنن) و(المسند) من حديث أبي هريرة < أن رسول الله ﷺ قال: ((لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبرائيل إلى الجنة؛ فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعدت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها

فيها، فرجع فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها؛ فأمر بالجنة فحُفت بالمكاره؛ فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعدت لأهلها فيها. قال: فنظر إليها، ثم رجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد. قال: ثم أرسله إلى النار فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها؛ فإذا هي يركب بعضها بعضًا، ثم رجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فحُفت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها. فذهب فنظر إليها فرجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها)) قال ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- بعد ذلك: ونظائر ذلك في السنة كثيرة" انتهى كلامه.

وقال العلامة ابن القيم -رحمه الله- في أول باب من كتابه (حادي الأرواح): "لم يزل أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وتابعوهم، وأهل السنة والحديث قاطبة، وفقهاء الإسلام، وأهل التصوف والزهد، على اعتقاد ذلك -أي: وجود الجنة وأنهما مخلوقتان الآن- وإثباته مستندين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسنة، وما عُلِم بالضرورة من أخبار الرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم؛ فإنهم دعوا الأمم إليها وأخبروا بها إلى أن نبغت نابعة من القدرية والمعتزلة؛ فأنكرت أن تكون مخلوقة الآن. ولهذا يذكر السلف في عقائدهم: أن الجنة والنار مخلوقتان، ويذكر من صنف في المقالات: أن هذه مقالة أهل السنة والحديث قاطبة، لا يختلفون فيها". انتهى كلامه.

ب. دوام الجنة والنار وبقاؤهما بإبقاء الله تعالى لهما، والرد على المخالفين لذلك:

مذهب أهل السنة والجماعة: أن الجنة والنار خلقتا لجزاء الخلق، فالطائعون إلى الجنة والكافرون إلى النار، وأنهما باقيتان مؤبدتان لا تفنيان، يقول ابن أبي العز

الحنفي -رحمه الله- وهو يشرح قول الإمام الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته: "وقوله: لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان. هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف، وقال ببقاء الجنة، وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها.

وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان، إمام العطلة وليس له سلف قط، لا من الصحابة ولا من التابعين، ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين ولا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة وكفّروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض، وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده وهو امتناع وجوه ما لا يتناهى من الحوادث، وأبو الهذيل العلّاف -شيخ المعتزلة- وافقه على هذا الأصل، لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال: بفناء حركات أهل الجنة والنار، حتى يصيروا في سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة؛ فهذا القول تصوره كافٍ في الجزم بفساده.

فأما أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد؛ فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨] أي: غير مقطوع، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾.

واختلف السلف في هذا الاستثناء، فقيل: معناه: إلا مدة مكثهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار، ثم أُخرج منها، لا لكلهم. وقيل: إلا مدة مقامهم في الموقف. وقيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف، وقيل: هو استثناء الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك. وأنت لا تراه، بل تجزم بضربه. وقيل: ﴿ إِلَّا ﴾ بمعنى الواو، وهذا على قول بعض

النحاة، وهو ضعيف، ومنهم من يجعل ﴿إِلَّا﴾ بمعنى "لكن"؛ فيكون الاستثناء منقطعًا، ورجحه ابن جرير، وقال: إن الله تعالى لا خلف لوعده، وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ قالوا: ونظيره أن تقول: أسكنتك داري حولًا إلا ما شئت، أي: سوى ما شئت، أو لكن ما شئت من الزيادة عليه.

وقيل: الاستثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم في مشيئة الله؛ لأنهم لا يخرجون عن مشيئته، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦].

وقيل: إن ﴿مَا﴾ بمعنى "من" أي: إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء، وقيلغير ذلك.

وعلى كل تقدير؛ فهذا الاستثناء المتشابهوقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ محكم، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وقد أكد الله ﷻ خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود؛ كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وذاك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة جدًّا؛ كقوله ﷺ: ((مَن دخل الجنة ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت)) وقوله: ((ينادي منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وأن تحيوا فلا

تموتوا أبدًا))، وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار، ((ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت)) وأما أبدية النار ودوامها؛ فللناس في ذلك ثمانية أقوال:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها، ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة نارية يتلذذون بها. وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي.

الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها أقوام آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ.

الرابع: يخرجون منها، وتبقى على حالها ليس فيها أحد.

الخامس: أنها تفنى بنفسها؛ لأنها حادثة، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه، وهذا قول الجهم وشيعته.

السادس: تفنى حركات أهلها، ويصيرون جمادًا لا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلّاف، كما تقدم.

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئًا، ثم يفنيها.

الثامن: أن الله تعالى يُخرج منها من يشاء كما ورد السنة، ويُبقي فيها الكفار بقاء لا انقضاء له. ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها: قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [البينة: ٨]، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]،

﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٢٦]، ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥] أي: مقيمًا لازمًا.

وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منهم لكانوا بمنزلتهم ولم يختص الخروج بأهل الإيمان، وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما؛ بل إبقاء الله تعالى لهما.

هذا والله أعلم. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المراجع العامة

١. (عالم الملائكة الأبرار)

عمر سليمان الأشقر، الأردن، دار النفائس للنشر، ٢٠٠٢م.

٢. (شرح العقيدة الطحاوية)

علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ.

٣. (لوامع الأنوار البهية)

محمد بن أحمد السفاريني، المكتب الإسلامي، ١٩٩١م.

٤. (الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد)

صالح بن فوزان الفوزان، دار ابن خزيمة، ١٩٩٩م.

٥. (الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة)

عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، دار طيبة، ١٤٠٨هـ.

٦. (حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته)

محمد بن خليفة التميمي، الرياض، أضواء السلف، ١٩٩٧م.

٧. (الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى)

محمد ربيع المدخلي، دار ومكتبة لينة، ١٤٠٩هـ.

٨. (الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة والنار)

غالب بن علي العواجي، دار ومكتبة لينة، ١٤١٧هـ.

٩. (**الرسل والرسالات**)

عمر سليمان الأشقر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٥م.

١٠. (**شفاء العليل**)

محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨م.

١١. (**الصارم المسلول على شاتم الرسول**)

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار ابن حزم، ١٩٩٧م.

١٢. (**القضاء والقدر في الإسلام**)

فاروق أحمد الدسوقي، المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ.

١٣. (**القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه**)

عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار الوطن، ١٩٩٧م.

١٤. (**معارج القبول**)

الشيخ العلامة حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، دار الكتب العليمة، ٢٠٠٤م.

١٥. (**معتقد فرق المسلمين واليهود والنصارى والفلاسفة والوثنيين في الملائكة المقربين**)

محمد بن عبد الوهاب العقيل، أضواء السلف، ١٩٩٩م.

١٦. (**منهاج السنة النبوية**)

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار الفضيلة للنشر، ٢٠٠٣.

١٧. (**النبوات**)

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار الكتب العربي، ٢٠٠٥م.

١٨. (اليوم الآخر: القيامة الصغرى والكبرى والجنَّة والنَّار)

عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤ م.

١٩. (مسألة القضاء والقدر: نشأتها لدى الفلاسفة والمتكلمين)

عبد الحليم محمد قنبس، دمشق، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.

٢٠. (مشيئة الله ومشيئة العباد)

عبد الكريم الخطيب، الرياض، دار اللواء للنشر والتوزيع، ١٩٨٠م.

